

سمير فراج
ابن الشاطئ

حريم السلطان

من عصر الجوارى إلى عصر الهوانم
ومن الدراما التاريخية إلى الدراما التلفزيونية
وقصة اليهودية روكسلانا (هويام)

حَرِيمُ السُّلْطَانِ

من عصر الجولاري إلى عصر الهولانم

اسم الكتاب: حريم السلطان .. من عصر الجوارح إلى عصر الهوانم
تأليف: سمير فراج «ابن الشاطي»
المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبدالرؤف سعد
تصميم الغلاف: قسم الجرافيك بدار الكتاب العربي
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٣ / ٣٣٩٥
الترقيم الدولي: 978-977-376-798-4

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربي - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٧٠
دمشق: مكتبة رياض العلي - خلف البريد - ت: ٢٢٣٦٧٢٨
مكتبة النوري - أمام البريد - ت: ٢٢١٠٣١٤
مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: ٢٢٢٨٢٢٢
مكتبة الفستال - فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦
- فرع ثاني - ت: ٢٢٢٢٣٧٣

حقوق الطبع
محفوظة

تحذير:

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتاب العربي للنشر وغير
مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أي جزء منه أو
تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية أو نقله
بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أي نحو بدون
أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.



الطبعة الأولى

٢٠١٣

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي تلفاكس: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٣٤٨٢٥
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبدالحال ثروت - شقة ١١ تلفون: ٢٣٩١٦١٢٢ - فاكس: ٢٣٩٣٣٦٧١
لبنان - تلفون: ٢٤١٢٢٤١ / ٠٣ - ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ - ص.ب ٣٠٤٣ الشويفات
darelkitab@yahoo.com - daralwalid@yahoo.com - info@darelkitab.com
www.darelkitab.com http://www.facebook.com/groups/darelkitab
http://twitter.com/darelkitab YouTube http://www.youtube.com/darelkitab

سمير فراج
«ابنُ الشاطي»

حريم السلطان

من عصر الجوّاري إلى عصر الهوانم
ومن الدراما التاريخية إلى الدراما التلفزيونية

اليهودية الروسية روكسلانا «هويام»
خاتنة الإمبراطورية العثمانية

تفاصيل مثيرّة



تطلب إصدارنا ومنشوراتنا من دور النشر والمكتبات التالية

البلد	أسماء المكتبات
مصر	دار الكتاب العربي ٥٢ شارع عبدالحالقي ثروت/ القاهرة - مكتبات دار الشروق - مكتبات ديوان شركة الشرق للمكتبات - مكتبات مؤسسة الأهرام - مكتبات أخبار اليوم - مكتبة منشأة المعارف الإسكندرية
ليبيا	طرابلس المكتبة العلمية - المكتبة العربية - دار الوليد - دار الجيل - دار المعرفة - مكتبة ١٧ فبراير بنغازي - مكتبة الشعب مصراته
تونس	إداريات ومعارف سوسة - شركة كتبكم تونس - المركز التونسي للكتاب - دار المعرفة - مكتبة تونس - دار الجيل
الجزائر	مكتبة العزة والكرامة وهران - مكتبات العزة والكرامة بالعمامة الجزائر وكافة فروعها
المغرب	الدار العالمية - دار الإنماء الثقافي - دار الثقافة - دار الأمان - مكتبة الألفية الثالثة - وراقلة المبادرة - دار إحياء العلوم الزاهرة - الناشر الأطلسي - وراقلة الجنوب - مكتبة فرنسا - مكتبة باريس
السعودية	مكتبات جرير - مكتبات العيكان - مكتبات تهامة - مكتبة الرشد - دار الوراق - مكتبة الشواف - المتنبى الدمام - كنوز المعرفة جدة - روائع المعرفة جدة
الإمارات	مكتبة الجامعة أبو ظبي - مكتبة زين المعاني دبي - مكتبات دبي - المكتبة التجارية - العين - مكتبات جرير
الكويت	مكتبات ذات السلاسل - دار الفكر الحديث - مكتبة المعجري - مكتبة الرسالة - الشركة المتحدة لتوزيع الصحف - مكتبات جرير
عمان	مسقط: مكتبات جرير - أحمد ناصيف 0096892339307
البحرين	المكتبة الوطنية المتامة - مكتبات جرير
العراق	دار المدى للعلوم والثقافة أربيل - دار التفسير أربيل - مكتبة هورمان أربيل - المكتبة القانونية - مكتبة النهضة بغداد - مكتبة السنجري الموصل
الأردن	المكتبة الأهلية - مكتبة دنديس - دار أسامة - الفرسان - كشك الثقافة العربية حسن أبو علي - جملون
فلسطين	مكتبة دنديس الخليل - مكتبة القدس (القدس الشريف) - دار العماد للنشر الخليل
السودان	مكتبات القاضي - عمار القاضي الخرطوم - أم درمان
لبنان	شركة الشرق الأوسط - النيل والفرات كوم
	مكتبات جرير السعودية وكافة فروعها بالدول العربية

الإهداء

إلى المرأة الجميلة التي أحببت فيها
التمسك بقيم الحق والخير والجمال
والتي ساعدتني في أن تكون ملهمتي
في إعداد هذا الكتاب التاريخي لك
حبي وتقديري وإعزازي واحتراسي.

المؤلف

سمير فراج

«ابن الشاطئ»

القاهرة ٢٠١٣م

تقول الحكمة:

«ما ضاعحت أمة على طريق الحياة .. إلا وكان
السبب في ضياعها كأس ووتر وامرأة».

حدث هذا في فترات مختلفة من التاريخ البعيد والقريب أيضاً بكل
أسف! إمبراطوريات ودول كبرى تفتت وضاع ملكها عندما عرف الغواني
طريقهن إلى القصور وكراسي الحكم...!
وأصبحن حريم السلطان...!

المقدمة

التاريخ عربة يجرها العظماء، وهو صناعة بشرية في أحداثه الصالح والطالح لذلك يظل كثير من الناس محتفظين حتى بعد رحيلهم بما تبقى منهم للتاريخ سواء كان ما تبقى في صالحهم أو العكس، ولهذا يمثل التاريخ في حياتنا القاضي والجلاد في ذات الوقت، ومناسبة هذا الكلام يرجع إلى كون بعض حكام العرب في العصر الحديث لم يكونوا من قراء التاريخ ولم يستفيدوا بما فيه من رؤية للماضي والحاضر والمستقبل لما يتضمنه من أحداث وعبر..!

ولهذا يغفلون عن التعامل مع رحلة التاريخ التي تعيد نفسها كل حقبة من الزمن وبذات الأحداث التي قد تكون مطابقة ومتكررة بنفس السيناريو ودراما الأحداث.. فعلى سبيل المثال لا الحصر إذا تأملنا الأحداث التي جرت مع الرئيس المخلوع مبارك وما تسببت له زوجته سوزان ونجله جمال وعلاء مبارك وخاصة سيطرة امرأة على رجل بدرجة حاكم من نهاية مأساوية في نهائيات العمر ومطابقة ذلك مع ما حدث وعرفناه تاريخياً عن السلطان العثماني «سليمان» مع الفارق بين ما قدمه مبارك لبلده وما قدمه سليمان للعالم الإسلامي والدولة العثمانية، ولكننا نتحدث هنا عن جزئية محدودة وهي دور زوجة الحاكم وتأثيرها على مقاليد الأحداث، لوجودنا الأحداث متشابهة ومتطابقة فسوزان مبارك استطاعت أن تفرض سيطرتها على الدولة وأن تتدخل تدخلاً سافراً في كل مقاليد الحكم وقرارات مبارك، بل وصل الأمر إلى أنها الحاكم الحقيقي خلال الفترة الأخيرة من عصر مبارك، فهي تملك سلطة العزل والتنصيب لمن تشاء من الوزراء والمسؤولون.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل وصل الأمر تحت تأثير شهوة الحكم تطويع الدولة والرئيس المخلوع لتنصيب ابنها جمال رئيساً لمصر لكي تظل ملتصقة بكرسي الحكم لحقبة من الزمن كان لا يعلمها إلا الله.. فدفع مبارك ونجله ثمناً لنشوتها في الحكم وأنهت

على تاريخ مبارك، فلم يتبق منه شيء للتاريخ، ولعل مقولة نابليون بوناپرت الشهيرة: «من أراد أن يخلده التاريخ .. فليدرس التاريخ» .. لم تؤثر فيه ولأنه في الأصل ليس بقارئ! هي نفس الأحداث التي شهدتها السلطان سليمان حيث استطاعت الجارية اليهودية روكسيلانا والمعروفة باسم السلطنة «هيام» أن تقنع السلطان بقتل أقوى رؤساء وزرائه وأقرب الناس إليه «إبراهيم باشا» والأخطر والأدهى أنها استطاعت بفضل دهائها وسيطرتها على السلطان سليمان أن تنفي أحاسيس الأبوة، وتجعله يمتد بيده لقتل فلذة كبده وأحب أبنائه وولي عرشه من بعده الأمير مصطفى، ولم تنته سنة قتل الأبناء التي رسختها السلطنة هيام بل ظلت سارية بعد وفاتها بين أبنائها مما دفع السلطان سليمان إلى قتل ابنه بايزيد وأحفاده الأربعة، وهي أحداث محزنة كانت وراءها امرأة من حريم السلطان تسيطر وحاكم يطيع، وأثبت التاريخ أنه ليس بالضرورة صحة أن يكون وراء كل عظيم امرأة عظيمة!

«وفتش عن المرأة» عبارة تقال عقب كل كارثة أو مصيبة تحدث للرجل، لأن الاعتقاد السائد منذ بدء الخليقة حين أوصت حواء آدم بأن يأكل التفاحة وكان ما كان!

وفي العصر الحديث وفي ثورات الربيع العربي نتلقف حكاية «ليلي الطرابلسي» بعد حكاية سوزان مبارك .. من حريم السلطان، وفي كتاب «حاكمة قرطاج» يكشف الصحفيان الفرنسيان «نيكولا بومر وكاترين جراسيه» كواليس الحكم في تونس، كما يرصدان بالتفاصيل الدقيقة كيف تحولت سيدة تونس الأولى السابقة ليلي الطرابلسي زوجة الرئيس المخلوع «زين الدين بن علي» .. إلى المرأة الحديدية في قصر الرئاسة نجحت واحدة من حريم السلطان في التحكم في شؤون البلاد والسيطرة على كل القطاعات من خلال شبكة عائلية أقرب للمافيا، مسكت مقاليد الحكم التونسي ورسمت أقدار الشعب الذي أصبح كله تحت رحمة واحدة من حريم السلطان ومن المعروف أن ليلي الطرابلسي هي الزوجة الثانية لزين العابدين تزوج منها عام ١٩٩٢ بعد علاقة عاطفية استمرت عشر سنوات في الخفاء وأنجب منها .. ابنتين هما نسرین وحليمة وفي عام ٢٠٠٥ أنجبت له ليلي، ابنه الوحيد «محمد» وكان زين العابدين متزوجاً من «نعيم الكافي» ابنة الجنرال

الكافي وارتبط بها عام ١٩٦٤ وساعده والدها في الصعود السياسي وأنجب منها ثلاث بنات هن: دور صاف وسيرين وغزوة، وقد طلقها عام ١٩٨٨.

ويطرح الكتاب في بدايته سؤالاً مهماً وهو:

من هي ليلي الطرابلسي:

هل هي فتاة سهلة، من حريم السلطان! كما لم يتردد بعض المواطنين في وصفها، امرأة من خلفية متواضعة تسعى لتحقيق النجاح دون الاهتمام كثيراً بالاعتبارات الأخلاقية؟

أم هي امرأة طموح ومستقلة من حريم السلطان!..

ساعدتها العلاقات العاطفية على الصعود الاجتماعي والسياسي!!؟

من الصعب جداً الإجابة عن هذا السؤال مع عدم وجود فاصل يميز بين الشائعات والحقائق، وما يزيد من صعوبة الموقف هو وجود اثنتين من «ليلى الطرابلسي». واسم الطرابلسي شائع جداً في بلاد الياسمين، وليس من الغريب انتشار اسم ليلي الطرابلسي، ولكن المفاجأة الحقيقية، أن المجتمع التونسي عرف امرأتين بهذا الاسم عملتا في نفس المجال الذي جمع بين صالونات تصفيف الشعر ووزارة الداخلية في فترة الثمانينيات من القرن الماضي هذا التشابه كان من شأنه أن يلقي بظلاله على سيرة حياة سيدة تونس الأولى السابقة، التي هي واحدة من حريم السلطان، أي حاكم في أي زمان ومكان أشير إليه بحبه وهيامه وشغفه بالنساء والجواري وحريم السلطان لكن دعونا الآن نتحدث بتفاصيل أكثر عن كيف استطاعت هذه المرأة من حريم السلطان أن تصل إليه وتنازعه الملك والحكم وتستبد وتطغى؟ فالسيدة التي تحمل نفس اسمها عملت في الثمانينيات في محل تصفيف الشعر «دونا» الذي كان مقرّاً لسيدات المجتمع الراقي ومركزاً للعلاقات المتشابكة ومن خلاله نجحت ليلي في تكوين شبكة علاقات قوية وعملت مع وزارة الداخلية ثم مع المخابرات حيث لعبت دوراً مشابهاً لدور «هاتا هاري» الراقصة الهولندية الشهيرة التي استغلت المخابرات علاقاتها مع كبار

رجال السلطة والسياسة من أجل جمع المعلومات، وبفضل جماها السّاحر استغلت المخابرات التونسية «ليل الطرابلسي» لجمع المعلومات في الأوساط الليبية في بداية الثمانينيات. كانت العلاقات متوترة بين ليبيا وتونس وكانت الأولى تنظر لجارتها الخضراء باعتبارها مركزاً للمتعة، ولهذا لجأت المخابرات التونسية للدفع بعدد من الفُساد في أحضان أصدقاء القذافي وكانت ليلي الطرابلسي واحدة من تلك النساء، ويقال إنها ليبية الأصل والدليل اسمها نجحت المخابرات التونسية في تجنيدها، وهذه الافتراضية معقولة خاصة أن لديها جواز سفر مزدوجاً ولقبها مقتبس من مدينة طرابلس الليبية!

على أية حال، عرفت ليلي طريقها للسلطة وعرفت الكثير من رجال الحكم بما في ذلك الجنرال «زين العابدين بن علي»، وفي أواخر الثمانينيات أصبحت عشيقة محمد علي المحجوبي المعروف لدى أصدقائه باسم «الشاذلي الحامي» هذا الرجل كان أول رئيس لأمن الرئيس زين العابدين بن علي ثم وزير الداخلية. و لكن الشاذلي الحامي وعشيقته «ليلي» كانا مصدر إزعاج للسيدة الأولى المستقبلية إحدى أهم النساء في حريم السلطان ففي ذلك الوقت لم تكن ليلي الطرابلسي سوى عشيقة للرئيس «ابن علي» لقد شعرت عشيقة الرئيس بالتهديد من جانب عشيقة وزير الداخلية التي يجمعها نفس الاسم وكانت النتيجة طلب ابن علي من الشاذلي التخلّص من الحبيبة غير الشرعية ذات التاريخ المثير للجدل!

ولكن الشاذلي رفض لتأخذ القصة مجرى مختلفاً في عام ١٩٩٠ تم القبض على وزير الداخلية وعشيقته واتهمهما بالتخابر مع إسرائيل.

حل علي الجنزاي محل الشاذلي في الخارجية والأمن وكان يحظى بحماية ليلي الطرابلسي الرئيسة الفعلية لتونس. والمؤكد أن قصة التخابر مع إسرائيل كانت قصة وهمية والدليل الإفراج عن الشاذلي بعد عامين.

أبرز حريم السلطان في العالم العربي

واشتهرت ليلي الطرابلسي بأنها أبرز النساء في حريم السلطان في العالم العربي كله، فقد ولدت عام ١٩٥٦ في عائلة متواضعة تعيش في باردو، والبعض يشير إلى أن أغلب أفراد عائلة الطرابلسي يعيشون في مدينة حفيصة وهي واحدة من أكثر المناطق المتهدمة في تونس، والدها بائع فواكه مجففة ووالدها ربة منزل تتولى تربية ١١ طفلاً وطفلة. دخلت ليلي مدرسة تعلم تصفيف الشعر والتقت في سن الثامنة عشرة من عمرها مع زوجها الأول «خليل معاوية» صاحب إحدى وكالات الرحلات ولكنها لم تستمر معه سوى ثلاث سنوات قبل أن يطلقها في ذلك الوقت عملت ليلي في وكالة ٢٠٠٠ السياحية وكانت لاتزال في بداية العشرينيات، فتاة مستقرة مستقلة تقود سيارة رينو وتسعى لاكتشاف العالم وتعشق السهر، وبدأت ليلي رحلتها مع عالم جديد عليها تعرفت فيه على رجال الأعمال والسلطة وأدركت أن طموحاتها تتجاوز أحلام الفتاة الصغيرة القادمة من بيئة متواضعة. في ذلك الوقت

كان معروفة باسم «ليلى جن» حيث كانت تعشق مشروب الجن الكحولي، وكانت حريصة على إبقاء علاقاتها العاطفية المتعددة سرًا.

أما اللقاء الذي أعاد تشكيل حياة ليلي الطرابلسي كواحدة من أبرز حريم السلطان في العصر المعاصر فكان مع فريد مختار أحد الشخصيات الهامة في تونس عاشق الفن وكرة القدم وصاحب الشركة التونسية لصناعة الألبان إحدى كبرى الشركات التونسية، كما أنه شقيق زوجة محمد مزالي رئيس الوزراء آنذاك .. وبفضل فريد تم التعاقد مع «ليلى» بوصفها الأمين التنفيذي في باتيمات إحدى الشركات المصرفية الكبرى.

علاقة ليلي مع فريد مختار استمرت لأربع سنوات حتى وضع فريد نهاية لها عام ١٩٨٤. وهو نفس العام الذي شهد عودة «ابن علي» من منفاه في بولندا. لقد عاد المحب

القديم وفي تلك المرة لم يكن «ابن علي» مستعداً للابتعاد عن حبيبته التي أصبحت عشيقته الرسمية ليلى في ظل عشيقها الذي عاد لمنصب وزير الداخلية. جمع بينهما الحب والطموح السياسي، وكان «ابن علي» يقول لها دائماً: اصبري سنكون قريباً في قصر قرطاج وستكونين واحدة من حريم السلطان، بل على رأسهن!

ويدو أن سيرة «ليلى الطرابلسي» لن تتوقف الألسن عن تداولها لفترة ليست بالبعيدة، لكن الأهم أن أسرار هذه السيدة إحدى شهيرات حريم السلطان في العالم العربي كله التي سيطرت على الجمهورية التونسية لما يقرب من ١٨ سنة لم تتوقف أيضاً، فقد فجر موقع «الجيوآن لاين» الفرنسي أكثر من مفاجأة حول حياتها الخاصة وممتلكاتها، وأكد أن علاقة غير شرعية جمعت في الخفاء بين ليلى الطرابلسي وبين زين الدين بن علي قبل الزواج وأن هذه العلاقة أثمرت عن أولى بناته منها وهي الطفلة «نسرين» التي ولدت عام ١٩٨٦ ببروكسل في حين أن زواج ليلى وزين العابدين قد تم في ١٩٩٢ في نفس العام الذي أنجبا فيه ابنتهما الثانية «حليمة». ونسرين هي زوجة محمد صخر الماطري أشهر رجل أعمال في تونس والرجل المقرب من أبيها وأمها على حد سواء والذي كان مرشحاً لخلافة بن علي!

لكن المفاجأة الثانية التي أطلقها موقع الجيوآن لاين الفرنسي أن ليلى الطرابلسي كانت من الذكاء بحيث أنها ما أن اندلعت الانتفاضة الشعبية قبل أسابيع من الإطاحة بنظام زوجها، حزمت حقائبها منذ التاسع عشر من شهر ديسمبر من سنة ٢٠١٠ وسرقت ١٥٠٠ سبيكة ذهب من خزانة البنك المركزي ونقلتها عبر طائرتها الخاصة متجهة إلى دبي، المدينة التي اعتادت التردد إليها بين الحين والآخر. أغلب المواقع والصحف نشرت رواية واحدة عن بداية علاقة ليلى بـ «ابن علي» في مديرية الأمن العام، حيث قيل إنها مكان أول لقاء جمعها به كان بإحدى الملاهي الليلية بباريس الذي اعتاد زين العابدين السهر فيه في باريس. والتي كانت هي تتردد عليه باستمرار. وهذا يعني أن اللقاء الذي جرى في مبنى الأمن العام لم يكن الأول بل كان على خلفية هذا اللقاء.

المرأة والرجل ..

لكن دعونا أولاً نتعرف على المرأة والرجل أكثر .. لقد فهمت حواء وهي أول امرأة في المجتمع البشري نفسية الرجل وعرفت خباياه وميوله، وكانت أول من عرفت كيف تحتفظ به. كان آدم في شغل من أمور الحياة البدائية القاسية وكان يضيق بالوحدة، فعالجت حواء أموره، وسعت سعيها حتى كسبت قلبه، وضمنت حبه، وإقامته على ظهر الأرض أباً للبشر.

وسارت الحياة الأولى، وميدان الرجل هو الكفاح الدائم، ولا تقاس بطولته إلا بمقاييس الأجداد التي يحوزها في الغزو والفتح والتعمير والابتكار أما فتوحات المرأة فمحصورة في قطعة صغيرة من لحم ودم، ألا وهي قلب الرجل، فالرجل يغزو الممالك والأمصار، وهي تغزو القلوب.

وغزو القلوب يختلف من قلب إلى قلب، وهذا لا يخضع لقواعد وخطط ثابتة، فلا بد لها أن تتعرف على مواضع ضعف الرجل، فمن النساء من ترى وحدة الرجل أقرب طريق، ومنهن يعتقدون أن إثارة الغرائز الجنسية أقصر طريق، ومنهن من يتخذ من طريق الحب والحنان، ومنهن من تسلك أكثر من طريق.

ولابد للمرأة عندما تختار الطريق لغزو الرجل أن تختارها بعد دراسة وبحث فإن لم تفعل ذلك صعب عليها أن تكسب قلب الرجل والإبقاء عليه والتأثير فيه.

وكان «نابليون» يقول: «فتش عن المرأة في كواليس الحكم وفي السجون».

تعكس هذه المعاني واقعاً فرض نفسه على التاريخ الإنساني كله.. لم تكن المرأة يوماً بعيدة عن القرار السياسي، فقد تلعب الدور مباشرة من خلال امتلاكها لمقاييد الحكم أو من خلال تحريك الزوج الجالس على العرش بطريقة «الريموت كنترول» أو من خلال لعبة الجنس والسلطة، وهي اللعبة التي تجيد اللعب على مفاتيحها، فهي تمنح الجنس ثمناً للسلطة وعندئذ يتحول رجل الدولة إلى ألعوبة في يد امرأة مدربة يمكنها أن تحرك مشاعره في الاتجاه الذي تريده.

وإذا كانت السياسة ترمز إلى القوة وهي غريزة أساسية في الإنسان فإن الجنس هو أيضاً غريزة اللذة، وكل من اللذة والقوة يمثل حاجة ضرورية عند الإنسان - الرجل والمرأة على السواء - ومن الطبيعي أن تكون هناك رغبة للإشباع .. لكن دروب هذا الإشباع ليست محررة على الدوام، فقد تشتمل بالمصالح والفضائح أيضاً.

والحقيقة أن عالمنا العربي ظل بمنأى عن هذا المزيج الغريب من الفضائح الجنسية لرجال الحكم، ولم يكن هذا لطبيعة الطهر أو النقاء الذي تميزت به مجتمعاتنا العربية، ولكن للقيود الشديدة التي كانت تحول دون المساس برجال الدولة، وكأنهم قديسون لا يأتيهم الباطل من الأمام أو الخلف!!

لكن ومع البصيص الضئيل من الديمقراطية التي بدأت تتسلل إلى عالمنا في الوطن العربي تكشفت حقائق كثيرة ومثيرة عن العلاقات الغرامية لبعض رجال الحكم ومحاوله تفعيل أفضل السبل الممكنة للاستمتاع بالمعشوقة أو الجارية المدللة ومنذ أيام السلطان سليمان وعشيقته التي تزوجها فيما بعد السلطنة هيام!!

وعن الأمة العربية بين الرأي والهوى نتعرف على الترف والشهوات في الدولة العباسية وافتتان الرجل وتأثير المرأة وعن الجوّاري في العراق، تكاثر الجوّاري وسائل الفتنة، الجمال والتجمل. ووصف الجاحظ للجوّاري وتأثيرهن!

وأدب الجوّاري وشعر الجوّاري وغناء الجوّاري وغلبة الجوّاري على قلوب العرب.. والجوّاري في عهد المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والمتوكل، ونفوذ الجوّاري، والجوّاري المدنيات في الأندلس. بنو الأغلب، الجوّاري في العصر الفاطمي، وكان حكماء بني أمية وعظماءهم يتواصلون بالاستماع للملهيات فن الغناء وما يستديعه من تبسط وابتذال. وهذا الوليد بن عبد الملك يطرق سمعه غناء مغن في عسكره ويرى «جارية» من جواريه تصغي إلى الصوت فيدعو إليه بالمغني ويأمر بخصائه ثم يأمر بخصاء مخنثي المدينة الذين يغشون الديار ويغنون نساءها بالصوت المخنث والكلام المبذول؛ وهذا مسلمة بن عبد الملك يستمع غناء المغنيات في قصر أخيه الخليفة سليمان

فيزجره في غير رفق ولا هودة فلا يسع الخليفة إلا أن يطوي بساط الغناء ثم لا يعود إليه.

ولم يكن للجواري في ذلك العهد شأن ولا خطر، فلم يُتخذن إلا للخدمة أو سراري للاستيلاد؛ وهم يسمون الجارية «جفن سلاح» تشبيهاً لها بغمد السيف الذي لا شأن له وإنما الشأن لما فيه. وقد ابتكر لهم هذه التسمية «هَمَّام بن غالب الفرزدق» في قوله وقد ماتت جارية حامل له.

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح عليه ولم أبعث عليه البواكيا
وفي جوفه من دارم ذو حفيظة لو أن المنايا أوصلته لياليا

والمرأة والرجل كقوتي الكهرباء إذا تأثر أحدهما تأثر الآخر، وكذلك بدأت المرأة العربية تتأثر عندما راح العرب يخطرون في مكارم الذين أرادوا أن يخدموا آخر جذوة من الحمية العربية، فأجلبوا عليهم بكل ما يوهن النفوس ويصبي القلوب من سماع وشراب وكواعب أتراب وأغرقتهم في بحر طام من الترف والزهو واللهو والمحارم والمآثم، ولم يمض غير قليل حتى راح العرب يخطرون في مطارف الفرس ويلعبون عندهم ويشربون أيضاً ويتأدبون بأداب الفرس ويتخلصون بأخلاق الفرس!

وكان لتلك المرأة العربية منزلة في القلوب تهفو لها الوجوه وتطمئن دونها النفوس، ولم يكن مرجع ذلك لما لها من جمال ودلال وغضارة ونضارة وخلابة ودعابة فما كانت من ذلك في قليل ولا كثير، ولكنها كانت فيما تضررت به بين نساء القصور الأولى من سمو الروح إلى أبعد مرتقى، وصفاء النفس إلى أتم غاية.

وكان أشد ما فتن الرجل في نفسه وغلبه على عقله وصرفه عن امرأته ثلاثة أشياء :

الأول: الجواري اللواتي سباهن العرب من مختلف الأقطار والأمصار.

الثاني: الديارات التي بثها الروم والسرمان وأشباههما في طريق البلاد لصرف العرب أولاً عن قوميتهم وأخيراً عن دينهم.

الثالث: ذبوع البغاء وأمثال البغاء في حواضر العراق!

وسنكشف ما كان من أثر وعمقه، وبعد الخطر في الرجل العربي والمرأة العربية! وكانت بلاد العرب تعتبر بنات العدو ونسوته من مغنم الحرب وقد خلص للمسلمين من وراء ذلك عدد لا يحده الإدراك من النساء على اختلاف أسنانهن وأجناسهن وأخطارهن ومنهن:

الفارسيات، والتركيات، والأرمنيات، والجرجيات، والشركسيات، والروميات، والبربريات، والحبشيّات، وفيهن بنات الأكاسرة والقيصرة والأساورة والبطارقة من قاصرة الطرف ناعمة الكف لم تبتذلها المهن ولم تمتهنها المحن. وكان قواد الدولة وولاة الأمصار يجمعون من أولئك أنضرهن وجهاً وأنداهن صوتاً وأمثلهن أدباً ويرسلونهن إلى الخليفة وهو يصطفي منهن من يشاء ويثيب وزراه وندماءه وخلصاءه بمن يشاء!

ولقد ينبئك بما تجمع للخلفاء من الجوّاري ما روى ابن الأثير:

أن المتوكل أهدى إليه في يوم واحد عشرون ألف جارية، ولهن ولأشباهن بني قصر الجعفري حين ضاقت بهن مقاصير الخلافة في بغداد!

الحرملك .. أسرار وإلهام

ولقرون عديدة سكنت المرأة أو أسكتت، والآن تتكلم، لتستزع حق كتابة تاريخها بعد أن توجب عليها لسنوات طويلة أن تخرج رأسها من «المشربية» وتلوي عنقها بإرادتها لتختلس نظرة أو ابتسامة أو حكمة وربما موعداً فلقاء! في الحرملك حيث العالم الذي يكتنفه الغموض وتلفه الأسرار والحكايات.. فتحنا أسرار التاريخ برفق في هذا الكتاب الذي يصدر لأول مرة بهذه الدقة وهذه التفاصيل ومن التاريخ العربي والإسلامي البعيد عن «حريم السلطان» بحثنا عن تفاصيل السحر المحفز على الفضول والإلهام الذي دفع المستكشفين الأوروبيين من قبل لاكتشافه وسبر أغواره وحاولنا تسجيل ما دونوه عن همساته ونبضات شرايينه، رغم أن مشاهداتهم الشخصية لم تتحقق إلا في أضيق الحدود، وعبر وسطاء من الحرّيم أيضاً.

إلى هذا الحد كانت حياة الحرملك غاية في السرية للدرجة التي جعلت واحداً مثل «بريس دافين» يقول: محال أن نعلم شيئاً عن النساء إلا من الأوربيات اللاتي يختلطن بهن، وأنتك لتسب المسلم سباً، إذا سألتها عما يخص حريمه، كان ذلك في القرن الـ ١٩ التاسع عشر، أما الآن قد تحررت المرأة من كل شيء .. وتكلمت أخيراً!

وحكام مصر مثلاً حتى مقدم محمد علي باشا كانوا من الأتراك العثمانيين الذين أشربوا التقاليد العثمانية لحاكمين لها نيابة عن السلطان العثماني وتشبهوا بسادتهم السلاطين ومن بينهم الحريم.

فقد كانت الحريم والجواري في (الحريم السلطاني) في تركيا تخصص لهن في القصر للسكنى وفيهن والددة السلطان الحاكم وزوجات السلطان ثم بناته وأولاده الصغار ثم فئات من الجواري الحسان كن يعشن في القصر.

وكان للسلطان مقصورة خاصة وسط أجنحة الحريم وتحوي غرفة نومه وحمامات وقاعة استقبال كبيرة وعند زيارته لأجنحة الحريم كانت تصحبه (الكايا) وهي من كبرى موظفات الحريم السلطاني ومن بين اختصاصها تنظيم الأوقات التي يقضيها السلطان مع ساكنات دوائر الحريم وعلى نزهاته مع البعض منهن في حدائق أجنحة الحريم، ولكي يتم الإعلان بوصوله إلى منطقة الحريم كان السلطان يرتدي صندلاً من فضة يحدث صوتاً على الأرض المكسوة بالرخام لتنبية الموجودات أما إذا فاجأهن السلطان بوجوده في منطقة الحريم فإن كان من قواعد البروتوكول ألا تنظر السيدات والفتيات إلى وجه السلطان، بل يغضضن من أبصارهن وينظرن إلى الأرض حياء!

وستتعرف في صفحات الكتاب الذي بين يديكم أعزائي القراء على تفاصيل كثيرة من التاريخ البعيد والقديم والحالي المعاصر في حياة النساء، ولابد أن نفر أهمية المرأة في حياتنا والقيمة الأشم

قد خرجتُ وأنت مني تُولدُ	حوا أنا يا آدمي أنا من ضلوعك
أنا في الأرض سيدة وأنت السيدُ	أم الحياة أنا، أنا امرأة
لأنت تُعبدُ أو أنا أُستُعبدُ	إن كنت إنساناً فإنسان أنا

لم تعد المرأة هي ضمن حريم السلطان فقط. لا بل هي رمز العطاء وضوء النماء، منبت الزروع لأشجار ثمارها بشر خلقوا ليخلفوا الأرض ويسعوا العمرانها، فلا يكتفون بالحياة، وإنما يهبونها لآخرين .. وتلك حكمة الله العظيم وبين الأمس واليوم تتأرجح صورة المرأة من حريم السلطان .. إلى امرأة تحاول جاهدة أن يكون لها دورها الإيجابي في بلادها العربية والإسلامية، ولكن قد تتراقص علامات الاستفهام أمامنا وأمامها هي بالذات وأبرزها:

أنها لم تزل تشعر بأن مردّها إلى ذلك الشباك الحريمي «المشربية» لتطل منه على العالم وهي خجلة فترى نصف رؤية وتسمع نصف سمع!

كانت في القديم تؤاد وأتى الإسلام كحضارة وأعطاها حقوقها وشجعها على العلم والعمل والآن أصبحت المرأة تتبوأ مكانتها المرموقة وتحظى بالرعاية والتمكين لتحقيق ذاتها. ولكي تتأكد من ذلك علينا أن نتصرف أكثر كيف كانت المرأة قبل هذا العصر الذي يعيش فيه، وعلى سبيل المثال: المرأة العربية والكبت الجنسي، ويؤدي الكبت الفكري إلى كبت جنسي وكما قال العلماء: الكبت الجنسي طوال سنوات الطفولة والشباب يقود إلى عقم جنسي بمعنى البرود الجنسي في سن النضوج والكهولة...!

وللأسف الشديد يركز مجتمعنا نظرتة الأحادية إلى المرأة على أنها مجرد جسد يشتهي! أو مجرد وعاء جنسي، لا يهم بعد ذلك أن تتمتع بأي ذكاء، أو عقل، أو حس أو قدرة على العطاء الاجتماعي!

وأما المرأة الماكرة، فهي الأسطورة التي يسقط عليها الرجل كل تناقضاته ويحملها مسؤولية كل صراعاته العلائقية، إنها المرأة التي لا يؤمن لها والتي يجب بجدة الاحتراس لكيدها ودمسها.

فهي النظرة الدونية للمرأة .. فإنه تعكس المكانة الممنوحة للمرأة حالة المجتمع نفسه على وجه العموم وتجسد درجة تطوره، وكان من النادر وجود فلاسفة ومفكرين ممن أنصفوا المرأة وأعطاها مكانتها اللائقة بها. فقد كان فيثاغورس يميز بين مبدأ الخير الذي

خلق النظام والنور والرجل، ومبدأ الشر الذي خلق الفوضى والظلمات والمرأة! ويعلن آخر أن المرأة هي في خدمة البطن، ويصرح أرسطو بان الأنثى أنثى بسبب نقص معين لديها في الصفات، أما أفلاطون فقد دعا إلى مشاع النساء. ولقد قال بولس إن الرجل لم يخلق للمرأة، ولكن المرأة خلقت للرجل. ودمغها يوحنا فم الذهب بقوله:

ليس هناك بين كل وحوش الأرض المفترسة من هن أشد أذى وضراً من المرأة. وكتب توما الأكويني: أن المرأة قد كتبت عليها أن تحيا تحت هيمنة الرجل وألا تكون لها أي سلطة وهذا في رأيي وتقديري ومن وجهة نظري يعتبر قولاً خاطئاً جداً وغير مقبول والدليل هذه النماذج من نساء الحرملك وحريم القصور الملكية والرئاسية وفي العالم كله، وليس العالم العربي بشكل خاص، وعلى سبيل المثال لا الحصر أن ما حدث خلال الأربعينيات أثناء حكم ملك مصر فاروق الأول انتهى برحيل الملك وسقوط الملكية، كانت الملكة نازلي «أم الملك فاروق» على علاقة بأحمد حسين باشا رئيس الديوان الملكي والتي انتهت بالزواج السري كانت هذه العلاقة تثير حفيظة الملك الابن فاروق وكانت بمثابة جرح يتزف دون توقف!

كانت هذه المشاعر المختلطة من الإحباط وسوء سلوك الملكة «نازلي» بمثابة مناخ جيد استغلته الحاشية المحيطة بالملك الصغير السن لدفعه إلى عالم الانحراف والميلاد والجنس، ومن خلال القصر الملكي الذي تحول إلى ماخور كان من السهل توجيه الملك وسياسة البلاد!

في هذه الفترة من الأربعينيات أيضاً والتي تلت عام ١٩٤٣ ارتبط رئيس الديوان الملكي أحمد حسنين باشا بالمطربة أسمهان والتي كانت في ذات الوقت عميلة للمخابرات البريطانية!

أما الشاب الثائر «عزيز فهمي» ابن رئيس مجلس الشيوخ عبدالسلام فهمي جمعة، والذي أسس الطليعة الوفدية، فقد تعرف بالراقصة «بياعز الدين» وكانت ترتبط كمعظم راقصات تلك الفترة بالمخابرات الإنجليزية!

وكان الملك نفسه كما ذكرنا من قبل غارقاً في ملذات لا تنتهي واستطاع «أنطون بوللي» سكرتيره الخاص أن يكون المستشار الجنسي للملك إذا أجز لنا هذا التعبير، وقد تمكنت المخابرات اليهودية «الوكالة اليهودية» (الموساد الآن) بالتعاون مع المخابرات الإنجليزية، من الاتفاق مع بوللي لإدخال الممثلة كاميليا اليهودية الأصل باسم «ليليان كوهين» إلى حياة الملك لتكون عشيقته والمطلعة أولاً بأول على كل أسرار القصر، وقد لعبت هذه العشيقة اليهودية دوراً خطيراً في توقيع صفقة الأسلحة الفاسدة والتي راح ضحيتها الكثيرون من أبناء مصر عام ١٩٤٨، كانت المرأة بكل إغراء الأنوثة منها والرغبة في السيطرة وفرض نفوذها هي الطعم الذي لا بد أن تلتقطه الفريسة!

وكان للنساء من هذه النماذج كل السلطة والتفوذ على أهل الحكم! وعموماً فإن المناخ السياسي السائد في تلك الفترة كان فاسداً جداً، وكانت سياسة الغواني هي التي تحقق في نهاية الأمر كل مطامع الاستعمار في المنطقة وكان أكبر هذه المطامع «إنشاء دولة إسرائيل» في قلب العرب!!

والحقيقة الهامة التي أماننا ونراها في كل دساتير المخابرات في العالم أن الرجل مهما كان مركزه - ضعيف أمام غرائزه، وأن سلاح الجنس يصعب مقاومته خاصة إذا كانت صاحبه حسنة ومتمرسة إلى حد كبير على فنون الإغراء!

لقد أدرك الزعيم الألماني «أدولف هتلر» هذه الحقيقة جيداً.. بل إنه هو نفسه وقع في عشق «إيڤا براون» التي لازمته وكان لها تأثير عليه حتى انتحرت معه قبيل ساعات من انهيار الرايخ الثالث وهزيمة ألمانيا!

على العموم التاريخ حافل بحكايات وروايات وقصص الغواني والنساء مع القادة والملوك والرؤساء والزعماء والأدباء وغيرهم من أصحاب الجاه والسلطان والبريق وكما أوضحنا سلفاً في العالم العربي والعالم الأجنبي، في الدنيا بأكملها منذ خلق الله عز وجل آدم وحواء..!

وهذا الكتاب الموسوعة عن «حريم السلطان» الذي بين يديك هو وثيقة هامة

من أعماق التاريخ استدعينا أحداثها بموضوعية وأمانة لنضعها هنا أمامك عزيزي القارئ.. ستقضي معها وقتاً شائعاً وعلامات الاستفهام تتراقص أمامك حتى هذه اللحظة من التاريخ المعاصر الذي نرى فيه في عالمنا العربي الحافل بقصص النساء مع الزعماء وغيرهم من «حريم السلطان» .. ونتعرف فيه كذلك فيما نجمله بأن وراء كل فاسد .. هانم .. !

مثل هوانم العصر المعاصر في تونس ومصر من ليلي الطرابلسي إلى الأخرى سوزان مبارك. ويلي وسوزان من حريم السلطان المختلف إلى حد كبير كلتاهما تتمتع بالنصب والسرقة والاحتيال والسطو على أموال الشعيين العربيين في تونس و مصر. وكلتاهما المحرض الأول بكل البلاوي والكوارث وأصابع الاتهام توجه لهما لأنها كانتا من الأيادي الخفية والعقول المدبرة أو بالأحرى المشاركة بالنصيب الأعظم في اتخاذ القرار السياسي!!

وفي النهاية أستطيع أن أقول إن النكسات أو الانكسارات أو الهزائم في الحروب التي حدثت في مصر على سبيل المثال لم تكن بسبب رجال قواتها المسلحة الذين ضحوا بدمائهم وبأرواحهم ولا يزالون يقومون بذلك الدور العظيم فداء لمصر، إلا ما لا نهاية وإنما السبب الحقيقي وراء كل الكوارث والهزائم والنكبات هو فساد أخلاقي بالدرجة الأولى، وإذا كان الملك فاروق في عصر الملكية هو أساس الفساد والبلاء بشخصه .. فإن في فترة ثورة ٢٣ يوليو المجيدة في مصر عام ١٩٥٢ كان الفساد نابغاً من بعض الرجال حول الرئيس وربما من أقرب المقربين إليه..!

لقد كان الزعيم جمال عبدالناصر صاحب مبادئ - نقياً، طاهراً، يتعد دائماً عن ما أطلق عليهن «حريم السلطان» .. حاملاً لإقامة دولة عربية كبرى من الخليج إلى المحيط لتقف ندّاً لكل الدول العظمى الاستعمارية وتصد العدوان وتدمره ولكن الذين حولوه أفسدوا عليه الحكم الذي لو تحول إلى حقيقة لكان حال عالمنا العربي الآن غير الحال الذي هو عليه!

إن الفساد الأخلاقي .. هو سبب البلاء في أمتنا العربية للأسف الشديد ولن تستقيم الأمور إلا إذا عادت الأمة إلى نبلها وعاداتها وتقاليدها الرائدة وبعيداً عن «حريم السلطان» أي سلطان حاكم رئيس أو ملك أو زعيم أو قائد فالقضية في كل الأحوال قضية أخلاقية وبدون الأخلاق القويمة لن تستقيم الأمور، وما يحدث من فساد هو تجسيد لمجتمع اللاأخلاق .. اللامبالاة! إن الفساد السياسي والأخلاقي كان الملمح الرئيسي أيضاً لعصر الرئيس المخلوع «مبارك» وما يتداوله في قاعات محاكم الجنايات لرموز العهد البائد ليس إلا قطرة واحدة من مياه المحيط، ولكنها كافية لمعرفة طعم المحيط كله..!

وقد صدر الحكم مثلاً على زكريا عزمي رئيس ديوان المخلوع حسنى مبارك بالحبس ٧ سنوات وتعريمه وزوجته ٧٢ مليون جنيه!

أما ما لم يحاكم عنه زكريا عزمي فهو دوره في صناعة حريم السلطان واستخدامهن للتخلص من خصومه وخصوم الرئيس!

والملفات والوثائق حافلة بأدلة اتهام مباشرة عن استخدام «حريم السلطان» من أجل إرضاء الرئيس المخلوع، وتتناثر الحكايات المؤسفة والمخزية عن علاقات حريم السلطان، بالمسؤولين الكبار وغيرهم، والتي تكشف عن فساد أخلاقي رهيب!!

ولعل الفنانة الصديقة العزيزة نبيلة عبيد تكشف لنا في مذكراتها المرتقبة خفايا قصة زواجها من السياسي الدبلوماسي البارز الرجل المهذب الدكتور أسامة الباز والدور الحقيقي الذي لعبه رئيس ديوان السلطان زكريا عزمي .. الحقيقة كاملة عند نبيلة عبيد عن طريق الدكتور أسامة الباز لكن بصفة خاصة أريد أن أعرف منها الدور الخفي والمجهول لنا حتى الآن لزكريا عزمي ..!

وهل كان هذا الزواج الذي تم بين نبيلة عبيد وأسامة الباز بداية انهيار عرش مستشار السلطان مبارك؟

عن طريق دسائس رئيس الديوان زكريا عزمي عند الفنانة الكبيرة نبيلة عبيد التي هي واحدة من أشهر حريم السلطان!

وتعالوا أعزائي القراء في كل مكان في عالمنا العربي نقرأ القصص والحكايات والروايات الشائقة والمثيرة من دفتر أحوال التاريخ البعيد والمعاصر عن أسرار وعلاقات وطرائف وهزائم وانكسارات ونكبات كل سلطان مع حريم السلطان.

المؤلف
سمير فراج
«ابن الشاطئ»

قبل أن تقرأ

فهمت

حواء وهي أول سيدة في المجتمع البشري نفسية الرجل، وعرفت خفاياه وميوله - وكما ذكرنا - كانت أول من عرفت كيف تحتفظ به. كان آدم عليه السلام في شغل عن أمور الحياة البدائية القاسية، وكان يضيق بالوحدة، فعالجت «حواء» أموره، وسعت سعيها حتى كسبت قلبه، وضمنت حبه، وإقامته على ظهر الأرض أباً للبشر.

وسارت الحياة الأولى، وميدان الرجل هو الكفاح الدائم، ولا تقاس بطولته إلا بمقياس الأجداد التي يحوزها في الغزو والفتح والتعمير والابتكار. أما فتوحات المرأة فمحصورة في قطعة صغيرة من لحم ودم ألا وهي قلب الرجل، فالرجل يغزو الممالك والأمصار وهي تغزو القلوب وغزو القلوب يختلف من قلب إلى قلب، وهذا لا يخضع لقواعد وخطط ثابتة، فلا بد لها أن تتعرف على مواضع ضعف الرجل، فمن النساء من ترى معدة الرجل أقرب طريق، ومنهن يعتقدن من أن إثارة الغرائز الجنسية أقصر طريق، ومنهن من يتخذن طريق الحب والحنان، ومنهن من تسلك أكثر من طريق!

ولابد للمرأة عندما تختار الطريق لغزو قلب الرجل أن تختارها بعد دراسة وبحث، فإن لم تفعل ذلك صعب عليها أن تكسب قلب الرجل والإبقاء عليه والتأثير فيه.

وحكاية شهرزاد بطلة قصة ألف ليلة وليلة يرينا بوضوح كيف تؤثر المرأة بليتها وحسن تدبيرها. كان زوجها ملكاً سفاكاً للدماء، وكان كلما تزوج فتاة قتلها ليلتها إلى أن جاء دور شهرزاد، فلما هم بقتلها ألهمته عما عزم عليه بقصة اخترعتها، فأخذت تحثه وهو يسمع إليها إلى أن غلبه النوم، وكانت قد وقفت عند نقطة من الحكاية مشوقة لما بعدها. وفي الليلة التالية سأله الملك أن تكمل قصتها عازماً على أن يقتلها بعد ذاك، فقصت له حكاية جذابة ولم تنته إلى أن تولاه النعاس، واقفة كالليلة السابقة عند نقطة جذابة من الحديث الشائق وفي المرة الثالثة في الليلة الثالثة أمرها الملك بإتمام حكايتها

ففعّلت كما في سابقتيها، وهلم جرا إلى أن أتمت ألف ليلة وليلة، في ستين وتسعة أشهر، كانت رزقت في أثنائها ثلاثة أولاد، وكان الملك في ذلك الحين تعلم حب أولاده واحترام الأسرة.

لقد استطاعت شهرزاد أن تكبح جماح طاغية سفاح، بينما لم تستطع العذارى اللواتي جئن قبلها أن يكبحن جماحه!

لم تفهم واحدة من أولئك العذارى أكثر من أنها جسد، يقدم لهذا الملك الجبار، ولم تفهم واحدة منهن غير ذلك، وكان «شهریار» يمل هذه الأجساد الذليلة، وهذا المتاع الرخيص، ولهذا كان يقدمها كشيء إلى سيف الجلاد!

ولكن شهرزاد استطاعت أن تروضه وتعطيه العطف والحنان والحب قطرة قطرة، حتى اكتمل نموه، فأصبح قلبه أسيراً لهذا الحب.

خطأ كبير أن نحسب «شهریار» استبقى شهرزاد هذه الليالي الطويلة لاستكمال ما ترويه من قصص، فهذه القصص لم تكن سوى رمز الفكرة الإغراء وإطالة الزمن حتى تغذيه بحنانها، وحتى ينمو جها في قلبه شيئاً فشيئاً لانستهن بسلطة المرأة وقوة تأثيرها على الرجل.. إذا هي أحسنت استعمالها فقد خلق الله الرجال ليسكنوا إليها، وخلق النساء ليسكنن إلى الرجال، فكلاهما سكن للآخر.. وللمرأة قوة خفية يتأثر بها الرجل، وهذا التأثير من باب الخواص التي أودعها الله في المرأة والرجل، وكمثلها في جذب الرجل إليها مثل المغناطيس الذي يجذب الفولاذ.

وقد نتحدث المرأة في رقة وعذوبة فنعجب بحديثها، فتعجب بهذه الرقة والعذوبة ويميل الرجال إلى هذا الحنان وهذه الرقة والوداعة لأننا لا نتوافر فيهم فالإنسان إلى ضده ينجذب ويميل، وقد تجمع المرأة مع الجمال والرقة والحنان وحلاوة الحديث فيضاً من الحكمة وسداد الرأي.

ومن الرجال من تعشق عيناه جمال المرأة.. ومنهم من يحب رقة صوتها وقد تعشق الأذن قبل العين أحياناً.

وقد يزول الجمال بعد فترة من الزمان، ولكن الحنان ورقة الصوت لن يتركها أبداً كل هذه الصفات تكمن فيها قوة تأثير المرأة على الرجل، إنها كالمغناطيس يجذب الرجل.

والمغناطيس كما نعلم قطب موجب وقطب سالب، فإذا قربنا القطب الموجب في مغناطيس إلى قطب موجب مثله في مغناطيس آخر، تنافرا، لأنهما من نوع واحد وخصائص واحدة، ولكن إذا قربنا قطب مغناطيس سالب إلى قطب موجب لمغناطيس آخر تجاذبا.

هكذا المرأة والرجل قطبان مغناطيسيان كل منهما يجذب الآخر .. هذا برجولته وهذه برقتها وحنانها، هذا بقوته وهذه بضعفها .. وهكذا فكل شيء إلى ضده منجذب ومدفوع إليه.

قال شاعر شاكياً ضعف الرجال أمام النساء:

إن النساء رياحين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين
فرد عليه شاعر آخر يقول:

إن النساء رياحين خلقن لنا وكلكم يشتهي شم الرياحين
من هذا نجد أن للمرأة قوة كامنة في نفسها كمون النار في الشجر الأخضر.

وقد تفقد المرأة كل هذه المؤثرات أو بعضها إذا هي استرجلت، وتخلت عن فضائلها ومزاياها المحبوبة في الرقة والأنوثة والحنان وأخذت تتخشن في كل شيء، حتى في طباعها وميولها ولهجة كلامها، فهي تدخن بإفراط كأنها رجل مفكر ملتهب الذهن، وهي تسير في الطريق بحذائها ذي الكعب القصير في خطوات شديدة مرتفعة الدق، كأنها من أصحاب الأعمال!

هي في العصر الحديث كثر استخدامها للفساد بعينه وأصبحت تستخدم للسلب والنهب والنصب والاحتيال في أنظمة كثيرة سياسية تخص بلاد العرب مع بلاد العالم الآخر .. والقصص كثيرة لدرجة أنه قيل أن وراء كل فاسد .. امرأة هانم فاسدة أيضاً!

فكم ارتكبت من جرائم أبرزها ما فعلته سوزان مبارك في مصر قبل ثورة ٢٥ يناير ومثل هذه المرأة ينفر منها الناس غالباً، لكن قد يكون زوجها الرئيس أو المسؤول الكبير في الدولة هو الذي شجعها على ذلك وحقق لها رغباتها المدفونة في أعمالها وساعدها كثيراً على أن تسلك هذا المسلك الانتهازي وأعمال النصب والاحتيال والاستيلاء على المال العام عن طريق نفوذ الأزواج .. !!

ولو قالت امرأة لرجل يقع تحت ضغوط جبروتها ورغباتها المجنونة انفخ وحرك الشمس من وضعها لنفخ، وإن كان ذلك لا يجدي شيئاً، وإن سألتها أن يجمع لها بعض الأزهار والمطر منهمر اندفع لجمع ما تريد!

هذا ما قاله الكاتب الروسي «مكسيم جورجي» عام ١٩٢٠ في معرض الحديث عن أثر المرأة في مجالات كثيرة، كان صادقاً عندما قال المهمة التي يُطلب من المرأة تأديتها هي أن تبث في الرجل الوعي، وأيضاً تمدّه بالمحرّضات على الطريق الآخر، ليبقى فيه فاسداً تحقيقاً لرغباتها المجنونة أحياناً.

والتاريخ مملوء بالنساء اللواتي أتين بالعجائب، وأثرن في حياة غيرهن! وأيضاً كم من مشاهير ضاعوا في جحيم القلق والفوضى خاصة الزعماء والرؤساء ورجال الأعمال بسبب فساد نسائهم وتطلعاتهن إلى الحكم والنفوذ..!

ولاشك أن حريم أي سلطان بينهن عبر التاريخ فاسدات، لكن ليس بهذا الشكل الذي نراه الآن، فالزوجة قرينة الرئيس هي التي يجب أن تجنب زوجها التفكير في توافه الأمور التي تخلقها المرأة المشاكسة الشريرة وتستطيع في الوقت نفسه أن تعاونه بروحها وإخلاصها وصفاء قلبها وتجعله يعمل لصالح شعبه وبلاده وأمتة .. إن الزوج الرئيس المسؤول عن طول البلاد وعرضها في أي عالم عربي أو أجنبي، والذي يكدح طول النهار والليل في حاجة إلى مساندة وروح طيبة وابتسامة مشرقة، تنسيه عبء يومه كله، وكفاحه المضني، فالحياة بحر متلاطم الأمواج، كثير المتاعب والأنواء والأخطار لهذا يجب أن يجد الزوج الرجل المسؤول عبئ الشاطئ من يفرح بلقائه، وينسى ببسمة ما لاقاه، وتشجعه

بأمل جديد، ليعود إلى بحر الحياة في اليوم التالي..

هذا إذا كان الرجل المسؤول صالحاً حاكماً كان أو مسؤولاً في مجاله وليس فاسداً أما إذا كان يعشق المرأة لتكون هي بجواره من ضمن حريم السلطان تفعل به ومن جراء فساد واستبداده وطغيانه ما تشاء وتجره إلى الهاوية وتقوده إلى نهاية حتمية لوحده فيلقى مصرعة السياسي، فإنه لا يحس بذلك إلا بعد النهاية مثل سوزان في مصر وليلى في تونس الأولى زوجة الرئيس المخلوع: مبارك، والثانية: زوجة الرئيس المخلوع: زين العابدين بن علي...

المؤلف

حكاية مرسي مع حريم السلطان(*)

أعرب لأردوغان عن استيائه من «المسلسل» بحجة تشويه تاريخ الخلافة العثمانية

على ما يبدو أن الشخصية الفولاذية التي يتمتع بها الرئيس المصري محمد مرسي، والتي تجعله مادة للسخرية والامتعاض وإثارة العديد من التساؤلات حول شخصيته التي يتمتع بها، وهل هو ذو خلفية سياسية وثقافية تجعله قادراً على تحليل الأمور، لم يعد أثرها قاصراً على الحدود المصرية فقط، بل أنه امتد إلى خارج مصر، وتحديدًا في تركيا، حيث تسبب الرئيس الإخواني الذي يسعى إلى إرساء دولة الخلافة وتحويل مصر إلى إمارة إسلامية في إثارة أزمة ثقافية حادة في أسطنبول بعدما عبر لرئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان عن استيائه الشديد من المسلسل الشهير «حريم السلطان»، الذي يعرض في عدد كبير من الدول العربية ومن بينها مصر.

ورأى مرسي - خلال حديثه مع أردوغان في إحدى زيارته لمصر - أن المسلسل يشوه التاريخ التركي ويظهر السلاطين العثمانيين ضعاف الشخصية وأن الدولة كانت تدار من الحرملك، الأمر الذي دفع أردوغان الذي لم يكن قد رأى المسلسل في بلاده من خلال أعضاء حزبه بالبرلمان الذين طالبوا بوقف العرض على الفور وهو ما اعتبرته المعارضة موجة جديدة من موجات التضييق على الحريات المستمرة منذ أكثر من عامين بقيادة أردوغان.

وكانت الصحفية تاغيهان ألتنشي المقربة من الحزب الحاكم في تركيا قد نقلت عن مسؤول يعمل مع أردوغان قوله إن مرسي عاتب أردوغان أثناء زيارته لمصر بسبب المسلسل. وعبر عدد كبير من الفنانين والسياسيين المعارضين لأردوغان عن رفضهم لإصدار قانون يفرض رقابة على الإنتاج الفني في بلادهم.. معتبرين أن أردوغان يسعى إلى فرض

* الموجز: الاثنين ١٧ من ديسمبر ٢٠١٢.

رقابة صارمة على الفن بعد أن قيّد الصحافة والإعلام.

وتساءل معلقون سياسيون وصحفيون عن سبب هذا الانزعاج الكبير من تصوير التاريخ العثماني والإشارة إلى بعض سلبياته، في حين لا يوفر أردوغان جهداً في السعي إلى كشف الأخطاء والجرائم التاريخية التي قام بها مصطفى كمال أتاتورك ورفيق دربه عصمت أونونو في بداية عهد الجمهورية، وكان هو من أمر بتشكيل لجنة برلمانية للتحقيق في قصف الجيش لمحافظة درسيم المعروفة اليوم باسم محافظة طونجلي (جنوب شرقي البلاد)، بالطيران لرفض أهلها الانضمام إلى النظام الجمهوري في ثلاثينيات القرن العشرين، فضلاً عن أحداث أخرى تسيء إلى سمعة الزعيمين.

وتساءل بعضهم لماذا هذه المحاولة لإضفاء نوع من القدسية على التاريخ العثماني وجلد تاريخ الجمهورية الحديثة بأقسى الاتهامات؟

كما أثار موقف مرسي العديد من علامات الاستفهام حول علاقة أردوغان بالإخوان المسلمين، لاسيما وأن موقفه (أي أردوغان) أصبح أكثر تشدداً بعد أن أعرب عن دعمه المطلق للرئيس المصري في أزمتته مع الشارع. ووصفه للمعتصمين في ميدان التحرير بالانقلابيين، خاصة وأنه هو شخصياً مر بأزمة مشابهة في عام ٢٠٠٧ عندما تصدى لمخطط انقلابي سري كانت التظاهرات الشعبية جزءاً منه.

كما تزداد التساؤلات من منطلق أن موقف أردوغان الأخير يتناقض مع ما كان يتوقعه كثيرون من أن يؤثر حزب العدالة والتنمية التركي بتجربته الإصلاحية في الإسلام السياسي، على تجربة «الإخوان» في مصر، ولكن يبدو أن العكس هو ما قد يحدث، خصوصاً إذا ما تذكرنا كيف اضطر أردوغان للتراجع فوراً عن نصيحته للمصريين بتجربة العلمانية المعتدلة وألا يخافوا منها، وذلك خلال أول زيارة له للقاهرة بعد ثورة ٢٥ يناير.

وأعلن أنه أسىء فهمه، بعدما واجه موجة رفض وعتاب قوية من قبل الإخوان الذين استقبلوه في مطار القاهرة بصفته خليفة للمسلمين، و«تلبوا عليه انتقاداً واتهاماً بعد تصريحه عن العلمانية الذي لم يعيش أكثر من ٤٨ ساعة.

حریم السلطان فی العالم العربی

من الواقع التاريخي إلى الدراما
التلفزيونية



مسلسل حريم السلطان ماله وما عليه

في الفترة الأخيرة كان جمهور المشاهدين للشاشة الصغيرة المرتبة على مستوى العالم العربي كله يتابع بشغف شديد المسلسل التلفزيوني «التركي» .. «حريم السلطان» وحفظ الناس عن ظهر قلب أحداث وشخصيات المسلسل التاريخي وهم أيضاً يمثلون الواقع التاريخي نفسه وبنفس المشاهير من أبطال الأحداث التاريخية التي جرت إبان عهود الدولة العثمانية العريقة، أمثال السلطان «سليمان الأول» والسلطانة الأم والسلطانة خديجة الابنة والشقيقتين والزوجة لإبراهيم باشا، والسلطانة ناهدودوران وابنها الأمير مصطفى، والسلطانة روكسلانا أو «هويام»(*) صاحبة أخطر المواقف المؤثرة في قرارات السلطان الزوج والدسائس المستمرة منها وكلها بحماية السلطان نفسه الذي هام بها حباً وعشقاً وتزوجها بعد أن أعتقها من قبل ومن أجل أن يتولى أحد أولادها من السلطان سليمان ولاية العهد أرادت التخلص من ولي العهد «مصطفى» الابن الأكبر للسلطان من زوجته الأولى «ناهدودوران» وهو الوحيد أيضاً الذي أنجبه منها، ثم أرادت التخلص من الصدر الأعظم والوزير الأول إبراهيم باشا نفسه ولم تخش أنه متزوج من شقيقة السلطان نفسه ولكنها تجده من وجهة نظرها عائقاً خطيراً في طموحاتها نحو العرش عن طريق أولادها من السلطان..!

وتبدو الصراعات في الحرملك السلطاني بين حريم السلطان بعضهن بعضاً، وبين حريم السلطان والقيادات المختلفة وقصص العشق والحب بداية من السلطان نفسه في قصته المثيرة مع «هويام» حبه الكبير، ووزيره الأعظم الأول إبراهيم باشا مع زوجته السلطانة خديجة التي وضحت رومانسيتهما الهائلة في حبها وعشقها للوزير الأول، وحبه لها في نفس الوقت لكن يجدر بنا الإشارة إلى خيانة هذا الوزير الأعظم لزوجته

* اسم السلطانة «روكسلانا» يكتب أحياناً «روكسلانا» واسم الشهرة يكتب أحياناً أخرى «هويام» أو «هيام» لزم التنويه بذلك.

مع إنسانة أخرى عادية في الحرمك «مرينال» التي حملت منه على الفور وقصة الإثارة الدائمة في كراهيته السلطانة الأم لزوجة ابنها السلطان سليمان «هويام» وتأكدها من خطورتها في الحرمك وكذلك نظرة الزوجة الأولى للسلطان ناهدوران إلى ضررتها «هويام» وخطورتها في إنجاب الأبناء الذين يصلحون لتولي الخلافة بعد السلطان سليمان وطموحها وأطاعها في أن يتولى ذلك ابنها مصطفى الأمير الأول، والصراع في ذلك بلغ أشده!

أيضاً اعترض بعض المشاهدين من المسلمين على أحداث متوالية جاءت في هذا المسلسل وأنها تبتعد بالإسلام والمسلمين عن واقع رسالتها النبيلة منذ ظهر بالحق والخير لكل البشر خاصة موضوع قطع الرقاب والرؤوس بالسيوف وغيرها أيضاً مشاهد العري الفاضح أحياناً ضمن الأحداث الدرامية وأن هذا كله ليس من الإسلام في شيء!

وتوجه البعض إلى كبار المسؤولين عن الدراما التركية في المسلسل التلفزيوني التركي «حريم السلطان» بضرورة وقف هذا الهزل الدرامي والإساءة للإسلام وجمهور المسلمين أي أن يتوقف المسلسل التلفزيوني الذي يعرض ذلك لدرجة أننا علمنا من مصادرنا الخاصة أن إنساناً مثل الرئيس المصري محمد مرسي ناقش ذلك (*) مع الرئيس التركي أوردغان في اللقاء الأخير بينهما في القاهرة وأبدى اعتراضه الواضح على هذه الدراما التركية التي تضع الإسلام والمسلمين في حرج شديد ونشر أن الرئيس التركي تفهم ذلك، لكننا لم نر أية نتائج عقب ذلك، فالمسلسل ينتشر في القنوات التلفزيونية الكبرى في الفضائيات وغيرها، ويلقى رواجاً هائلاً في نسبة المشاهدين له في عالمنا العربي والإسلامي، ولكن مع الحرص على ما هو في صالح رسالة الإسلام والمسلمين والتي مضى عليها أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، وضرورة الالتزام بهذه الرسالة النبيلة فالإسلام لم ينتشر بسيف أو بقطع الرقاب، الإسلام يدعو منذ ظهور النبي محمد ﷺ إلى الحب والتسامح بين الناس ورسالته سامية باقية منذ قديم الأزل .. والحمد لله على ذلك.

* سبق القول بذلك سلفاً.

لكن هذا كله لا ينقص هذه الجودة في الدراما التركية وأنها تقدم عملاً درامياً محترماً وبه مشاهد كثيرة وهي الأغلب لصالح الإسلام والمسلمين، وخاصة عن عظمة الدولة العثمانية الكبرى وفتوحات السلطان سليمان عبر تاريخه كلها تنطق بطموحاته نحو صالح الإسلام والمسلمين .. وبإخلاص وتفان وعقيدة خالصة على كل حال نحن في هذا الكتاب نعرض لتفاصيل كثيرة عن «مسلسل حريم السلطان» ونلقي الأضواء على أحداثه وأبطاله بتفاصيل نفرد بها في صفحات هذا الكتاب الهام الذي يأتي في تزامن مشاهدة عرض المسلسل عبر الشاشات والفضائيات مع إصدار الكتاب الذي هو بكل الحق شائق ومثير وهام ونحن في صفحات الكتاب نعرض في نفس الوقت ولأول مرة في عالم الكتب - عالم حريم السلطان من الواقع التاريخي إلى حيث الدراما التاريخية التليفزيونية التي تجسده، لعلنا ندرسها ونتعرف على ما فيها أكثر وأكثر ولعل مقولة نابليون بوناپرت «من أراد أن يخلده التاريخ فليدرس التاريخ»، ونحن أمام مقولته الشهيرة ندرس تاريخ الإمبراطورية العثمانية العظيمة وإن ركزنا على دراما حريم السلطان في الماضي والحاضر. وحتى نفهم التاريخ أكثر ومن هنا ركزنا وبكل الحب والاحترام والتقدير للقارئ العربي على أن نضع باباً كاملاً عن «مسلسل حريم السلطان» والذي تطالعه بين يديك، لنسبق غيرنا بكل الوفاء للقارئ نفسه بتقديم حكاية وقصة ورواية «حريم السلطان» المسلسل الدرامي التركي الأشهر والذي يعرض الآن كما عرضنا من قبل والذي سيستمر في ذاكرة جمهور المشاهدين إلى ما شاء الله.

للأول مرة أشهر شخصيات مسلسل حريم السلطان

السلطان سليمان القانوني

المولد والنشأة:

حين رزق سليم «ياوز» وهو حاكم «بطرابزون» بابنه أطلق عليه سليمان تيمناً بنبى الله سليمان بن داود عليهما السلام، ورباه على العيش الخشن فقد كان سليم يعرف بحبه للقتال والجهاد في سبيل الله، حتى أطلق عليه سليم «ياوز» أي الخشن حتى إنه حين رأى سليمان يلبس ثياباً ذات زخرفة ظاهرة ناه عن تلك الملابس وأمر أن تكون ثيابه عادية وبسيطة.

وأوصى عليه معلمه بأن يشدد عليه، فعلمه الخطوط والمهارات اليدوية التي يحترفها الصناع، فاختار «سليمان» صناعة المعادن فأرسله إلى «صناع جواهر يوناني»، وكان الصناع فظاً في تعليم سليمان حتى جعله صانعاً محترفاً، وتعلم فنون القتال والعسكرية، فاكسب خبرة عظيمة وهو في بداية الشباب، أعانته على حكم الدولة العثمانية فيما بعد حين تولى أمر الخلافة والسلطنة.

كان الميلاد لسليمان الأول في ٦ نوفمبر سنة ١٤٩٤ في طرابزون تلك المدينة الواقعة على ساحل البحر الأسود وظل بها حتى بلغ السابعة من عمره، فأرسله والده إلى القسطنطينية «الباب العالي» ليدرس العلوم والتاريخ والأدب والفقه والعلوم العسكرية في مدارس الباب العالي كعادة الأمراء من العثمانيين مع أبنائهم.

عاش سليمان الأول طفولته في مدينة «طرابزون» التركية التي تقع في شمال شرق تركيا على ساحل البحر الأسود والتي كان أبوه سليم الأول حاكماً لها في عهد أبيه بايزيد الصوفي وطرابزون تقع بين «بيدريز» و«غايروسن» و«غوموشين» و«بيرت»، وتغطي الجبال

والهضاب الخصر نحو ٧٧٪ من أراضيها أما عن تسمية المدينة، فحسب الأساطير اليونانية اشتق اسم طرابزون من اسم بطل من أبطال الخرافات اليونانية ولا يوجد دليل يثبت من أين جاء اسم المدينة، ويقول بعض المؤرخين أن اسم المدينة مشتق من كلمة ترابزيوس وتعني بلغة أهل الأناضول القديمة أبرع زاوية، وهي زاوية قلعة المدينة، وقد ذكر اسم المدينة المؤرخ الروماني «يوسابيوس» أنها نشأت سنة ٧٥٦ قبل الميلاد ويوجد بالمدينة ١٢ نهراً أهمها نهر القلعة.

وتوجد بالمدينة بحيرة «أوزون غول» في وادٍ به الجبال المرتفعة حتى الغابات الخضراء التي تغطي عليها مزيداً من السحر والجمال الخلاب، وفي الشتاء تتجمد البحيرة وتغطي الثلوج المنطقة. وتبلغ مساحة المدينة ٤٩٥ كم^٢ ومن الناحية التاريخية للمدينة فإنها كانت إحدى المدن اليونانية أنشأها الرومان سنة ٦٥ قبل الميلاد، ثم في عام ١٤٦١ أو بعدها استولى عليها السلطان بازيد الثاني المعروف ببازيد الصوفي عليها ونصب ابنه سليم الذي أصبح السلطان سليم الأول عليها حاكماً، وقد رزق سليم الأول أثناء حكمه للمدينة بابنه سليمان عام ١٤٩٥ وتعد طرابزون من أكبر المدن على شرق البحر الأسود وتتمتع بتضاريس جميلة تجذب إليها السائحين من الأتراك واليونانيين والنبطيين. هذه هي المدينة التي عاش فيها سليمان الأول السبع السنوات الأولى من عمره ولا شك أنها أثرت في تكوين شخصيته.

يقول صاحب العقد المنظوم:

السلطان سليمان بن سليم خان عاشر سلاطين آل عثمان فاتح ديار فارس وبغداد، قانع قلاع انكروس وبغدان بلغراد، قانع آثار الكفرة الملحد، معفر جباه عتاة المشركين صاحب الوقائع المشهورة والمناقب المذكورة مَلِكُ مَلِكِ الآفاق بسطوته..!

هو الذي هرب ملك المشرق من بين يديه درباً فدرباً ودانت لهيبته الملوك شرقاً وغرباً فياله من ملك مجاهد تناول الكواكب وهو قاعد أصبح البحر من صارمه الصمصام في اضطراب.

وقال أيضاً: «كان رحمه الله ملكاً ممدوحاً ومحموداً مقداماً مظفراً مسعوداً وقع منه عادة الدين في العذاب الأليم .. وكان رحمه الله ذا حظ من المعارف والنوادر وله معرفة تامة بالتواريخ من الأوائل والأواخر، وكان ينظم الشعر بالتركي والفارسي.

ويقول صاحب شذرات الذهب:

كان سلطاناً سعيداً ملكاً أيده الله لنصرة الإسلام تأييداً، وهو سلطان غازٍ في سبيل الله مجاهد لنصرة دين الله مرغم أنف عداه بلسان سيفه ولسان قناه، كان مؤيداً في حروبه ومغازيه، مسدداً في آرائه ومعاذيه، مسعوداً في معانيه ومغانيه، مشهوراً في وقائعه ومراميه، أيان سلك ملك أو أتى توجه فتح وفتك وأين سافر وسفك، وصلت سراياه إلى أقصى الشرق والغرب، وافتتح البلدان الشاسعة الواسعة بالقهر والحرب وأخذ الكفار والملاحق بقوة الطعان والضرب وكان مجدداً دين هذه الأمة المحمدية في القرن العاشر مع الفضل الباهر والعلم الزاهر والأدب الذي يقصر عن شأوه كل أديب شاعر إن نظم نضد عقود الجواهر أو نثر منشور الأزاهر وأن نطق قلد الأعناق نفائس الدر الفاخر.

كان رءوفاً شفوفاً صادقاً صدوقاً إذا قال صدق وإذا قيل له صدق لا يعرف الغل والخداع ويتحاشى عن سوء الطباع ولا يعرف المكر والنفاق ولا يألف مساوئ الأخلاق، بل هو صافي الفؤاد صادق الاعتقاد منور الباطن، كامل الإيمان سليم القلب خالص الجنان.

ويقول الجبرقي في تاريخه عن السلطان سليمان وعن دولة آل عثمان:

«المغازي السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان فأسس القواعد وتمم المقاصد ومنظم الممالك وآثار الحوالمك ورفع منار الدين وأحمد نيران الكافرين وسيرته الجميلة غنت عن التعريف وتراجمه مشحونة بها التصانيف» .

ثم قال عن الدولة العثمانية:

«ولم تزل البلاد منتظمة في سلتطهم ومنقادة تحت حكمهم من ذلك الأوان الذي استولوا عليها فيه إلى هذا الوقت الذي نحن فيه، وولاية مصر نوابهم وحكامها أمراؤهم. وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين وأشد من ذب عن الدين وأعظم من جاهد في المشركين، فلذلك اتسعت ممالكهم بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نوابهم وملكوا أحسن المعمور من الأرض ودانت لهم الممالك في الطول والعرض هذا مع عدم إغفالهم الأمور وحفظ النواهي والثغور وإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين والتمسك في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع، فتحصنت دولتهم وطالت مدتهم وهابتهم الملوك، وانقاد لهم الممالك والملوك.

أيضاً، كان من أعظم ما قيل من الشعر هو ما نظمه المفتي أبو السعود صاحب التفسير والذي عاصر السلطان: نقرأ منه:

غزاهم بعزم كالشهاب وقد سما ومن حوله عد النجوم جحافلُ (*)
أسود لها لَهف الدروع مواطن وغاباتها سمر القنا والعوامل

وللأديب هاميہ الانقشاري في تاريخ وفاته شعراً قال فيه:

انتقل العادل من دينته جاور الرحمن والمولى الرحيم
قالت الأقطاب في تاريخه مات سليمان بن سلطان سليم

السلطان سليمان القانوني في الذاكرة الإسلامية:

وهكذا طوفنا في سيرة ومسيرة السلطان البطل سليمان خليفة المسلمين الأول العثماني أعظم سلاطين وخلفاء آل عثمان، الذي حكم الدولة العثمانية المترامية الأطراف من الشرق إلى الغرب قرابة ستة وأربعين عاماً لم يتوقف فيها الجهاد في سبيل الله وقاد المعارك

* الجحافل: الجيوش.

بنفسه براً وبحراً فكان حاكم العالم أو السلطان العظيم كما سماه الغرب الصليبي ذلك السلطان الذي كان يلجأ إليه ملوك الغرب لنصرتهم كما فعل ملك فرنسا فرانسوا الأول حين استنجد به وعقد معه تحالفاً ضد إمبراطور إسبانيا وإمبراطور روما المقدس عندهم شارل كان.

وأكثر ما اشتهر به سليمان الأول:

إدخاله الإصلاحات القضائية وسنه للقوانين وتطبيقها من بلاده وحدد قانونه شكل الإمبراطورية العثمانية لقرون عدة بعد وفاته.

وكان سليمان رحمه الله شاعراً وصائغاً للجواهر وراعياً للثقافة والفنون والآداب والعمارة، وكان يتحدث مجموعة من اللغات مثل التركية والعربية والفارسية والصربية.

وقد تعددت ميادين القتال في عهده وبسط نفوذه في أوروبا وآسيا وأفريقيا، فاستولى على بلغراد وجزيرة رودس وحاصر فيينا ومالطا.

وحاصر فيينا ومالطا وضم الجزائر لدولته وفتح طرابلس ليبيا وتوغل في أراضي النمسا وحرر العراق العربي من احتلال الدولة الصفوية إنه سليمان الأول عاشر السلاطين العثمانيين وكان ممن حمل لقب خليفة المسلمين وأمير المؤمنين بعد والده سليم الأول. ولعل النقطة السوداء في تاريخه الناصع هي زواجه بالجارية الروسية روكسلانا التي دبرت كثيراً وخططت المكائد والدسائس التي أودت بحياة الصدر الأعظم للدولة إبراهيم باشا زوج أخت السلطان وصديقه وكذلك مقتل ابن السلطان وولي عهده الأمير مصطفى، وظلت تكيد وتدبر المؤمرات حتى قتل ابنها بايزيد بمكائدها ابنها سليم الثاني وحاولت جاهدة أن تنزع الأمير مصطفى من ولاية العهد كي يتولى هو ذلك المنصب فذاقت من نفس الكائس فأصابها الحزن والكمد فماتت وقيل إنها ماتت بالسم الذي كانت تستخدمه لقتل خصومها مثل إبراهيم باشا الذي حاولت قتله بالسم البطيء فأصاب ابنه الطفل الصغير وبصرف النظر عن أفعال روكسلانا فتاريخ السلطان سليمان ناصع البياض نتذكره ونفخر به، ولعلنا نكون قد

ألقينا الضوء على تاريخه وأعطيناه حقه و هو بشكل موجز هنا، حيث لا نستطيع أن نمنحه مساحة كاملة عن حياته وتاريخه ومسيرته بالشكل الكامل وعلى كل حال فإننا بقدر المستطاع نكتب عنه وبدقة كاملة.

تولى سليمان بن سليم الأول منصب الخلافة والسلطة للدولة العثمانية عقب وفاة والده السلطان سليم الأول في ٦ نوفمبر ١٥٢٠ كما عرفنا من قبل، وكان عمره وقتها خمسة وعشرين عاماً بالتاريخ الميلادي ودخل القسطنطينية ليكون عاشر السلاطين العثمانيين العظام وثاني الخلفاء العثمانيين وأمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين.

يذكر مبعوث البندقية «بارتكوميو كونتاريني» وصفاً للسلطان سليمان الأول بعد دخوله القسطنطينية، يقول:

يبلغ من العمر الخامسة والعشرين طويل نحيف، وبشرته حساسة عنقه طويل قليلاً، وجهه رقيق، شارباه متدليان ولحيته قصيرة (*) ومع ذلك له طلعة لطيفة مع بشرة تميل إلى الشحوبة.

دخل سليمان القسطنطينية بعد وفاة والده السلطان سليم الأول في ٩ شوال سنة ٩٢٦هـ ٢٢ سبتمبر سنة ١٥٢٠م وقد بلغ من العمر نحو خمسة وعشرين عاماً، بدأ في عمله مباشرة كسلطان جديد للدولة العثمانية، فأرسل خطاباته إلى الملوك والزعماء تصدرها قول الله تعالى: إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم.

تيمناً بنبي الله سليمان عليه السلام الذي كان يستخدم نفس العبارة التي سجلها له رب العزة في القرآن الكريم، وكان سليمان النبي عليه السلام يملك جيشاً عظيماً من الإنس والجن والطيور والحيوان لا يستطيع أحد أن يتصدى له، وكذلك كان للسلطان سليمان القانوني أيضاً جيش عظيم بأحدث الأسلحة والعزيمة القتالية، حتى إن أحد الشعراء أنشد يقول:

قل للشياطين البغاة اخسأوا قد أوتي الملك سليمان

* لحيته في مسلسل حريم السلطان كما يصفها مبعوث البندقية بأنها قصيرة!!

أول قراراته الهامة الإفراج عن الأسرى المصريين:

وعقب جلوسه على كرسي العرش أمر بإطلاق سراح ستائة أسير مصريّ وكان أبوه السلطان سليم الأول قد احتجزهم بعد فتحه لمصر وهم من أهم أصحاب الحرف «المهرة» بمصر في ذلك الوقت.

ولم يركن سليمان الأول إلى الراحة رغم أنه كان في عنفوان شبابه فقد لبس لامة الحرب ولم يركن وظل مجاهداً في سبيل الله حتى تجاوز عمره السبعين.

وقد سكن السلطان سليمان قصر توبكابي «الباب العالي» في استنبول الذي كان مركزاً للحكم في الدولة العثمانية منذ عهد السلطان محمد الفاتح الذي أمر ببنائه في سنة ١٤٧٨م فكان مركزاً للدولة على مدار ٣٨٠ عاماً حتى أمر السلطان عبدالمجيد الأول ببناء قصر «دولة» الذي أصبح بعد ذلك مقر إقامة باقي سلاطين الدولة حتى نهاية حكم «آل عثمان» وبلغت مساحة القصر ٧٠٠ ألف متر مربع بالحدائق.

الوزير الأول إبراهيم باشا الفرنجي

الصدر الأعظم وزوج خديجة أخت السلطان «سليمان»

ولد إبراهيم باشا لأسرة مسيحية، قرب مدينة بارغا على الساحل اليوناني وكان والده يعمل «صياداً» للأسماك حين أبعد عن أسرته وهو ما زال طفلاً، إما باختيارها أو باختطافه من قراصنة أو بنظام الدوشيرمة، وأخذ إلى الأناضول، حيث دأب أولياء العهد العثماني على تلقي تعليمهم وهناك لازم السلطان وهو ولي للعهد يتلقى تعليمه، وكان ميلاده عام ١٤٩٣ أو ١٤٩٤ م.

هناك لاحظ العثمانيون فطنة إبراهيم المبكرة ووسامته وشخصيته الجذابة فقرّبه إلى سليمان ابن السلطان سليم الأول الذي اتخذهُ صديقاً فيما سمحت العلاقة بين الاثنين بتلقي تعليمه مع ولي العهد العثماني، ليكتسب مهارات وحرفية منها اللغات المتعددة والثقافة الموسوعية التي يتمتع بها بشكل واضح جداً، وعرف إبراهيم باشا بأسماء متعددة.

بفضل ألقاب لحقت أو سبقت اسمه، إما تمييزاً له عن رجال الدولة والصدور العظام الذين حملوا اسم إبراهيم باشا أو لصفة أو منصب رافق تاريخه.

فقد عرف باسم إبراهيم باشا الفرنجي بسبب أصوله غير العثمانية ... وبزواجه من خديجة شقيقة السلطان القانوني، بات إبراهيم باشا يستحق لقباً إضافياً هو «راماد» الذي يُمنح تشريفاً لصهر السلطان، وأصبح واحداً من ثلاثة صدور عظام في التاريخ العثماني يحملون اسم «راماد إبراهيم باشا».

ويذكر أيضاً بلقب إبراهيم باشا المقتول بسبب نهايته المأساوية على يد السلطان سليمان القانوني، ولُقب أيضاً مقبول إبراهيم باشا بسبب بدايات إبراهيم المكلفة بالنجاح، أما الأتراك والغربيون، فعرفوه باسم إبراهيم باشا البارغالي أو إبراهيم برغالي، أو إبراهيم برغلي «في إشارة إلى بارغا التي ولد فيها» ومنذ تولى السلطان في سنة ١٥٢٠ م الحكم ارتفعت معه مكانة إبراهيم الفرنجي، فكان رئيساً للغرفة الخاصة للسلطان سليمان

«خاص أوده» أي سكرتير خاص له ثم ترقى ليصبح الصدر الأعظم أو الوزير الأول «رئيس الوزراء» أي الرجل الثاني في الدولة بعد السلطان عام ١٥٢٣م ولمدة اثنتي عشرة سنة أو تزيد.

ولقد واجه تعيين إبراهيم باشا كصدر أعظم الكثير من الاعتراضات حيث إنه لم يمر بالمراحل التي يمر عليها من يصل إلى هذا المنصب مما أدى إلى غضب الكثيرين من الوزراء والشخصيات الهامة .. ومحاولة لإرضاء الساخطين أعطى إبراهيم باشا ولاية مصر إلى الوزير الثاني أحمد باشا التي تعتبر من أهم الولايات في الدولة العثمانية، ولكنه أعلن التمرد بعد فترة قليلة من توليه مهام الولاية.

الزواج من السلطانة خديجة أخت السلطان سليمان:

تزوج إبراهيم باشا من أخت السلطان سليمان وهي السلطانة «خديجة» في حفل لم تشهده استنبول من قبل، تميز كثيراً باحتفالات باذخة واستمرت الاحتفالات أكثر من أسبوعين ومن الأمور التي كانت تثير استغراب الكثيرين أن إبراهيم باشا كان حين يدخل على زوجته كان ينحني ويقبل طرف ثوبها، مع أن ذلك يكون فقط للخدم، وكان لا يناديها إلا بتعبير هو «سلطاني أو السلطانة»!

من شدة احترامه لها..!

نهاية أليمة لإبراهيم باشا:

بعد عودة إبراهيم باشا من حملة العراقيين أمر السلطان سليمان القانوني بخنقه بغرفة نوم به قصر الباب العالي، وكان السبب في ذلك أو في تلك النهاية الأليمة مكائد ودسائس السلطانة روكسلانا «هويام» زوجة السلطان سليمان التي سعت لتقويض ثقة السلطان سليمان بإبراهيم باشا خاصة بسبب دعم إبراهيم باشا منذ البداية لولي العهد الأمير مصطفى ابن السلطان سليمان وناهد دوران إعداماً والذي قُضي عليه هو الآخر عام ١٥٥٣ ليصير منصب ولي العهد العثماني في نهاية المطاف إلى «سليم» ابن روكسلانا الذي عُرف بسليم الثاني.

ويظهر ذلك في رسالة بعثت بها روكسلانا إلى السلطان سليمان تقول فيها:

تسألني عن السبب في غضبي على إبراهيم باشا، وحين يجمعنا الله ثانية سأذكر لك السبب وستفهمني «وكان دورها مبهماً وقد يكون استهزاء بأمور أخرى»، وهناك من يرى أن السبب الذي دفع السلطان سليمان باتخاذ هذا القرار هو خوفه من مطامع إبراهيم باشا في الحكم وتعاضم نفوذه حيث إنه في آخر نشاط عسكري له كان إبراهيم باشا قائداً أعلى لكافة الجيوش في مواجهة الإمبراطورية الفارسية الصفوية، ووقع بعض الأوامر العسكرية باسم «سر عسكر سلطان» واعتبر هذا خرقاً بروتوكولياً وتجاوزاً على المقام السلطاني!

وخشى السلطان سليمان أن تكون تلك الأعمال مقدمات لاغتصاب الملك لنفسه خاصة مع ازدياد نفوذه على الجند والقواد واتخاذ القرارات منفرداً دون التشاور مع الوزراء كما اتهم الصدر الأعظم بطمعه في عرش المجر، بل وبالعرش العثماني نفسه.

وهما تهمتان لم يقم عليهما دليل أو برهان، ولا يمكن الاعتماد عليهما في قتل رجل بهذا الوزن وهذه القيمة وتلك الأهمية وترافقت بشأن ذلك علامات استفهام كثيرة؟؟!

ويعلق الكاتب الفرنسي لامارتين ويقول:

نهاية حياة إبراهيم لم تكن لأي سبب، ولا جريمة، سوى عظمتها!

ويتفق بعض المؤرخين مع هذا السبب لكن يرون أن السبب هو أن إبراهيم باشا أساء استخدام السلطة في حملة العراقيين التي سار إليها وكان يرافقه مسؤول الخزانة إسكندر جبلي الذي أُعدم بسبب ما قيل إنه فساد في تصريف الأموال، أو أخطاء ارتكبها في الحملة..! ويعتقد أن إبراهيم باشا دفع ولو متأخراً ضريبة إعدام «إسكندر جبلي»، كما أنه بموجب القوانين العثمانية، فإن الصدر الأعظم هو صاحب الكلمة الأولى في عمليات الصرف ويتحمل بالتالي المسؤولية النهائية لتبذير الأموال.

ومع هذا فقد أثر موت والدته السلطان سليمان وهي السلطانة حفصة على قرار إعدام إبراهيم باشا لأن المؤرخين يرون أنها كانت تحمي إبراهيم باشا والتي جاء قرار إعدامه بعد رحيلها، ومن الأسباب التي ذكرها المؤرخون عن إصدار السلطان سليمان قراره

بإعدام «إبراهيم باشا» جاء بسبب زواجه من امرأة أخرى كان اسمها محسنة (لعلها «فريال» في المسلسل التلفزيوني «حريم السلطان» والتي حملت منه إثر علاقة غير شرعية سرية جعلت غيرة السلطنة «خديجة» عند معرفتها بهذا الخبر أن جعلت السلطان سليمان شقيقها يأخذ القرار بإعدام إبراهيم باشا! (*)

وقد نال الأخير جزاء سنهار على الفور...!

أعمال إبراهيم باشا وخدماته للدولة العثمانية:

أما عن أعمال إبراهيم باشا وخدماته للدولة العثمانية فقد شارك في غزوات وفتوحات السلطان سليمان وقاد حملات عسكرية بنفسه بوصفه قائداً للجيش، كما انتدبه السلطان سليمان للقضاء على تمرد والي مصر أحمد باشا الخائن ورتب الأمور بمصر بعد انتهاء تمرد أحمد باشا وحافظ على استقرارها وأعاد النظام فيها ثم عاد إلى عمله كصدر أعظم مرة أخرى.

وكان مقتل إبراهيم باشا بعد عودة الجيوش العثمانية إلى القسطنطينية قادمة من مواجهتها الأولى مع الدولة الصفوية حيث أمر السلطان سليمان بإعدام رجله الأول إبراهيم باشا الذي عُثر عليه ليلة ٢٢ رمضان سنة ٩٤٢هـ / ٥ مارس أو ١٤ - ١٥ مارس عام ١٥٣٦ مخنوقاً في غرفة نومه بقصر الباب العالي، أي بعد حوالي ١٣ عاماً من تنصيبه صدرًا عثمانيًا أعظم.

يذكر المؤرخون أن إبراهيم باشا قبل إعدامه بسنوات، توسل إلى السلطان سليمان أن يتمهل في ترقيته بغية عدم إثارة حسد وزراء ومسؤولي الحكومة الكبار، الأمر الذي قابله السلطان بأن أقسم على ألا يسمح للوشاية أن تأخذ طريقها أو أن تأخذ طريقاً بينهما، وبعدم تعريض صديقه للموت الذي كان في الدولة العثمانية، عقوبة معتادة للمسؤول المشتبه في تقصيره أو خيانتة.

إلا أن السلطان العثماني سليمان حصل على فتوى تحيز له الحنث بقسمه لقاء بناء مسجد في القسطنطينية، وواصل لسبعة ليال تناول الطعام في العشاء مع إبراهيم باشا

* هذا الرأي ليس له ما يؤيده حيث توفيت السلطنة خديجة زوجة إبراهيم باشا بعد مقتله حزناً عليه...!

لوحدهما، مانحاً إياه فرصة الهرب أو حتى أن يقتله السلطان بنفسه!
وكشفت رسائل إبراهيم باشا التي كتبها قبل أيام من إعدامه، علمه بنية سيده إلا أنه ظل وفياً للسلطان.

تاريخياً يعد إبراهيم باشا واحداً من ٢٢ صدرأ أعظم قضوا نحبهم بأوامر من سلاطينهم غير أن مكانته وقربه الشخصي الذي أمسى عائلياً من السلطان، ومنصبه ثم الصلاحيات التي منحت له والأعمال التي أوكلت إليه مع عدم وضوح الدافع الحقيقي لإعدامه، جعلت المؤرخين يقدمون عدة تفسيرات لنهايته المأساوية المفاجئة...!
ويعتقد مؤرخون أن إبراهيم باشا ظل محافظاً على روابط مع جذوره المسيحية، وعمد إلى تقريب اليونانيين، وجلب والديه للعيش معه في العاصمة العثمانية، وهذا قد منح خصومه فرصة ترويح شائعات عن تمسكه بمسيحيته وخطورته على الدولة الإسلامية.

كان للتشكيك في عقيدة الصدر الأعظم ما يبرره في نظر بعض المؤرخين الذين لاحظوا أن حرص الصدر الأعظم الديني صار يتدنّى مع تعاظم قوته، وأن معظم أعماله الإسلامية كانت في آخر عهده، ربما لمواجهة الأقاويل حول ضعف إسلامه.

ومن الروايات التي تعد مثالاً لما يمكن أن يؤدي إليه التساهل الديني في سيرة إبراهيم باشا أنه بعد عودته من الحملة المظفرة في المجر عام ١٥٢٦ جلب إبراهيم باشا من بودا ثلاثة تماثيل لشخصيات الآلهة الرومانية: أبولو، وهرقل، وديانا، وأقامها في باحة قصره.
بالنسبة للعامة الذين يطلقون على الصدر الأعظم اسم إبراهيم الفرنجي اعتماداً على أصوله الأوروبية، فإن هذا التصرف يدل على ضعف العقيدة، بل وأخطر من ذلك: تمسكاً بالجذور المسيحية! وسرعان ما انتشر في المجتمع العثماني بيت من الشعر نُسب إلى الشاعر «فيجاني» وترجمته:

في هذا العالم ظهر إبراهيمان الأول هدمَ، والآخر نصَّب الأوثان

وفي ظل حكومة ومجتمع يرفعان شعار الإسلام، فإن لمثل حملات التشكيك هذه

خطورة كبرى، بالنظر إلى أن السلطان العثماني، الذي يعد نفسه خليفة المسلمين، ليس بوسعه احتمال عواقب صدر أعظم مشكوك في عقيدته. (*)

خسر السلطان سليمان المنظر الأول والرئيس له، والذي عمل منذ البداية على إعلاء صورة «القانوني» والترويج له بصفته الغازي المظفر والمنافع عن الإسلام، والفتاح الجديد خلفاً للإسكندر الأكبر، البطل المفضل لدى السلطان.

وبخروج إبراهيم من المسرح العثماني يختم الفصل الأول من عهد الأخير إبراهيم باشا، والذي وصلت فيه الدولة إلى أقصى اتساع لها شرقاً وغرباً.

والحقيقة أن إبراهيم باشا في مسلسل حريم السلطان قد بين الكثير من مواقفه خاصة خيانتة لزوجته شقيقة السلطان سليمان «خديجة» مع «فريال» المرأة العادية في حريم السلطان التي حملت منه...!

وتراقصت علامات استفهام كثيرة حول هذه الخيانة وهو متزوج من الحسنة خديجة «السلطانة» التي تعطيه كل العواطف بصدق شديد وإخلاص وتفانٍ في تأكيد حبها له المنقطع النظير...!

وراح الصدر الأعظم إبراهيم باشا ضحية المؤامرة النسائية في الحرملك من حريم السلطان، كما ذهب إلى ذلك الكثيرون من المؤرخين عام ١٥٣٦ م بعد أن خدم الدولة العثمانية والسلطان سليم الأول نحو اثني عشر عاماً أو تزيد.

كانت الدولة العثمانية هي مركز الثقل في العالم، وأصبح سلطانها هو خليفة المسلمين لا ينازعه في هذا اللقب أحد، غير أن اهتمام العثمانيين بهذا اللقب ازداد منذ القرن التاسع عشر الميلادي، واتخذوا من الخلافة وإحياء مجدها واسترداد ما كان لها من الهيبة والنفوذ والمكانة وسيلة لمقاومة ضغوط الدول الأوروبية والاستعمارية على الخلافة العثمانية.

وتعرف سلطانها سليم الأول بعد أن قضى في الحكم تسع سنوات حيث توفي في سنة ١٥٢٠ م الموافق سنة ٩٥٦ هـ وخلفه ابنه سليمان الأول القانوني.

* انظر موسوعة بوكيبيديا العالمية على الإنترنت .. وهناك روايات تذكر أن السلطان سليمان هو الذي أهدى هذه التماثيل لإبراهيم باشا.

الأم: عايشة حفصة سلطان أو حفصة خاتون سلطان

١٤٧٩ - ١٥٣٤م

هي زوجة السلطان سليم الأول وأم السلطان سليمان القانوني وكان يناديها بمقولته الشهيرة «سِتُّ الكل»، وكانت واحدة من أكثر الشخصيات نفوذاً في الإمبراطورية العثمانية خلال فترة حكم ابنها سليمان في عام ١٥٢٠م حتى وفاتها عام ١٥٣٤م، وتعد أول من حمل لقب والددة السلطان وتؤخذ كمثال على مفهوم «سلطنة الحريم».

ولها أدوار إيجابية في حل الخلافات بين زوجتي سليمان القانوني ولدها، حُرْم و «ماه دوران» التي انتهت بعد وفاتها إلى نفي السلطان لزوجته الأولى «ماه دوران» وإعدام ابنها مصطفى ولي العهد وابنه الأكبر منها بعد المكائد التي دبرتها روكسلانة (خرم) لها.

وكانت والددة السلطان سليمان توفر الحماية لزوج ابنتها الصدر الأعظم القوي إبراهيم باشا، الذي أعدم بأمر من السلطان بعد نحو عام من رحيل السلطنة الأم حفصة!

وقد توفيت عايشة حفصة سلطان عام ١٥٣٤م ودفنت بجانب ضريح زوجها في مسجد سليم الأول في اسطنبول، وقد أنجبت له سليمان القانوني و «خديجة وحفصة وفاطمة».

السلطانة خديجة أخت السلطان سليمان الأول

خديجة خاتون ابنة السلطان سليم الأول من زوجته عائشة حفصة سلطان، وأخت السلطان سليمان القانوني تزوجت إبراهيم باشا الفرنجي حيث نشأت بينهما قصة حب عذراء، توجت بموافقة السلطان سليمان على هذا الزواج، وأقام لها السلطان حفل زفاف أسطورياً، تكلف معظم غنائم الفتح العثماني لروُدوس مما أسهم في غضب الجنود الإنكشارية.

وأنجبت منه محمداً الذي توفي لأسباب غامضة وهو رضيع وقد قيل إنه مات بالسم الذي وضعته «روكسلانا» لأبيه إبراهيم باشا وأنجبت أيضاً عثمان وجيهان.

أصبح إبراهيم باشا زوجها بسبب صحبته للسلطان وزواجه من أخته الوزير الأول أقوى الشخصيات نفوذاً في الدولة العثمانية، وأصبحت تقريباً كل سلطات الدولة في يديه ما أزعج السلطانة روكسلانا التي عرفت باسم «هويام» والتي كانت تعرف أن في صعود نجم إبراهيم باشا قضاء على حلمها الآخر بتولي أحد أبنائها الخلافة بعد أبيه، ولذلك أوغرت صدر السلطان سليمان عليه واتهمته بالتعدي على أبنائها ثم اتهمته بالتعدي على حقوق السلطان وذلك في إحدى الحملات ضد الدولة الصفوية، مما حدا بالسلطان سليمان إلى إعدامه خنقاً بأمر السلطان...!

أدى إعدام إبراهيم باشا إلى حدوث جفاء بين السلطان وأخته خديجة التي غرقت في حزن عميق ماتت على إثره بعد عامين سنة ١٥٣٨ وعمرها ٤٢ عاماً كما أدى إلى تعاظم نفوذ روكسلانا بشكل كبير.

وكذلك ضعف مركز الأمير مصطفى بن سليمان من السلطانة ناهد، الذي ما لبث أن أعدم أيضاً بناءً على مؤمراتها فاتحاً الباب أمام أخيه سليم الثاني من روكسلانا، ليتولى الخلافة بعد موت السلطان الوالد سليمان.

الحريم السلطاني «الحريم الهمايوني»

يطلق على المكان الذي يسكنه الحريم السلطاني اسم «الحرم الهمايوني» وهو في القسم الخلفي من الديوان الهمايوني على يسار الباحة الثانية في سراي طوبي قاي ويطل على القرن الذهبي ويتكون من عدة إيوانات وممرات وشقق وغرف ومبانٍ للخدمة، وهو مغطى بقباب وعقود وغلفت جدرانه بأثمن أنواع القاشاني والرخام وزُينت بأنواع الخطوط والكتابات الجميلة، ولا عجب في ذلك فهو سكن السلطان أيضاً.

والحرم الهمايوني هو القسم المخصص لسكن نساء القصر من الزوجات والبنات والأم والبالدة ومقر إقامة السلطان الذي هو السيد المطاع ويوجد به مقر المحظيات والجواري . والمقيمون به هم السلطان وزوجته وبناته وأولاده، وهناك قسم الخدم من القلفاوات والجواري وغيرها.

كانت أسرة السلطان هي مركز الدائرة لكل الهيئات والطوائف التي تعمل في منطقة الحريم، وشمل سكنى القصر السلطاني مع زوجات السلطان فئات من الجواري الحسان والخصيان البيض والسود، وكانت أجنحته عبارة عن مباني مستقلة أو وحدات سكنية مستقلة غاية في الروعة والفخامة وتعدد الحجرات والقاعات ويطلق على كل مبنى «دائرة» .

وكانت أجنحة الحريم السلطاني محاطة بأسوار عالية تقوم عليها حراسة مشددة وكان الطريق المؤدي إليها عبارة عن ممر طويل له أربعة أبواب من الحديد وبابان من البرونز ومفاتيح هذه الأبواب مع رؤساء الخصيان، وتعد منطقة أجنحة الحريم منطقة مغلقة ومحرومة لايسمح لأحد بالاقتراب أو النظر إلى ساكنيها وقد تم شق أحد التجار من رعايا «البندقية» وآخر أرمني يعمل مترجماً لقيامهما بالتلصص على أجنحة الحريم وذلك في عهد السلطان «مراد الرابع» (١٦٢٣ - ١٦٤٠م).

وكانت توجد في منطقة أجنحة الحريم مساحات كبيرة واسعة من الحدائق والخضرة

التي عني بها وبتنسيقها، إضافة إلى الساحات المكشوفة مثل المدن السياحية في العصر الحالي.

وكان للسلطان مقصورة خاصة وسط أجنحة الحريم تحوي غرفة نومه وحماماً وقاعة استقبال كبرى يؤدي فيها الصلاة ويستقبل فيها أهل بيته. وكان السلطان يقوم بزيارة من يريد من حريم القصر في أي وقت، وكانت إحدى موظفات القصر وتدعى «الكايا» تنظم الأوقات التي يقضيها السلطان مع حريم القصر في الليل أو النهار، وأيضاً على نزواته مع البعض منهن في حدائق أجنحة الحريم، ويطلق على تلك النزوات «الخلوة السلطانية» وكان السلطان فيها يلبس صندلاً من فضة كي يحدث صوتاً على الأرض المكسوة بالرخام حتى لا يفاجئن الجوّاري بوجوده في أجنحة الحريم.

وكان لا يسمح لأية سيدة من حريم السلطان سواء كانت الأم والوالدة أو الزوجات أو البنات أو الجوّاري بالخروج من أجنحة الحريم إلا في حالات نادرة حين كان السلطان يصطحب بعضهن في زيارة لأحد القصور الصيفية، وإذا أرادت إحدى الحريم من حريم السلطان التنزه في حدائق كان عليها أن تحصل على إذن من السلطان شخصياً فإذا أذن السلطان لمن اتخذت الإجراءات الأمنية اللازمة شخصياً لمنع النظر إليها، فالذي يحق له النظر إلى حريم السلطان هو السلطان نفسه بالطبع والخصيان ورؤساؤهم الذين يطلق عليهم أخوات الخصيان.

وبالجملة فمنطقة حريم السلطان مقدسة في الدولة العثمانية ومنطقة محرمة يحرم الاقتراب منها أو النظر إليها حتى قيل إن كلمة حريم تعني المنوع والمقدس.

السلطانة الوالدة

ويطلق عليها بالتركية «والدة السلطان» وكان يطلق عليها أيضاً لقب «مهد علياى سلطنت» أي مهد السلطنة العالي، ويطلق عليها أيضاً اسم «خاتون» تبعاً للتقاليد السلجوقية الموروثة.

ومنذ القرن السادس عشر أخذ لقب «سلطانة» ولذلك عرفت به والدة السلطان سليمان الأول «حفصة».

ولم تحصل على لقب والدة سلطان من أمهات السلاطين العثمانيين الست وثلاثين، إلا ثلاث وعشرون سلطانة، أما الأمهات الأخريات فقد توفين قبل أن يعتلي أبناؤهن عرش السلطنة.

والدة السلطان هي أكثر السيدات نفوذاً في السراي وأكثرهن اتصالاً بها خارجه. وكان الموكب يعرف باسم والدة آلاي، أي موكب السلطانة الوالدة، فهي بالتالي سيدة القصر.

وكان للسلطانة الوالدة دخلها المالي الخاص يأتيها من مخصصات كثيرة في الإمبراطورية العثمانية من ريع أراضي السلطانية باسم «باشمقلىق» ومخصصات أخرى صيفية وشتوية، ثمن الهدايا التي تأتيها من الدول الأجنبية ومن رجال الدولة، فهي تملك ثروة طائلة، تنفقها على الأوقاف الإسلامية والخيرية في إستانبول ومكة والمدينة المنورة والقدس.

وكانت تخصص عدة أجنحة في القصر السلطاني لسكنى الوالدة أم السلطان الحاكم إذا كانت على قيد الحياة.

كان السلاطين العثمانيون يكونون لأمهاتهم قدراً كبيراً من التبجيل لا يرفضون لهن طلباً وكان نفوذها يمتد إلى جميع زوجات ابنها السلطان وجواريه.

وكانت لها سيدة تعمل كمديرة لمكتبها وكيله عنها يطلق عليها «كاخيا» سلطانة

والدة وهي عادة من بين السيدات المتقدمات في العمر واللاتي قطن في أجنحة الحريم السلطاني حتى يستفاد من خبراتها وتجاربها تلك السيدة المتحدث الرسمي باسم السلطنة.

وكانت لهذه السيدة «كاخيا السلطنة» نفوذ واسع في القصر ودوائر الدولة الحكومية ويزداد نفوذها إذا كانت السلطنة الوالدة سيدة أجنبية الأصل ذات شخصية قوية.

زوجات السلطان

وكان لهن ألقاب يتدرجن في الحصول عليها مثل:

إقبال وخاصكي وقادين أفندي..

في البداية كان السلاطين يتزوجون من بنات حكام الدول المحيطة بالدولة كالإمارات الأناضولية والإمبراطورية البيزنطية.

وقد ساهمت تلك الزيجات في تدعيم أسس الدولة العثمانية ثم انتشرت عادة الزواج من الجواري في عصر السلطان محمد الفاتح واستمرت حتى انهيار الدولة العثمانية.

وحياة السلطان الخاصة مثل حياة أي رأس دولة في كل زمان ليست خاصة به في استقامتها أو في عوجها، وكان لسلاطين الدولة العثمانية مواقف معينة من تصدر الزوجات والاستمتاع بالمحظيات والزواج من نساء أهل الكتاب، وقد أصبح لنساء السلطان في عصور السلاطين التنابلة بعد عصر السلطان سليم الأول السطوة والنفوذ القوي إنهم كانوا الحكام الفعلين، ومن ثم انحدر الرسم البياني لتلك الدولة إلى الأسفل.

لقد أباح الإسلام تعدد الزوجات إلى أربعة زوجات إضافة إلى المحظيات من الجواري وقيد هذا التعدد بالعدل بين الزوجات، وقد أخذ سلاطين الدولة العثمانية كغيرهم من ملوك الأرض والدول بمبدأ تعدد الزوجات وكان الهدف من هذا التعدد في بداية الدولة العثمانية هو توثيق أو أصر الدولة والعمل على اتساعها، والتزم سلاطين الدولة العثمانية بالشروط العددي الذي ورد في الشريعة الإسلامية من أربع زوجات وكانت هؤلاء الزوجات أميرات مسلمات ومسيحيات وكان السلاطين السبعة الأوائل لايتزوجون إلا بالحرائر من النساء، أي لم يقعن في حياتهن في الأسر ولم يتعرضن للخطف من تجار الرقيق أو تم شراؤهم كالجواري وتم الزواج بهن بعقود زواج شرعية.

ولكن السلاطين بعد السلطان محمد الفاتح خرقوا تلك العادة وجنحوا بالزواج من غير الحرائر ومنهم السلطان سليمان الأول.

فقد بدأ المؤسس للدولة السلطان عثمان الأول بالزواج من نساء أهل الكتاب فاختار لنفسه زوجة مسيحية من «قيليقيا» - أرمينيا الصغرى، وكذلك زوج ابنه أورخان، زوجة مسيحية أيضاً تدعى «نيلوفير» من اليونان والتي أنجبت له السلطان مراد الأول والذي تزوج من ابنة ملك «بلغاريا» وهكذا مع باقي السلاطين الأوائل السبعة.

وهكذا الغالبية العظمى من السلاطين الأوائل قد أقدموا على مثل هذه الزيجات لتقوية دعائم الدولة الوليدة مع جيرانها من الدول المسيحية، وكان لهؤلاء السلاطين من قوة الشخصية وحسن التصريف للدولة ما منع نساءهم من التدخل في شؤون الدولة، فقد كان لكل زوجة أسبابها وملابسها ودوافعها الخاصة بها.

كان أكثر هؤلاء الزوجات الكتابيات يشهرن إسلامهن عقب الزواج ومنهن من يبقين على ديانتهم بموافقة أزواجهن إلا أن ولاءهن كان دائماً لبلادهم القادمين منها.

بنات السلطان

وهن الأميرات يطلق عليهن لقب سلطنة وهو لقب يأتي بعد ذكر أسمائهن الخاصة، وأصبح علماً عليهن منذ عهد السلطان محمد الفاتح، وقد كان يطلق عليهن لقب «خاتون» الذي استعمله العثمانيون تأثراً بالسلاجقة الذين كانوا قبلهم.

وكانت بنات السلاطين العثمانيين يتسمين بأسماء إسلامية عربية مثل: عائشة وفاطمة وخديجة وزينب ورقية، بعكس أسماء الزوجات اللاتي يحملن في الغالب أسماء فارسية مركبة. وكانت الأميرات يقضين حياتهن داخل دائرة الحريم السلطاني حتى تبلغ سن الزواج ويقوم على خدمتهن الجوّاري ويقوم على تعليمهن أشهر المعلمين وكان السلطان يحضر دروس تعليمهن بنفسه، فكانت تتلقى الدروس الدينية وتحفظ القرآن وتتعلم الخط والتاريخ والجغرافيا.

جوارى السلطان

الجارية في الإسلام وكما تطرقنا إليها في بعض سطور هذا الكتاب هي كل امرأة أخذت أسيرة في الحرب أو نقلت قسراً من بلاد العدو بشرط أي تكون غير مسلمة لأنه لا يجوز لأي سبب من الأسباب أن تسبى المسلمة أو تسترق، أو هي التي تنجبها أمة مملوكة ويكون أبوها عبداً أو غير مالك لها مسلمة كانت أو كاتبة، أو التي تشتري من أسواق الرقيق، فالإسلام قد حرم السبي منذ قضاؤه على عادة الغزو غير الشرعي التي كان يفعلها البدو في الصحراء.

ونظام الجوارى كان معروفاً قبل الإسلام في كل المجتمعات والدول ولما جاء الإسلام أغلق جميع أبواب الرق بالنسبة للرجال والنساء ما عدا رق الحرب، وكانت الفتوح الإسلامية والغزوات فرصة مواتية لحصول المقاتلين العرب المسلمين على العبيد غير المسلمين وعلى الجوارى.

ولما هدأت حركة الفتوحات الإسلامية كان الحكام المسلمون يحصلون على الجوارى عن طريق الشراء من تجار النخاسة وكانت القصور في دمشق وبغداد والأندلس وغيرها مليئة بالجوارى والعبيد، وكان عددهم يفوق عدد الحرائر في هذه القصور.

وقد عرفت قصور سلاطين آل عثمان نظام الجوارى والعبيد مثل بقية القصور الملكية في أوروبا كلها وكانت الجوارى في القصور العثمانية الملكية متعددة المصادر والأجناس والألوان متفاوتات في الجمال ومختلفات في الدين وكن ينتمين إلى ديانات مختلفة مثل الإسلام والمسيحية واليهودية والوثنية ولكن يدخلن في الإسلام أو يتظاهرن تملقاً لأسيادهن الذين كانوا يحرمون بعضهم للتزوج منهن زواجاً شرعياً.

وكان بعضهن يحافظن في أغلب الأحيان على ديانتهم الأولى وكان أسيادهن يقبلن هذا الوضع ولا يكرهونهن على اعتناق الإسلام.

إذاً فسلاطين الدولة العثمانية لم يستحدثوا نظام الجوارى في قصورهم، وقد وضع أصحاب المذاهب الفقهية قواعد تنظيم أوضاع الجوارى من رق وعتق ووطء وزواج

وطلاق وغير ذلك من مسائل تتصل بأحوالهن الشخصية.

فإذا وطأ السيد الجارية التي هي ملك يمينه وأنجب منها تغير وضعها القانوني فتصبح أم ولد ولا يجوز أن يبيعها أو يتصرف معها أي تصرف ينقل ملكيتها أو يعوق حريتها ولا تعود إلى الرق وهذا ما أخبر به النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «أم الولد لا تباع ولا توهب» وقوله أيضاً: «أعتقها ولدها» وإذا أعتقها السيد وعقد عليها وتزوجها تمتعت بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الحرائر.

وكان القصر السلطاني يموج بأعداد وفيرة من الجواري الحسان وكانوا يحصلون عليهن من ثلاثة مصادر بشرائهن من تجار الرق الذين يخطفون البنات من أهليهن من بلاد اليونان والبندقية وألبانيا والنمسا وغيرها، إضافة إلى الهدايا التي تأتي للسلطان، وبمجرد التحاق الجواري بالقصر السلطاني ودخولهن في الإسلام كانت تعد لهن في داخل القصر دراسات في الثقافة الدينية الإسلامية والسلوك الاجتماعي «التركي» وكانت الجواري تنتظم في مجموعات قوام كل مجموعة عشر جوار وتشرف عليهن رئيسة.

وكان يتحدد مستقبل كل جارية عند سن معينة أقصاها سن الخامسة والعشرين فيعتقها السلطان ويزوجها كسيدة حرة من أحد كبار القادة العسكريين أو المدنيين وكان السلطان هو الذي يختار لها الزوج ثم تغادر القصر، وقد يعجب السلطان بالجارية ويعتقها وتنجب له ولداً أو بنتاً أو أكثر وتصبح أماً لأولاده، ويعلو مركزها إلى مرتبة تقرب من مرتبة السلطنة ويطلق عليها لقب «قادين» وهي كلمة تركية معناها كما فهمنا «سيدة» وأيضاً يطلق عليها في المراجع الفرنسية بخاتون أو «كاتون» وقد تزوج السلاطين العثمانيون السبعة الأوائل نساء حرائر بعقود زواج شرعية ثم السلاطين الذين تسابقوا على عرش الدولة بعد السلطان محمد الفاتح قد اتجهوا إلى جواري القصر باعتبار الجارية ملك يمين للسلطان وله أن يطأها وتنجب له الأولاد، وتصبح أم ولد ومن ثم يتمتع نسلها بالحرية، ويتم عتقها عقب وفاة السلطان وله أن يعتقها ويعقد عليها وينجب منها.

وقد اكتفى السلاطين بأربع جوّاري من جوّاري القصر واحتفظ في الوقت ذاته بسائر جوّاريه لأن الشريعة الإسلامية لا تمنع في ذلك ولا تضع قيداً على عدد الجوّاري التي يجوز للمسلم الاحتفاظ بهن وأن يطأهن! وكان كل سلطان يرفع الجوّاري الأربع اللاتي يتم اختيارهن مكاناً مرموقاً في القصر بعد أن تصبح «قادين» ويخصص لكل واحدة جناح خاص في منطقة «الحريم السلطاني» وتكون كل «قادين» بمثابة سلطنة لها حاشية خاصة بها.

وكان هناك صنف من الجوّاري غير القادنيات الأربعة تعرف باسم «الكدكليات» أي المميزات، وكن مرشحات للترقية إلى مرتبة «قادين» عندما يخلو هذا المنصب لسبب أو لآخر.

وكانت «الكدكليات» تقمن على خدمة السلطان شخصياً وكان السلطان يتخذهن محظيات له وكن يطلق عليهن «خاص أوطه لق» أو فتيات الحجرات ويطلق على الواحدة منهن أيضاً «إقبالة» أي سعيدة الحظ، وإقبالة هي كلمة تركية مثل كلمة إقبال العربية.

وكانت في الحريم السلطاني وظيفتان رئيسيتان تشغلهما جارتان، الوظيفة الأولى «كاخا قادين» أو «المعلمة» وكاخيا تعني وكيل أو وكيلة، وكانت مسؤولة عن النظام في أجنحة الحريم والوظيفة الثانية «خزينة دار أوسطى». ومعناها أستاذ أو رئيس عمل وهي مسؤولة عن المسائل المالية الخاصة بالحريم السلطاني بكل فئاته وطوائفه وهناك أخرى تسمى «شاكزادة» أي التلميذات وهي الجوّاري الجدد الملتحقات بالقصر حديثاً وهناك طائفتي الجوّاري الخادمت اللاتي يقمن بالخدمة في القصر السلطاني فقط.

زوجات وأولاد السلطان سليمان الأول

هن أربع زوجات غير الجواري:

١- ناهد دوران أو ماه دوران قادن «بنت عبدالله» أم الأمير مصطفى.

٢- خروم خاصكي سلطان «أي الباسمة» أو روكسانا: هي جارية عقد السلطان نكاحه عليها وهناك خلاف حول نسبها فهناك من يقول إنها كانت أرثوذكسية من أصل أوكرائي، وآخرون يقولون بأنها فرنسية أو إيطالية وهي والددة الأمير سليم الثاني والأمير محمد .. وقد سماها سليمان «هويام» أي شدة العشق.

٣- كلغم خاتون: من الجواري ووالدة الأمير مراد.

٤- بنت عبدالله: ووالدة الأمير محمود.

وأما أولاده فهم:

١- الأمير محمود خان ٢- الأمير مصطفى خان ٣- الأمير مراد خان

٤- الأمير محمد خان ٥- الأمير عبدالله ٦- الأمير مهرماه

٧- الأمير سليم ٨- الأمير بايزيد ٩- الأميرة فاطمستي

١٠- الأميرة راضية ١١- الأمير جهانكير ١٢- الأمير أورخان

ونستطيع أن نلقي الضوء على أهم زوجات السلطان سليمان:

١- السلطنة ناهد دوران أو السلطنة (ماه دوران قادن)

وتعرف بالسلطنة «مهد فران» في المصادر والمراجع فهي مهد فران أو ماه دوران، ولقبت بكلبهار واشتهرت عند العرب باسم «ناهد دوران» في مسلسل حريم السلطان، وهي الزوجة الأولى للسلطان سليمان القانوني وأم الأمير مصطفى الذي كان ولي العهد قبل مقتله على يد والده..!

وناهد دوران، ألبانية الأصل ومعنى اسمها «زهرة الربيع» وهي ابنة موسيقى ألباني ثري يدعى «عبدالله رجاي» كان لها أخ وحيد يدعى «نقاشان آدم».

تزوجها السلطان سليمان القانوني عندما كان أمير السنجق مانيا وسماها «كلبهار» والتي تعني بالعثمانية التركية وردة الربيع نظراً لجمالها وحسنها ونضارة بشرتها..

أنجبت ناهد دوران للسلطان سليمان القانوني الأمير مصطفى عام ١٥١٥م وعندما توفي السلطان سليم الأول عام ١٥٢٠م انتقل السلطان سليمان مع زوجته ناهد دوران وولده لإسطنبول لاستلام الحكم والسلطنة والخلافة الإسلامية.

وكانت وردة الربيع امرأة ذكية وواعية وكان السلطان سليمان يحبها كثيراً لكنها تميزت بالخبث والذكاء إلى جانب الجمال، ولم تحسن السيطرة على غضبها وغيرها، فلم يتزوج غيرها في بداية الأمر ولم يكن يميل إلى جواريه.

وكانت «ناهد دوران» أيضاً من الزوجات الحذرات، لم تكن من الغافلات النائمات التي تشغل حتى تأتيها من تشاركها السلطان فكانت تسافر مع السلطان وتحاول أن تكون في عينيه كل النساء وحتى لا ينشغل عنها بغيرها وكانت تستعين بوصيفتها المخلصة «كوثر»!

وكانت «كوثر» فتاة يتيمة كانت تعيش في الولاية التي يحكمها السلطان سليمان لما كان ولياً للعهد، اهتمت السلطنة ناهد دوران بها وجعلتها صديقتها ووصيفتها المقربة.

كانت كوثر وأتباعها يخبرون السلطنة عند قدوم دفعة جديدة من الجوارى إلى الحرم لك لتتم معايتها من السلطنة فتقوم بصرف الجميلات منهن وتسفيرهن إلى

بلادهن، أما العادية التي لا يمكن أن تعجب السلطان يتم ضمها للحرملك!

ثم جاءت الدفعة التي كانت تضم «روكسلانا»، فالتقت وجهاً لوجه للمرة الأولى مع ناهد دوران، وكانت وردة الربيع أجمل بكثير من روكسلانة ولكن للدهاء خطط أكبر من الجمال وقد دار بين الاثنتين هذا الحوار في أول لقاء بين الزوجة الغيورة وبين الجارية الجديدة.

فسألت ناهد: ما اسمك؟

أجابت روكسلانا: اسمي روكسلانا يا مولاتي.

فقالت السلطانة ناهد: ماذا تتقنين من عمل الجواري!

روكسلانا: مراقبة الأطفال، والتزيين، والدف والعزف والرقص، وأعرف التجهيز للمناسبات يا مولاتي.

السلطانة ناهد: ربما لن نحتاج لعزفك ورقصك، ولكن قدتنفعين في مناسبات الحرملك! استعينك مع جواري المناسبات.

وكانت المناسبات مثل حفلات الزواج، والاحتفال بولادة الأطفال كذلك عيد الفطر وعيد الأضحى، وحفلات استقبال السلطان لما يرجع من حروبه وسفرياته

وبالتالي فإن السلطانة الغيور قد خانها التوفيق وقدمت الجارية الداهية للسلطان دون أن تدري، وأطلقت عليها «خورم» أي الباسمة أو الضاحكة. ولقد سعت روكسلانا من اليوم الأول أن تكون هي سيدة القصر والسلطانة الأم، لذلك أوجدت «ماه دوران» في الحرملك السلطاني في إسطنبول لها منافسة جديدة على قلب السلطان هي تلك الجارية الروسية الكسندرا روكسلانا التي سماها السلطان سليمان فيما بعد «هويام» والتي أنجبت للسلطان الأمير محمداً عام ١٥٢١ ثم الأمير سليما عام ١٥٢٣. اشتعلت المنافسة بين الاثنتين وكان لوالدة السلطان السلطانة عائشة حفصة سلطان دور في كبح جماح هذه المنافسة حتى وفاتها عام ١٥٣٤م فبعد وفاة السلطانة الأم تمادت السلطانة «ناهد دوران» في الإساءة إلى روكسلانا، بسبب دهاء ومكر روكسلانا التي لم تقبل بوجود أي أحد في حياة وقلب السلطان سليمان غيرها، لذلك سعت للتخلص من «ماه دوران» وساعدها

في تخطيطها غير «ناهد» الشديدة من ضررتها الروسية التي أحبها السلطان سليمان القانوني بجنون وجعلها مستشاره الأول في شؤون الدولة حيث انهالت في إحدى المرات ضرباً على روكسلانا التي استفزتها بالحديث عن النشأة الأولى لكل منهما، ولم تفهم حينها أن تلك هي إحدى مكائد روكسلانا لها، حتى تبعد السلطان عنها، وبدأ حقدّها على غريمته الروسية الذي تسبب للروسية «هويام» بإصابات بالكدمات والخردوش في جميع أنحاء جسمها.

بعد انتهاء هذه المعركة النسائية عادت السلطنة «ناهد» مسرعة إلى جناحها حتى تحتفل بانتصارها، بينما عادت «هويام» سعيدة بما تحمله من آثار العدوان، واحتجبت عن السلطان على غير عاداتها ما أشعره بالقلق عليها، وبعد أن رفضت شفهيّة تقول إنها غير جديرة بالظهور أمامه لأنها كما قالت زوجته الأولى: (لحم يباع ويشترى) الأمر الذي أثار غضب السلطان وانتهى بإقصاء السيدة الأولى، وأم ولي العهد عن موقعها الرسمي التي اعتادت على رسم المكائد لروكسلانا وجاريته بحنكة ومهارة، رسمت نهايتها ونهاية ابنها مصطفى لاحقاً بغيرتها وسذاجتها مما أغضب السلطان سليمان عليها وأرسلها للعيش مع ولدها الأمير مصطفى في سنجق أماسيا، الذي كان حاكماً عليه في أيام أبيه سليم الأول وانفردت روكسلانا بالسلطان سليمان الذي هام بها عشقاً وحباً فكان لها وزوج ابنتها الصدر الأعظم رستم باشا والذي كان له دور في تأليب السلطان سليمان على ولي عهده الأمير مصطفى حيث أقنع السلطان أن مصطفى سيثور على السلطان ويعزله حيث كان يحظى بمحبة جنود الإنكشارية. مما حدا بالسلطان سليمان إلى إصدار أمر بإعدام ولده خلال إحدى حملاته على الدولة الصفوية سنة ١٥٥٣ م. وهكذا تحقق لها ما كانت تصبو إليه بأنها أصبحت «سيدة قلب وقصر سليمان القانوني» دون منازع وأصبح ابنها سليم الثاني ولياً للعهد ثم سلطاناً على الدولة العثمانية بعد أبيه سليمان الأول.

أما السلطنة «ناهد دوران»، فإنها بعد إعدام ولدها انتقلت إلى بورصة لتجاور قبرها الذي دفن هناك، ولم يكن لها مصدر دخل مما حدا بابن زوجها السلطان سليم إلى جعل راتب مخصص لها حتى وفاتها عام ١٥٨١ رحمها الله وعفا عنها.

٢- روكسلانا الزوجة الثانية للسلطان

اشتهرت روكسلانا زوجة السلطان سليمان بالكثير من الأسماء والألقاب ففي المصادر العثمانية تذكر بالسلطانة خُورم وهذا الاسم معناه بالتركية الضاحكة، أو الباسمة وعند الغرب، تعرف خُرم باسم «روكسولينا» وروكسلانا، روكسلين.

وتطلق الأدبيات الأوكرانية على خُرم اسم «أنا ستارسيا» ناسيتا ويرد اسمها في المرويات البولندية - حيث كانت أوكرانيا جزءاً من المملكة البولندية - اسم ألكاندرا نيوفسكا أما بالعربية فتعرف باسم كريمة و «هويام».

واشتهرت باسم هيام أو هويام كما كان اسمها في المسلسل التركي حريم السلطان، ومعنى هويام هو شدة العشق.

ولدت روكسلانا في بلدة اسمها روها تيد شرق أوكرانيا وكان والدها راهباً أوكرانياً، اختطف من تار القرم أثناء هجراتهم المعتادة في القرم وبيعت لاحقاً أو أهديت إلى القصر العثماني.

كتب الديبلوماسي النمساوي «هانز دير نشاوم» الذي أمضى بعض الوقت في اسطنبول عام ١٥٥٥ في مذكراته فيقول:

إن سليمان وقع في حب تلك الفتاة المجهولة العائلة والتي يغلب الظن أنها من أصل روسي فأعتقها وتزوجها وسمح لها بالانتقال للعيش معه في نفس القصر.

اختلف المؤرخون حول ديانة روكسلانة فالبعض يذكر أنها كانت مسيحية وأن والدها كان قساً أرثوذكسياً أوكرانياً.

وهناك مؤرخون آخرون يذكروا أنها يهودية الأصل ولكن دون إسناد رابطين مسلكها في القصر السلطاني بذلك ومحاولتها إدخال اليهود الحاشية السلطانية وكذلك تمكينهم من دخول فلسطين والحصول على وعد يشبه وعد بلفور من السلطان سليم الثاني ابنها.

المهم أنها اعتنقت الإسلام بعد زواجها من السلطان سليمان ولكن لاحقت الجذور المسيحية لحرّم سمعتها التاريخية، إذ تُتهم باستغلال موقعها لتقويض الدولة العثمانية الإسلامية لصالح الدول الأخرى، بما فيها الصفوية والأوربية والماسونية العالمية ومن العجيب أننا نجد البعض اليوم يدافع عنها بسبب قيامها بتبرعات وأوقاف إسلامية أو بناء مسجد وقد غضوا الطرف عن مكائدها للدولة العثمانية.

واختلف المؤرخون كيف وصلت روكسلانا إلى قصر السلطان سليمان فقيل إنها اختطفَت من قبل تثار القرم أثناء هجراتهم المعتادة في القرم، وبيعت لاحقاً أو أهديت إلى القصر العثماني وسرعان ما استقطبت روكسلانا اهتمام سيدها السلطان سليمان القانوني الذي تتفق معظم المصادر التاريخية على تأثيرها الأسطوري عليه.

ويقول الديبلوماسي النمساوي دير نشاوم عن روكسلانا:

كان نفوذها عظيماً لدرجة دفعت البعض إلى التهكن بأنها ربما تكون سيطرت على السلطان سليمان بفعل ساحر «والساحر» !!
ولا عجب في ذلك فإن كيد النساء عظيم وهن يستخدمن أي شيء للسيطرة على من يرون!

ويقول أيضاً دير نشاوم عن روكسلانا:

إن جميع طلباتها كانت مجابة من دون شروط أو قيد وكانت هي من طلبت نقل مقر الحريم الإمبراطوري من قصر بازيد، إلى قصر آخر هو تعرب كابي لتكون على مقربة من السلطان سليمان. والجدير بالذكر أن المسافة التي كانت تفصل سرايا السلطان عن قصر الحريم كانت كبيرة جداً، فقد كان قصر الحريم حتى أواسط القرن السادس عشر في السراي القديم الذي شيده محمد الفاتح بعد احتلاله القسطنطينية في عام ١٤٥٣. لهذا شعرت روكسلانا بأن الحياة ستكون أسهل بالنسبة إليها إذا ما عاشت هي وزوجها تحت سقف واحد، وساعدها على نيل مطلبها هذا، نشوب حريق في العاصمة في عام ١٥٤١ أدى إلى تدمير جزء كبير من السراي القديم، الأمر الذي أفزع القاطنات في سكن

الحريم انتهزت روكسلانا القرصة لكي تنتقل إلى السراي الكبير الذي أصبح منذ عهد محمد الفاتح مركزاً للحكومة، وفيه كان ينام «سليمان» حين لا يشعر بالرغبة في زيارة الحريم.

بعد انتقال روكسلانا إلى السراي الكبير أمرت ببناء باب بين جناحها الجديد وبين جناح السلطان!

وبذلك أصبحا لا يفترقان على الإطلاق!

ويعلق السفير النمساوي غيزان دوبوسبك الذي خدم في تركيا بين عام ١٥٥٥ وعام ١٥٦٢م في مذكراته عن ما وصلت إليه السلطنة روكسلانا من مكانة عند السلطان سليمان فيقول:

حصل سليمان على بعض أبناء آخرين من روكسلانا الذي دفعه حبه لها إلى منحها موقع الزوجة الشرعية وتخصيص مهر لها، ومعروف أن تخصيص المهر هو الأسلوب الأضمن لإعلان الزواج الشرعي عند الأتراك وبهذه السابقة سجل سليمان سابقة وخرج عن التقاليد والعادات التي كانت معتمدة لدى من سبقه من السلاطين «رسائل الحب بين السلطان سليمان والسلطنة روكسلانا»:

في التعبير عن حبه تلك القصائد الشعرية والرسائل التي نشرت وأظهرت هذا الحب الأسطوري «أقيم في تركيا على سبيل المثال خلال عام ٢٠١١ معرض عشق السلاطين تضمن سبع خطابات كتبتها السلطنة روكسلانا «هويام» إلى السلطان سليمان».

نماذج للرسائل العاطفية:

وفي إحدى رسائلها إلى السلطان سليمان كتبت روكسلانا:

سيدي السلطان، إن غيابك عني قد أوجع ناراً لا ينطفئ لهيبها ارحم هذه الروح المعذبة وسارع في الجواب، لأنني قد أجد فيه ما يخفف عني. سيدي حين تقرأ كلماتي ستتمنى لو أنك كتبت إليّ أكثر للتعبير عن شوقك لي!

وفي رسالة أخرى كتبها روكلانا إلى السلطان سليمان تقول:

«يا سيدي أنت شمسي وسلطاني ومنبع سعادتي، أريد أن أسجد وألثم قدميك بدموعي وقبلاتي.. إن حبي لك جنوني!».

وفي رسالة أخرى كتبت روكلانا:

«يا سيدي وسلطاني، مضى شهر ونصف الشهر دون أن ألقى أخباراً من سلطاني..! لا أعرف طعم الراحة من دون أن أرى وجهك كل يوم أو أمضي ليلي ونهاري في الندب والبكاء.. لقد أثقلت على حياتي وضاق العالم في عيني وأنا بعيدة عنك.. إني أترقب رؤيتك بفارغ الصبر».

أولاد روكلانا:

أنجبت روكلانا خمسة أطفال هم:

١- شهر ازادة محمد.

٢- ابنتها الوحيدة (ميريا) أو مريم.

٣- سليم الذي تولى الحكم فيما بعد وعُرف بسليم الثاني.

٤- وبازيد.

٥- وعبدالله.

وأنجبت عام ١٥٣١ صبياً آخر هو جهانجير أو جهانكير.

بذلت روكلانا جهوداً كبيرة لتمحو أي عاطفة من السلطان سليمان تجاه زوجاته الأخريات مثل «ماهيدوران» - «ناهددوران» وأيضاً غولبا بار «كل فم خاتون».

وكانت والدة السلطان سليمان السلطانة عائشة حفصة تتدخل للتهدة بين الزوجتين لكن بعد وفاتها عام ١٥٣٥، اشتدت شراسة الخلافات وصولاً إلى الاشتباك بالأيدي، الاشتباك المعروف والآخر، ألحق أضراراً جسيمة بخُرم، كان وراء نفى السلطان لـ «ماه دوران» إلى مانسيا، مع ابنها أكبر أبنائه مصطفى رغم أن هذا النفي قُدم بوصفه بورتوكولياً معتاداً لتجهيز مصطفى لولاية العهد.

روكسلانا وإبراهيم باشا:

بعد عودة إبراهيم باشا من حملة العراق أمر السلطان سليمان القانوني بخنقه بغرفة نومه بقصر الباب العالي واختلف المؤرخون في سبب ذلك فيرى بعض المؤرخين أن السبب الذي جعل السلطان سليمان يأمر بقتل إبراهيم باشا هو مكائد ودسائس زوجته السلطانة «روكسلانا» هويام.

ووفقاً للروايات، فإن السلطانة روكسلانا، سعت لتقويض ثقة السلطان سليمان بإبراهيم باشا، خاصة بسبب دعم إبراهيم باشا منذ البداية لولي العهد مصطفى ابن السلطان سليمان الأكبر من زوجته الأولى «ماه دوران» والذي قتل هو الآخر عام ١٥٥٣، ليصل ابن روكسلانا، سليم الثاني إلى ولاية العهد ثم كرسي الحكم.

وكان إبراهيم باشا الصدر الأعظم ومن خيرة الصدور العظام في عهد سليمان وموضع ثقته وسره وقد زوجه السلطان من إحدى شقيقاته وكان يخرج على رأس الحملات العسكرية بمفرده أو مع السلطان في أوروبا وآسيا وأكمل فتح أذربيجان، واتجه للعراق وفتح بغداد آخر عام ١٥٣٤ ثم دخلها سليمان في يناير عام ١٥٣٥م وكان السلطان ينييه في إجراء المفاوضات مع الدول وكان على حظ وافر من العلم والثقافة والتدين وراعياً للشعراء والفنانين العثمانيين لكن السلطان سليمان حين وقع تحت سيطرة روكسلانا استجاب لرغبتها في عزل إبراهيم باشا الذي كان مؤيداً لولي العهد مصطفى، فاستجاب السلطان لرغبة روكسلانا في طلبها عزله، فعزله ولكنها أرادت قتله فطلبت ذلك صراحة من زوجها السلطان ليطم اغتيال إبراهيم باشا بالقصر السلطاني ليلاً، ثم دعوته لتناول العشاء على مائدة السلطان حيث أمر السلطان بقتله، ولم تشفع له كل انتصاراته وإنجازاته عند السلطان وتم القتل خنقاً!!

وبعد اغتيال إبراهيم باشا أصبح الطريق ممهداً أمام روكسلانا لتنصيب ابنها «سليم» في ولاية العهد حيث أمرت سليمان تعين رستم باشا الذي زوجته بابنتها وساعدها في

اغتيال ولي العهد الأمير مصطفى وبمقتل الأمير مصطفى تحقق لروكسلانا ما أرادت ودبرت وحرمت الدولة العثمانية من سلطان مرتقب وهو الأمير مصطفى الذي أجمع معاصروه بأنه يتمتع بكفاءات ممتازة تجعله سلطاناً عظيماً مثل أبيه وأجداده.

ولم تظهر روكسلانا أو هويام أسفاً على مقتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا حيث جاء في رسالتها للسلطان سليمان تقول فيها:

«تسألني عن السبب في غضبي على إبراهيم باشا وحين يجمعنا الله ثانية سأذكر لك السبب وسوف تفهمني!».

مؤامرتها في قتل ولي العهد الأمير مصطفى بن سليمان:

تُتهم خُرْم بدورها في تخريض السلطان على ابنه وولي عهده مصطفى وساعدها في ذلك زوج ابنتها الصدر الأعظم رستم باشا الذي انتهز الفرصة بقيادة مصطفى لإحدى الحملات العسكرية إلى بلاد فارس، إذ كاتب رستم باشا السلطان يخبره أن ابنه طلب المساعدة من العسكر المعجيين به وينوي الانقلاب عليه!

عام ١٥٥٣ سافر السلطان إلى فارس استدعى ابنه مصطفى إلى خيمته ليتم خنقه فور دخوله...!

انقض عليه ثلاثة من الجلادين وقتلوه أمام أبيه السلطان الذي خضع كلياً لأوامر ورغبات زوجته روكسلانا «هويام».

وقد روى هذه القصة السفير الفرنسي في اسطنبول وعلق عليها المؤرخ الأمريكي ليبير بقوله:

إن فتوى شيخ الإسلام أنه يستحق الإعدام أي الأمير مصطفى، جعلت السلطان يزداد تصميمياً على قتل ابنه قياساً على أن خيانة الابن لأبيه لا تقل عن خيانة العبد لسيده، وهناك فارق بين العبد والابن، وإلا فإنه كان من الأجدر أن يذكر السلطان في سؤاله للمفتي القصة بوضوح ولا يستخدم التورية!

ويقال إن سليمان القانوني قتل ابنة مصطفى بفتوى مزيفة من شيخ الإسلام أبي السعود عندما أرسل له السلطان رسالة يقول فيها: غاب تاجر ثري عن العاصمة، وعهد إلى عبده الإشراف على أعماله ولم يكد التاجر يسافر حتى سعى العبد لسرقة أموال سيده وتدمير تجارته، وتآمر على حياة زوجته وأولاده فما هي العقوبة التي يستحقها هذا العبد؟ فأجاب شيخ الإسلام، إنه يستحق الإعدام!

قدمت روكلانا العديد من الأوقاف والمنشآت الخيرية في العاصمة العثمانية ولكونها زوجة خليفة المسلمين فقد شملت أعمالها مكة المكرمة والقدس.

وفاة روكلانا «السلطانة هويام»:

ابتليت السلطانة روكلانا في أواخر حياتها بموت ابنها محمد، فبقيت بقية حياتها معتلة الصحة في شبه عزلة وفي مرض مستمر.

ثم فاجأها الموت حتى إن بعض المصادر تذكر أنها ماتت بالسم البطيء بواسطة إحدى وصيفاتها!

وتوفيت خرم «روكلانا» السلطانة «هويام» في ١٥ أبريل ١٥٥٨م، ودفنت في ضريح مقبب يتبع للمسجد السلياني، وقد دفن زوجها السلطان سليمان لاحقاً قريباً منها.

وقد بدأ عصر انحدار الدولة العثمانية بعد وفاة سليمان الأول وتولى ابن روكلانا سليم الثاني، وإن استمر عهد الدولة العثمانية بعده إلى بداية القرن العشرين أي نحو أربعة قرون إلا أنها كانت أشد مراحل الضعف والانحيار من خلال سلاطين ضعاف من نسل سليم الثاني ابن روكلانا..!

يبقى القول أن السلطان سليمان ابن سليم الأول تولى منصب الخلافة والسلطة للدولة العثمانية عقب وفاة والده السلطان سليم الأول في ٦ نوفمبر سنة ١٥٢٠، وكان عمره

وقتها خمسة وعشرين عاماً بالتاريخ الميلادي ودخل القسطنطينية ليكون عاشر السلاطين العثمانيين العظام وثاني الخلفاء العثمانيين وأمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين.

إنه سليمان الأول بن سليم الأول ابن بايزيد الثاني ابن محمد الفاتح ابن مراد الثاني ابن محمد الأول ابن بايزيد الأول ابن مراد الأول بن أورخان بن عثمان بن أرطغل وعثمان الأول هو أول السلاطين العثمانيين ومؤسس الدولة، وتولى السلطان سليمان الأول الحكم كما أشرنا وعمره بالتاريخ الميلادي خمسة وعشرون عاماً وبالتاريخ الهجري ستة وعشرون عاماً.

اليهودية روكسلانا .. خاتنة الإمبراطورية العثمانية:

تفاصيل أكثر يرويها عن اليهودية روكسلانا التي تزوجها السلطان سليمان وأصبحت السلطانة «هويام»، فبعد أن قويت شوكة المسلمين في القرم وأصبحت أغلب المناطق التي عرفت فيما بعد بالاتحاد السوفيتي خاضعة لحكمهم زهاء ثلاثة قرون، بدأ الروس يهاجمون المسلمين واستولوا على الجزء الشمالي من شبه الجزيرة عام ١٠٩١هـ (١٦٨٠م) وحينها هبت الدولة العثمانية لنجدة التتار المسلمين، وتحالفت معهم قرابة قرن من الزمان لصد أي عدوان روسي، ثم ضعف أمر المسلمين وضعفت الخلافة الإسلامية العثمانية التي كانت رمزاً لوحدة المسلمين وقوة تدافع عنهم وعن قضاياهم لأسباب عدة؛ كان منها زواج السلاطين بغير المسلمات كزواج «السلطان القانوني» بوركسلانا الروسية التي لعبت دوراً خطيراً في سقوط القرم؛ حيث جعلت زوجها السلطان العثماني يمنع المسلمين في شبه جزيرة القرم من محاربة الروس؛ حتى تمكن الروس بموجب اتفاقية «كوتشوك كاينارجي».

في ٢١ يوليو ١٧٧٤م تم فصل القرم عن سيادة الدولة العثمانية وإعلانها دولة مستقلة، ثم توالى النكسات!

نقضت الإمبراطورية الروسية «كاترين الثانية العهود والاتفاقيات الموقعة مع الدولة العثمانية» واستولت على شبه جزيرة القرم في ٨ أبريل ١٧٨٣م (١١٩٨هـ) وضمته إلى

الإمبراطورية الروسية وكانت هذه الإمبراطورية شديدة التعصب للمسيحية، وبدأ منذ ذلك الوقت الاضطهاد الديني ضد المسلمين في القرم.

لقد تغلغل اليهود في جسد الدولة العثمانية في أواخر عصر السلطان سليمان القانوني والذي يعتبر من أعظم السلاطين العثمانيين منذ أن تزوج من الجارية اليهودية روكسلانا والذي أهديت له أو دُست في مخدعه من قبل حكماء صهيون من بقايا يهود الخزر والذي قوض العثمانيون مملكتهم وشردوهم في أوروبا وقد نجحت روكسلانا في استنبول كما نجحت قبلها أستير في بلاط الإمبراطورية الفارسية، وأقنعت السلطان سليمان القانوني في آخر أيامه من تنصيب ابنه سليم (ابن روكسلانا) ولياً للعهد الذي أصبح فيما بعد (السلطان سليم) ومنذ أن اعتلى سدة الحكم أصبح اليهود أصحاب النفوذ الأقوى في البلاط العثماني لدرجة أن وصل عدد الوزراء اليهود في البلاط العثماني ٤ وزراء مقابل وزير عربي واحد مع العلم بأن نصف مواطني الإمبراطورية كان من العرب.

كانت روكسلانا كسيرة حين دخلت البلاط السلطاني لأول مرة، كاية جارية مهداة إلى أعظم سلاطين ذلك الزمان مجرد هدية متواضعة هي عندما أهداها تثار القرم للسلطان سليمان الأول أعظم سلاطين الدولة العثمانية، كانت تسمى «خرم» كما سبق وأوضحنا (أي الباسمة)، وكان لها جمال يفوق الوصف، إلا أنها كانت يهودية.

إنها روكسلان .. المرأة التي نكست رأس أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ الحديث!!

تفيد بعض المراجع التاريخية أن تلك الصبية الرائعة الحسن والجمال أعطيت اسم «خوريم» عندما أدخلت إلى البلاط العثماني عام ١٥٢٠م، وهو اسم يعني السعادة والمرح، لأن الابتسامة وحيوية التعبير لم تكونا تفارقان محياها.

وفي ذلك الحين، لم يكن يعرف عن تلك الصبية الحسناء الرائعة الأنوثة والجمال، التي تمكنت خلال عام واحد فقط، من الاستحواذ على قلب السلطان العثماني سوى أنها تنحدر من أصل سلافي أو بولوني، وأنها تدعى (روكسلانا) وفيما جاء في معظم القليل

المعروف عن نشأتها وحياتها السابقة فإنه يعتمد على الروايات والأحاديث المنقولة، كذلك فإن مراحل وتفصيل حياتها بعد زواجها من (السلطان سليمان) موثقة جيداً وهي في غاية الدقة والوضوح وتفيد أنها أنجبت له بين الأعوام ١٥٢١ و ١٥٢٥ خمسة أطفال كما ذكرنا من قبل هم:

«محمد» وابتنتها الوحيدة (ميريا) و «سليم» الذي أصبح لاحقاً بسلطان سليم الثاني و «بيازيد» وفي عام ١٥٣١ أنجبت له صبيّاً خامساً سُمي «جهانجير». بذلت روكسلانا أو «حوريم» جهوداً مضنية لتمحو العاطفة التي يكنها السلطان لخليلاته الأخريات المفضلات مثل:

«ماهيدروان» و «غولبار» ولم تعد وسيلة لتحقيق هذه الغاية.

افتتن السلطان سليمان بجمالها حين وقعت عيناه عليها لأول مرة لدرجة جعلته يتخلى عن قيادة حملاته العسكرية، وكان قد قاد حملة عسكرية بنفسه، ليملك مع تلك الفاتنة إلى الراحة والدعة والسعادة والعشق واليهام والغرام..

أعتقها ثم تزوجها، فرادت منزلتها في البلاط السلطاني، وخاصة بعد أن أنجبت له (سليماً)، قبل أن تبدأ في التخطيط لإزالة الابن الأكبر «الأمير مصطفى» من خلافة أبيه، فاستغلت وفاة الصدر الأعظم ياسر باشا ليتم تعيين لقيط كرواتي يدعى رستم باشا، والذي تدرج إدارياً في الدولة.

ولم يكن رستم باشا هذا سوى تحفة من صنائع روكسلانا! حتى إنها استطاعت أن تقنع السلطان بتزويج ابنتها منه، حيث إن العثمانيين لم يكونوا يهتمون بالنسب بقدر ما يهتمون بكون المرء عثمانياً!

واستغل رستم باشا الأحداث التي كانت تجري بين الفرس والدولة العثمانية عام ٩٥٤هـ حيث كان مصطفى يقود جيشاً في محاربتها للصفويين، فكتب للسلطان سليمان بأن ابنه يعتزم اغتصاب الخلافة كما فعل جده سليم الأول بأبيه «بيازيد»، وهو يحرض الانكشارية على ذلك!

وامتلاً صدر السلطان سليمان غضباً على ولده مصطفى، فاستدعاه يوم ١٢ شوال سنة ٩٥٤هـ إلى خيمته ثم أمر بعض الخدم فخنقوا مصطفى حتى قتله، وعندما بلغ الخبر الناس ثارت الإنكشارية ..

وهموا بعمل انقلاب، وطالبوا السلطان بقتل رستم باشا إلا أنه اكتفى بعزله لتهدئة الاضطرابات وعين بدلاً منه أحمد باشا، لكن روكسلانا استطاعت إقناع السلطان سليمان بقتل الصدر الجديد، ليعود زوج ابنتها مرة أخرى للصدر العظمى!

ولم تكتف روكسلانا بذلك، بل أرسلت إلى مدينة بورصة، من يقتل ابن مصطفى وكان طفلاً رضيعاً، ولم يتنه الأمر عند هذا الحد، فقبل موتها استطاعت روكسلانا بدائها أن تدبر مكيدة لابن آخر للسلطان وكان يدعى بايزيد، فبتحريض من لالا مصطفى مربى سليم تمرد الابن بايزيد على أبيه، لكنه هُزم، ففر إلى إيسايا، ومنها إلى بلاد الفرس حيث التجأ هو وأولاده عند السلطان طهماز شاه الصفوي، والذي غدر بهم وسلمهم لرجال السلطان العثماني فقتلوه جميعاً في مدينة قزوين في حين قام السلطان سليمان بقتل حفيده ابن بايزيد في بُورصة!

ولم يكن ذلك فقط هو الدور الذي قامت به روكسلانا فلأنها من أصل روسي توسطت عند السلطان سليمان ليمنع المسلمين في شبه جزيرة القرم من محاربة الروس وكف أيديهم عنهم!

لكن القيصر إيفان الثالث والمعروف بالرهيب للأفعال الرهيبة التي فعلها مع المسلمين، استطاع توحيد الروس فأغاروا على القرم داخل بلادهم، وسيطروا عليهم، وظلوا يحاربون الدولة العثمانية حتى سقطت في نهاية الأمر.

هذا بالإضافة لما حدث في الأندلس عندما سقطت في يد الصليبيين، حيث كان بها أعداد كبيرة من اليهود الذين لا قوا أسوأ معاملة من الصليبيين الذين خيروهم بين اعتناق النصرانية أو الرحيل من الأندلس، فاضطر الكثيرون للدخول في النصرانية، في حين رجل الباقون، وهنا استطاعت روكسلانا أن تجعل السلطان سليمان، يقبل وفودهم

إلى الدولة العثمانية حيث كان لهم أكبر الأثر في سقوط الدولة العثمانية، حيث عرفوا بيهود الدونمة.

وبوفاة السلطان سليمان الأول، أصبح ابنه سليم والذي يعرف بالسلطان سليم الثاني الحاكم الشرعي للدولة العثمانية، والذي خلد التاريخ مدى انحطاطه لما عرف عنه، فقد كان كثير السكر، وكان عهده هو عصر بداية الضعف في الدولة العثمانية. وكتب السفير النمساوي غيزلان دوبوسبك الذي خدم في تركيا بين ١٥٥٥ و ١٥٦٢، في مذكراته يقول:

حصل سليمان على بضعة أبناء آخرين من روكسلانا «السلطانة حوريم» الذي دفعه حبه لها إلى منحها موقع الزوجة الشرعية وتخصيص «مهر» من أجلها. ومعروف أن تخصيص المهر هو الأسلوب الأضمن لإعلان الزواج الشرعي عند الأتراك. وبهذه الطريقة، سجل (سليمان) سابقة وخرج على التقاليد والعادات التي كانت معتمدة لدى من سبقه من السلاطين.

وكتب الديبلوماسي النمساوي «هانز دير نشاوم» وكان قد أمضى بعض الوقت في استنبول عام ١٥٥٥ في مذكراته:

إن السلطان سليمان وقع في حب تلك الفتاة المجهولة العائلة «روكسلانا» والتي يغلب الظن بأنها من أصل روسي فأعتقها وتزوجها وسمح لها بالانتقال للعيش معه في نفس القصر.

وبلغت «دير نشاوم» إلى أن جميع طلباتها كانت مجابة من دون قيد أو شرط وكانت هي التي طلبت أن يتم نقل مقر الحريم الإمبراطوري من قصر «بيازيد» القديم إلى قصر «توبكاي» لتكون على مقربة من سليمان! ويقول:

كان نفوذ روكسلانا على السلطان سليمان عظيماً لدرجة دفعت البعض إلى التكهن ربما تكون سيطرت على السلطان بفعل السحر ..

لكن من المهم وفي جميع الأحوال أن نعرف بأن روكسلانا أو خوريم حققت غاياتها

وأهدافها بفضل الذكاء والطموح والحب!

أعلن السلطان سليمان وروكسلانا أو «خوريم» أو «هويام» حبهما الواحد للآخر عبر القصائد الشعرية والرسائل أيضاً وغالباً ما كان يخاطبها على أنها المليكة والحبيبة والقمر المتلألئ ورفيقة الدرب الطويل، وكل شيء . وطبعاً لم يكن لينسى أن يناديه بالسلطانة! وفي إحدى رسائلها إلى سليمان كتبت روكسلانا تقول:

يا سيدي ويا سلطاني، مر شهر ونصف الشهر من دون أن نلتقي ومن دون أن أرى وجهك كل يوم، وأمضي ليلي ونهاري في الندب والبكاء .. لقد أنقلت على حياتي .. وضاق العالم في عيني وأنا بعيدة عنك .. إني أترقب رؤيتك بفارغ الصبر.

وفي رسالة أخرى كتبت تقول:

يا سيدي أنت شمسي وسلطاني ومنبع سعادتي أريد أن أسجد وألثم قدميك، بدموعي وقبلاتي . إن حبي لك جنوني!

وتفيد المراجع أن المبعوثين الأجانب إلى استنبول كانوا يحملون الهدايا النفيسة إلى السلطانة روكسلانا .. ومن جهتها ارتبطت هي عن طريق المراسلة بعلاقات صداقة مع عدة ملكات في العالم ومع شقيقات الشاة «تحمسب» ملك فارس آنذاك .. إنه عندما لجأ الأمير الفارسي «إلكاس ميرزا» إلى البلاط العثماني عاملته بكل الحنو والعطف الذي قد تكنه أم لولدها وخاطت له بنفسها قميصاً حريراً وثوباً مطرزاً بالذهب.

وتذكر بعض المراجع أن السلطانة روكسلانا ساهمت إلى حد كبير في فرض ذوقها في الأزياء على نساء ذلك الزمن وأثرت فيهن بتسريحة شعرها غير المألوفة وملابسها وحليها. وظهرت في لوحة بريشة الفنان «جاكوبو تينتوريتو» وهي ترتدي قفطاناً حريراً بأكام طويلة وياقة عنق مثنية إلى الخلف و «هوتوز» (نوع من الرواء).

أما الفنان ملشيور لوريكن ..

فأحب أن يظهرها في لوحته كامراً جميلة ممتلئة قليلاً وتحمل زهرة في إحدى يديها، وتضع أقرطاً من اللؤلؤ في أذنيها، وتصفّر شعرها .. ويضم متحف قصر «توبكاي»

لوحة أخرى للسلطنة روكسلانا «تظهرها في شكل امرأة ذات وجه صغير نحيل، وعينين سوداوين واسعتين وثمر صغير وترتدي (هوتوز) مرصعاً بالآلئ والأحجار الكريمة، إضافة إلى أقراط أذن هلالية الشكل.

واللوحة في مجملها تظهر امرأة تبث الجمال وقوة الشخصية والشكيمة.

ويروي التاريخ كيف كانت «السلطنة روكسلانا» تحيك المكائد المؤمرات وهو ما عرضنا له فيما سلف من الحديث عنها ومن جهة أخرى، خبرت السلطنة حوريم «روكسلانا» «هويام» في المسلسل التلفزيوني حريم السلطان المأساة والفاجعة مع الوفاة المبكرة التي لحقت بابنيها (محمد) و (جهانجير)، وأمضت ما تبقى من حياتها معتلة الصحة وفي شبه عزلة حتى فارقت الحياة غير مأسوف عليها..!

الباب الأول
البحراري



عالم الجواري المثير

المرأة والرجل كقوتي الكهرباء

إذا تأثر أحدهما، تأثر الآخر .. وكذلك بدأت المرحلة التي بدأت فيها المرأة العربية تتأثر .. وكان لتلك المرأة منزلة في القلوب تعنوها الوجوه وتطمئن دونها النفوس، ولم يكن مرجع ذلك لما لها من جمال ودلال وغضارة ونضارة وخلابة ودعابة، فما كانت من ذلك في قليل ولا كثير ولكنها كانت فيها تفردت به بين نساء العصور الأولى من سمو الروح إلى أبعد مرتقى، وصفاء النفس إلى أتم غاية وكان من أثر ذلك ما ذاع عنها من نبل وعزة وكبرياء، وجلال في الطبع والخلق وترفع في القول والفعل وإسعاد للزوج والولد، حتى كان من ثمرتها تلك الأمة التي جمعت أطراف الأرض وملكت نواحي الأمم، ومثل تلك المرأة إذا انحرفت عن المحجة وانثنت عن الغاية وأسفت إلى اللهو والمجون واستراحت إلى الشهوات، خمد منها روح السمو، وانتهك عنها ستر الجلال، وذلك ما قاد المرأة العربية إلى شفير الهاوية، وكانت أمور صرفت الرجل العربي عن المرأة العربية، بعد أن كانت عينه التي يبصر بها، ويده التي عليها يعتمد، ونفسه التي بشعورها يشعر، وقلبه الذي بوعيه يعي فلما أحاطت شهوته بعقله وغلبت مجانته على دينه وجد عن امرأته منصرفاً ثم ما زالت الصلة تهن والعقد تُحل حتى استحال عدوا لها يأخذ عليها مدارج أنفاسها ويحصى عليها لحظات عينها ونبرات صوتها وخطرات نفسها، وكان أشد ما فتن الرجل في نفسه وغلبه على عقله وصرفه عن امرأته «الجواري» اللواتي سباهن العرب من مختلف الأقطار والأمصار .. وسنكشف عن الحقيقة ونبين ما كان له من عمق الأثر وبعد الخطر في الرجل العربي والمرأة العربية..!

ومن هذا الوقت إلى وقتنا هذا الذي كثر فيه أيضاً وجود «حريم السلطان» نستعرض عالم الجواري بكل تفاصيله من أقدم عصور التاريخ بكل الحقائق ونصعد بها فوق منصة مسرح الأحداث..

كل ما وراء العدو من نفس ومال فهو في الله أفاءه على المسلمين وولى أمره إمامهم،
فإن شاء تجاوز عنه ومنّ به، وإن شاء بسط عليه يده وعاد به على ذوي الحق فيه.
وبحكم ذلك كانت بنات العدو ونسوته من مغنم الحرب في كل بلد كان السيف
حكم فتحه وامتلاكه.

وكما ذكرنا قد خلّص للمسلمين من وراء ذلك عدد لا يحده الإدراك من النساء على
اختلاف أسنانهن وأجناسهن وأخطارهن، ومنهن الفارسيات والتركيات والأرمنيّات
والجرجيات والشركسيات والروميّات والبربريات والحبشيّات، وفيهنّ بنات الأكاسرة
والقيصرة والأساور والبطارقة من كل قاصرة الطرف ناعمة الكف لم تبتذلها المهن ولم
تمتحنها المحن.

لم تَلَقْ بُؤْساً ولم يضرّر بها عوز ولم تُرَجَفْ مع الصالي إلى النار
وكان قواد الدولة وولاة الأمصار يجمعون من أولئك أنضرهن وأنداهن صوتاً
وأمثلهن أدباً ويرسلونهن إلى الخليفة وهو يصطفي منهن من يشاء ويشيب وزراءه وندماءه
وخلصاءه بمن يشاء.

ولقد ينبئك بما تجمع للخلفاء من الجوّاري ما روى ابن الأثير أن المتوكل أهدي إليه
في يوم واحد عشرون ألف جارية وهُنّ ولأشباههنّ بني قصر الجعفري حين ضاقت بهنّ
مقاصير الخلافة في بغداد.

ومن حديث تلك الكثرة أن الرشيد أهديت إليه جارية رائعة الجمال فاحتفل بها
احتفالاً أخرج فيه من جواريه المغنيات وساقيات الشراب زهاء ألفي جارية في أحسن
زي وأتم حلية، واتصل الخبر بزوجه زبيدة فالتهب صدرها غيظاً وغيرة، وفزعت إلى
عُلَيَّة بنت المهدي فصنعت لحناً بديعاً وخرجت هي وزبيدة في زهاء ألفي جارية عليهن
غرائب الثياب وكلهن ينشدن بصوت واحد ولحن واحد:

منفصلٌ عني وما	قلبي عنه منفصلٌ
يا قاطعي اليوم لمن	نَوَيْتَ بعدي أن تصل

فطرب الرشيد وقام حتى استقبل زبيدة وعُليّة وقال لم أر كالיום قطّ! يا مسرور! لا تبقي من بيت المال درهما إلا نثرته، فكان مبلغ ما نثره يومئذ ستة آلاف ألف!!

وعلى هذا السّنن من الكثرة سار الخلفاء ومن دونهم من ذوي النعمة والثراء. وربما وقعت الفتاة الرّود في سَهْم الزاهد الراغب في المال عنها فيبيعها من المقيّن وهو يذهب بها إلى جواريه فيجلّونها أحسن ويُزيّننها أنفس زينة ثم يعرضها للراغبين في معرضه من سوق الجوّاري أو يستبقّوها في بيته ليروّيا الشعر ويخرجها في الغناء، وبها وبمثلها تصبح داره مثابة القاصدين من الخلفاء ومن دونهم ليستروحوا منهم بحسن الحديث وطيب السماع، وربما رغب العظيم في اقتناء إحداهن فبذل لصاحبها غاية ما يتمناه.

وكان الجوّاري أنفسهم ما يتهادى به ذوو الأخطار! وأفضل ما يثاب به الأدباء والشعراء والسُّمار، وبذلك انبثّن في كل موطن وحلّلن في كل دار. وإذا ألمك أن يسي العرب هذا العدد العديد من النساء فاعلم أنهن اللواتي سوين العرب وملكن أزمتهم ووطئن أكتافهم، واقتعدن ظهورهم، وضربن بينهم وبين نسائهم بسور له باب ظاهره الحسن والدلال، وباطنه الذل والوبال. ذلك أنهن أصبحن عقدة تلك الحياة التي لم يعصمها دين ولم يحيط بها رفق ولم يخالطها وقار، حياة الشرف والترف والشهوات واللذات. وكان هنّ من وسائل امتلاك قلوب العرب ما يروض كل عصي، ويستقيد كل أبي، ويستميل كل نافر، ويستذل كل جامع.

الجمال

وأوّل تلك الوسائل الجمال، وأنت تعلم أن العرب فتحوا بلادا ليس لبلادهم شيء من صفاء جوّها، ولا رخاء عيشها، ولا اعتدال إقليمها، ولا رقة نسيمها، ولا انسجام نعيمها، ولا ابتسام زهرها، ولا ازدهاء شجرها، فما يمنع نساءها أن يكون على سواء أولئك صفاء وبهاء، وجمالا واعتدالا؟ وقد احتوى الجميع بلد واحد وغذتهنّ طبيعة واحدة ونفحتهنّ نسمة واحدة.

وكان من أيسر الأمور أن يطلب الجمال المطلق في واحدة فإن لم يكن ففي جماعة وهنّ من كثرة العد واختلاف النوع على مثال ما رأيت.

التجمل

وربما كان أفتنّ للعقول من الجمال، وأسبى منه للنفوس أن تحسن المرأة التجمل في زيّها وزينتها، وحديثها وإشارتها، وعبثها ودعابتها ودلّها وخلاعتها، وجلوسها ومشيّتها؛ فتلك ضروب من الجمال لا يستوي النساء في تنسيقها ولا تأليفها. وربما أخرجتها المرأة في غير مخرجها فأسأمت كل نفس وثقلت على كل روح، وقد تسبب بها مواضعها فتكون أمضى من الجمال سلاحاً، وأعظم منه كيداً؛ والمرأة الفارسية أقدر نساء الشرق القديم على استلاب قلوب الرجال. ولقد شاء القدر أن تصارع المرأة الأجنبية ما في الرجل العربي من بداوة وحمية وعصبية فما زالت تفوق إليها من سهام الحسن المجلوب والجمال المخضوب ما مزق قوتها وأطفأ جهرتها. ولقد لاذ هذا الصراع لبنات الفرس حتى الحرائر اللواتي لم يُكتب عليهن رق ولم يُقرض فيهن حق فكنّ يتزيّن بزي الجوّاري ويُدفن إلى سوقهنّ!! وعليهن الأوشحة والعصائب والأكاليل والتيجان، وبأيديهن المراوح وقد كتب على كل ذلك بالذهب والجواهر من غرر الشعر ما تحار فيه القلوب والأبصار. فما كتبه إحداهنّ على جبينها بالمسك:

بعبير على قمر
لعن الله من غدر
ثم قلت اسمعي الخبر
نة في الحب يغتفر

كتبت في جبينها
في سطور ثلاثة
وتناولت كفها
كل شيء سوى الخيا

ومما كتبه أخرى على عصابتها:

تنفس في أحشائه وتكلما
إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

فما زال يشكو الحب كأنما
فابكى لديه رحمة لبكائه

ومما كتبه أخرى:

الكفر والسحر في عيني إذا نظرت
فإن لي سيف لحظ لست أغمده
فاغرب بعينيك يا مغرور عن عيني
من صنعة الله لا من صنعة القين
ومما كتبه واحدة على هلال في صدرها:

أفلت من الحور الجنان
وخلقت فتنة من يراني

وربما ظهرت الجارية في زي فارس فتقلدت السيف واعتقلت الرمح واتخذت المنطقة
على خصرها والقلنسوة فوق رأسها.

ومما كتبه إحداهنّ على قلنسوتها:

تأمل حسن جارية
مذكورة مؤنثة
يحار بوصفها القمر
فهي أنثى وهي ذكر

وعلى حمائل سيفها.

لم يكفه سيف بعينه
حتى تردى مرهقاً صارماً
فلو تراه لابساً درعه
علمت أن السيف من طرفه
يقتل من شاء بحديه
فكيف أبقى بين سيفيه
يخطر فيها بين صفيه
أقتل من سيف بكفيه

وأشبه ذلك كثير.

وممن وصف أسلوب الجواري، في العبث بقلوب الرجال فأحسن الوصف أبو عثمان
الجاحظ في حديث مستفيض. ولا بأس أن نسوق إليك ما عفاً منه وشاكل موضوع
الكتاب، قال:

إن القينة لا تكاد تناصح في ودها لأنها مكتسبة ومجولة على نصب الحباله والشرك
للمتربطين ليقعوا في أنشطتها، فإذا شاهدها المشاهد رمته باللحظ وداعبته بالنسم،
وغازلته في أشعار الغناء، ولهجت باقتراحاته، ونشطت للشرب، وأظهرت الشوق إلى

طول مكثه، والصبابة لسرعة عودته، والحزن لفراقه، فإذا أَحَسَّتْ بأن سِحرها قد تغلب فيه، وأنه قد تغلغل في الشَّرْك، تَزَيَّدَتْ فيها كانت قد شرعت فيه، وأوهمته أن الذي بها أكثر مما به منها، ثم كاتبته تشكو إليه هواها، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعها، وبلت السحاء بريقها، وأنه سَبَّحها وشجوها في فكرتها، وضميرها في ليلها ونهارها، وأنها لا تريد سواه، ولا تُؤَثِّرُ أحداً على هواه، ولا تنوي انحرافاً عنه ولا تريده لماله بل لنفسه، ثم جعلت الكتاب في سلاسل طومار وختمته بزعفران، وشدته بقطعة زير، وأظهرت سره عند مواليها ليكون المغرور أوثق بها، وألحت في اقتضاب جوانبه، فإن أُجيب عنه ادَّعت أنها صَيَّرَت الجواب سلوتها، وأقامت الكتاب مقام رؤيته، وأنشدت:

وصحيفة تحكي الضمير	مليحة نغماتها
جاءت وقد فرح الفؤاد	دُ ل طول ما استبطأتها
فَضَحِكْتُ حين رأيتهَا	وبكيت حين قرأتها
عيني رأَت ما أنكرت	فتبادرت عبراتها
أظلم نفسي في يدك	حياتها ووفاتها

ثم تغنت حينئذ بـ:

إن كتاب الحبيب نَدْماني	مُحَدِّثي نارةً وريحاني
أضحكني في الكتاب أوله	ثم تَمَادَى به فأبكاني

ثم تجنت عليه الذنوب، وتغايرت على أهله، ووصمتهُ النظر إلى صواحبهَا، وسقته أنصاف أقداحها وجهشته بَعْضُوض تفاحها، ومنحته من ريحانها، وزودته عند انصرافه خصلة من شعرها، وقطعة من مرطها، وشظية من مضاربها وأهدت إليه في النيروز تكة وسكرا، وفي المرجان خاتماً وتفاحاً، ونقشت على خاتمها رسمه، وأبدت عند العثرة اسمه وغمته إذا رآته:

نظرُ المحبِّ إلى الحبيب نعيم وصدوده خطر عليه عظيم

ثم أخبرته أنها لا تنام شوقاً، ولا تنهأ بالطعام وجداً عليه، ولا تمل - إذا غاب -

الدموع فيه، ولا ذكرته إلا تنغصت، ولا هتفت باسمه إلا ارتاعت، وأنها قد جمعت
قَيْنَةً من دموعها من البكاء، وتنشد عند موافاة اسمه بيت المجنون:

وأهوى من الأسماء ما وافق اسمها وأشبهه أو كان منه مدانيا

وعند الدعاء به قوله:

وداع دعا نحن يا خفيف من مني فهيج أحزان الفؤاد وما يدري

دعا باسم ليلي غيرها فكأنها أطار بليلى طائر كان في صدري

أدب الجوّاري

بذلك وأشبه استمكن الجوّاري من شهوات العرب، وبقي أن يملكن عليهم مجال أرواحهم، ويأخذن عليهم سبل مشاعرهم، ويخففن بهم من كل نواحيهم والعربي شاعر يهب الشعر قلبه وماله، طروب يهزه رِزَامُ النّاقة، ويبيكه نوح الحمام، وبلاد فارس بما حباها الله من حسن وإشراق، مشرق شمس الشعر، ومهبط وحي الغناء؛ وليس ينقص الفتاة الفارسية إلا أن تروي الشعر العربي حتى تكون شاعرة ساحرة، ومغنية مضمّنة، وذلك ما أقبل عليه الجوّاري ومؤدّبوهنّ إقبالاً لا حدّ له.

وكان المقيّنون يحتازون الجارية، فان وجدوا منها لباقة في اللفظ أو رخامة في الصوت دفعوا بها إلى المؤدّين والمغنين فيروّونها الشعر ويلقنونها الغناء، فإن تم لها هذان نبه شأنها، وتنافس ذوو السلطان في ابتغائها والمغالاة بها، ولصاحبها من وراء ذلك ربح غير معدود، وحظ غير محدود.

وكانوا قبل عهد بني العباس لا يعلمون الغناء إلا الصفراء والسود، فلما ازدهر العهد العباسي وظهر إبراهيم الموصلي أخذ يختار الحسان ويعلمهن الغناء، فكانت داره أشبه ما تكون بمعهد موسيقى يتخرج فيه حسان المغنيات، فإذا تم ذلك لهن أخذ يبيعهن من الخليفة أو الوزير بما يكفل له الغنى والجاه والحظ العظيم.

وفما فعله إبراهيم يقول أبو عيّنة:

لا جرى الله الموصلي أبا إس حاق عنا خيراً ولا إحسانا

جاءنا مرسلاً بوحي من الشيب طان أعلى به علينا القيانا

من غناء كأنه سكرات السحب يصبي القلوب والآذان

ولم يمض غير قليل حتى ظهرت الفرس في ميدان الشعر العربي والغناء العربي يدافعن الشعراء والمغنين بالمناكب، وأخذن يفرغن على الشعر العربي حلة مذهبة النسيج، واضحة النهج، صفيّة الديباجة، خفيفة الروح؛ وفي مذاهبهم سار المرقون من الشعراء،

أمثال إبراهيم بن العباس، وعلي بن الجهم، ومهيار الديلمي، ومن ذهب مذاهبهم ودرج على آثارهم.

وكان هذا العصر عصر مطارحة للشعر بين الرجال والجواري، يتدئ الشاعر بيت من الشعر فتعارضه الجارية بمثله على وزنه وفي بقية معناه، وأكثر ما تكون الغلبة للنساء، فقد كُنَّ أسرع بديهية وأرقَّ طبعاً. ومن حديث ذلك أن اعرابيا ذهب إلى عنان جارية الناطفي وصاحبة أبي نواس فقال: بلغني أنك تقولين الشعر فقولي بيتاً. وكان السلوي الشاعر عندها فقال: قل أنت يا عم!! فقال السلوي:

لقد جدَّ الفراق وعيل صبري
عشية عُيِّرهم للبين زُمْتُ
فقال الأعرابي:

نظرت إلى أواخرها ضَحِيًّا
وقد بانَتْ وأرض الشام أَمْتُ
فقالت عنان:

كتمت هواكم في الصدر مني
على أن الدموع عليَّ نمت
فقال الأعرابي أنت والله أشعرنا ولولا أنكِ بحرمة رجل لقبلتك، ولكني أقبل البساط.

ومن بديع المطارحة أن علي بن الجهم ألقى على فضل الشاعرة بحضرة المتوكل بيتاً غريب القافية يُعجزها فقال:

لاذ بها يشتكي إليها
فلم يجد عندها ملاذا
فما لبثت أن قالت:

ولم يزل ضارعاً إليها
تهطل أجفانه رذاذا
فعاتبوه فزاد عشقاً
فمات وجداً فكان ماذا

وسنسوق إليك في حديث الشواعر والمغنيات من ذلك شيئاً كثيراً.

ومن فضل الشواعر من الجواري على نظرائهن من الرجال أنهن كن يجمعن الشعر والغناء، فكانت الجارية تقول الشعر ثم تُوقعه ثم تتغنى به فتخرجه أحسن مخرج وتؤثر به أنفذ تأثير.

أشهر الجوارى

بذل

ومن هؤلاء بذل المغنية جارية جعفر بن موسى الهادي، وكانت أستاذة محسن ومحسنة، وكانت فيما ذكروا أروى خلق الله للغناء وأخبار المغنين، ومن قولها إنها تروي ثلاثين ألف صوت، لها كتاب جمعت فيه اثني عشر صوتاً ويقال إنها كتبت في يوم وليلة! وهو قولٌ ظاهر الغلق على أنه دليل على ما بلغته في فنّها من سموّ وبُعد غاية.

وكان كلّ مغنٍّ يصف نفسه بالسبق في فنه والتفرد في إحسانه إلا بين يديّ بذل فهناك يتضاءل فخره ويلتبس سبيله حين تأخذ عليه نواحيّ الفنّ فلا يجد عنها مَصْرَفاً ولا مَحِيداً.

وكان إبراهيم بن المهدي سيد الغناء يعظمها ويتوافي لها، ثم تغير بعد ذلك استغناء بنفسه عنها، فصارت إليه، فدعا بعود فغنت في طريقه واحدة وإيقاع واحد وإصبع واحدة مائة صوت لم يعرفه إبراهيم منها صوتاً واحداً، ووضعت العود وانصرفت فلم تدخل داره حتى طال عناؤه فيها وطلابه لها وتوسله إليها.

ومن حديثهم أن شيخ المغنين إسحاق بن إبراهيم الموصلّي خالف بذلاً في نسبة صوت غنته في حضرة المأمون، فأمسكت عنه ساعة، ثم غنت ثلاثة أصوات وسألت إسحاق عن صانعها فلم يعرفه، فقالت للمأمون: يا أمير المؤمنين ثلاثة هي والله لأبيه أخذتها من فيه! فإذا كان هذا لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره؟! فاشتدّ ذلك على إسحاق حتى رُؤِيَ في وجهه.

وكانت بذل لجعفر بن موسى الهادي فوصفت لمحمد الأمين في عهد خلافته فبعث إلى جعفر يسأله أن يُزيره بذلاً فلم يفعل، فوافاه الأمين في منزله فسمع من الغناء ما لم يسمع مثله قط، وأحب الخليفة أن تكون له بذل فاستامها من ابن عمه، فقال جعفر:

يا سيدي مثلي لا يبيع جارية. قال هبها لي، قال: هي مدبرة، فاحتال الأمين عليه حتى أسكره وأمره بحمل بذل إلى حرّاقته وانصرف بها، فلما أفاق جعفر سأل عنها فأخبر الخبر فسكت، فبعث إليه الأمين من غده فجاء وبذل جالسة فلم يقل شيئاً، فلما أراد أن ينصرف قال الأمين: أوقروا حراقة(*) ابن عمى دراهم. فأوقرت فكان مبلغ ذلك عشرين ألف ألف درهم، ووهب لها الأمين من الجواهر ما لم يملك أحد مثله وبعد مقتله رغب إليها وجوه القواد والكتاب وبني هاشم في التزويج، فأبت وأقامت في موطن الإجلال من الخلفاء والأمراء وصدور الدولة حتى ماتت.

عنان

وهي أحسن شعراء بديهة وأسبقهم نادرة وأعذبهم حديثاً وكل ذلك في رقة وجمال قل أن يكون لغيرها، وهي من مولدات الياقة وبها كانت نشأتها ثم اشتراها الناطفي أحد المقيّنين في بغداد، فكان بيته من أجلها منذى العظماء والشعراء والعلماء. وكان أمراء الشعر يأتونها فيلقون عليها البيت أو البيتين فتجيزهما بما لم يخطر لهم على بال.

ومن حديث مروان بن أبي حفصة شاعر المهدي والرشد أن الناطفي لقيه فدعاه إلى بيته فانطلق معه، ودخل إلى عنان قبله، فقال لها: جئت بك بأشعر الناس مروان بن أبي حفصة، وكانت تشكو علة، فقالت إني عن مروان في شغل. فأهوى إليها بالسوط، وقال لمروان، ادخل فدخل وهي تبكي ورأى الدمع ينحدر من عينها فقال:

بكت عنانُ فجرى دمعها كالدر إذ ينسلّ من خيطه

فقالت مسرعة:

فليت من يضربها ظالماً تجفّ يمناه على سوطه

فقال مروان: أعتق ما أملك إن كان في الجنّ والإنس أشعر منها.

* الحراقة سفينة فيها مرامي نيران يرمي بها العدو.

وقيل: إن الرشيد جلس ليلة ومعه سُمَّارُه، فغناه بعض من حضر منم المغنين بأبيات جرير التي يقول فيها:

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال مَعِينا

فطرب لها الرشيد طرباً شديداً، وقال لجلسائه: هل منكم من يحيز هذه الأبيات وله هذه البدرة - وبين يديه بَدْرَةٌ من دنائير(*) - فلم يصنعوا شيئاً، فقال خادم من خاصة خدمه: أنا بها لك يا أمير المؤمنين، قال: شألك، فاحتمل البدرة، ثم أتى الناطفي فقال: استأذن على عنان، فدخل وأخبرها الخبر، فقالت: ويحك وما الأبيات؟ فأنشدتها إياها، فقالت اكتب:

هيجت بالقول قد قلته داءٌ بقلبي ما يزال كميناً
قد أينعت ثمراته في روضها وسُقِّين من ماء الهوى فَرَوِينا
كذب الذين تَقَوَّلُوا يا سيِّدي إن القلوب إذا هَوَّين هَوِينا

فدفع إليها البدرة ورجع إلى هارون، فقال له: ويحك، من قالها؟ قال: عنان جارية الناطفي. فقال: حللتُ الخلافة من عنقي إن باتت إلا عندي. فاشتراها منه بثلاثين ألفاً.

وقال أحمد بن معاوية: تصفحت كتباً فوجدت فيها بيتاً جهدت جهدي أن أجد من يجيزه فلم أجد. فقال صديقي لي: عليك بعنان جارية الناطفي، فأتيتها فأنشدتها البيت وهو:

وما زال يشكو الحبَّ حتى رأيتُه تنفَّس من أحشائه وتكلما
فلم تلبث أن قالت

وبيكي فأبكي رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيتُه دما

ودخل عليها أبان بن عبد الحميد وأبو العباس بن رستم وهي في خيش، فقال لها

* البدرة كيس فيه سبعة آلاف دينار.

يَان: العيش في الصيف خَيْشُ. فقالت مسرعة: إذا لا قتالٌ وجيش، فأنشدها أبو العباس
بن رستم قول جرير:

ظلمت أوارى صاحبي صابتي وقد علقنتني من هواك علوق
فقالت مسرعة:

إذا عقل الخوفُ اللسان تكلمتُ بأسراره عين عليه نطوق
ولعنان مع أبي نواس فصول طوال، وكان يتعرض لها بما يظنه أن يجرجها، فتردّ عليه
بـ' يُفحمه ويقهره. وقد صرفنا القول عما تجاذباه من الشعر لأن أكثره مما يند على السمع
وهجره ومجانبته.

بصبص

جارية أوتيت كثيراً من ملاحاة الوجه وسحر الغناء. تلقت صناعتها عن الطبقة
الأولى من المغنين. وكانت في رق يحيى بن نفيس، وكان يحيى صاحب قيان، يُروّين
الشعر ويعلمهن الغناء، ومن أجل ذلك كانت داره بالمدينة مهبطاً للوجوه والأشراف،
ووصفت للمهدي وهو ولي عهد فاشتراها بسبعة عشر ألف دينار، وقيل إنه استولدها
ابنته عُلبة، وكان عبد الله بن مصعب حفيد ابن الزبير يأتيها بالمدينة في فتيان قريش
فيستمع منها، وكان من أشد الناس إعجاباً بها، وفيها يقول حين قدم المنصور منصرفاً
من الحج ومر بالمدينة:

أراحل أنت أبا جعفر جاوزت العيس منْ بَصْبِصاً؟
هيهات أن تسمع منها إذا جاوزت العيس بك الأعوصاً(*)
فخذ عليها مجلسي لذة ومجلساً من قبل أن تشخصاً
أحلف بالله يمينا ومن يحلف بالله فقد أخلصاً
لو أنها تدعو إلى بيعة بايعتها ثم شققت العصا

* الأعوص منزلة في طريق المدينة.

وما كان أجراً ذلك الفتى القريشي على المنصور وهو الذي لا تأخذه في سفك الدماء ملامة ولا يثنيه عنها حرج، ولقد بلغ المنصور هذا القول فاشتد غضبه، ودعا الشاعر وقال له: أما إنكم يا آل الزبير قديماً ما قادتكم النساء وشققتم معهن العصا(*) حتى صرت أنت آخر الحمقى، تباع المغنيات، فدونكم يا آل الزبير هذا المرتع الوخيم.

وفي بصبص يقول هرون بن محمد بن عبد الملك:

بصبص أنت الشمس مزدانة فإن تبدلت فأنت الهلال
سبحانك اللهم ما هكذا فيما مضى كان يكون الجمال
إذا دعت بالعود في مشهد وعاونتن يمنى يديها الشمال
غنت غناء يستفز الفتى حدقا وزان الحدق منها الدلال

ومن شغف بهذه الجارية من أبناء الأشراف: محمد بن عيس الجعفري وقد هام بها طويلاً ثم لما عز عليه طلابها سلى نفسه بعض السلو عنها، ومن حديثه أنه قال لصديق له لقد شغلتنى هذه الجارية عن صنعتي وكل أمرى، وقد وجدت مس السلو عنها، فاذهب بنا إليها حتى أكاشفها ذلك وأستريح فأتياها، فلما غتتها قال لها محمد بن عيسى: أتغنين:

وكنتم أحبكم فسلوت عنكم عليكم في دياركم السلام
فقلت: لا. ولكني أغني:

تحمل أهلها عنها فبانوا على آثار من ذهب العفاء
فاستحيا محمد، وبذل بالسلو كلفاً ووجداً، وأطرق ساعة ثم قال لها: أتغنين:
وأخضع بالعتي إذا كنت مذنباً وإن أذنبت كنت الذي أنتصل

* يشير المنصور إلى حوادث انقراض فيها رجال هذا البيت إلى رأي النساء وأولها انقياد الزبير بن العوام إلى رأي سيدة النساء فاطمة الزهراء حين غاضبت أبا بكر وجانبته فامتنع الزبير عن بيعته مرضاة لها حتى توفيت. ومنها انقياد عبدالله بن الزبير إلى رأي أمه أسماء حين دفعته إلى المضي في قتال الحجاج حتى الموت وكان مصعب بن الزبير لا يبرم أمراً إلى إذا استشار إحدى زوجتيه عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، وكلهن من النساء الفواضل.

قالت: نعم. وأغني أحسن منه.

فإن تقبلوا نقبل بمثله ونزلكم منا بأقرب منزل
فتقاطعا في بيتين وتواصلا في بيتين، وما شعر بها أحد

وحضر أبو السائب المخزومي مجلساً فيه بصبص فغنت:

قلبي حبيس عليك موقوف والعين عبري والدمع مذروف
والنفس في حسرة بغصتها وقد شف أرجاءها التسايف
إن كنت بالحسن قد وصفت لنا فإنني بالهوى لموصوف
يا حسرتا حسرة أموت بها إن لم يكن لي إليك معروف

فطرب أبو السائب ونعر، وقال لا عرف الله من لم يعرف لك معروفك، ثم أخذ
فناعتها من رأسها ووضعها على رأسه وجعل يبكي ويلطم بأبي أنت، والله إني لأرجو أن
تكوني عند الله أفضل من الشهد لما تُولِيناه من السرور، وجعل يصيح: واغوثاه! يا الله ما
يلقي العاشقون! (*)

وحدث عثمان بن محمد الليثي: قال كنت يوماً في منزل ابن نفيس فخرجت إلينا
جاريته بصبص، وكان في القوم فتى يحبها، فسألته حاجة، فقام ليأتيها بها، فنسى أن
يلبس نعله، ومضى حافياً فقالت يا فلان نسيت نعلك، فرجع فلبسها وقال: أنا والله كما
قال الأول:

وحبك يُنسى عن الشيء في يدي ويشغلني عن كل شيء أحاوله
فأجابته فقالت:

وبي مثل ما تشكوه مني وإنني لأشفق من حب لذاك تزايله

* ساعه الله فالعشق نوع من الجنون.

دنانير

وهو اسم لجاريتين.

أما الأولى فجارية محمد بن كناسة، وكان ابن كناسة شاعراً في الطبقة الثانية من شعراء العهد العباسي، وكانت جاريته في مثل طبقته منهم، ومن حديثها ما رواه المربزباني عن بعض شعراء الكوفة، قال: قال لي محمد بن كناسة: اشتهدت دنانير أن تنظر إلى الحيرة فهل لك أن تساعدنا؟ وكان الزمان ربيعاً، فقلت نعم، فقال: تقدّمنا للحق بك، فقصدت الخورنق، وجلست في بعض المواضع المعشبة، وإذا به أقبل على بغلة، ومعه دنانير على حمار، فنزلا وجلسنا، وقد سترت بعض وجهها عني، فقلت أداعبها - وكان محمد يأنس بي ويسكن إلي -: إنما تسترين وجهك عن شيخ، فقالت: طمّاح العين، فضحكنا ثم أخذنا ننظر إلى رياض الحيرة وبقاعها ونتذكر ما مضى بها من الزمان ونستحسن حمرة الشقائق على ائتلاف تلك الأنوار والألوان، فأخذ محمود عوداً وكتب على الأرض:

الآن حين تزين القطر أنجاده ووهاده العفر

فقلت أحسنت وكتبت:

برية في البحر نايتة يجيء إليها البر والبحر

فكتبت:

وسرى الفرات على مياسرها	وجرى على أيّمانها النهر
وبدا الخورنق في مطالعها	فرداً يلوح كأنه الفجر
كانت منازل للملوك ولم	يعمل بها المملّك قبر

أقول ومن أشرف الشعر وأجزله وأنزهه قولها تخاطب أبا الشعثاء وكان رجلاً عفيفاً مزاحاً، وكان يدخل إلى ابن كناسة يسمع غناءها ويعرض لها بأنه يهواها:

لأبي الشعثاء حب كامن	ليس فيه نبضة للمتهم
يا فؤادي فازدجر عنه ويا	عبث الحب به فاقعد وقم

زارني منه كلام صائب ووسيلات المحبين الكلم
صائد تأمنه غزلانه مثل ما نأمن غزلان الحرم
صلّ إن أحببت أن تعطي المنى يا أبا الشعثاء لله وصم
ثم ميعادك يوم الحشر في جنة الخلد إن الله رحم

وأما الثانية فجارية جعفر بن يحيى، كانت أُنبة من الأولى ذكراً وأُبدع شعراً وأتم ظرفاً وكَمَلاً، وأزهى حسناً وجمالاً، وأكثر رواية واطلاعاً، وأدق لحناً وإيقاعاً، كانت لرجل من أهل المدينة وهو الذي خرّجها في الأدب والغناء، فلما رآها جعفر بن يحيى وقعت بقلبه فاشتراها، وكان الرشيد يسير إلى دار جعفر ليسمعا ويتحدث إليها حتى أَلَفها واشتد إعجابه بها فكان لما يشعر من شغفه بها ونزوعه إليها لا يطيق الصبر عن المسير إليها، وكان بره بها وألطفه لها مما ضرب به الأمثال. ومن ذلك أنه وهب لها ذات ليلة عقداً بثلاثين ألف دينار، وعلمت زبيدة كل ذلك فأحزنها ودفعها إلى شكوى الرشيد إلى عمومته فصاروا إليه جميعاً فعاتبوه فقال ما لي في هذه الجارية من أرب في نفسها وإنما أربي في غنائها فاسمعوها، فإن استحقت أن يؤكف غناؤها وإلا فقولوا ما شئتم، فنقلهم إلى يحيى حتى سمعوها عنده فأولوه جانب العذر وعادوا إلى زبيدة فأشاروا عليها ألا تلح في أمرها فقبلت ذلك وأهدت الرشيد عشر جوار لعله يسلو بهنّ عنها ومنهن مارية أم المعتصم ومراحل أم المأمون وماردة أم صالح.

ومما حدث به إبراهيم الموصلي: قال لي يحيى بن خالد إن ابنتك دنانير قد عملت صوتاً اختارته وأعجبت به فقلت لها: لا يشتدّ إعجابك حتى تعرضيه على شيخك فإن رضيه فأرضيه لنفسك، وإن كرهه فاكراهيه، فامض حتى تعرضيه عليه، فقلت له أيها الوزير فكيف إعجابك، فإنك والله ثاقب الفطنة صحيح التمييز قال أكره أن أقول لك أعجبني فيكون عندك غير معجب إذ كنت عند رئيس صناعتك تعرف منها ما لا أعرف وتقف من لطائفها على ما لا أفق، وأكره أن أقول لك لا يعجبني وقد بلغ من قلبي مبلغاً محموداً، وإنما يتم السرور به إذا صادف ذلك منك استجادة وتصويبا، قال: فمضيت

إليها، وقد كان تقدم إلى خدمه يعلمهم بأنه سيرسل بي إلى داره، فأدخلت، وإذا بالستار قد نصبت، فسلمت على جارية من وراء الستارة فرددت السلام وقالت: يا أبت أعرض عليك صوتا قد تقدم. ولا شك إليك خبره، وقد سمعتُ الوزير يقول إن الناس يُفتنون بغنائهم فيعجبهم منه ما لا يعجب غيرهم يفتنون بأولادهم فيحسن في أعينهم منهم ما ليس يحسن، وقد خشيت على الصوت أن يكون كذلك، فقلت هات، فأخذت عودها وتغنت تقول:

نفسى أكنْتُ عليك مدعيا أم حين أزمع بينهم خُنْتُ؟
إن كنت مُولعةً بذكرهم فعلى فراقهم ألا مُتُّ؟

قال فأعجبني والله غاية العجب، واستخفني الطرب حتى قلت أعيديه فأعادته وأنا أطلب لها موضعاً أصلحه، وأغَيَّرَ عليها. لتأخذه عني، فلا والله ما قدرت، ثم قالت لها أعيديه الثالثة، فأعادته فإذا هو كالذهب المصفى، فقال أحسنت يا بنية، وأصبت، وقد قطعت بحسن إحسانك، وجودة إصابتك، ثم خرج، فلقبه يحيى فقال: كيف رأيت صنعه ابتك دنائير قال: أعز الله الوزير والله ما يحسن كثير من حذاق المغنين مثل هذه الصنعة، ولقد قلت لها أعيديه. وأعادته علىّ مرات، كل ذلك أريد إعناتها لأجتلِبَ لنفسي ما يؤخذ عني وينسب إلىّ فلا والله ما وجدته.

وإذا شئت أن تعرف ما لهذه الجارية من بعد الشأو في الشعر، ولطف المدخل في الغناء، فإليك قول جحطة البرمكي: «كنت وابن جامع نعاني دنائير جارية البرامكة فكثيراً ما كانت تغلبنا» وكلا هذين الرجلين قطب من أقطاب الغناء، في الدولة العباسية، وعلم من أعلامه.

ومن حديث وفائها لمواليها، أن الرشيد دعا بها بعد أن أوقع نكته بالبرامكة، فأمرها أن تغني، فقالت يا أمير المؤمنين، إني آليت ألا أغني بعد سيدي أبداً، فغضب وأمر بصفعها فصفعت، وأقيمت واقفة، وأعطيت العود، فأخذته وهي تبكي أحرّ بكاء

واندفعت فغنت:

يا دارى سلمى بنازح السَّند من الثنايا ومسقط اللِّبد
لما رأيت الديار قد درست أيقنت أن النعيم لم يُعد

فرق لها الرشيد وأمر بإطلاقها، فانصرفت.

ولدنائر كتاب في الغناء يعده أهل الفن أصلاً من أصوله، ومرجعاً من مراجعه.

عَرِيب

وهي فتنة هذا العصر، وعقدة سحره، وملتقى بدائعه، ومجتمع نوادره، نشأت في دار جعفر بن يحيى البرمكي، وقيل إنها من إحدى جواريه، ثم جحد البرامكة نسبتها، وبيعت فيمن بيع من جواري جعفر بعد نكبته، ثم احتازها ثمانية من خلفاء هذه الدولة، أولهم الأمين، وآخرهم المعتز، وما منهم إلا من يعدها زينة قصره، وآية عصره، وإليها اجتمعت محاسن هذا الجيل، وفيها انتظمت مواهبهم، من حسن الخط، وحلاوة شعر، وجمال صورة، وغاية ظرف، وجودة ضرب، ودقة غناء، وفيها يقزل إسحاق الموصلي ما رأيت امرأة أضرب من عريب، ولا أحسن صنعة، ولا أجمل وجهاً، ولا أخف روحاً، ولا أحسن خطاباً، ولا أسرع جواباً، ولا أَلعب بالشرننج والنرد، ولا أجمع لخصلة حسنة، لم أر مثلاً في امرأة غيرها، وإسحاق إمام أئمة هذا الفن، وشهادته لها مقطع الرأي وفصل الخطاب، وقد ذكر هذه الشهادة حماد بن إسحاق لقاضي القضاة يحيى بن أكثم فقال: صدق أبو محمد، هي كذلك، قال: أسمعته، قال نعم هناك يعني في دار المأمون قال أفكانت كما ذكر أبو محمد في الحذق، قال يحيى: هذه المسألة الجواب فيها على أيك هو أعلم بها مني.

وكان المأمون مشغولاً بحبها، وقد ذكر صاحب نهاية الأرب أنه خلع في حبها عذار الخلافة حتى قبل مرة قدمها، وقد نسبت هي إليه فقيل لها عريب المأمونية، وكان إسحاق قد وصفها له قبل أن تصير إليه فأمره أن يشتريها بمائة ألف درهم، وأعطى إسحاق في

وساطة شرائها مائة ألف أخرى. وقال إبراهيم بن رباح - كاتب ديوان المأمون - فلما أرادت أن أثبت هذا القدر من المال كتبت إن المائة الألف خرجت في ثمن جوهرة، ومائة الألف الأخرى خرجت لصائغها ودلالها، فجاء الفضل بن مروان - الوزير - إلى المأمون، وقد رأى ذلك وأنكره، وسألني عنه فقلت نعم، هو ما رأيت، فسأل المأمون عن ذلك فقال: وهبت لدلال وصائغ مائة ألف درهم! وغلظ القصة، فأنكرها المأمون، ودعاني فدنوت، وأخبرته أن المال الذي خرج في ثمن عريب، وصلة إسحاق وقلت أيما أصوب يا أمير المؤمنين ما فعلت، أم أثبت في الديوان أنها خرجت ثمن مغنية وصلة مغن؟ فضحك المأمون وقال: الذي فعلت أصوب ثم قال للفضل بن مروان يا نبطي لا تعترض على كاتبني هذا في شيء.

وما أظن أن المرأة بلغت في هذا العصر من نباهة الشأن وبعد الشأو ما بلغته عريب بل لا أظن مغنية في أي عصر من العصور نالت من الخطوة والجاه بين صدور الدولة وأعوان الخليفة ما بلغته هذه المرأة الممتازة بين النساء.

ومن حديث إبراهيم بن محمد الزبيدي أحد أصحاب المأمون قال: كنت مع المأمون في بلد من بلاد الروم فبينما أنا في ليلة مظلمة شاتية ذات غيم وريح؛ وإلى جانبي قبة، فبرقت برقة وإذا في القبة عريب، قالت: إبراهيم بن الزبيدي؟ قلت لبيك! قالت قل في هذا البرق أبياتا ملاحا لأغني فيها، فقلت:

ماذا بقلبي من أليم الخفق	إذا رأيت لمعان البرق
من قبل الأردن أو دمشق	لأن من أهوى بذاك الأفق
خالفته وهو أعز الخلق	على والزور خلاف الحق
ذاك الذي يملك مني رقي	ولست أبغي ما حييت عتقي

قال فتفتست نفساً ظننت أنه قطع حيازيمها، فقلت ويحك! على من هذا؟ فضحكت، ثم قالت: على الوطن، فقلت هيهات! ليس هذا كله للوطن، فقالت ويلك! أفتراك ظننت أنك تستفزني! والله، لقد نظرتُ نظرة مريبة في مجلسي، فادع لها أكثر من ثلاثين رئيساً، والله ما علم أحد منهم لمن كانت إلى هذا اليوم.

وكان بينها وبين إبراهيم بن المدبر أحد ولادة الدولة وكتابتها وسراتها صحيفة صادقة وودّ مكين، لم يجاوز ود الأدب للأديب، ثم حدث عتب فاحتجبت عنه، وجد به الشوق والحنين إليها، وقال في ذلك - وهو مما يتغنى به:

وبعد المدى بيني وبين عريب	إلى الله أشكو وحشتي وتفجعي
بعيش ولا من قربها بنصيب	مضى دونها شهران لم أخلّ منها
ولست إذا أبصرتها بغريب	فكنت غريباً بين أهلي وجيرتي
حقيق بأن يفدى بكل حبيب	وإن حبيباً لم ير الناس مثله

وحدث أن اجتمع إبراهيم بن المدبر وعبد الله بن حمدان وابن منارة والقاسم في بستان بالمطيرة في يوم يقطر أحسن قطر، ويُجتلي فيه أطيب العيش، قال عبد الله بن حمدان فلم نشعر إلا بعريب قد أقبلت من بعيد، فوثب إبراهيم بن المدبر من بيننا فخرج حافياً حتى تلقاها، وأخذ بركابها حتى نزلت، وقبل الأرض بين يديها فجاءت وجلست، وأقبلت عليه مبتسمة، وقالت: إنما حننتُ إلى مَنْ هنا لا إليك، فاعتذر لها. وقال:

فأتانا زائراً مبتدياً	بأبي من حقق الظن به
وأتى بعد قنوط مُزوياً	فكان كالغيث تراخي مدة
بعد شهرين لهجر مضياً	طاب يومان لنا في قربة
سَقماً كان لجسمي مبلياً	فأقرَّ الله عيني وشفى

وقال فيها:

وجنبك الله صرف الزمن	ألا يا عريب وقيت الردى
وواحدة الناس في كل فن	فإنك أصبحت زين النساء
وبعدك ينفي لذيد الوسن	فقربك يدنى لذيد الحياة
ونعم السмир ونعم السكن	فنعم الأنيس ونعم المجلس

ثم قال فيها وفي جارتها بدعة وتحفة:

إن عريباً خلقت وحدها	في كل ما يحسن من أمرها
ونعمة الله في خلقه	يقصر العالم في شكرها
أشهدني جارياتها على	أنها محسنتا دهرها
فبدعة تبدع في شجوها	وتحفة تتحف في زمرها
يا رب أمتعها بما حُوِّلَت	وامدد لنا يا رب في عمرها

وكانت عريبٌ على موعد من زيارة إبراهيم، فلما كانت في صباح يوم الموعد لم تجد نشاطاً للزيارة، فأرسلت إليه بدعة وتحفة تحملان منها هذه الرسالة:

بنفسي أنت وسمعي وبصري - وَقَلَّ ذلك لك، أصبح يومنا هذا طيباً طيب الله عيشك - قد احتجبت سماءه، ورق هواؤه، وتكامل صفاؤه، وكأنه أنت في رقة شمائلك، وطيب محضرك ومخبرك، لا فقدت ذلك منك، ولم يصادف حسنه وطيبه منا نشاطاً ولا طرباً لأمر صدتني عن ذلك، أكره تنغيص ما أشتهيه لك من السرور بشرحها، وقد بعثت إليك بدعة وتحفة ليؤنسك وتسر بهما، سرّك الله وسرني بك.

فكتب إليها:

كيف السرور وأنت نازحة	عني وكيف يسوغ لي الطرب
إن غبت غاب العيش وانقطعت	أسبابه وألحت الكرب

وابتدأ الجواب، فلم تلبث أن جاءت على حمار فبادر إليها وتلقاها حافياً حتى جاء بها إلى صدر المجلس، يطاء الحمار بساطه وما عليه حتى أخذ بركابها فأجلسها في مجلسه وجلس بين يديها، ثم قال:

ألا ربّ يوم قصر الله طوله	بقرب عريب، حبذا هو من قرب
بها تحسن الدنيا وينعم عيشها	وتجتمع السراء للعين والقلب

وكان يُطيف الخاطر بعريب فتقوله شعراً ثم تصوغه لحناً ثم توقعه غناءً يستطير قلب الحكيم ويستخف وقار الحليم، ومن شعرها ولحنها وغنائها قولها:

لو كان يقدر أن يبثك ما به
لرأيت أحسن عاتب يتعجب
حجبوه عن بصري فمثل شخصه
في القلب فهو محجب لا يحجب

ومنه:

أما الحبيب فقد مضى
أخطأت في تركي لمن
بالرغم مني لا الرضا
لم أَلَفَ عنه مُتَعَرِّضاً

ومنه:

إذا كنت تحذر ما تحذر
فإلي أقيم على صبوتي
وتزعم أنك لا تجسر
ويوم لقاءك لا يقدر

ومن بديع إجازتها للشعر وتضمنها إياه، ما حدث على ابن المنجم، قال:
دخلت يوماً على عريب مسلماً عليها، فلما جلست هطلت السماء بمطر عظيم، فقالت:
أقم عندي اليوم حتى أغنيك أنا وجواري وأبعث إلى من أحببت من إخوانك، فأمرت
بدواي فردت، وجلسنا نتحدث، فسألته عن خبرنا بالأمس في مجلس الخليفة الواثق
ومن كان وأي شيء استحسناه من الغناء، فأخبرتها أن صوت الخليفة كن لحناً صنعه
بنان المغني من الماخوري، وكان الواثق من أعلم الناس باللحن والإيقاع فقالت وما
هو؟ فقلت:

تجافي ثم تنطبق
وذي كلف بكى جزعا
به قلق يملله
جوانحه على خطر
جفون حشوها الأرق
وسفر القوم منطلق
وكان وما به قلق
بنار الشوق تحرق

فوجهت عريب رسولاً إلى بنان فحضر وقد بلته السماء، فأمرت بخلع فاخرة
فجعلت عليه، وقدم له الطعام فأكل، وجلس يشرب معنا، فسألته عن الصوت فغناها
إياه، فأخذت دواة ورقعة وكتبت:

أجاب الوابل الغدق	وصاح النرجس الغرق
وقد غنى بنان لنا	جفون حشوها الأرق
فهاك الكأس مترعة	كأن ختامها حرق

قال علي بن المنجم: فما شربنا يومنا إلا على هذه الأبيات.

ومن عجيب وفاء عريب لفنها ونسيان ذاتها في سبيله ما حكاه صالح بن علي بن الرشيد قال: تمارى خالي أبو علي والمأمون في صوت، فقال المأمون أين عريب؟ فجاءت وهي محمومة، فسألها عن الصوت فقالت فيه بعلمها، فقال لها غنيه، فقلت لتجيء بالعود، فقال غنيه بلا عود. فاعتمدت من الحمى على الحائط وغنت، وأقبلت عقيب فرأيتها وقد لسبت يدها مرتين أو ثلاثاً فما نحت يدها ولا سكنت حتى فرغت من الصوت، ثم سقطت وقد غشى عليها.

ومن بديع منطقها ما حدثوا أن المأمون عتب عليها فهجرها أياماً، ثم اعتلت فعادها، فقال كيف وجدت طعم الهجر؟ فقالت يا أمير المؤمنين لولا مرارة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل، ومن ذم بدء الغضب حمد عاقبة الرضا، فخرج المأمون إلى جلسائه فحدثهم بالقصة ثم قال: أترى لو كان هذا من كلام النّظام ألم يكن كثيراً؟

ولما قبل المأمون قدمها قالت: والله يا أمير المؤمنين لولا ما شرفها الله من وضع فمك الكريم عليها لقطعتها، ولكن الله ألا أغسلها لغير وضوء أو طهر إلا بهاء الورد ما عشت. فكانت تفعل ذلك إلى أن ماتت.

فضل

وعزيز علينا القول عن فضل في صفحة أو صفحتين فإن في ذلك الإجمال مظلمة للأدب العربي لا يبلغها العذر.

نشأت فضل بالبصرة في دار شاعر من بني عبد القيس، وبالبصرة تأدبت وتخرجت ثم اشترت وأهدت إلى المتوكل، وكانت في الغاية العلياء من قسامة الوجه، وحلاوة

الطبع، وحسن البديهة، وظرف الحديث، أما الشعر فهي فيه نسيج وحدها، بل إنك لا تجد لها في شواعر النساء ضرباً منذ جرى على ألسنتهن الشعر، وكان عصر المتوكل عصر الشعر الساحر الذي ينبعث عن الطبع الرقيق، وقد اجتمع فيه من الشعراء المُرَقِّقين ذوي الديباجة المذهبة والأسلوب الغنائي البديع ما لم يجتمع في عصر من العصور، ففيه ظهر البحري وسعيد بن حميد وعلي بن الجهم وإبراهيم بن العباس وابن الرومي وأشباههم وفيه ظهرت فضل فما قصرت عن هؤلاء جميعاً، وكثيراً ما تقدمتهم في الشعر الغنائي الذي يعتمد على فرط الرقة وقوة التأثير وكم من الشعراء من يحسن أن يقول:

الصبر ينقص والسقام يزيد والدار دانية وأنت بعيد
أشكوك أم أشكوك إليك فإنه لا يستطيع سواهما المجهود

ومن ذا الذي يستمع قولها في المتوكل يتغنى به:

إن من يملك رقي مالك رق الرقاب
لم يكن يا أحسن العا لم هذا في حسابي

ثم لا تميد به النشوة ويستخفه الطرب.

وهل يحسن البحري وأشباه البحري أن يقولوا خيراً مما تقول فضل:

لأكتمن الذي بالقلب من حرق حتى أموت ولم يعلم به الناس
ولا يقال شكا من كان يعشقه إن الشكاة لمن تهوى هي الياس
ولا أبوح بشيء كنت أكتمه عند الجلوس إذا ما دارت الكاس

وانظر إلى استراضة الشعر لها، وانسياغها على لسانها يوم أهديت إلى المتوكل فقال لها أشاعرة أنت؟ فقالت كذا زعم من باعني واشتراني، فضحك وقال أنشدنا من شعرك، فقالت:

استقبل المُلْكَ إمام الهدى عام ثلاث وثلاثينا
خلافة أفضت إلى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرينا

إننا لنرجو يا إمام الهدى أن تملك الناس ثمانينا
لا قدس الله امرأ لم يقل عند دعائي لك آمينا

وكانت فضل مضرب المثل في حسن البديهة وقوة الارتجال.

ومما حدث ابن طاهر أن بعض الشعراء ألقى عليها قوله:

ومستفتح باب البلاء بنظرة تزود منها قلبه حسرة الدهر

فقلت مسرعة:

فوالله ما يدري أتدري بما جنت على قلبه أم أهلكته وما تدري

ومن حديث الفضل بن العباس الهاشمي أن المتوكل خرج متوكتاً على جاريتيه فضل وبنان، فقال لهما أجيذا قول الشاعر:

تعلمت أسباب الرضا خوف سخطه وعلمه حبي له كيف يغضب

فقلت فضل:

تصد وأدنو بالمودة جاهداً ويبعد عني بالوصل وأقرب

وقالت بنان:

وعندي له العتبي على كل حالة فما منه لي وما منه مذهب

وكانت فضل على بعد مرامها في الشعر بعيدة الغاية في النثر، ومما قاله إبراهيم ابن المهدي فيها: كانت فضل الشاعرة من أحسن خلق الله خطأ، وأفصحهم كلاماً وأبلغهم في مخاطبة، وأثبتهم في محاورة، قلت يوماً لسعيد بن حميد: أظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها، وتقيدها وتخرجها؛ فقد أخذت نحوك في الكلام وسلكت سبيلك، فقال لي وهو يضحك، ما أخيب ظنك! ليتها تسلم مني لأخذ كلامها ورسائلها والله يا أخي لو أخذ أفضل الكتاب وأماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك.

وبعد فكان جميلاً أن نستوفي القول عن هذه الجارية ونبين ما لها على الأدب العربي من فضل وجميل، لولا أن المقام لا يتسع لأكثر من ذلك.

محبوبة

وهي من نظائر فضل في نشأتها وتربيتها وإهدائها إلى المتوكل، فالبصرة نشأت وفيها تخرجت، وكانت أجمل من فضل وجهها وأعلى نفساً وأشبه بها في رقة طبعها وعذوبة لفظها وحضور خاطرها وقوة ارتجالها وإن وقعت دون غايتها في ذلك كله.

ومن حديثها أم قبيحة حظية المتوكل كتبت على خدها بالغالية جعفر وهو اسم المتوكل فأعجبه ذلك منها، وطلب إلى علي بن الجهم أن يقول في ذلك شعراً، وكانت محبوبة حاضرة، فلم تدع لابن الجهم وقتاً يفكر فيه واندفعت من فورها تقول:

وكاتبه بالمسك في الخد جعفرا	بنفسي محط المسك من حيث أثرا
لئن كتبت في الخد سطرأ بكفها	لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا
فيا من لملوك لملك يمينه	مطيع له فيما أسر وأظهرا
ويا من هواها في السريرة جعفر	سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا

وكان في المجالس علي بن يحيى المنجم أحد شعراء المتوكل وندمائه، فبقى الشاعران واجمين لا ينطقان بحرف، وأرسل إلى عريب فلحنت الشعر وغنى به المغنيات. ومن حديث علي بن الجهم قال:

كنت يوماً عند المتوكل وهو يشرب، ونحن بين يديه، فدفع إلى محبوبة تفاحة مغلفة، فقبلتها وانصرفت من حضرته إلى الموضع الذي كانت تجلس فيه إذا شرب ثم خرجت جارية لها ومعها رقة فدفعتها إلى المتوكل، فقرأها وضحك ضحكاً شديداً، ثم رمى بها إلينا فقرأناها، وإذا فيها:

يا طيب تفاحة خلوت بها	تشعل نار الهوى على كبدي
أبكي إليها وأشتكي دنفي	وما ألاقي من شدة الكمد
لو أن تفاحة بكت لبكت	من رحمتي هذه التي بيدي
إن كنت لا ترحمين ما لقيت	نفسي من الجهد فارهمي جسدي

وكان المتوكل لا يكاد يفارق محبوبة وقتاً من الزمان، حتى إنه وهو في مجلس خلافته كان يجلسها خلف ستر وراء الستر فيكلمها، ثم غاضبها يوماً فهجرها ومنع جواريه أن يكلمنها وانقطعت عنه وانقطع عنها، ثم أخبرته وصيفة بأنها في حجرها تغني، فذهب حتى انتهى إلى حجرها واستمع إليها فإذا هي تغني بقولها:

أدور في القصر لا أرى أحداً	أشكو إليه ولا يكلمني
حتى كأني ركبت معصية	ليست لها فدية تخلصني
فهل لنا شافع إلى ملك	قد زارني في الكرى فصافحني
حتى إذا ما الصباح عاد لنا	عاد إلى هجره فصالحني

فطرب المتوكل طرباً شديداً وأعاد لها سابق عهده وقديم وده.

ولما قتل المتوكل تفرق جواريه فكان مصير محبوبة إلى وصيف أحد الممالك الذين جلبهم المعتصم ثم غفل عنهم الزمان فأصبح لهم في هذه الدولة ملك وسلطان. وكان مصيرها إليه في كثير من جوارى المتوكل، فلما انتهين إليه جلس للشرب وأحضرهن عليهن الثياب المذهبة والجواهر الوضاعة وقد تصنعن وتطينن إلا محبوبة فإنها جاءت مرهء متسلبة(*) حزناً على المتوكل، فغنى الجوّاري جميعاً وشربن وطرب وصيف وشرب، ثم قال لها: يا محبوبة غني! فأخذت العود وغنت وهي تبكي وتقول:

أي عيش يطيب لي	لا أرى فيه جعفرا
ملكا قد رأته عين	ي قتيلاً معفرا
كل من كان ذا هُيَا	م وحزن فقد برا
غير محبوبة التي	لو ترى الموت يشتري
لاشترته بملكها	كل هذا التُّقبرا
إن موت الكئيب	أصلح من أن يعمر

* المرهء التي ترك عينها بغير كحل والتسلبة اللابسة لبس الحداد.

فاشتد ذلك على وصيف وهم بقتلها، وكان بَغاً حاضراً - وهو خدينه وقسيمه في التغلب على الملك والعبث بالخلافة - فاستوهبها منه، فوهبها له، فأعتقها وأطلقها فخرجت من سُرٍّ رأى إلى بغداد واحتجرت عن لقاء الناس حتى ماتت.

وبعد، فإلى هذا الحد من الشواعر والمغنيات يقف القلم، وما نحاول أن نستوعب الموضوع أو نحيط، به لأنه أوسع من أن يحاط به، وإذا استصفينا من ذلك شيئاً فحسبنا أن نقول إن أولئك الجواري آتَيْن في الشعر والغناء ببِدَعٍ جديدة؛ فالرقة النادرة، والخفة الساحرة، والأنوثة الظاهرة، وكل ما من شأنه أن يسترق عقول السامعين ويستخف ألبابهم كل ذلك كان أوضح ما عرف به جواري هذا العصر، وإذا علمت أن للمغنية من وسائل توطين النفوس وترويض الأرواح والاحتكام بالخواطر والمشاعر، والإمعان في الأعماق والسرائر ما لا يتاح للرجل شيء منه سهل عليك، أن تعرف قدر ما وصل النساء بهذا الفن من بُعد الغاية وعلو المكان، وإذا قيل إن هناك أئمة الغناء من الرجال أمثال إبراهيم الموصلي وولده إسحاق وإبراهيم بن المهدي وأشباههم قلنا إن هؤلاء لم يكن يصطفيهم إلا الآحاد المعدودون من خلفاء الدولة وصدورها، فكان غناؤهم خبراً من الأخبار أما أولئك النساء فقد كن في منال العيون والأسماع فغلب ذكرهن على الألسنة وشاع حكمهن على النفوس، وفوق ذلك كن الحسن والإحسان في ملك وسلطان، حتى قال فيلسوف العرب وإمام مفكرهم أبو نصر الفارابي إن هذا الفن لا يسمع من لحية وشارب ولقد صور الشاعر البحري هذا الأسلوب الذي امتاز به المغنيات بقوله:

وأشارت على الغناء بالحَا ظ مراض من التصابي صحاح
فطربن لهن قبل الثاني وسكرنا منهن قبل الراح

غلبة الجوارى على قلوب العرب

أما بعد فذلك الذي أسلفناه من فنون الجمال والتجمل عند الجوارى لم يكن كل ما ملكن من مواهب، وما سلكن من مذاهب، وما ارتدين من حسن وإحسان، وما ابتدعن من فن وافتنان، وليس في الكتاب مستفاض لأصفهن لك طاهيات طعام، أو ساقيات شراب، أو سامرات ليل، أو ناسقات بيت. على أنهن في جملة ذلك كن صورة الحياة الناعمة، والحضارة الباسمة، والعيش الرغيد، فأنت إذا تناولتها من أشتات نواحيها لا تجد إلا بهجة باهرة، وفتنة ساحرة، وكان أول آثار ذلك غلبتهن على قلوب الرجال، واستحوذهن على عقولهم، حتى لقد هتكوا فيهن ستر كل حشمة وخلعوا عذار كل وقار.

وكانت بيوت الخلفاء مستنّ القدوة ومسار الأمثال في كل ذلك، وأول من بذل نفسه، ورأيه، وذخره، وجلال منصبه لهؤلاء الجوارى الخليفة الثالث محمد المهدي ابن أبي جعفر المنصور، وما كذلك كان السفاح والمنصور من قبله.

أما السفاح فكان عصره عصر عزم ومضاء وهدم وبناء، فلم يكن له متسع للهو ولا سبيل إلى النساء.

وأما المنصور فقد ملك عليه بناء الملك وتوطين دعائمه وتوفير المال لتشيد سبيل خواطره ومشاعره. وكان بخيلاً غيوراً مسوقاً إلى الجد من الأمر مخوفاً مهيباً. وربما مال قليلاً إلى التبسط للسمع فلم يكن يظهر لنديم، ولا رآه أحد يشرب غير الماء، وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعاً وبين الستارة والندماء مثلها، فإذا غناه المغني فأطربه حركت الستارة بعض الجوارى فاطلع إليه الخادم صاحب الستارة فيقول قل له أحسنت بارك الله فيك، وربما أراد أن يصفق فيقوم عن مجلسه ويدخل بعض حجر نسائه فيكون ذلك هناك. وكان لا يشيب أحداً من ندمائه وغيرهم درهماً فيكون له رسماً في الديوان، ولم يُقطع أحداً ممن كان يضاف إلى ملهية أو ضحك أو هزل موضع قدم من الأرض.

ولما خلف من بعدهما المهدي أراد أول أمره أن يحتجب عن الناس متشبها بالمنصور فلم يطق البقاء على ذلك إلا قرابة سنة، ثم انكشف للندماء، فأشار عليه عبد الملك بن يزيد قائده وصاحبه أن يحتجب عنهم. فقال: إليك عني يا جاهل! إنما اللذة في مشاهدة السرور، وفي الدنو من سرني، فأما من وراء وراءهما فما خيرها ولذتها؟ ولو لم يكن في الظهور بين الندماء والإخوان إلا أني أعطيهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يعطوني من فوائدهم لجعلت لهم في ذلك حظاً موفوراً. ومن ثم بدأ المهدي يتبدل.

وقد غلب شغفه بالجواري. فكان لا يطيق الصبر عن محادثتهن ومجالستهن وكان وزيره يعقوب بن داود يستثمر تلك العاطفة لنفسه. فكان إذا غضب تقرب إليه بذكر الجواري وأخذ يحدثه عنهن فيرضى عنه.

وما أظنك بخليفة يتهتك في جاريته حتى يقول فيها:

أرى ماء وبى ظمأ شديد	ولكن لا سبيل إلى السورود
أما يكفيك أنك تملكين	وأن الناس كلهم عبيدي
وأنت لو قطعت يدي ورجلي	لقلت من الهوى أحسنت زيدي

ذلك قول المهدي في حسنه جاريته.

وفي سبيل المهدي تداعى بنوه وحفدته. فهذا الهادي تملك زمام قلبه جاريته غادر حتى لا يطيق فيها لوماً ولا يجد عنها مصرفاً.

وهذا الرشيد، ذلك الجبار الذي يرسل الكلمة فلا يبالي أي دم سفكت ولا أي دار قوضت، إنه لا يبالي كذلك أن يرسل الشعر الباكي المسكين في جواريه! وإليك فاسمع قوله في ثلاث منهن:

ملك الثلاث الأنسات عناني	وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاو عني البرية كلها	وأطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى	وبه قوين أعز من سلطاني

وهؤلاء الثلاث هن اللاتي صرح بأسمائهن في قوله:

إن سحرّاً وضياءً وخنث هن سحر وضياء وخنث
أخذت سحر ولا ذنب لها ثلثي قلبي وترباها الثلث

وخنث هذه إحدى الجوّاري المغنيات المتبدلات وتعرف بذات الخال، ولها حديث عجب، فقد تعشقها وشبب بها ثلاثة شعراء: هم: إبراهيم بن المهدي، وإبراهيم الموصلي، والعباس بن الأحنف، وذاعت أشعارهم فيها في نواحي بغداد، وتجاوزت بغداد إلى ما سواها من البلاد، وتغنى بها الموصلي بين يدي الرشيد، ورغم كل ذلك لم يتحرج الرشيد أن يشبب بها ويتهتك فيها! وترسّم الأمين أثر أبيه، وما أظنه ابتكر ضرباً من ضروب اللهو، وأكثر ما قيل عن خلّاعته ومجانتته مما موّه مؤرخو الفرس على أنه كان أوهب الجميع في جد وهزل. ففي ليلة وهب إسحاق أربعين ألف دينار وفي أخرى وهب عمه إبراهيم مائتي ألف، ولا تنس أنه اشترى بذلا المغنية بعشرين ألف ألف درهم.

أما المأمون عالم الخلفاء وفيلسوفهم فقد أحدث بابتذاله حدثاً لم يسبقه أحد إليه ولا نظن أحداً لحقه فيه، فقد حدّث أحمد بن صدقة أنه دخل عليه يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة رومية مزّنرات قد تزيّن بالديباج، وعلقن في أعناقهن صلبان الذهب، وفي أيديهن الخوص والزيتون.

فهل رأيت كهذا؟ خليفة رسول الله، تُشد بين يديه الزنانير وتعلق الصلبان ويُرفع الخوص والريحان! ذلك ما تحدّثنا به الأخبار عن الخليفة المأمون.

وهل كان يخطر بنفسك أن يستحل خليفة المسلمين دم مسلم من أكبر رجال دولته لأنه طلب جاريته، ثم علم أنها أصبحت حاملاً منه. فلم يكن له سبيل إليها.

أما الرجل فعلي بن هشام، وأما الجارية فمتيم الهاشمية، وأما الخليفة فالمأمون ومتيم تلك جارية تنقل بها الرق من رجل إلى رجل، واجتمع إليها الناس تغنيهم وتطربهم فهل

وهؤلاء الثلاث هن اللاتي صرح بأسمائهن في قوله:

إن سحرّاً وضياء وخنث هن سحر وضياء وخنث
أخذت سحر ولا ذنب لها ثلثي قلبي وترباها الثلث

وخنث هذه إحدى الجوّاري المغنيات المتبذلات وتعرف بذات الخال، ولها حديث عجب، فقد تعشقها وشبب بها ثلاثة شعراء: هم: إبراهيم بن المهدي، وإبراهيم الموصلي، والعباس بن الأحنف، وذاعت أشعارهم فيها في نواحي بغداد، وتجاوزت بغداد إلى ما سواها من البلاد، وتغنى بها الموصلي بين يدي الرشيد، ورغم كل ذلك لم يتحرج الرشيد أن يشبب بها ويتهتك فيها! وترسّم الأمين أثر أبيه، وما أظنه ابتكر ضرباً من ضروب اللهو، وأكثر ما قيل عن خلاعته ومجانتته مما موّه مؤرخو الفرس على أنه كان أوهب الجميع في جد وهزل. ففي ليلة وهب إسحاق أربعين ألف دينار وفي أخرى وهب عمه إبراهيم مائتي ألف، ولا تنس أنه اشترى بذلا المغنية بعشرين ألف ألف درهم.

أما المأمون عالم الخلفاء وفيلسوفهم فقد أحدث بابتذاله حدثاً لم يسبقه أحد إليه ولا نظن أحداً لحقه فيه، فقد حدّث أحمد بن صدقة أنه دخل عليه يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة رومية مزنّرات قد تزيّن بالديباج، وعلقن في أعناقهن صلبان الذهب، وفي أيديهن الخوص والزيتون.

فهل رأيت كهذا؟ خليفة رسول الله، تُشد بين يديه الزنانير وتعلق الصلبان ويُرفع الخوص والريحان! ذلك ما تحدّثنا به الأخبار عن الخليفة المأمون.

وهل كان يخطر بنفسك أن يستحل خليفة المسلمين دم مسلم من أكبر رجال دولته لأنه طلب جاريته، ثم علم أنها أصبحت حاملاً منه. فلم يكن له سبيل إليها.

أما الرجل فعلي بن هشام، وأما الجارية فمتيم الهاشمية، وأما الخليفة فالمأمون ومتيم تلك جارية تنقل بها الرق من رجل إلى رجل، واجتمع إليها الناس تغنيهم وتطربهم فهل

تعلم مآل أمرها بعد أن قُتل سيدها في سبيلها؟ لقد اتخذها الخليفة المعتصم ابن الرشيد لا جارية ولا مغنية، بل زوجة ذات إكليل وتاج.

وحديث القوم كله على هذا النسق، كلما جاء خليفة أحدث في تبذله حدثاً واستجد جديداً. وكان من أعجب حديثهم أن المسترشد خص ولده الراشد بعدة جوار ليلاعبه وهو صبي مراهق، فحملت منه إحداهن وهو دون البلوغ. هكذا يقول ابن الأثير.

نفوذ الجوارى

من أثر تلك الغلبة على القلوب أن غلبن كذلك على سياسة الملك وتدير
وكان الرعية.

فهذه الخيزران جارية المهدي وأم ولديه موسى وهارون، قد بلغت من سعة الجاه ونفاذ الكلمة ما لم يبلغه وزير أو أمير. وكان بابها محط الولاة والقواد، ومهبط ذوي الحاجات والآمال، حتى فشّت فيها القالة وساء عنها الحديث وكذلك أمرها في عهد مولاها وزوجها المهدي.

ولما صارت الخلافة إلى الهادي درجت على سيرتها في عهد أبيه. وكان الهادي فتى المعنى القلب عزيز الجانب، غيوراً على الحرم. فلما رأى الوفود تنثال على أمه أرسل إليها «ألا تخرج من خفر الكفاية على بذادة التبذل، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك، وعليك بصلاتك وتسيحك وتبتلك، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك» فلم يشنها ذلك القول الحكيم عما ألفتته، حتى إذا مضى عليها أربعة أشهر جاءت مرة تكلمه في أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً، فقالت لا بدّ من إجابتي! قال لا أفعل، قالت فإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، فغضب موسى وقال وبلي على ابن الفاعلة! قد علمت أنه صاحبها، والله لا قضيتها له، قالت إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً، قال إذاً لا أبالي، وحمى وغضب، فقال مكانك تستوعي كلامي! والله - وإلا فأنا نفي من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم - لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصتي أو خدمي، لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك؟ إياك ثم إياك! ما فتحت بابك لمي أو لذمي فانصرفت ما تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة.

ثم جمع الهادي قواده ورجال دولته. فقال لهم: أيها خير، أنا أو أنتم؟ قالوا بل أنت يا أمير المؤمنين، قال فأيا خير أُمِّي أو أمهاتكم؟ قالوا بل أمك يا أمير المؤمنين، قال فأياكم يجب أن يتحدث الرجل بأمه فيقول فعلت أم فلان، وصنعت أم فلان، وقالت أم فلان؟ قالوا ما أحد منا يجب ذلك، قال فما بال الرجال يأتون أُمِّي فيتحدثون بحديثها؟! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فشق ذلك عليها وحلفت ألا تكلمه.

ولكن هل كفاها منه ذلك الهجر، وهل تروي المغاضبة غليل المرأة التي ترضعها أفلاويق الملك، وتسكرها بكأسه، وتشعرها بعزته، ثم تعود فتكف يدها وتكتم فاهها وتلزمها خدرها؟

لم يكفها منه ذلك الهجر، ولا ما فوق الهجر من شقاق ومكابرة ونزاع ومعاندة بل أمعنت في الانتقام إلى آخر ما تصل إليه النفوس الممنعة في الشر العارية من الفضيلة، فقد حرصت الأم جوارِي ولدها الشاب فقتلته بغط وجهه والجلوس عليه حتى ماتت. . . أفرأيت كيف تشتري الجارية عزة الملك وزهرة الحياة بدم العزيز النجيب من بنيتها.

أما الرشيد فقد قضى عليه أن يمكن في ملكه لامرأتين: الخيزران أمه، وزبيدة امرأته، أما الخيزران فلأنها خلعت عليه رداء الملك مخضبا بدم أخيه، وأما زبيدة فلأن ذات الخال وأشباهها عبث بقلبه، وغلبته على عقله، فأراد أن يشغلها عنه.

وهل ترى أعجب من أن تغنيه ذات الخال ذات عشية فيحكمها في ملكه فتسأله أن يولي صاحبها حمويه الخادم ولاية الخراج والحرب بفارس سبع سنين، فيصدع الرشيد بالرأي، ثم يخشى أن يموت في خلال هذا الأمد فيكتب عهداً على من يليه من الخلفاء أن يضمن نفاذ العهد للخادم الأمير! ذلك ما رواه صاحب الأغاني عن الرشيد.

ومضت أجيال كان فيها للجواري عزّ وشأن، وملك وسلطان، وكان من أشدهن استمكناً في الملك ومضاء في الرأي أم المقتدر، وهي جارية تركية فقد كان لها سطوة قاهرة على رجال الدولة، وكانت تتصرف بالأحكام دون ولدها، وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفاً من ذكرها.

وقد عَرَضَ الجاحظ لذوات الجاه والنفوذ من الجوارى فقال:

ثم لم يزل للملوك والأشراف إما يختلفن في الحوائج ويدخلن في الدواوين، ونساء يجلسن للناس. مثل خالصة جارية الخيزران، وعتبة جارية ريطة ابنة أبي العباس، وسكر وتركية جاريتي أم جعفر زبيدة ودقاق جارية العباسية، وظلوم وقسطنطينية جاريتي أم حبيب، وامرأة هارون بن معبوبة، وحمدونة أمة نصر بن السندي بن شاهك ثم كنّ للناس أحسن ما كن وأشبه ما يتزين به، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب.

الجواري عيون الخلفاء

وهناك ناحية من نواحي العمل انبثنت فيها واستشففن أسرار الملك من خلالها وذلك بالتخاذل عيوننا على الوزراء والقواد ووجوه رجال الدولة، فكان الخليفة يهب الرجل جارية من جواريه فترصد منه كل إشارة وتسمع منه أو من جلسائه كل كلمة فإذا أصبح الصباح كان ذلك كله عند الخليفة. ومن أنباء ذلك ما حدث الطبري عن يعقوب بن داود وزير المهدي قال: بعث إليّ المهدي يوماً فدخلت عليه فإذا هو في مجلس مفروش بفرش مورد متناه في السرور على بستان فيه شجر ورءوس الشجر على صحن المجلس، وقد اكتسى ذلك الشجر بالأوراد والأزهار، من الخوخ والتفاح، فكل ذلك مورد يشبه فرش المجلس الذي كان فيه، فما رأيت شيئاً أحسن منه، وإذا عنده جارية ما رأيت أحسن منها ولا أشط قواماً ولا أحسن اعتدالاً، عليها نحو ما في المجلس من الثياب، فما رأيت أحسن من جملة ذلك، فقال لي يا يعقوب! كيف ترى مجلسنا هذا؟ قلت على غاية الحسن فمتع الله أمير المؤمنين به وهنأه إياه، قال هو لك، احمله بما فيه وهذه الجارية لستم سرورك به، قال فدعوت له بما يجب، ثم قال يا يعقوب! ولي إليك حاجة، قال فوثبت قائماً ثم قلت يا أمير المؤمنين ما هذا إلا من موجود، وأنا أستعيز بالله من سخط أمير المؤمنين، قال لا، ولكن أحب أن تضمن لي هذه الحاجة وأن تقضيها لي، فقلت لأمر المؤمنين وعليّ السمع والطاعة، قال والله! قلت والله ثلاثاً، قال وحياة رأسي، قلت وحياة رأسك، قال فضع يدك عليه واحلف به، فوضعت يدي عليه وحلفت به لأعملن بما قال، ولأقضين حاجته، قال فلما استوثق مني في نفسه. قال هذا فلان ابن فلان من ولد علي بن أبي طالب أحب أن تكفيني وتريجني منه وتعجل ذلك، قلت أفعل، قال فخذة إليك، فحولته إلى وحولت الجارية وجميع ما كان في البيت من فرش وغير ذلك وأمر لي معه بهائة ألف درهم، قال فحملت ذلك جملة ومضيت به،

فلشدة سروري بالجارية صيرتها في مجلس بيني وبينها ستر وبعثت إلى العلوي فأدخلته على نفسي وسألته عن حاله فأخبرني بها وتجميل فيها وإذا هو ألب الناس وأحسنهم إبانة، وقال لي بعض ما يقوله، ويحك يا يعقوب! تلقي الله بدمي وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمد؟ قال قلت لا والله، فهل فيك خير؟ قال: إن فعلت خيراً شكرت لك؛ عندي دعاء واستغفار، فقلت له أي الطريق أحب إليك؟ قال طريق كذا وكذا، قلت فمن هناك من تأنس به وتثق بموضعه؟ قال فلان وفلان، قلت فابعث إليهما وخذ هذا المال وامض إليهما مصاحباً في ستر الله؛ وموعذك وموعدهما للخروج من داري إلى موضع كذا وكذا؛ الذي اتفقوا عليه في وقت كذا وكذا من الليلة؛ وإذا الجارية قد حفظت علىّ قولي، فبعثت به مع خادم لها إلى المهدي، قال: وبعث المهدي من وقته ذلك فشحن تلك الطريق والمواضع التي وصفها العلوي برجاله، فلم يلبث أن جاءوا بالعلوي نفسه وصاحبه والمال على السجية التي حكتهما الجارية. قال وأصبحت من غد ذلك اليوم فإذا رسول المهدي يستحضرني، وكنت خالي الذراع غير ملق إلى أمر العلوي إلا حين أدخل على المهدي وأجده على كرسي بيده مخرصة فقال يا يعقوب ما حال الرجل؟ قلت يا أمير المؤمنين قد أراحك الله منه؛ قال مات؟ قلت نعم! قال والله قلت والله؛ قال فضع يدك على رأسي، قال فوضعت يدي على رأسه وحلفت له به فقال يا غلام، اخرج إلينا ما في هذا البيت. قال ففتح باباً عن العلوي وصاحبه والمال بعينه، قال فبقيت متحيراً وسقط في يدي وامتنع على الكلام فما أدري ما أقول، قال: فقال المهدي لقد حل لي دمك لو آثرت إراقته. ولكن احبسوه في المطبق فما زال به حتى انقضى عهد المهدي والهادي وأخرجه الرشيد في عهده.

ومن أحسنوا بث الجوارى للرقابة: المأمون، وكان عنده أسرار رجال دولته جميعاً ولما ذاع رأيه في خلق القرآن وخاصمه عليه قوم من سراة أهل الرأي والعلم وثبتوا على خصومته رغم ما أصابهم منه من شدة وعنت أذاع في الناس أسرار كل منهم وخفي عيوبه ومكنون دخائله! وما عرف ذلك كله إلا من هذا الطريق.

والعجب أن هذا الأسلوب من الرقابة قد ذاع بين الناس حتى أرصد بعضهم
الجواري على بعض، ويعجبني من رقيق الشعر قول الناشئ في جاريته رقية:
فديتك لو أنهم أنصفوا لقد منعوا العين عن ناظريك
ألم يقرءوا ويحهم ما يرو ن من وحي طرفك في مقلتيك
وقد بعثوك رقيباً لنا فمن ذا يكون رقيباً عليك

أمومة الجواري

وكان آخر حلقة من حلقات امتزاج الفرس بالعرب واندماج العرب في الفرس ما ناله الجواري الفارسيات من أمومة الأسر العربية. وقليل من رجال الحواضر العربية من لم ينزع بدمه إلى أم أجنبية، ولكي نسوق لك المثل الواضح على ما نقول نذكر أن خلفاء الدولة العباسية الستة والثلاثين كانوا - إلا ثلاثة منهم - من ولد الجواري، وإذا نال الجواري شرف ولادة الخلفاء فلم يكن عزيزاً عليهن أن يلدن من سواهم.

وهذا هو البيت العلوي الذي ينزع نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء الأئمة الاثنا عشر منه وهم الذين أولاهم الشيعة الإمامية جانب الطاعة، ورفعوهم إلى مواطن التقديس، وهذا آخرهم محمد المهدي الذي يدينون بأنه لا يزال حياً يأذن الله له فيخرج إلى الناس ويملاً طباق الأرض نوراً وإيماناً وعدلاً وإحساناً، أولئك جميعاً لا نجد منهم في العهد العباسي إلا من كانت أمه جارية.

وبعد: فذلك كان شأن الجواري في العراق وتلك غايتها التي انتهت إليها من الاحتكام بقلب الرجل العربي، والتفرد بالمكان المحبوب في المجتمع العربي، والتمكن من قيادة الأسرة العربية، والوصول بالأمّة الفارسية إلى القضاء على العصبية العربية. والآن نتقل إلى حديث الجواري في الأندلس ومدى أثرهن في حياتها وقوة تأثيرها في نسوتها.

الجواري في الأندلس

أقام الأمويون ملكهم بالأندلس كما أقامه أسلافهم بالشرق على دعائم العصبية القبلية والبدواة العربية، لأن هذه السياسة وسيلتهم في تمكين الملك ومعانة الفتح، فعبروا دهرأ من الزمن لا يتخذون الجواري إلا للمهنة والاستيلاء، فأما الخطوة والمكانة فللعقائل من بنات العرب.

كذلك لبثوا قرناً ونصف قرن أخذوا فيها الفتنة وسكنوا مضطرب الملك ثم بدءوا يأخذون لأنفسهم نصيباً من الراحة ويتغنون لها طريقاً إلى السرور فأصغوا إلى المشرق ونظروا إلى بغداد واستقدموا بعض جواربها المغنيات.

قمر

ومن أول هؤلاء قمر البغدادية، وهي قينة مغنية من أنواع قيان بغداد وأصنعهن في الغناء وأعرفهن بفنون الكلام، سمع بها إبراهيم بن حجاج صاحب أشبيلية في أخريات القرن الثالث فوجه إلى بغداد بأموال عظيمة اشترت بها حتى إذا قدمت الأندلس ازدري بها نساء العرب لأنهن لم يألفن جارية ذات مكانة، وأخذن يتهاوسن إذا مرت ويتغامزن إذا غنت، فقالت هي في ذلك:

من بعد ما هتكت قلباً بأشفار
تشق أمصار أرض بعد أمصار
ولا لها غير ترسيل وأشعار
لله من أمة تُزري بأحرار
بعد الديانة والإخلاص للباري
لا يخلص الجهل من سب ومن عار
رضيت من حكم رب الناس بالنار

قالوا أتت زي أطمار
تمشي على وجل تغدو على سبل
لا حرة هي من أحرار موضعها
لو يعقلون لما عابوا غريبتهم
ما لابن آدم فخر غير همته
دعني من الجهل لا أرضى بصاحبه
لو لم تكن جنة إلا لجاهلة

وقمر هذه التي اعتمدت بناء الأدب النسائي بالأندلس، وهو الذي سنصفه لك فيما يمر بك، ومما يمثل لك أسلوب هذا الأدب أبدع تمثيل قولها تشوق إلى بغداد وتتغنى بمحاسنها وحساتها:

أها على بغدادها وعراقها وظبائها والسحر في أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه تبدو أهلتها على أطواقها
متبخرات في النعيم كأنما خلق الهوى العذري من أخلاقها
نفسى الفداء لها فأى محاسن في الدهر تشرق من سنا إشراقها

الناصر وجوّاريه

ولما ولي أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر أمر الأندلس بلغ الجوّاري في عهده مبلغهم في بغداد.

وكان عبد الرحمن حين وثب إلى الملك في مشرق العمر ونصرة الشباب، وكان فتى لا تساميه الرجال في العزم ولا سناء في الرأي ولا نفاذاً في التدبير، وكانت أقاليم البلاد وأطراف الملك خاضعة للمتغلبين الذين استأثروا كل منهم بما يملك من دون الملك الأموي، فأراد عبد الرحمن ألا يبقى في الأندلس من ينازعه الملك ويجاذبه السلطان، فما زال يتنزع المتغلبين واحداً بعد واحد حتى دانت البلاد له وألقت أزمته إليه، ثم اندفع بجيوشه إلى بلاد الفرنجة وما وراءها فدوّخ ملكها وأفزع ملوكها وأذل رجالها وسبى نساءها حتى تحامته القياصرة وتفادته الجبابرة، وأنشأ الجميع يهدونه أنفس ما عندهم من جوهر ومال حتى اعتلى ذروة المجد واقتعد ظهور الآمال.

ومنذ ذلك العهد أخذ سيل الجوّاري يتدفق على الأندلس وأخذن يسقين العرب من بني أمية من الكأس التي شرب منها بنو العباس، بل كان أصحابنا في الأندلس أسرع نشوة وأشد اندفاعاً من أشباههم في العراق كدأب المقلدين من الناس أجمعين.

هذا هو الناصر ومكانته من سناء الرأي ومضاء العزيمة ما علمت، تغلبه جاريته

الزهرء على نفسه ورأيه وهمته فيوجهها جميعاً إلى تذليل المستحيل لهذه الجارية وإن من
تذليل المستحيل قيامه بابتناء مدينة الزهرء.

الزهرء

وإذا ذكرت الزهرء فاذكر ما يقول فيها صاحب نفح الطيب: أنه لما بنى الناصر قصر
الزهرء المتناهي في الجلالة أطبق الناس على أنه لم يُبنَ مثله في الإسلام البتة، وما دخل
إليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة من ملك وارد أو رسول وافد أو تاجر
جاهد - وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة - إلا وكلهم قطع أنه لم ير
له شبيهاً، بل لم يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله.

والحق أن القوة التي دفعت الناصر إلى بناء الزهرء لم تكن مما يدفع الناس إلى بناء
قصورهم وعمائرهم ولا هي من جنون العظمة الذي دفع ملوك مصر الأقدمين إلى بناء
أهرامهم ومعابدهم، فإن لهذا النوع من الجنون حدًا دونه أو ينتهي إليه، ولكنها قوة
ساحرة يبثها النساء في قلوب الرجال فينخلعون عن أموالهم وأرواحهم في سبيلها.

أرصد الناصر على بناء الزهرء ما ورثه من مال وما جلبه من مغنم، وإن تشأ
فقد أرصد عليه ذخّر أمم وأعلاق ملوك، واستقدم له المهندسين من بغداد ورومه
والقسطنطينية، واجتلب له الرخام الأخضر والوردي والمجزع من إفريقية وتونس
وقرطاجنة ورية ورومة، وأعطى على كل رخامة ثلاثة دنانير وعلى كل سارية ثمانية فكان
ما جلب له ست عشرة وثلاثمائة وأربعة آلاف سارية.

وأقام الناصر على بناء الزهرء عشرين عاما كانت تستنفد فيها كل يوم ستة آلاف
صخرة غير ما كان يستنفده تمهيد طرقها وتعبيد مناهجها فذلك ليس في هذا الحساب.
وكان يقوم على البناء عشرة آلاف رجل يعملون دائبين كلما غاب منهم فوج أعقبه
آخر.

أما وصف المدينة فمما يعجز عقل الإنسان عن تصويره وتصوّره، وهو كما يقول

ضياء باشا صاحب تاريخ الأندلس كان بناء الزهراء أعجوبة الدهر التي لم يخطر مثل خيالها في ذهن بناء منذ برأ الله هذا الكون ولا تمثل رسم كرسمها في عقل مهندس منذ وجدت العقول.

فأنت إذا شارفت المدينة وجدت سوراً يقوم عليه ثلاثمائة برج حربي كأبراج القلاع وينتظم على محيطه ثلاثة عشر وخمسمائة ألف باب كلها من الحديد الملبس بالنحاس أو الآبنوس المطعم بالفضة والذهب! فإذا نفذت إلى المدينة من أحد أبوابها وجدت حديقة لا يحدها البصر، تشقها طرق منسقة وبرك وغدران تلتقي جميعاً على البحيرة العظمى التي جلب إليها أكثر ما عرف من صنوف السمك، وكان هذا السمك من الكثرة بحيث يستنفد اثني عشر ألف خبزة وستة أفقزة من الحمص كل يوم. وعلى البركة تقوم تماثيل من الذهب المحلّى بالجواهر على هيئة الأسد أو الطير فوق الغصون وكلها تتصل بأنابيب من الفضة تمدّها الماء من متالع جبل قرطبة، فإذا انتهى إلى أجوافها سمعت له زئيراً أو صفيراً ثم تلقيه من أفواهاها في البحيرة، وإلى جانب من البركة حديقة للوحش، وأخرى للطير تظلّلها الشّباك.

أما القصور فكانت فوق منال العقول، ومنها قصر الخلافة وكان سمكّه من الذهب والرخام المتماوج الشفاف، وكانت قراميد بهو الخلافة من الذهب والفضة وفي سقفه علقت اليتيمة، وهي الدرة أهداها إلى الناصر إليون ملك القسطنطينية وكانت تتألق في سماء الغرفة كما يتألق النجم في حاشية الظلام.

وكان في كل جانب من جوانب هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر، وقامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي. وفي وسط هذا المجلس حوض عظيم مملوء بالزئبق وكانت الشمس تشرف على الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس فيتوهج من ذلك نور يأخذ سناه بالأبصار، وكان الناصر إذا أراد أن يفرغ أحداً من أهل المجلس أو مأ إلى رجل من موالیه فيحرك ذلك الزئبق فتومض في المجلس بروق تغشي الأبصار وتخيل للرئين أن القصر طار بهم فيفرغ الرجل حتى يقع.

ومن القصور القصر المؤنس، وفيه بيت المنام، وفي وسطه الخوض الأخضر المنقوش الذي جلب إليه من بيت المقدس، وفيه نقوش وتماثيل وصور على هيئة الإنسان، وعلى جانبه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرسعة بالدرّ النفيس مما صنع بدار الصناعة بقرطبة، والماء يتدفق من أفواهاها جميعا.

وبين القصور مسجد الزهراء، وهو على هذا النسق الفريد من الجلال والجمال ومن العجب أن الزهراء حين حلت به سألها الناصر كيف ترين هذا؟ فقالت حسن لولا أن هذا الأسود يضاجعني! - وأشارت إلى جبل قرطبة - فلم يكن غير قليل حتى كسي الجبل حلة مؤشّية منقطعة النظير من الزهر والريحان وشجر اللوز والصنوبر.

ذلك هو القصر الذي استنفد جهد الناصر وهمته وماله عشرين عاماً، وما كان ذلك الجنون المبرح إلا لأن جاريته ثم زوجته الزهراء طلبت إليه بناء فشرع به للناس شريعة الفناء في جواريهم، ولعمري لئن رفع الناصر ببيان الدولة العظيمة وأعلى كلمتها ووجد فرقها لقد احتفر لها القبر العميق بما مكن لهؤلاء في الملك. ملك القلوب والأجساد.

صبح

وهذا ابنه الحكم قد غلبت على قلبه وعرشه جاريته صبح البشكنسية فتبادر العظماء وذوو الحاجات إلى غشيان دارها وابتغاء الوسيلة عندها والزلفى إليها، وبهذه الوسيلة انتقل المنصور بن أبي عامر من مقام الكتابة للناس على مدرجة الطريق إلى مقام الوزارة بل إلى مقام الملك لأنه تمكن بها من تقليص أظفار ولدها هشام بن الحكم، وما زال ينتزع منه مظاهر الخلافة يوماً بعد يوم حتى حجبته عن الناس ومنع اسمه أن يذكر على أعواد المنابر أو يكتب في صدور الرسائل وفي طرر الدراهم، ثم استكتبه كتاباً جعل فيه ولاية العهد لعبد الرحمن بن أبي عامر دون الغطارف من قریش وسلائل الملوك من بني أمية، فثار الأمويون لذلك ثورة دمروا فيها الزهراء وانتهبوا كنوزها ونفائسها فأصبحت فردوس الدنيا أطلالا بالية ورسوماً عافية كل ذلك لأن الرجل توسل بدعائه وكياسته وجزيل هداياه وجميل أطافه إلى قلب الجارية المملّكة فما زال يصعد بها درجة بعد درجة

حتى اعتلى هامة الملك وكان كلما أراد الوثوب إلى أمانيه سرها بأمنية حتى لقد بنى لها مرة بيتاً من الفضة لم ير الرءاؤون مثله.

شعر الملوك في الجوّاري

وجاء سليمان بن المستعين الخليفة الأموي فاتبع خلفاء بني العباس وأذاع شعره تغزلاً وتبذلاً في جواريه، مما تغنى به المغنون في عواصم الأندلس.

ومن قوله يعارض في أبياته التي أولها ملك الثلاث الآنسات عناني:

عجباً يهاب الليث حدّ سناني	وأهابُ لحظّ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لا متهيأ	منها سوى الإعراض والهجران
وتملك قلبي ثلاث كالدمى	زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحنّ لناظر	من فوق أغصان على كئبان
هذي الهلال وتلك بنت المشتري	حسنا وهذي أخت غصن البان
حاکمت فيهنّ السلو إلى الصبي	فقاضى بسلطان على سلطان
فأبحن من قلبي الحمى وثنيني	في عز ملكي كالأسير العاني
لا تعذلوا ملكا تذلل للهوى	ذل الهوى ملك وعز ثان
ما ضر أني عبدهن صباة	وبنو الزمان وهن من عبداني
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى	كلفا بهن فلست من مروان

ومن العجب أنك لا ترى عشاق الجوّاري مهما عز جانبهم وتسامت منازلهم إلا أرقاء في ألفاظهم، أذلاء في مشاعرهم، ضعفاء في ألفاظهم يتوسلون إلى جواريههم بالذل ويقدمون إليهن أعناقهم للرق ولا ترى ذلك في شعر من أضناه حب الحرائر من بنات العرب، بل إنه لا يتقدم إليهن إلا بغرّ مآثره وعُظم مفاخره.

هذا المستظهر بن هشام وهو الخليفة المستعين ونظيره في جلال لقبه وسناء حسبه أحب أن يتزوج فتاة من قرابته فمطلته أمها فقال فيها بعض ما استفاد من عاطفته شعراً

يفيض عزة وإباء. وكان مما قال:

يكلفها الأهلون ردي جهالة
وماذا على أم الحبيبة إذ رأت
وإني لأرجو أن أطوف بمفخر
وإني لطعان إذا الخيل أقبلت
وإني لأولى الناس من قومها بها
جمال وآداب وخلق موطأ
وهل سن بالشمس أن تمنع البدرا
جلالة قدري أن أكون لها صهرا
بملكي لها وهي التي عظمت فخرا
جرائدها حتى ترى جُنْها سُقرا
وأنبهم ذكراً وأرفعهم قدرا
ولفظ إذا ما شئت أسمعك السحرا

المعتمد وجواريه

ولعل أتعس مثل من أمثلة تبذل الملوك في جواريهم وتهوّرهم في مرضاتهم واندفاع
إلى أعماق الهاوية من جرائهن: المعتمد على الله محمد بن عباد صاحب أشبيلية ووارث
ملك بني أمية؟، فقد أتهب نفسه حظاياه فسيبن لبه واقتسمن قلبه ومن حديثه أنه
أرسلهن ذات ليلة من قرطبة إلى أشبيلية فخرج معهن يشيعهن فسايرهن من أول الليل
إلى الصبح، ثم عاد عنهن وهو من فراقه في حسرة والتباعد، ومما قاله:

سايرتهم والليل أغفل ثوبه
فوقفت ثم مسلما وتسلمت
حتى تبدى للنواظر معلما
مني يد الإصباح تلك الأنجا

وقال في موقف الوداع:

ولما وقفنا للوداع غُدِيّة
بكينا دماً حتى كأن عيوننا
وقد خفقت في ساحة النصر رايات
بجري الدموع الحمر فيها جراحات

اعتماد

وكان أشدهن امتلاكاً له واحتكاماً به جاريته اعتماد الرُميكية التي اشتراها من رميك
ابن حجاج، وإليها ألقى زمامه وفي سبيلها أرخى عنانه ومن اسمها اشتق فتسمى بالمعتمد

وتلك التي يقول فيها الوزير الشاعر محمد بن عمار:

تَزَوَّجَتْهَا مِنْ بَنَاتِ الْهَجَانِ رَمِيكِيَّةٌ لَا تَسَاوِي عَقَالَا
فَجَاءَتْ بِكُلِّ قَصِيرِ الذَّرَاعِ لَثِيمِ التَّجَارِبِ عَمَّا وَخَالَا

وكانت اعتماد لا تشعر بأن في الحياة أمنية عزيزة أو مطلباً بعيداً، فما نزعَتْ نفسها إلى شيء حتى وجدته بين يديها على أحسن صورة وأتم وجوهه، ولقد رأت مرة فتيات أشبيلية يملأن الجرار من النهر وفي أقدامهن أثر الطين فأحبت أن تطأ الطين كما يطأُن وتحمّل الجرة كما يحملن، فصنع لها المعتمد جرة من سبيك الذهب وأوطأها المسك معجوناً بهاء الورد والغالية. وشاءت المقادير أن ينهك هذا الترف قوة الملك وأن يطمع فيه العدو المتغلب وأن يعرف ذلك يوسف بن تاشفين أمير المثلثين بالمغرب فيخوض البحر إلى أشبيلية ويقصي العدو عن الملك ثم يقود الملك المستهام أسيراً ويقود صاحبه ونساءه وبناته وجواريه سبايا إلى أغمات من أعماق بلاد المغرب ولم تدرك الملك المثلث رقة الدين ولا نبل الخلق فألقى أسيره المسكين مكبلاً بالحديد في غياهب السجن بين القتلة وقطاع الطريق، وترك بناته يطفن في الأسواق بما يغزلن من الصوف حافيات الأقدام باديات الأجسام معروقات العظام وكذلك دخلن على أبيهن في سجنه صبيحة عيد النحر فزفر زفرة كاد ينفطر لها قلبه ثم أنشأ يقول:

فِيهَا مَضَى كُنْتُ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُورَا فَسَاءَكَ الْعِيدُ فِي أَغْمَاتِ مَأْسُورَا
تَرَى بَنَاتَكَ فِي الْأَطْهَارِ جَائِعَةً يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكُنْ قَطْمِيرَا
بَرْزَنَ نَحْوِكَ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً أَبْصَارَهُنَّ حَسِيرَاتٍ مَكَاسِيرَا
يَطْأُنَ فِي الطِّينِ وَالْأَقْدَامِ حَافِيَةً كَأَنَّهَا لَمْ تَطْأْ مَسْكَاً وَكَافُورَا
لَا خَدّاً إِلَّا وَيَشْكُو الْجَدْبَ ظَاهِرَهُ وَلَيْسَ إِلَّا مَعَ الْأَنْفَاسِ مَطْمُورَا
قَدْ كَانَ دَهْرُكَ إِنْ تَأْمُرُهُ مِمْتَلَأً فَرَدَّكَ الدَّهْرُ مَنَهِيّاً وَمَأْمُورَا
مِنْ بَنَاتِ بَعْدِكَ فِي مَلِكٍ يَسِرُ بِهِ فَإِنَّمَا بَنَاتُ بِالْأَحْلَامِ مَغْرُورَا

ومن قوله يخاطب قيده حين بلغ به العظم:

قيدي أما تعلمني مسلماً	أبُيت أن تشفق أو ترحماً
دمي شراب لك واللحم قد	أكلته لا تهشم الأعظم
أرحم طفيلًا طائشاً لبه	لم يخش أن يأتيك مسترحاً
وأرحم أخيات له مثله	جرعتهن السم والعلقما
منهن من يفهم شيئاً فقد	خفنا عليه للبكاء والعمى
والغير لا يفهم شيئاً فما	يفتح إلا لرضاع فما

الجواري المدينيات في الأندلس

وتلك طائفة أخرى من الجواري المجلوبات إلى الأندلس تصلها بغيرها صلة الاسم وتبعدها عنهن فوارق المبدأ والغاية والأثر.

ولقد عُرفت المدينة منذ استوطنتها اليمانيون من الأوس والخزرج بالركة والظرف وإتقان الغناء والعزف، ودرجت على ذلك في الإسلام ولم تنحرف عن شهرتها في ذلك كله حتى في عهد النبوة والخلافة.

واتصل الأندلسيون بأهل المدينة في مواسم الحج واستمعوا غناء جواريتهم، فذهبن بهم كل مذهب من الطرب والإعجاب، وسارت الأنباء بذلك إلى الأمير عبد الرحمن ابن الحكم صاحب الأندلس، فاستقدم منهن جماعة عرفن بالأدب الغض والشعر الرائع والغناء البديع، وابتنى لهن دار المدينيات بقرطبة وأجرى عليهن المثوبة والألطف وأوسعهن بالبر والإكرام، ومن هؤلاء: فضل وعلم وقلم. وقد عرف هؤلاء جميعاً بشرف النفس ونبل الخلق وكمال الخلال. ولم يكن فيهن ما في بنات الروم والصقالبة والجلالقة من خلابة ودعابة فهن لا يصلحن لذلك وفيهن السوداء والحمشاء والعجفاء، ولكنهن مع ذلك كنّ مشرقاً من مشارق الجمال الفني في تلك البلاد. ولقد يجمل بنا أن نسوق حديثاً عن إحدى هؤلاء الوافدات وتسمى بالجارية العجفاء لتعلم إلى أي حد بلغ

أولئك الجوّاري في التأثير على نفوس أهل الأندلس.

قال الأرقمي: قال لي أبو السائب - وكان من أهل الفضل والنسك - هل لك في أحسن الناس غناء؟ فجئنا إلى دار مسلم بن يحيى مولى ابن زهرة، فأذن لنا فدخلنا بيتا عرضه اثنا عشر ذراعاً في مثلها، وطوله في السماء ستة عشر ذراعاً، وفي البيت ثُمُرَتان قد ذهبت عنهما اللحمه وبقي السدى وقد حشيتا بالليف، وكريسان قد تفككا عن قدمهما، ثم أطلقت علينا عجفاء كلفاء عليها هَرَوِي (*) أصفر غسيل وكأن وركها في خيط من وسخهما، فقلت لأبي السائب: بأي أنت ما هذه؟ فقال اسكت! فتناولت عوداً فغنت:

بيدي الذي شغف الفؤاد بكم	تفريج ما ألقى من الهم
فاستيقني أن قد كلفت بكم	ثم افعلي ما شئت عن علم
قد كان صرم في المساء لنا	فعجلت قبل اليوم بالصرم

قال فحسنت في عيني، وبدا ما أذهب الكلف عنها، وزحف أبو السائب وزحفت معه. ثم تغنت:

برح الخفاء فأبي تكتم	ولسوف يظهر ما تسر فيعلم
مما تضمّن من غريب قلبه	يا قلب إنك بالحسان لمغرم
يا ليت أنك يا حسام بأرضنا	تلقى المراسي طائعاً ونخيم
فتذوق لذة عيشنا ونعيمه	ونكون إخواناً فماذا تنقم

فزحفت مع السائب حتى فارقنا الثُمُرَتين، وربت العجفاء في عيني كما يربو السويق بهاء مزنة. ثم غنت:

يا طول ليلي أعالج السقما	إذ حل كل الأحبة الحرما
ما كنت أخشى فراقكم أبداً	فالיום أسي فراقكم عزماً

فألقيت طيلسانى، وأخذت شادكونة وصحت كما يصاح على اللوبيا بالمدينة، وقام أبو السائب فتناول رقعة في البيت فيها قوارير ودهن، فوضعها على رأسه، وصاح

* الهروى نوع من خشن الثياب من هرة إحدى مدائن خراسان «أفغانستان الآن».

صاحب البيت - وكان أحنف - قوانيني!! قواريري قواريري وسال الدهن على رأس أبي السائب وصدره.

ومن هذا ونحوه تعلم أن هؤلاء الجوّاري لم يجتلبن لما اجتلب له غيرهن، وقد حرّر هؤلاء وتزوجن وانبثن في أسر الأندلس يُعلمن نسوتها الأدب، ويروّينهن الشعر ويُلقينّ الغناء في حشمة ووقار.

وقد ظهر في هؤلاء الوافدين من تجاوزت الأدب والغناء إلى الفقه والحديث كعبادة المدينة، فقد روت عن مالك بن أنس وغيره من أئمة المدينة، قدم بها الأندلس محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان، وكان كثير الإعجاب بعلمها وفهمها، وتزوجها بشر بن حبيب الأندلسي فمناها سائر ولده.

وتعدّ وفادة هؤلاء الجوّاري على الأندلس مطلع عهد جديد للأدب والشعر والغناء بالأندلس، وذلك ما سنتناوله بالقول عند الكلام عن الأدب النسوي بالأندلس.

بنو الأغلب

ذلك حديث أهل الأندلس، وفي مساقهم سار بنو الأغلب ملوك تونس، وعنهم وعن ملوك العراق وردوا موارد اللّهُو وشربوا كؤوس النعيم، ومن بغداد وقرطبة استوردوا الجوّاري الفارسيات والصقليّات، ومن حديثهم أن المعتمد على الله العباسي ساوم في جارية شغفته حبا، وأبلغها جهد ما يطيق وهو يومئذ ولي عهد الخلافة العباسية - فأبى عليه صاحبها وأبلغها حدا ليس في منال ولي العهد، فلما أعجزه شراؤها ذهب بها صاحبها إلى ابن الأغلب فباعها منه.

ثم لما فتحت عليهم صقلية ومالطة تدفق سيل الجوّاري الروميات فحللن من منازلهم وقلوبهم محلا لا يرام، حتى انتهى الأمر إلى زياد الله آخر عقدهم فقسم نفسه بين ممالكه وجواريه. وبلغ من إيثاره لأحد غلماناه أن ضرب النقود باسمه وترك له زمام الملك يلهو بتصرفه. ثم غضب عليه فأقصاه، حتى جاءت جارية فشفت فيه، فأعاده إلى

مكانه...!! وكان ملكاً عزيزاً فذلّ، وقوّة هائلة فهانت. وما ظلّمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلّمون.

الفاطميون

وجاء الفاطميون في أعقاب بني الأغلب، وأورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم وما زال ظلّمهم يمتدّ وملكهم يتسع حتّى وسع مصر، وبلاد الشام، والحجاز واليمن ووافهم النعمة من كلّ مكان، وأضاء لهم العزّ من كلّ أفق، وجلبت إليهم الجوّاري من كلّ قطر. ولكنّهم لم يجدن عندهم من الحظوة ونفاذ الرأى وعلو الشأن ما وجدن في غير مصر من سائر البلدان، لأنّهم راموا الخلافة بوسيلة النبوة المقدّسة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنّهم كانوا يروّجون لأنفسهم بالإرجاف ببني العباس، وإذاعة السوء عنهم، وقولهم فيهم إنّهم ملكوا الجوّاري زمام أمورهم وقوام سياستهم. ولما علم المعزّ لدين الله - وهو لم يزال بعد أميراً على تونس - أنّ ابنة الإخشيد اشترت جارية حسنة من بنات بغداد لتستمتع بها، أرسل قائده جوهرًا لفتح مصر، وقال الآن لا يصدنا عنها شيء. فكان الأمر وفاق ما قال. وكان كلّ ذلك حائلاً دون بلوغ الجوّاري مبلغ التغلب على قلوب خلفاء مصر والاحتكام بملكهم والعبث في جماعتهم. وما زلن كما هنّ أدوات مهنة ووسائل زينة حتّى جاء عهد المستنصر وكان قد أوتي الملك صبيّا لم يبلغ السابعة، وأقام فيه ستين عاماً وسبعة أشهر. ولما تنصف ذلك الأمد الطويل أدركته ملالة فمال إلى اللهو. واستراض للجوّاري، على أنّ القدر لم يدعه في لهو طويل، فأصيبت مصر بمجاعة مهلكة ذهبت باليابس والأخضر. ولبثت تحتاح الحرث والنسل وتعصف بالحب والنوى سبع سنين ذاباً، حتّى أشفق الخليفة على حرّمه وبناته أنّ يأكلهن الجوع فأرسلهن إلى بغداد، وحتّى لم يبق في دار الخلافة إلا جواد مهزول يركبه الخليفة ويسير من حوله حرسه وحاشيته مشاة يميّد بهم سكر الجوع. وكان للملك من ذلك عظة بالغة، فإنّه أقلع من بعدها عن اللهو وأناب إلى الله. وجاء الملوك من بعده فلم يكن منهم إلى جوارهم نزوع شديد كالذي كان في قرطبة وبغداد.

ذلك الذي بسطته لك شأن الجواري في العالم العربي، وقد ذكرته لك ضافياً مستفيضاً لأنه أقوى المؤثرات في حياة المرأة العربية. وسنجلو من ذلك الحديث وجه العظمة ونستخلص مدى الأثر حين نعرض لتلك المرأة وما نالها في هذه الدول من خير أو شر. وننتقل بمعونة الله وتوفيقه إلى ذكر الديارات المنبئة في بلاد العرب وما أنشئت له من غاية، وما كان لها من أثر.

الديارات

كان الفرس فيما قصدوا إليه من نشر وبث حضارتهم ينزعون إلى غاية واحدة هي إخماد العصية العربية لئتم لهم ما أرادوا من إعادة مجدهم الغابر، وملكهم القديم، وما عليهم من سبيل أن يرددوا لبوس الدين طائعين أو خادعين؟.

أما الروم والسرّيان ومن سواهما من نصارى المشرق والمغرب، فقد كان همهم من العرب غير همّ الفرس منهم. غاية هؤلاء أن ينقّضوا دعامة الإسلام ليشقوا الصفوف للنصرانية في بلاد العرب، فأخذوا يقلّبون للإسلام وجوه الحيلة ويفوّقون عليه سهام الغيلة، ويحشدون عليه جيوش التدبير، ولكنهم قوم أولو سياسة ودهاء، فهم لا يخطبون في حفل، ولا ينطقون في جمع، ولا يبعثون كتابا، ولا ينمقون صحيفة، ولا يبادهون أحداً برأي، ولا يشافهون أحداً بمكروه. بل أخذوا يمزجون العسل المصفى في السم المذاب، وأنشؤا يثبون الشكوك والشبهات في مزاج من المآرب والشهوات. وذلك ما أعدوه في ديارتهم التي نثروها في كل مكان من بلاد العرب.

وكانت عناية القوم بتنظيم ديارتهم وتنسيقها واختيار مواطنها الصالحة لها مما يفوق كل عناية، وأكثر ما تكون في أربض المدن وبين شتات القرى وعلى طرق القوافل، وفي منقطع الصحراء، وفوق سفوح الجبال، وفي كل مكان يكون انتياب الناس له وتواردهم عليه.

وعلى الرغم من تكاثر الديارات وانشعاب مواطنها وترامي قواصياها وتباين بلادها كانت كلها على نسق واحد من الجمال الغض الذي تنساق النفوس الزكية إليه ويحلو العيش فيه. فهناك في نجوة من الأرض تجد خيمة من الزهر قد عكفت عليها ظلة من الكرم وانبعثت من ورائها أصوات ندية بجملها إيقاع جاوز غاية الإبداع؛ منظر يستهوي السمع والبصر ويستخف الأجسام والأحلام، حتى إذا دخلها الداخل - وهي لا تمتنع على قاصد - وجد النسيم بارداً خفاقاً والماء صافياً سلسلاً والخمر صرفاً معتقة،

ووجد فوق ذلك كله إن شاء طعاماً هائلاً ومنماً هادئاً، وليس ذلك بشيء في جانب ما يسلب نهاهم من وَلِه العشق وفتنة الجمال.

ولشد ما غشيت تلك الديار بذوي الأخطار من خلفاء الدولة وأمرائها وساستها ووزرائها وكتابها وشعرائها، فكان لهم منها مآرب طيب وجدوا فيه كل ما تشتهي النفس من مطاعم ومشارب وأغراض ومآرب ينبئك عنها ما سار من شعرهم في وصف تلك الديارات وأفنائها وحسناتها وما أصابهم تحت ظلالها من حب شرد أحلامهم وسهد أجفانهم وأحرق أكبادهم، وبين هذه المنايا وتلك المنى أثرت روح الشبهات على الإسلام وغصفت ريح الزندقة والإلحاد. وليس من الحق أن نتهم العلم الذي نقله العرب عن أمم الحضارة بإثارة الشكوك والرَّيبِ فما عرف عن أئمة هذه العلوم إلا الدين الصريح الصحيح، وإنما الملحدون جماعة من الشعراء والمتأديين والمتبطلين وأشباه المتعلمين ممن ألقوا غشيان تلك الديارات وأقاموا فيها ما أقاموا ثم انتنوا عنها بلا قلب ولا لب ولا دين ولا عقيدة. على أن الذي يعيننا الآن من هذه الديارات أن العرب أصيبوا فيها بنوع من الفتنة أشجى قلوبهم وأطال عناءهم لأن هذا الجمال الذي رأوه لم يكن مما ابتذله عيونهم وملكته أيانهم. وكثير من ذوي الرأي والعلم كان يذهب إلى تلك الديار فيقيم فيها ما شاء أن يقيم فإذا انصرف عنها شغفه الحب وشغله النوح عن بيته وآله. وما ظنك برجل من خاصة رجال الملك يسير في ركاب مولاه سميماً ونديماً حتى يبلغ ديراً فينقتل إليه ليلهو بالنظر إليه لحظة ثم يعاود فما هو إلا أن قدّموا له الشراب والطعام والكأس والتّدَام حتى ينسي الملك فيشرب وينام، وذلك ما يحدث به إسحاق ابن إبراهيم الموصلي فيما رواه عنه صاحب الأغاني، قال:

خرجنا مع الرشيد يريد الرِّقّة فلما صرنا بالموضع الذي يقال له القائم نزلنا وخرج يتصيد وخرجنا معه فأبعد في طلب الصيد، ولأح لي دير فقصدته وقد تعبته فأشرفت على صاحبه فقال هل لك في النزول بنا اليوم؟ فقلت إي والله وإني إلى ذلك لمحتاج، فنزل ففتح لي الباب وجلس يحدثني - وكان شيخاً كبيراً وقد أدرك دولة بني أمية - فجعل يحدثني عن نزل به من القوم ومواليهم وجيوشهم وعرض عليّ الطعام فأجبتّه،

فقدم إليّ طعاماً من طعام الديارات نظيفاً طيباً فأكلت منه، وأتاني بشراب وريحان طري فشربت منه، ووكل بي جارية تخدمني راهبة لم أر أحسن وجهاً منها ولا أشكل، فشربت حتى سكرت ونمت وأنبهت عشاء فقلت في ذلك:

بدير القائم الأقصى	غزال شادن أحوى
بَرَى حُبِّي له جسمي	ولا يعلم ما ألقى
وأكتم حبه جهدي	ولا والله ما يخفى

وركبت فلاحقت بالعسكر والرشيّد قد جلس للشرب وطلبني فلم أوجد، وأخبرت بذلك فغنيت في الأبيات ودخلت إليه، فقال لي أين كنت ويحك! فأخبرته وغنيته الصوت فطرب وشرب حتى سكر وأخر الرحيل في غد ومضينا إلى الدير ونزله فرأى الشيخ واستنطقه ورأى الجارية التي كانت تخدمني بالأمس فدعا بطعام خفيف فأصاب منه ودعا بالشراب وأمر الجارية التي كانت بالأمس تخدمني أن تتولى خدمته وسقيه ففعلت، وشرب حتى طابت نفسه، ثم أمر للدير بألف دينار وأمر باحتمال خواجه له سبع سنين فرحلنا، فلما صرنا من دابق خرجت أنا وأصحاب لي ننتزه في قرية من قراها فأقمنا بها أياماً وطلبني الرشيّد فلم يجدني، فلم رجعت أتيت الفضل بن الربيع فقال لي أين كنت؟ طلبك أمير المؤمنين فأخبرته بنزهتنا فغضب وخفت من الرشيّد أكثر مما لقيت من الفضل فقلت:

إن قلبي بالتل تل عزاز	عند ظبي من الظباء الجوّازي
شادن يسكن الشّام وفيه	مع ظرف العراق شكل الحجاز
يا لقومي لبنت قسّ أصابت	منك صفو الهوى وليست تجازي

وغنيت فيه، ثم دخلت على الرشيّد وهو مغضوب فقال أين كنت؟ طلبتك فلم أجدك! فاعتذرت إليه وأنشدته هذا الشعر وغنيته إياه فتبسم وقال عذر وأبيك أي عذر، وما زال يشرب عليه ويستعيدنيه ليلته جمعاء حتى انصرفنا مع طلوع الفجر، فلما وصلت إليّ رحلي إذا برسول أمير المؤمنين قد أتانا يدعونا فوافيت فدخلت وإذا ابن جامع يتمرغ

على دكان في الدار وهو سكران يتململ، فقال لي يا ابن الموصلي أتدري ما جاء بنا فقلت لا والله ما أدري، فقال لكن والله أدري دراية صحيحة جاءت بنا نصرانيتك. . . عليك وعليها. . . وخرج الأذن فأذن لنا فدخلنا، فلما رأيت الرشيد تبسمت فقال لي ما يضحك فأخبرته بقول ابن جامع فقال ما صدق ما هو إلا أن فقدتكم فاشتقت إلى ما كنا فيه، فعودوا بنا فعدنا فيه حتى انقضى مجلسنا وانصرفنا.

ذلك مثل من حديث الديارات، ومثله جم كثير، وما نحاول أن نتهم تلك المعابد بأنها كانت من مبادئ القوم ودور خلاعتهم، ولا بأن رهبانها أباحوهم ما أرادوا من هو ومجانة، ولكنهم وجدوا فيها فناً من الجمال لم يحوزوه في بيوتهم.

دير درمالس:

في جانب بغداد، وهو نزه كثير الأشجار والبساتين، وفيه يقول أحمد بن حمدون النديم:

يا دیر دُرْماس ما أحسنک	ويا غزال الدير ما أفتنک
لئن سكنت الدير يا سيدي	فإني في جوف الحشا مسكنک
ويحك يا قلب أما تنتهي	عن شدّة الوجد لمن أحزنک
أرفق به بالله يا سيدي	فإنه من حتفه مكنک

دير قنّی:

على مدى ستة عشر فرسخاً من بغداد ومسافة ميل واحد من دجلة، وفيه يقول محمد بن الحسن القميّ:

يا منزل اللهو بدير قنّی	قلبي إلى تلك الربا قد حنّا
سقياً لأيامك لما كنا	نمتار منك لذة وحسنا
أيام لا أنعم عيشاً منا	إذا انتشنا وصحونا عدنا
وإن فني دَنَ بَزَلنا دَنّا	حتى يُظنَّ أننا جُننا
ومسعد في كل ما أردنا	يحكي لنا الغصن الرطيب اللدنا

أحسن خلق الله إذ تشي وجسّ زير عوده وغنى
بالله يا قسيسَ بابا فنى متى رأيت الرشأ الأغنا
متى رأيت فتتي تجنى آه إذا ما ماس أو تشي
أسأت إذ أحسنت فيك الظنا

دير قوطا:

على مقربة من البردان بينه وبين بغداد، وهو من أبهج الديارات وأحسنها وأكثرها
خائل وبساتين. وفيه يقول عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع.

يا دير قوطا لقد هيجت لي طربا أزاح عن قلبي الأحزان والكربا
كم ليلة فيك واصلت السرور بها لما وصلت به الأدوار والنخبا
في فتية بذلوا في القصف ما ملكوا وأنفقوا في التصابي العرض والنشبا
وشادن ما رأت عيني له شهباً في الناس لا عجباً منهم ولا حربا
إذا بدا مقبلات ناديت وا طربا وإن مضى معرضاً ناديت وا حربا
أقمت بالدير حتى صار لي وطنا من أجله ولبست المسح والصلبا
وصار شماسه لي صاحباً وأخا وصار قسيسه لي والداً وأباً!!(*)

دير اللج:

من ديارات الحيرة، وليس في الحيرة موطن أحسن بناء ولا أنزه موضعاً منه، وفيه
قيل:

سقى الله دير اللج غيثاً فإنه على بعده مني إلى حبيب
قريب إلى قلبي بعيدٌ محله وكم من بعيد الدار وهو قريب
يهيج ذكره غزال محله أغنّ سحور المقلتين ريب
إذا رجّع الإنجيل واهتز مائداً تذكر محزون وحنّ غريب
وهاج لقلبي عند ترجيع صوته بلابل أسقام به ووجيبُ

* ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوْنُ ۚ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ (الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦) نستغفر الله العظيم من قول لا يرضي الله تعالى.

ومن ديارات الشام

دير صليبا:

وهو في قبالة باب الفراديس من دمشق، وفيه يقول أبو الفتح محمد بن علي:
جَنَّةٌ لَقَبْتُ بِدِيرِ صَلِيْبَا مَبْدَعَا حَسَنِهِ كَمَا لَا وَطِيْبَا
جَنَّتُهُ لِلْمَقَامِ فِيهِ يَوْمَا فَظَلْنَا فِيهِ شَهْرًا وَكَانَ أَمْرًا عَجِيْبَا
شَجَرٌ مَحْدَقٌ بِهِ وَمِيَاهُ جَارِيَاتُ وَالرُّوْضُ يَبْدُو ضَرْوِيَا
مِنْ بَدِيعِ الْأَلْوَانِ يَضْحِي بِهِ الثَّأ كُلُّ مَمَائِرِي لَدَيْهِ طَرْوِيَا
كَمَا رَأَيْنَا بِدِرَابِهِ فَوْقَ غَصْنٍ مَائِسٌ قَدْ عَلَا بِشَكْلِ كَثِيْبَا
وَشَرَبْنَا بِهِ الْحَيَاةَ مَدَامَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ فِي الْكُؤُوسِ غَرْوِيَا

دير الطور:

وهو دير طور سينا ومكانه بين طبرية واللَّجُون، وحوله الكروم والبساتين، ومن
دونه الغُور والمرج، وفيه يقول الشَّابِثِي:
قَدْ أَبَانْتُ لِي الرِّيَاضَ مِنَ الزَّهْرِ غَرِيبَ الصَّنُوفِ وَالْأَلْوَانِ
وَبَدَا النَّرْجِسُ الْمَفْتَحُ يَرْنُو مِنْ جَنُودِ الْكَافُورِ بِالزَّعْفَرَانِ
وَقَفَ الطَّلُّ فِي الْمَحَاجِرِ مِنْهَا ثُمَّ مَاسَتْ فَانْهَلَتْ مِثْلَ الْجُمَانِ
يَا غِلَامُ اسْقِنِي فَقَدْ ضَحَكْتُ الْوَقْدَ سَتَ وَقَدْ تَمَّ طَيْبُ هَذَا الزَّمَانِ
أَذْنِ مِنِّي الدَّنَانِ، صُبَّ الْأَبَارِي سَوَّاسْتَحْتُ الْكُؤُوسَ صَفَّ الْقَنَانِ
بَادِرِ الْوَقْتِ وَاغْتَنِمِ فُرْصَةَ الْعَيْدِ شَ وَلَا تُكْذِبْنِ فَالْعَمْرُ فَانَ

دير المصلبة:

وموضعه في ظاهر بيت المقدس، وهو دير نزه بديع الموقع حسن المنظر تحف به أشجار
التين والزيتون والكروم، وفيه يقول الحسن الغزلي:

يا حسن أيام قطعتُ هنيئةً بالدير حيث التينُ والزيتونُ
دير المصلبة الرفيع بناؤه تفدي عيرَ ترابه دارين
ومزنين إذا تلوا إنجيلهم وتعطفوا فحمائم وخصون

وسعوا بكاسات المدام وما دروا أن للكؤوس الدائرات جنون
فقضيت بينهم زماناً لم يزل عندي إليه تشوق وحنين
تلك المنازل قد سفحن مدامعي لا مصر قاطبة ولا جيرون

دور المآثم

وامتد لسان الفتنة وأمعنت وسائل العبث حتى انبثت بيوت الدعارة وهي التي كانوا يدعونها بيوت الكشاخنة بين دور الحرائر في أشنات الحواضر، وكانت أثراً محتوماً من آثار أحكام الترف وتفاقم الشهوات وازدياد الجواري عن حاجة المحتاج، وكان ظهور تلك الدور في دار السلام أكفى دليل على عتو ربح الشهوة وإمعان سلطانها في النفوس. وقد بسط الجاحظ في رسالة القيان حديث تلك البيوت وذكر كيف تستباح فيها الأعراض وتنتهك فيها الحرمات. والعجب أن ترى رجلاً من سمار الملوك وندمائهم وذوي المنزلة الدانية منهم مثل إسحاق الموصلبي يذيع شعره في رثاء امرأة من صواحب تلك البيوت، وذلك ما يقوله في هشيمة الخمار:

أضحت هشيمة في القبور مقيمة وخلت منازلها من الفتیان
كانت إذا هجر المحب حبيبه دبت له في السر والإعلان
حتى يلين لما يريد قياده ويصير سيئه إلى الإحسان

هذا إسحاق نديم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق ومغنيهم وشاعرهم فمن منهم تنكر له أو تغير عليه من أجل ذلك؟!

وكما ذاعت بيوت الدعارة في حواضر البلاد ذاعت كذلك الحانات في غير سر ولا استخفاء، وما ظنك بالخليفة الواثق يعقد حانتين إحداها في دار الحرم ليغشاهما ويمتع

نفسه بما يقال وما يدار فيهما، وإليك فاسمع حديث صاحب مسالك الأبصار في سياق ذلك:

قال محمد بن حمدون: كان الواثق يحب المواخير(*) وما قيل فيها وما غنى به في ذكرها، فعقد حانتين إحداهما في دار الحرم والأخرى على الشط وأمر بأن يختار له خمار جميل المنظر حاذق بأمر الشراب ولا يكون إلا نصرانياً من أهل قُطْرُبُل(**) فأتى بنصراني له ابنان نظيفان مليحان وابتتان بهذه الصفة، فجعلهم الواثق في الحانتين وضم إليهم خدماً وغلماً وجواري رومية وأخدم النساء حانة الحرم وعلق عليهما الستور وجعل فيها الأواني المذهبة والدنان المدهونة فكانا أحسن منظر وأبهاء.

فلما فرغ منها أمر بإحضار المغنين والجلساء ولم يدع أحداً من ضُرَاب الطنابير إلا أحضره وحضرنا وخرج الخمار هو وأولاده معه عليهم الأقبية المسهمة وفي أواسطهم الزنابير المحلاة ومعهم غلمان يحملون المكابيل والكيزان والمبازل في الصواني. وأخرجت تلك الدنان المذهبة فأقيمت بإزاء المجلس الذي كان فيه جالساً فُبِزِلت كما يفعل في الحانات وجعل يُؤْتى بالأنموذجات فيذوقها ويعرض ذلك على الجلساء فيختار كل منهم ما يشتهي فيأخذ دناً إلى الخمار ويكتال منه بمكيال في إنائه كما يفعل في المواخير ويوضع على رأس الحضور أكاليل الآس وما أشبهه من الرياحين.

فشرب الواثق شرباً كثيراً وأمر للخمار بألف دينار ولزوجته بألف دينار ولكل واحد من أولاده بخمسمائة دينار.***)

وحكى الحسين بن الضحاك قال: قال لي الواثق: هل لك في حانة الشط؟ فقلت إي والله يا أمير المؤمنين! فقام إليها فشرب وطرب وما ترك أحداً من الجلساء والمغنين

* الماخور بيت الربة ومن يلى ذلك البيت ويقود إليه.

** قطربل ضاحية من ضواحي بغداد إلى الغرب والشمال منها وهي مأثورة بخمرها ورفاهة حاناتها وقد ذكر الشعراء واستهاموا بذكرها.

*** إن كان حدث ذلك فهذه السفاهة بعينها.

والحشم إلا أمر له بصلة، وكان من الأيام التي سارت أخبارها وذكرت في الآفاق.
فلما كان من الغد غدوت عليه فقال: أنشدني يا حسين شيئاً قلته في يومنا هذا الماضي
فأنشدته.

يا حانة الشط قد أكرمت مثنوانا	عودي بيوم سرور كالذي كانا
لا تفقدنا دَعابات الإمام ولا	طيب البطالة إسراراً وإعلانا
ولا تخالُعنا في غير فاحشة	إذا تُطَرَّبنا الطيور أحياناً
وسلسل الرطلَ عمرو ثم عم بنا الس	قيا فألحقَ أحرانا بأولانا
سقيال العيشك من عيش خصصت به	دون الدساكر من لذات دنيانا

قال فأمر الواثق بِصلة سنية مجددة واستحسن الشعر وأمر أن يغنى فيه.
ومن ذلك الغور العميق أصيبت الدولة العباسية بالداء الدوي والنازلة المضنية.
والحق أن هذا العصر العباسي سما بالعقل الإنساني من طريق العلم والتفكير. إلى أبعد
الآماد وأقربها من الكمال، فهم قد ترجعوا علوم الأمم السالفة وناقشوا مسائلها وابتكروا
علوماً سواها في أقل من خمسين عاماً، وهم قد تناولوا الأدب العربي فهذبوه وجملوه
وألبسوه حلة مذهبة اللفظ ضافية الخيال، وهم بحثوا في الكتاب والسنة وقيدوا منها
مسائل التشريع وابتدعوا من العلوم ما يكشف عن أسرار القرآن الكريم ويوضح
مقاصده ويبحث علومه وحقائقه، ولكن ضعف النفس يطغى على قوة العقل فيقصرها
كما تشيع آفة النبات في العود الناضر فتضنيه وتقصفه ثم تسرى منه إلى المرج الخصب
فتفتك به وتذهب بريجه.

وكان في الدولة البررة والأتقياء، ولكن التقي والبر يكمنان في الفتنة العاصفة
ويسكنان في الهیضة الجاحمة ويخشيان صولة الألسنة الباغية. وماذا يقول البررة الأتقياء
في هذا العهد وهم يرون إمام العراق أبا حنيفة ينكر على الشاعر الخليل يحيى بن زياد
بعض خلاعته فيجيبه يحيى بقوله:

إن كان نسُكُك لا يتم بغير شتمي وانتقاصي

فأقعد وقم بي كيف شئت ت مع الأداني والأقاصي
فلطالما زكيتني وأنا المقيم على المعاصي
أيام نأخذها ونعم طي في أباريق الرصاص

فيسمع الإمام بعض هذه الأبيات فيبكي إشفاقاً على نفسه من لوثة ذلك الشعر ومن إذاعة هذا السوء ويرسل إلى الشاعر من يستوهب منه نفسه فبعد لأي يهبها له.

هذا مثل من احتكام الشر والفجور بالتقي ونموذج من غلبة صوت المجان والخلعاء على وعظ البررة الأتقياء فأيهم بعد ذلك يقوم على النصح ويهم بالإرشاد؟ على أن الفقهاء والعلماء نالوا كذلك من طيبات هذه الحياة ونعموا بمناعمها وإن وقف أكثرهم عند حد السائغ البريء من هذه الحياة. ولكن هذا السائغ البريء إذا سرى في رجال الدين قعد بهم عن احتمال البلاء ومعاناة الأذى في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك ما كانوا عليه في هذا العصر الحافل بالمناعم والمآثم.

الباب الثاني

الحرم ملك ..

أسرار وإلهام



لقرون عديدة سكنت المرأة أو أسكتت، والآن تتكلم لتتزع حتى كتابة تاريخها، بعد أن توجب عليها لسنوات طويلة أن تخرج رأسها من «المشربة» وتلوي عنقها بإرادتها لتختلس نظرة أو ابتسامة أو كلمة وربما موعداً للقاء.

في الحرمك حيث العالم الذي يكتنفه الغموض وتلفه الأسرار والحكايات .. فتحنأ أستاذ التاريخ برفق وبحثنا بين صفحات ديوانه عن تفاصيل السحر المحفز على الفضول والإلهام الذي دفع المستكشفين الأوروبيين من قبل وذلك لاكتشافه وسبر أغواره وحاولنا تسجيل ما دونوه عن همساته ونبضات شرايينه، رغم أن مشاهداته الشخصية لم تتحقق إلا في أضيق الحدود، وعبر وسطاء من الحريم أيضاً.

إلى هذا الحد كانت حياة الحرمك غاية في السرية للدرجة التي جعلت «بريس دافين» يقول:

محال أن نعلم شيئاً عن النساء إلا من الأوربيات اللاتي يختلطن بهن، وإنك لتسب المسلم سباً إذا سألتها عما يخص حريمه..!

كان ذلك في القرن التاسع عشر...

أما الآن، فقد تكلمت المرأة..!

خاصة من حريم السلطان..!

وليبقى في النهاية هذا الحرمك بأسراره وإلهامه!

هو الحقيقة التاريخية ويحتوي على كنوز دفيئة هامة لكن نحن في هذا الكتاب نقدم وثيقة تاريخية مليئة بأوراق حافلة بأدق هذه الأسرار والإلهامات..!

المرأة هي الأهم .. والقيمة الأثمن

حَوًّا أنا يا آدمي أنا من ضلوعك قد خرجتُ وأنت منى تُولدُ
أم الحياة أنا، أنا امرأة، أنا في الأرض سيدةً وأنت السيدُ
إن كنت إنسانا فإنساناً أنا لا أنت تُعبدُ أو أنا أُستعبدُ

رمز العطاء، وضوء النماء، تلك هى المرأة منبت الزروع لأشجار ثمارها بشر خلقوا ليخلفوا الأرض، ويسعوا لعمرائها فلا يكتفون بالحياة، وانما يهبونها لآخرين. وتلك حكمة الله.

بين الأمس واليوم. تتأرجح صورة الأم والأخت والابنة والجددة، تلك هى المرأة فى حياتنا، تحاول جاهدة أن تتعلم وتتثقف، ولكن أبدا لم تزل تشعر بأن مردها إلى ذلك الشباك الحريمى «المشربية» لتطل منه على العالم وهى خجلة فترى نصف رؤية، وتسمع نصف سمع.

هى مصانة دائما برجل يتخوف من الغريب ومن الشيطان وعمله وأعوانه، فما زالت رغم كل ما حققته - فى نظر المجتمع - قاصرة تحتاج لمن يحميها. لم تحصل بعد على الثقة الكاملة، وإن حصلت فهى دائما مراقبة، إنما إذا اجتمعت مع رجل غريب لظروف تحتمها الحياة، فلا بد أن يكون الشيطان ثالثهما.

المرأة قارورة، يخشى عليها من الكسر وربما من الاعتداء الأثم الذى ما زال يعلق فى ذاكرة البعض من آثار الحروب والنهب والغارات والغزوات على مضارب العرب.

كانت فى القديم توأد وأتى الإسلام كحضارة وأعطاها حقوقها وشجعها على العلم والعمل، حيث دخلت بقوة فى المجتمع فظهرت فى معارك الفتوح وفى الخلاف السياسى بين الفرقاء، وحكمت واشتغلت بالسياسة وظهرت كتاجرة وعاملة، وراوية للحديث الشريف ومتفقهة فى أمور الدين وشاعرة يحتكم إليها الشعراء.

كما ظهرت في الحياة الاجتماعية كوجه نفتخر به، لا كوجه نخشى عليه اليوم من الضوء والنور.

توارت الحضارة الإسلامية وحكمنا بعصور من الجهل والتخلف فأرجعنا عصورا إلى الوراء، وأصبح دفن المرأة بطريقة متحضرة أكثر من وأد الجاهلية الأولى، فاختفت في الحرمك كجزء من ظل الرجل وستر البيت وبيعت في أسواق النخاسة وعاشت مظلومة مقهورة جاهلة أو عاملة سخرة، فانطفأت شموع المبدعات والناجحات والتمميزات.

وجاء العصر الحديث فأجبرتها التغيرات الخارجية الكثيرة على التحرك وإعادة النضال من أجل حقها في الحياة، وحقوقها الانسانية المسلوبة منها، مقابل ما تقوم به من واجبات، أهمها النسل وتربية الأولاد، والصبر على الإساءة، وقوة التحمل، وما تتفضل به من خدمات كثيرة على الزوج.

ظل الرجل الشرقي يعامل المرأة كيفما يشاء، فإن كانت الجديدة والمدللة والمفضلة فالمعاملة بالحسنى وإن قضى منها وطرا أصبحت كالرحى القديمة على صدره.

والآن أصبحت المرأة تتبوأ مكانتها المرموقة وتحظى بالرعاية والتمكين لتحقيق ذاتها وتجب عن أسئلة الحياة ومطالبها بكل جدارة واستحقاق، استطاعت أن تشق طريقها في التعليم لتنال شرف الدرجات العالية وأن تمضى بجانب الرجل كتفا بكتف مستلهمة خطواتها من دروس التاريخ وتجارب الإنسان على هذه الأرض، وما تقدمه الآن هو تواصل مع التاريخ ووثبات باتجاه الغد المشرق.

هذه المسافة التي قطعت أشواطها المرأة لم تأت من فراغ. بل هي صنيع أياد قدمت أدوات النجاح بسخاء وسهلت وعبدت الدروب لكي تصل المرأة إلى ما تريد ولكي يفرح الوطن بنجاحها ويخضر عشبه من ندى تعبها وجهدها وبذلها، تفتش على طريق الآتي سجادة غرلها من معصم اليد، وألوانها من رمش العيون المتطلعة الناضرة إلى الأمام من دون تمرد، فهي المتصالحة مع نفسها ومع الناس والتاريخ وهي المنسجمة مع الذات لأجل آخر ينهل مما تهبه من بين الصلب والترائب بتراث جيل سبقه، مثلها كمثل الشمعة التي تحترق لكي تنير لغيرها الطريق.

الفنانون الأوروبيون

استبعدوا «الرجل الشرقي من لوحاتهم» انتقاماً من غيرته على حريمه

دخل الرسامون والمكتشفون الأوروبيون إلى هذا العالم الشرقي، حيث البلاط والقصور فصوروا سحره المخبوء في أعماقه والذي لم يره الشرقي نفسه، وأنتجوا صوراً تمثلت فيها الدقة والوثاقية في التقاط الأشياء بحيث استطاعت أن تعكس حقيقة الشرق بكل تفاصيله حتى أنها أصبحت وثيقة لعهود من الزمن مرت على إنسان الشرق.

وفي عام ١٣٠٨م تأسست الدولة العثمانية فشكّلت تهديداً لأوروبا وبدأ هذا العالم الشرقي القادم بقوة مخيفاً، إلا أنه بعد حين تحول من مصدر خوف عند الأوروبيين من رسامين ومكتشفين إلى مصدر فضول. فكان الاستشراق الفني ليس إلا مرحلة من مراحل نزوع الأوروبيين إلى البلاد الغربية عنهم.

وكان سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م إيذاناً بتسرب المظاهر الشرقية إلى أعماق أوروبا، فما لبثت أزياء الغزاة الأتراك بقفاطينهم وعمائمهم المرصعة بالجواهر وسيوفهم المقوسة أن شقت طريقها إلى لوحات الفنانين.

وكانت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ بداية لتصوير وتسجيل مصر والشرق في لوحات المستشرقين في مجموعة «وصف مصر» بلوحاتها الفريدة المتقنة. وبعد أن عاد الفرنسيون إلى أوطانهم لم ينسوا غرامهم بالقاهرة التي شاهدوا فيها بدائع أشبه ما تكون ببدائع ألف ليلة وليلة وعاشوا أسرى تلك الذكريات التي جمعت بين الحقيقة والخيال، غير أن افتتانهم بما يثير الخيال وينعش الحس الفني انحصر في القاهرة واستنبول. وفي

هذا الشرق الإسلامي كانت لمصر المكانة الأولى، تليها تركيا وولاياتها في سوريا ولبنان وفلسطين والجزائر حيث اعتنوا بتصوير الحياة اليومية فيها.

«البداية عثمانية»

كانت صورة مصغرة لما كان عليه الحريم السلطاني في الدولة العثمانية، لأن حكام مصر حتى مقدم محمد علي باشا كانوا من الأتراك العثمانيين الذين أشربوا التقاليد العثمانية كحكامين لها نيابة عن السلطان العثماني وتشبهوا بسادتهم السلاطين ومن بينهم الحريم.

فقد كانت الحريم والجواري في (الحريم السلطاني) في تركيا تخصص لهن أجنحة في القصر للسكنى ومنهن والددة السلطان الحاكم، وزوجات السلطان ثم بناته وأولاده الصغار ثم فئات من الجواري الحسان كن يعشن في القصر. وكان للسلطان مقصورة خاصة وسط أجنحة الحريم وتحوى غرفة نومه وحمامات وقاعة استقبال كبيرة، وعند زيارته لأجنحة الحريم كانت تصحبه (الكايا) وهى من كبرى موظفات الحريم السلطاني ومن بين اختصاصها تنظيم الأوقات التى يقضيها السلطان مع ساكنات دوائر الحريم، وعلى نزهاته مع البعض منهن فى حدائق أجنحة الحريم، ولكي يتم الإعلان بوصوله إلى منطقة الحريم كان السلطان يرتدى صندلا من فضة كي يحدث صوتا على الأرض المكسوة بالرخام أما إذا فاجأهن السلطان بوجوده فى منطقة الحريم فانه كان من قواعد البروتوكول ألا تنظر السيدات والفتيات إلى وجه السلطان بل يغضضن من أبصارهن وينظرن إلى الأرض حياء.

حرمك على الطريقة المصرية

ولكن «الحريم المصري» اللاتي كن يتتمين إلى أصل تركي لم يكن يظهر عليهن شيء من مظاهر الأبهة والعظمة فكان الرجال الأوروبيون لا يكادون يسمعون كلمة حريم حتى ينصرف خيالهم إلى الرقص والغناء، ولكن من وقعت عيناه على الحريم فى مصر لم

يجد فيهن شيئا من هذا الخيال، فالجوارى عبارة عن فتيات يلبسن ملابس بسيطة ولكنها غير مغرية فالحریم بصفة عامة تسيطر عليهن امرأة وهى زوجة السيد أو أمه أو رئيسة الجوارى وفى كل هذه الحالات تحرص صاحبة السلطان على ألا تبدو الجارية أمام سيدها جميلة فالزوجة تفعل ذلك بدافع الغيرة، والأم حرصا على ألا يتزوج ابنها من جارية، ورئيسة الجوارى طمعا فى أن تصبح هى السيدة، وعلى هذا فالجوارى فى مصر لسن أداة للتمتع واللهو، وإنما هن خادمات وإن كن أقل من الخادمات حقوقا فهن لا يتناولن أجرا عن خدمتهن ولا يستطعن مغادرة بيت المخدم إلى بيت سواه.

وكلما علا شأن البيوت زاد عدد الجوارى فيها لأن التقاليد فى الحريم المصرى تقضى بالآ تقوم السيدة بعمل ما، ولو كان فى متناول اليد فتقديم القهوة له نظام خاص، وحمل الملابس على اليد له نظام خاص، وتقديم كأس من الماء له نظام خاص أيضا، ولهذا قد يرى الإنسان كثيرا من الجوارى منهمكات ولا يرى عملا يؤدي.

فهناك مثلا (سفرجى كلفة) ووظيفتها الخدمة على مائدة الطعام فقط، وهناك (قهوجى كلفة) وعملها تقديم القهوة فقط، وهناك (شمورجى كلفة) ووظيفتها تحضير الملابس للسيد، وعملها ينحصر بين الحمام وغرفة الزينة وغرفة النوم.

ولذلك ترى السيدة (هانم أفندي) فيهن الخطر، كل الخطر لكثرة احتكاكهن بالبك أو الباشا، ولكى تأمن السيدة شرهن تغدق عليهن الهدايا، لتكسب مودتهن أو تنزل بهن سخطها لتجعلهن من غضبها على حذر، على أن النتيجة فى كلتا الحالتين غير مضمونة. لهذا تهتم بعض السيدات بخدمة أزواجهن بأنفسهن إما بدافع الحب أو بدافع الحذر، وخاصة إذا كانت هذه السيدة أصلها جارية، ثم أصبحت (هانم أفندي) فإنها تعرف كيف تبعد الجوارى عن زوجها.

وكان البك أو الباشا رمزا للسيادة فقط، ولكنه فى الواقع لا يعرف شيئا مما يحدث فى داخل الحرمك ولا يهتم بمعرفته فإذا دخل البيت يلقاه الجميع بالخضوع الواجب وابتسامة لا تفارق الثغور والويل لمن تتقدم له بشكاية، فإن هذا يعكس مزاج البك، وما

وجد الحريم الا ليدخل على نفسه السرور، هذا فضلا عن أنه لا يستطيع أن ينفع الجارية بشيء إذا شكت إليه بل ربما جلبت شكايها له آلاما جديدة.

ولم تكن نساء الحريم يتفهمن الأمومة على حقيقتها بل كن يعتبرن الأولاد وسيلة لتوطيد مركزهن ودرء الخطر عنهن من طلاق عاجل أو زواج بأخرى فالأطفال في نظرهن درع تقيهن شر الضرة، على أن الخطب قد يهون اذا كانت الضرة من داخل الحريم، فهناك عين ترى وأذن تسمع وفرصة للكفاح واسترداد الزوج بالتجب اليه أو الطعن في الزوجة الأخرى.

فظل مجتمع حريم مصر مغلقا وغامضا على الأوروبيين لم يتعرفوا عليه سوى من خلال زوجات القناصل، فكن بمثابة عيون لهم في الداخل.

ولما كانت المرأة المصرية أسيرة الحرمك فقد أصبحت هدفا يراود كل الفنانين والأدباء الرومانسيين الاستشراقين بغية الوقوف على ما تخفى من أسرار، ومن هنا كان اختيار بعض المصورين أو الرحالة لهذا النمط تعبيرا عن المرأة الشرقية أو المصرية أمرا خاطئا ومضللا، وسواء زار المستشرق الشرق أو لم يزره فقد كان يصوره من وجهة نظر أجنبي غريب، إذ أنه مهما طال الفترة التي يقضيها بالبلاد ومهما كان عدد المواطنين الذين تعرف عليهم أو صادقهم فإنه يظل شخصية غير مرغوبة من المجتمع الذي يحل عليه، ولهذا اقتضت الموضوعات التي يطرقها المصورون المستشرقون على المشاهد العامة في الطريق أو مواكب الحجيج أو الاحتفالات الدينية دون السماح بولوج عالم المواطنين الخاص، كما حالت التقاليد الاجتماعية والدينية دون اتصالهم بالمرأة الشرقية المسلمة.

وبرغم هذه الحقيقة الواضحة للعيان لم يتوقف أدب الاستشراق وفنونه عن اعتبار الحرمك هو الملجأ الوحيد للمرأة الشرقية.

وإذا لم يكن مباحا لغير أفراد الأسرة التردد على الحرمك، فقد صوره الغربيون حصنا منيعا يقف دونه الحراس والديدبانات وتحيلوه سجنا أكثر منه مسكنا، ومن هنا

كان تصورهم الخاطئ المغرض للحرملك وقاطناته اللواتى لا شغل لهن فى الحياة - فى نظرهم - سوى الاسترخاء.

وكان وصف بعض الغربیین للمرأة المصریة ومنهم (سونینى) فقد وصفها بالجمال سواء المسلمات أو القبطیات یضعن جمیعا الکحل فى أعینهن ویتزین بالحناء وأنهن أكبر حجما من نساء فرنسا، كما أثنى على غیرة الرجل الشرقى وحرصه على المحافظة على الفضیلة.

وقد ذکر (بریس دافین): «محال أن نعلم شیئا عن النساء إلا من الأورویات اللواتى یختلطن بهن وأنک لتسب المسلم سبا إذا سألتها عما یخص حریمه فهو لا یذكر أبدا اسم زوجته فى مجلس عام ولا یتحدث مطلقا فى مجلس خاصه عن شؤون بیته».

الجوارى والرقيق

فعالم الجوارى جزء من الحریم فى الطبقة المتوسطة والعالية أو الراقية لكنه یتصل بتجارة الرقيق التى عرفها العالم منذ عصور سحیقة قبل الإسلام.

وقد عمل الإسلام على محو هذا الإرث من نفوس المسلمین، فأوصى النبی - صلی الله علیه وسلم - كثيرا بالرقيق خیرا، وحض على عتق من وقع فى الرق، ووعد بالثواب الجزیل من الله - تعالى - على هذا العتق، ولكن المسلمین بعد القرون الأولى انغمسوا فى أسباب الترف مما أدى بهم إلى إباحة استرقاق المرأة المسلمة عن طریق البیع والشراء.

فأقبل فقراء المسلمین فى الكرخ والقوقاز بیعون أولادهم باختيارهم عسى أن یتزوج بناتهم من بك أو باشا أو والى أو من سلطان وإن كانوا ذكورا ربما ترقوا إلى أعلى المراتب فأصبحوا أمراء جیوش.

كما كان الرقيق یجلب من أفریقیا سواء من الحبشة أو سنار أو من كردفان فالقوافل تأتى إلى مصر محملة بالعبيد حیث یتجمعون فى أسیوط ثم یعرض الرقيق فى الأسواق ولكل منهم سید یتبعه، ویتم فحوصهم والكشف علیهم للتأكد من خلوصهم من الأمراض.

وتجدر الإشارة إلى أن القوافل الواردة من الحبشة والسودان لم تتوقف أثناء الحملة الفرنسية على مصر رغم الاضطرابات التي عانى منها الصعيد، وازدهرت تجارة الرقيق في عهد (مينو) الذي حرص على مراسلة حكام الحبشة وسلاطين سنار لتكوين قوات من الرقيق وتدريبهم على حمل السلاح.

وقد أشار الرحالة للعبيد من الخصيان الموكول إليهم حراسة الحرم ومراقبتهم، والخصيان هم الرجال الوحيدون الذين يجوز لهم دخول حجرات النساء باعتبار أنهم الحراس الذين أقامهم الأزواج على عفة زوجاتهم، وهم حريصون على كسب ثقة الأزواج والزوجات.

والحقيقة أن مهمة الخصيان كانت حراسة الحرم واستخدامهم يرجع إلى الأزمان القديمة، وأكد الطبيب الفرنسي (كلوت بك) أن الملكة (سميراميس) هي التي ابتكرت خصي الرجال واقتدى بها ملوك آسيا، ومع أن الشريعة الإسلامية تحرم الخصي إلا أن المسلمين استمروا في اتباع هذه العادة السيئة.

عملية إخصاء الرقيق تتم في أسبوط وجرجا وقد وصفهم الطبيب (كلوت بك) قائلاً: «إن هؤلاء الناس أصبحوا عارا على الدين وخزيا ووصمة مزرية للإنسانية لما يترتب على الصناعة التي يباشرونها بغير رحمة ولا حياء وهي جريمة ضد الإنسانية».

وتتم هذه العملية في زاوية الدير القريبة من أسبوط حيث تم إخصاء ما يزيد على ثلاثمائة عبد، ويتم اختيار الضحايا من بين صغار العبيد الذين تتراوح أعمارهم بين ست وتسع سنوات أتت بهم قوافل الجلالة من سنار ودارفور.

وتتم عملية الجلب في فصل الخريف باعتبار أنه أوفق فصول السنة لنجاحها، فلا يكتفى بتر أعضاء التذكير وإنما يصبون الزيت المغلي على مكان الجرح مع مسحوق الحناء، ثم يدفنون الفتى في الأرض إلى ما فوق البطن بعد أن يتركوه أربعاً وعشرين ساعة ويستخرجونه من التراب ويدهنون مكان الجرح بعجينة من الطين والزيت.

وكثير من الغلمان يفقدون حياتهم بعد هذه العملية، ومن يبقى على قيد الحياة يعرفون بمظهرهم الخارجي حيث يكون أمرد سلب اللحية والشاربين.

ويلاحظ أن الغلمان في سن الخامسة عشرة أكثر الفئات ارتفاعا في السعر سواء داخل أفريقيا أو في أسيوط، كما ترتفع أسعار الفتيات من ٥٠٠ إلى ٧٠٠ قرش داخل أفريقيا ثم يرتفع السعر في أسيوط من ٩٠٠ إلى ألف قرش.

ومن بعض المواقع الطريفة وصف (بيلون) إحدى حفلات الزفاف التي حضرها والتي اندهش فيها من النساء اللواتي يطلقن الزغاريد طوال فترة الاحتفال، واستاء من تلك الأصوات وأصر على أن يقدم لقارئه الفرنسي صورة عنها، فذكر أن المرأة تفتح فمها إلى أقصى اتساع فتنبعث أصوات غريبة، وتحرك لسانها بين أسنانها ثم تسحبها إلى الخلف فتطلق الأصوات المزعجة.

«العوالم والغوازي»

للعوالم مجتمع خاص بهن وهن يتقن الغناء والرقص ولا يوجد احتفال يتم في مصر دون غناء أو رقص العوالم، ويرقصن على نغمات الطبول وينشدن الأشعار والمواويل، حتى الأتراك أعداء كل الفنون - على حد قول (سافاري) - يجدون متعة في الاستماع لغناء العوالم، ولا بد من وجود عالمة في حفلات الزفاف، وترقص الغوازي سافرة الوجه في الشوارع العامة وفي ساحات المنازل وفي بعض المناسبات كالاحتفال بمولد طفل أو زواج ولا يرحب بهن في الحريم حسن السمعة وهن أكثر النساء خلاعة.

وقد نفى محمد علي باشا العوالم خارج القاهرة، وفي عام ١٨٣٤ منع رقص الفتيات في الشوارع وفرض على مخالفة ذلك عقوبة خمسين جلدة.

وللعوالم عدة رقصات سجلها الرحالة، فمنها البدوية حيث ترقص العالمة وهي تضع أسلحتها على رأسها، وكذلك سجل (برديو) ما عرف برقصة النحلة حيث تتظاهر العالمة بدخول نحلة في ملابسها فتبدأ في الرقص وكأنها تبحث عنها بين ملابسها.

ومن أشهر العوالم «كوتشك هانم» وهي سورية الأصل من دمشق، نفاها عباس باشا إلى إسنا، كانت شديدة الجمال وكانت تؤدي رقصة النحلة بنفسها كما أنها دربت بعض الفتيات على الرقص في إسنا.

«الأزياء وزينة المرأة المصرية»

كان حريم الأسرة العلوية والطبقة الوسطى يحرصن على ارتداء الملابس المصنوعة من أقمشة باهظة الثمن، أما نساء الطبقة الفقيرة فتكون ملابسهن من الكتان. ترتدي المرأة القميص ثم اليلك وهو ثوب طويل فضفاض وتحرص نساء الطبقة العليا على لف الخصر بشال من الكشمير حافظة مذهبة.

وفوق اليلك ترتدي الجبة المصنوعة من الحرير، أما ملابس التجوال فهي التزيرة أو الثوب أو السبله ولا بد أن تضعه المرأة عند خروجها في الطريق العام، كما تغطي المرأة نفسها بعد كل ذلك بالحبرة أو الملاءة وهي من اللون الأسود للمتزوجات ومن الحرير الأبيض للفتيات.

وقليل من النساء يرتدين الجوارب بينما ترتدي الكثيرات المز أو الحذاء الداخلي المصنوع من الجلد المراكشي الأصفر أو الأحمر المطرز بالذهب وفوق المز البابوج، وقد يستعملن القباقيب الخشبية المرتفعة أربع أو خمس بوصات عن الأرض وتكون مزينة باللؤلؤ والفضة.

وتزين المرأة رأسها بالطربوش والفردية التي تقوم بلفها حول الطربوش وتحرص على تزيين الطربوش بأقراص من الألماس المرصع بالذهب أو بالقميرية وهي صفيحة ذهبية مزخرفة وتبدل من القميرية سبع قطع ذهبية مسطحة وتزين أذنها بأقراط من الألماس والذهب وتختال بالعقد أو القلادة في رقبتها وبالأساور في معصمها. أما نساء الطبقة الدنيا فزينتهن تبدو رخيصة تفتقر إلى الذوق، يضعن الخزام في أنوفهن وهو نحاس يضم ثلاث خرزات ملونة حمراء أو زرقاء، ويمر عبر المنخر الأيمن ويتبدل جزء منه أمام الفم.

«الاعتقاد في الخرافات»

كانت المرأة المصرية تعتقد في الخرافات وتعتقد أن الجن يسكنون الأنهار والحمائم ولذلك ترتدي المرأة الحجر الأزرق للوقاية من شر الحسد والعين، كذلك تستخدم حجر الشب لنفس الغرض فتزين به قلنسوة الصبي وتعلق النساء على الأبواب نبات الصبار، كما تميل لعلم التنجيم لجلب الحظ.

وتقضي المرأة أوقاتا طويلة في الحمامات العامة في كل أسبوع ساعات طويلة ليستعرضن ترفهن وعطورهن ويسلمن شعورهن لتصفن وتصفف فيها صفائح ذهبية أو فضية. وفي الحمام يأكلن ويستمتعن بأوقاتهن بجلب بعض المطربين المكفوفين لسماع الأغاني وتعلق ستارة تدل على أن باب الحمام مغلق دون الرجال، وإذا ترك جميع خدم الحمام مكانهم للخادومات.

«طراز المنازل بمصر والمشرقيات»

ترجع أقدم النماذج الإسلامية من أعمال المشرقيات إلى العصر الأيوبي (١١٧١-١٢٥٠م). أما أوج التطور فقد تحقق في القرون من الرابع عشر إلى التاسع عشر التي كانت المشرقيات تغطي معظم نوافذ البيوت في القاهرة وهي ستر بغرض التغلب على مشكلات التهوية والإضاءة بجانب أنها تقوم بوظيفة الشرفة وتحقق تقليد حجاب السيدات فتتمكن نساء المنزل من رؤية من بخارجه دون رؤيتهن من عابري الطريق لذا فهي تحجب أهل المنزل عن عيون الغرباء، وفي نفس الوقت يستمتعن بمشاهدة حفلات الغناء والرقص التي تجري في القاعات المجاورة دون أن يراهن أحد.

كما أن أوعية الماء ذات المسام المصنوعة من الفخار كالقلل كثيرا ما توضع عليها حتى تبرد بفعل الهواء وتوضع على مشكاة صغيرة نصف مستدير تبرز من وسط المشرقية ولذلك اشتق اسمها من الفعل يشرب.

«الرجل الشرقي . تجاهل متعمد»

من الملاحظ أن صورة الرجل الشرقي أو الأب ظلت غائبة عن تصاوير الاستشراقين الأسرية، فلكي يشبع المصور الأوروبي نهم ولعه باستراق النظر إلى الأماكن المحرمة، أحجم عن تصوير الرجل الشرقي (ممثل القوة والسيطرة) في المشاهد الأسرية، مادام الرجل الغربي قد حرم من الدخول إلى منازل الشرقيين، كأن إغفاله في اللوحات وإحلال الرقيق والأغوات محله بمثابة عملية استبعاد رمزي أو فكري للرجل الشرقي يقوم بها المصور الغربي عن عمد للإعراب عن إلغاء وجوده، ومن ثم الإحساس بالتفوق والسيطرة.

غير أن المصورين الاستشراقين ما لبثوا أن اعترفوا على مضض بوجود المرأة المصرية أو الشرقية خارج الحرمك، وبحقها في مغادرة مضجعها والخروج من دارها بحرية.

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين أدرك الاستشراقيون زيف تفسيراتهم السابقة محاولين استبعاد الخرافات التي سبق لهم اعتناقها، فاستعادت المرأة الشرقية كبرياءها في لوحات التصوير الاستشراقي من خلال نضالها في سبيل الحصول على حقوقها والمساواة بالرجل.

وقضية المرأة بما كان عليه وصفها في مصر والمشرق العربي كله في طريقا الآن إلى الاندثار، وإن كانت قد تركت في نفسية المرأة أثارا مدمرة.

فنظام الحريم الذي ساد فترة طويلة من الزمن سلب المرأة إنسانيتها، وأحالتها إلى متاع، وتمثلت خطورته في أنه استمر بحيث جعل المرأة تتقبل السجن المادي والمعنوي المفروض عليها.

ولمدة قرون ظلت المرأة تدور في دائرة مفرغة وكل قدراتها الإنسانية تنصرف في محاولة دائمة ومريرة لنيل الخطوة عند الرجل.

وفي أواخر القرن التاسع عشر بدأ نظام الحريم ينهار في مصر نتيجة لتغيير النظام الاقتصادي للمجتمع، والمرأة التي استقلت اقتصاديا ما زالت - إلى حد كبير - تدور عاطفيا ونفسيا في الدائرة المفرغة التي كانت تدور فيها جدها في عصر الحريم.

حكاية مسجـر صفية

عالم الجوّاري مليء بالأسرار والمكائد. ساحته كانت قصور الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء ويقال إن نظام الحريم عربي. غير أن التاريخ يقول إن الفرس هم أول من أسسوا ممالك الجوّاري. ثم انتقل هذا النظام إلى الصين والعرب ودلائل الخلافة الإسلامية.

والجارية قد تكون مجرد أسيرة تحوّلها حياة القصور إلى حاكمة من وراء الستار وقد تصبح سلطنة متوجة.

ومن التاريخ حدث أن اختطف قراصنة البحر المتوسط سفينة تحمل أفراد عائلة من نبلاء مقاطعة جنوة الإيطالية وكان من بينهم فتاة جميلة أخذها القراصنة إلى الأستانة (تركيا) وبيعت في سراي السلطان مراد الثالث وألحقها بالحريم كجارية. ولكنها جذبت انتباه السلطان وتزوجها وأنجب منها ابنه محمدا الذي أصبح فيما بعد السلطان محمد الثالث. وارتفع قدرها من جارية إلى سلطنة واشتهرت باسم (صفية الإيطالية) وأصبح لها نفوذ وتسلط على شؤون الدولة العثمانية بعد وفاة زوجها السلطان مراد الثالث.

وفي نهاية حياتها أرادت أن تكفر عن كل سيئاتها فقامت بتبني عدد من المشروعات الخيرية الإسلامية ولا يزال موجودا بالقاهرة مسجد يحمل اسمها وهو مسجد صفية. كما يوجد بدار الكتب المصرية مصحف شريف محلي بالذهب مكتوب عليه أنه وقف الرحومة صفية أم السلطان محمد خان.

الباب الثالث

سياسة .. سلطة .. جنس عالم حریم السلطان !



لا شك أن أي مؤرخ أو محلل للأسباب التي أدت إلى الهزيمة المروعة التي أصابت القوات المسلحة عام ١٩٦٧ الذي اعتبر عام النكسة، والتي أصابت الأمة العربية كلها عامة وأحلام دول صغيرة كانت ترى في مصر شعلة للتقدم والعزة والكرامة .. لا شك أن أي مؤرخ لا يمكن أن يجهل الدور الخطير الذي لعبته المرأة من «حريم السلطان» في تلك الفترة !

السياسة هي فن الممكن .. وكل ما تنطوي عليه هذه الحملة مباح ومشروع حتى وإن اصطدم بالأخلاق أو المبادئ .. فالسياسة لا ضمير لها .. فقط يحكمها قانون المصالح والقوة .

أي نظام سياسي يعرف جيداً أنه لا يشينه استخدامه لبعض الأعمال القذرة لتحقيق أهدافه أو نتائج مطلوبة، وقد عرفنا أن جهاز المخابرات المصرية العظيمة، استغل الشبكة التي قامت بتكوينها «س . ق» وضمت في عضويتها الكثيرات من سيدات المجتمع والفنانات والطالبات أيضاً لجمع المعلومات من خلال ممارسة الجنس أو استخدام سلاح الإغراء لتقويض سمعة بعض الشخصيات أو للضغط عليها .. !

بل إن جهاز المخابرات الإسرائيلية (الموساد) استغل المناخ السائد في فترة الستينيات وتمكن من اختراق بعض الشخصيات القيادية من كبار رجال الدولة بإقامة علاقات جنسية ملتزمة مع غوان وراقصات ومحترفات دعارة، وهذا ما أدى وساعد على هزيمة قاسية وموجعة ونكسة ١٩٦٧ المريرة !

وتعتمد المخابرات في تنفيذ بعض عملياتها على المال والجنس .. ويعرف خبراء المخابرات أن كل إنسان لديه نقاط ضعف وأنه مهما بلغت مناعته وصلابته فهناك على لدوام مدخل يمكن به اختراقه وتوجيهه !

وكثيراً ما تتسبب النساء وخاصة «حريم السلطان» .. ونقصد به مجموعات النساء اللواتي يتم تجنيدهن لمصالح خاصة بدولة معينة وصفة دولة معينة، ويكن قريباً من السلطات الحاكمة عن طريق الإغراء وأشعة أنوثة المرأة عبر كل زمان ومكان .

وكما تحكي لنا روايات وحكايات وقصص من التاريخ البعيد والقريب معاً !

والمرأة هي الأكثر فهماً للرجل ومعرفة طبيعته وسبيل احتوائه .. إنها تستخدم ما وهبتها به الطبيعة من غريزة وحس .. وكلما كانت هذه المرأة جميلة جذابة لها شهرتها أو مكرها في المجتمع كانت قدرتها أكبر على اختراق الشخصية المراد كشف ما تحمله من معلومات أو أسرار ..

وقد رأينا كيف استطاعت الوكالة اليهودية تجنيد الراقصة «كاميليا» .. وكانت «كاميليا» فاتنة الجمال .. جذابة .. لها قدرة مثيرة على الإغراء وإيقاع الرجال في هواها .. وقد تمكن رئيس فرع مخبرات الوكالة اليهودية في مصر «جيمس زارب» من الاتصال بـ «كاميليا» عن طريق مدرب الرقص اليهودي «إيزاك داكسون» .

واستطاع «زارب» بسرعة فهم طبيعة «كاميليا» وعشقها للفن ورغبتها في التألق السينمائي، وبالتعاون مع مركز المخابرات الإسرائيلي في جنيف تم توفير فرصة لـ «كاميليا» للعمل في أحد الأفلام العالمية، وكان هذا بداية الخيط الذي سهل إدخالها في حظيرة الجواسيس .

كانت خطة الوكالة تعتمد على إدخال «كاميليا» إلى القصر الملكي لمعرفة ما يدور في ردهاته من أسرار أو معلومات، وكان الأمر سهلاً فالملك «فاروق» ضعيف أمام المرأة الجميلة المشهورة ..!

وتحقق ما أرادته الوكالة اليهودية فقد أصبحت «كاميليا» عشيقة الملك، وكان طريقها مفتوحاً إلى حجرة نوم الملك، وتحولت هذه العلاقة الجنسية إلى رغبة دبر لها البعض من حاشية الملك الفاسد لتزويج الملك من «كاميليا» تحت حجة إنجاب ولي العهد الذي كان الملك في شوق إليه .. وكانت هذه الخطة على وشك أن تتحقق لولا تدخل القدر إذ سقطت طائرة «كاميليا» «نجمة ميرلاند» فوق قرية الدلنجات بمحافظة البحيرة في ٣١ أغسطس سنة ١٩٥٠ ..

قبل مصرع «كاميليا» بستين كانت غارقة في مستنقع الجاسوسية حيث قدمت

للووكالة اليهودية أكبر خدمة، وهي التي مهدت لقيام دولة إسرائيل بعد هزيمة العرب في حرب ١٩٤٨ .

فقد استطاعت «كاميليا» بالاشتراك مع المستشار الاقتصادي للملك «فاروق» «إلياس إندراوس» وبعض كبار الضباط من إقناع الملك بتمرير صفقة أسلحة فاسدة للجيش المصري .. وهي الأسلحة التي كانت أحد الأسباب المباشرة للهزيمة التي لحقت بالقوات العربية في هذه الحرب ..

كان الملك «فاروق» مستعداً للموافقة على أي شيء وهو بين أحضان الراقصة الجميلة يضمهما فراش واحد بينما همسها الحنون وأناملها الناعمة تدغدغ غرائزه التي لا تشبع أبداً وعقله المستعد عندئذ لتمرير أي شيء دون مقاومة ..

لم تكن «كاميليا» وحدها التي كان لها دور على مسرح الجاسوسية مارسته من خلال ما كان متوفراً لها من جاذبية جنسية وقدرة على الإغراء .. بل إن كثيرات من الفنانات لعبن الدور نفسه خاصة خلال الأحداث المشتعلة للحرب العالمية الثانية ..

ونستطيع أن نلمح من هؤلاء الفنانات الجاسوسيات .. الممثلة العالمية «جريتاجاربو» .. والمطربة ذات الصوت الملائكي «أسمهان» .. وراقصة الزعماء والشعراء .. «حكمت فهمي» ..

فنانات في عالم المخابرات

«جريتّا جربو» .. ممثلة سويدية جميلة .. كانت لها شهرتها العالمية بما قامت به من أدوار في السينما، لكن شهرتها في عالم المخابرات والجاسوسية ظل طي الكتمان لفترة طويلة قبل أن ينشر ويعرفه الجميع ..

كانت «جريتّا» ممثلة السينما المعروفة تعيش في موطنها السويد خلال الحرب العالمية الثانية، وبحكم عملها وطبيعة النظام السويدي المحايد فقد استطاعت «ريتّا» العمل بحرية، ساعدها ما تتمتع به من جماهيرية وعلاقات كثيرة مع شخصيات في مواقع مختلفة ..

لقد استطاعت «جريتّا جاربو» الحصول على معلومات قيمة من جواسيس الألمان الذين لم يشكوا في الممثلة العالمية وباحوا لها بكل ما تنغلق عليه صدورهم من أسرار نقلتها بدورها إلى مخابرات الحلفاء ..

كما استطاعت الممثلة «جريتّا جاربو» بما كانت تتمتع به من جمال وجاذبية وشهرة من تكويني شبكة من الجواسيس والعيون، استطاعت من خلال هذه الشبكة توصيل الكثير من المواد الحربية الحساسة للحلفاء من الدول التي أعلنت حيادها في الحرب - ومنها السويد - وكذلك تهريب عدد غير قليل من المتعاونين والمقاومة التي تعمل مع الحلفاء إلى خطوط آمنة ..

وخلال نفس الحرب لعبت راقصة مصرية دوراً خطيراً على الساحة السياسية من خلال عملها مع الألمان لفضح خطط القوات البريطانية العاملة في شمال أفريقيا .. لقد باعت هذه الراقصة نفسها من أجل عشيق استطاع أن يشبع نهما الجنسي ويروي عطشها للحب .. وانتهى بها المطاف إلى سجن الأجانب ثم إلى الإفلاس والوحدة .. إنها الراقصة «حكمت فهمي».

بدأت «حكمت فهمي» حياتها الفنية كممثلة مغمورة في الفرق المسرحية المتنقلة التي تعرض رواياتها في القرى والنجوع .. كانت «حكمت» فنانة مبدعة وقد اكتسبت بفضل جمالها وقرابتها للفنانة «عزيزة أمير» .. شهرة سريعة أوصلتها إلى بطولة فرقة «بديعة مصابني» تحصل على أعلى أجر لراقصة في هذا الوقت وكان يزيد عن المائة جنيه في الشهر ..

كان في حياة «حكمت فهمي» أكثر من زوج . لكنها لم تستسلم إلا لعشيق واحد هو الذي قاد خطواتها إلى عالم الجاسوسية .. كان زوج «حكمت» الأول رجلاً برازيليًا يملك مصانع لإنتاج البن .. كان مليونيراً مسيحياً لكنه أشهر إسلامه من أجل خاطر عيون الراقصة الجميلة .. ومع هذا لم يستمر زواجهما طويلاً ..

كذلك كان زواجها الثاني سريعاً، وكان الزوج الثاني ضابطاً برتبة ملازم أول بسلاح الطيران الملكي .. وقد انتهى هذا الزواج عقب دخول «حكمت فهمي» السجن بعد انكشاف عملاتها للمخابرات الألمانية .

قضت «حكمت فهمي» سنتين ونصف السنة في سجن الأجانب وبعد خروجها من السجن كان زواجها الثالث من المخرج السينمائي «محمد عبد الجواد» الذي أخرج لها فيلماً فاشلاً عام ١٩٤٦ اسمه «المتشردة»، وكانت «حكمت فهمي» قد أودعت جزءاً كبيراً من ثروتها لإنتاج هذا الفيلم .. وهكذا خرجت «حكمت فهمي» من زواجها الثالث بشيئين : إفلاسها وابنها الوحيد «مجدي» ..

كانت هذه قصة الأزواج الثلاثة الذين تزوجوا الراقصة التي رقصت أمام زعماء العالم «هتلر» و «موسليني» .. وكتب فيها الشعر أكبر شعراء مصر في هذا الوقت «إبراهيم ناجي» و «أحمد رامي» ..

أما قصة عشيقها الوحيد فهي قصة دخولها عالم الجاسوسية لتكون واحدة من أمهر الجاسوسيات، وكان جمالها وما تبذله من مفاتها الجنسية وسيلتها للحصول على معلومات سرية وخطيرة للغاية .. ولتكن بداية القصة من النمسا ..

كانت الراقصة «حكمت فهمي» تعمل بأحد ملاهي النمسا عندما قامت الحرب العالمية الثانية في ١١ فبراير سنة ١٩٣٨ بهذا الإنذار الشهير الذي وجهه الزعيم النازي «هتلر» إلى حكومة النمسا ..

قيل نشوب الحرب كانت «حكمت» قد تعرفت على شاب قدم نفسه لها على أنه شاب مصري يدرس الهندسة في النمسا واسمه «حسين جعفر» ..

الحقيقة أن هذا الشاب لم يكن مصرياً بل كان جاسوساً ألمانياً .. ويرجع أصله إلى «جعفر والي باشا» والذي كان قد تزوج من فتاة ألمانية أنجب منها ولداً هو «حسين جعفر» وعندما طلق «جعفر باشا» زوجته الألمانية تزوجت من شاب ألماني وأنجبت ولداً هو الشقيق لـ «حسين جعفر» وكان يشبهه إلى حد بعيد .. وقد استغلت المخابرات الألمانية هذا الشبه والظروف وخططت لجعل الشاب الألماني - من الأيوين الألمانين - والذي اسمته على اسم شقيقه «حسين جعفر» .. جعلت منه جاسوساً .. وكان هذا الشاب وسيماً وجذاباً لديه قدرة عجيبة على معايشة النساء .. وهكذا وقعت «حكمت فهمي» في حباله ..

بعد عودة «حكمت فهمي» من النمسا عملت في صالة الرقص بفندق الكونتنتال الذي كان يرتاده الطبقة الراقية من المجتمع المصري بالإضافة إلى أنه كان المكان المفضل لكبار ضباط الجيش البريطاني ورجال المخابرات البريطانية ..

لم تكذب «حكمت فهمي» تكسب ثقة كبار قواد الجيش البريطاني ورجال المخابرات البريطانية في مصر حتى كان الجاسوس الألماني «حسين جعفر» قد حط رحاله وقصد إلى الصالة التي تعمل بها «حكمت فهمي» بناء على توجيه المخابرات الألمانية حيث إن هذه الراقصة تستطيع تقديم الكثير لألمانيا ولجيشها العامل على الحدود الغربية لمصر بقيادة «روميل» ..

وبالفعل استطاعت «حكمت فهمي» من خلال عملها كراقصة في فندق الكونتنتال ومن علاقتها الشخصية والغرامية الملتهبة مع كبار رجال القوات البريطانية من الحصول

على الكثير من الأسرار الخاصة بالقوات البريطانية في شمال أفريقيا .. ونجحت في الحصول على جهاز اللاسلكي الخاص بـ «حسين جعفر» والذي كان قد خبأه عند الأب «يوحنا» قسيس كنيسة سانت تريزا بشبرا .. كما استطاعت القيام بمغامرة جريئة للحصول على حقيبة الأوراق الخاصة بالمارشال البريطاني «تايدر» قائد سلاح الجو ونائب رئيس المخابرات البريطانية لمنطقة شمال أفريقيا .. وكان «تايدر» ينزل بأحد غرف فندق الكونتنتال الذي تعمل به «حكمت فهمي» .. إضافة إلى أنها صديقة وعشيقة للمارشال البريطاني وهكذا كان الأمر بسيطاً وسهلاً .

أما النهاية فكانت في صيف عام ١٩٤٢ .. كانت علاقات «حسين جعفر» النسائية والمشتعلة بالجنس قد قادتته إلى بعض اليهوديات العاملات في الوكالة اليهودية «الموساد» فيما بعد، ويرجع إلى هؤلاء الفتيات كشف العلاقة التجسسية التي تربط الجاسوس الألماني مع الراقصة «حكمت فهمي» ..

كانت الراقصة الجاسوسة ترتدي فستان سهرة مثيراً وتجلس في صالة فندق الكونتنتال عندما تقدم منها النقيب «محمد إبراهيم إمام بك» مساعد رئيس قلم البوليس السياسي وهمس في أذنها ..

- أنا عايزك دلوقت ..

فدعت النقيب «إمام» للجلوس معها، لكنه اعتذر قائلاً لها أنه يريد أن يتحدث إليها خارج هذا المكان، ونزلت معه لتجد نفسها في سيارة محملة بالجنود تصل بها إلى سجن الأجانب في الغرفة رقم «٦» لتجد بها سريراً واحداً وطبقاً وأبريقاً من النحاس وسجانة تخبرها أنها في انتظارها من ثلاثة أيام ..

وفي مايو عام ١٩٤١ أطلقت المخابرات الإنجليزية على «أسمهان» لقب الجاسوسة «ماتا هاري» .. وهذا ما ضايق «أسمهان» جداً .. وعلقت على هذه التسمية في حديث لها مع الكاتب الصحفي الكبير «محمد التابعي» قائلة : «إنني أختلف عن الجاسوسة «ماتا هاري» لأنني أحاول أن أعمل شيئاً من أجل بلدي» ..

هل كانت «أسمهان» تختلف بالفعل عن الجاسوسة «مارتا هاري» ؟ .. وهل كانت تعمل مع المخابرات الفرنسية والإنجليزية من أجل بلدها حقاً؟. ثم من هي «مارتا هاري» ؟..

لا شك أن المطربة ذات الصوت الملائكي «أسمهان» تختلف بصورة كبيرة عن الجاسوسة الهولندية الأصل «مارتا هاري» .. فقد اعتمدت الأولى على شهرتها وعلاقتها الواسعة مع العديد من الشخصيات المرموقة في المجتمع ..

أما «جير ترود مارجریت» أو التي اشتهرت فنياً باسم «مارتا هاري» - وتعني عين الصباح - فقد اعتمدت في عملها بالجاسوسية على الجنس، فقد كانت تحصل على المعلومات والأسرار من زبائنها وهم معها في الفراش.

كانت «مارتا هاري» تتجسس لصالح الألمان خلال الحرب العالمية الأولى وتنقلت من عاصمة إلى أخرى تعرض رقصاتها الشهوانية الحافلة بالإثارة الجنسية، ومن خلال ما كانت تتمتع به من مفاتن جنسية أوقعت العديد من الشخصيات العسكرية والسياسية وجمعت في جعبتها الكثير من الأسرار الخطيرة .. وكانت النهاية عندما أعدمت في فرنسا بعد أن تكشفت حقيقتها .

الأمر يختلف كثيراً بالنسبة لـ «أسمهان» .. فهي لم تتجسس لصالح الألمان لكنها تجسست لخصومهم من الحلفاء، كما أنها لم تحصل على المعلومات والأسرار من خلال ما تبذله من جنس لمن تتعامل معهم بل كان ذلك عن طريق ما تتمتع به من شهرة وعلاقات واسعة .. وكل من «أسمهان» و «مارتا هاري» كان تعاملها مع أجهزة المخابرات من أجل المال لا من أجل أي شيء آخر .. ويبقى مصرع «أسمهان» هو اللغز الذي لم يفض مغاليقه أحد حتى اليوم .. لا شك أن القصة تشدنا لمعرفة المزيد ..

ولدت «أمال فهد الأطرش» عام ١٩١٢ أثناء الاحتلال الفرنسي لبلدها .. وقد ولدت «أسمهان» لعائلة درزية لها ثقلها ووزنها في جبل الدروز بسوريا .. وكان كبار الثوار من الدروز الذين يكافحون الاحتلال الفرنسي هم من عائلة «أسمهان» .. وكان

من جراء اشتداد حركة الكفاح المسلح ضد الفرنسيين أن شعرت عائلة «أسمهان» بالخوف من الحياة وسط هذه الظروف المضطربة خاصة بعد موت الأب .. فكانت هجرة «أسمهان» الأولى إلى مصر ..

في مصر عرفت «أسمهان» وأمها مع أخويها «فؤاد» و «فريد» شطف العيش والمعاناة، وكان من أصدقاء الأسرة الملحن المعروف «داود حسني» الذي أدرك الموهبة الصوتية الفريدة لـ «أسمهان» وهو أول من أطلق عليها هذا الاسم ..

ثم جاءت هجرة «أسمهان» الثانية في عام ١٩٣٩ بعد أن طلقت من ابن عمها الأمير «حسن الأطرش» بعد أن أنجبت منه ابنتها الوحيدة «كاميليا» .. كانت عودة «أسمهان» إلى مصر مدعمة بإصرار على النجاح الفني وساعدها أخوها «فريد الأطرش» في تحقيق هذا الهدف ..

كانت «أسمهان» قد تعاملت مع المخابرات الفرنسية وارتبطت بصداقة مع رئيسها في بيروت الجنرال «كاترو» وقد قامت بالفعل بأعمال جليلة لهذه المخابرات، لكنها عندما حطت رحالها في مصر اهتمت بالفن وبدأت في اختراق الأوساط الاجتماعية الراقية وأصبحت ضيفة على العديد من قصور الأثرياء والباشوات .. وخلال وجودها في مصر تعرفت باللواء «سليم زكي» حاكم دار القاهرة والذي اغتيل في شارع القصر العيني .. كما تعرفت برئيس الديوان الملكي «أحمد حسنين باشا» والذي كان يحبها بجنون .. وكل من الرجلين كان له دور في حياة «أسمهان» بعد ذلك ..

عام ١٩٤١ كانت «أسمهان» قد حققت شهرة كبيرة في عالم الفن وكانت حياتها البوهيمية التي تعيشها طويلاً وعرضاً قد جعلت اسمها على كل لسان، وكان من عاداتها تناول الخمر بشراهة .. وحدث أن كانت في فندق الكونتنتال وهو نفس الفندق الذي ينزل فيه الجنرال «تايدر» مسؤول المخابرات الحربية البريطانية، وكان الرجل يراقب «أسمهان» ويعرف تاريخها في التعاون مع المخابرات الفرنسية، لذلك صمم «تايدر» على تجنيدها للعمل مع المخابرات الإنجليزية .. لما عرفه عن طبيعتها المحبة للمال ولذلك

لوح لها بما تضعف أمامه ولا يمكنها مقاومته ..

وهكذا تمكن «تايدر» ببساطة شديدة من تجنيد «أسمهان» للتعاون مع المخابرات الإنجليزية، وكان طلبه الأول منها أن تعمل على فتح منافذ لدخول قوات الحلفاء من خلال جبل الدروز وذلك بواسطة أفراد عشيرتها رؤساء القبائل الدرزية، وقبضت «أسمهان» الثمن ما يقرب من الخمسين ألف جنيه أسترليني ..

سافرت «أسمهان» إلى بيروت لتقوم بالمهمة التي كلفت بها من قبل المخابرات الإنجليزية وهناك اصطدمت بالحاكم الفرنسي الذي كان موالياً لـ «هتلر» وقد علم بمهمتها فأصدر أوامره بإعدامها مما اضطرها للهرب إلى القدس بمساعدة الجنرال «كاترو» رئيس المخابرات الفرنسية ..

في هذه الأثناء تعرفت «أسمهان» بصحفي أمريكي يدعى «فورد» كان يعمل لحساب المخابرات الألمانية، واستطاع «فورد» أن يقنع «أسمهان» بالتعاون مع الألمان لأنهم الأقوى على حماية عملائهم كما أنهم يدفعون بسخاء وبذلك لمس هذا الجاسوس الوتر الحساس عند «أسمهان» .. ضعفها أمام المال ..

قبل أن تفكر «أسمهان» في التعاون جدياً مع المخابرات الألمانية اتصل بها مستر «ستيوارت» مسئول المخابرات الإنجليزية في بيروت وطلب منها السفر إلى لندن للقاء عاجل مع قيادته هناك .. وافقت «أسمهان» بعد أن طلبت الثمن وكان عشرة آلاف ليرة لبنانية .. فلا شيء عندها بلا ثمن ..

سافرت «أسمهان» بالفعل إلى لندن على ظهر الباخرة «تينس» وبمجرد وصولها إلى لندن أخذها ضابط إلى مقر المخابرات بشارع الوزارات بمنطقة «هوايت هول» .. وهناك سمعت ما ترغب في سماعه بأن المخابرات البريطانية هي بمثابة نهر من الذهب لعملائها المخلصين في جميع أنحاء العالم ..

كان هذا اللقاء هاماً للغاية لأنه حال دون انضمام «أسمهان» للعمل مع المخابرات الألمانية بل أنها أبلغت عن صديقها الصحفي الأمريكي «فورد» مما أدى إلى القبض عليه

وعلى بعض العملاء الألمان في مصر والشام .. كان من جراء هذا قرار اتخذته المخابرات الألمانية بالتصفية الجسدية لـ «أسمهان» .

كان من الضروري بعد ذلك تدخل المخابرات الإنجليزية والفرنسية لحماية «أسمهان» وكان القرار بسفر «أسمهان» إلى القدس .. وفي القدس حدثت مواجهة بينها وبين الملكة «نازلي» - أم الملك فاروق - حيث كان بين الاثنين منافسة شديدة على حب رئيس الديوان الملكي «أحمد حسنين باشا» والذي كان بدوره ضعيفاً أمام أي امرأة تظهر له رغبة أو تعاطفاً .. وقد عمق من هذه المواجهة أن الملكة «نازلي» كانت وراء قرار صدر بطرد «أسمهان» من مصر ..

كانت العلاقات المتوترة والمشحونة بالقلق التي وجدت «أسمهان» نفسها وهي دائرة فيها بلا توقف، كان لهذه العلاقات والضغط تأثير نفسي شديد ظهر بوضوح على «أسمهان» وهي تصور فيلم «غرام وانتقام» .. وعندئذ نصحتها صديقتها الممثلة السينمائية «إلهام حسين» بالسفر إلى رأس البر للاستجمام وإزالة ما يعتمل داخلها من توتر وإرهاق .. وبالفعل أذعنت «أسمهان» لنصيحة صديقتها وكان السفر يوم الجمعة ١٤/٧/١٩٤٤ .

كان السفر بسيارة ستوديو مصر الذي كان يديره الممثل والثري «أحمد سالم» والذي كان الزوج الثالث لـ «أسمهان» حيث انتهى زواجه منها بحادثة جرى فيها إطلاق رصاص ثم طلاق .. المهم أن السيارة انطلقت في حوالي الثامنة من صباح يوم الجمعة الموافق ١٤/٧/١٩٤٤ وعند المنطقة الواقعة بين كوبري طلخا ومدينة المنصورة انحرفت السيارة بشدة لتغوص في إحدي الترع وفي جوفها المطربة «أسمهان» وصديقتها «ماري قلادة» بينما ينجو السائق بصورة سينمائية مثيرة ومحيرة!!

كان مصرع «أسمهان» بهذه الطريقة مثيراً للحيرة ولغزاً يصعب فك طلاسمه .. وترددت شائعات عن المدبر لهذا الحادث .. هل هي الملكة «نازلي»؟ أم زوجها الأخير «أحمد سالم»؟ أو زوجها الأول «حسين الأطرش»؟ لكن ربما كانت الحقيقة شيئاً آخر

تماماً .. فأكثر الأدلة والاحتمالات تؤيد دور المخابرات الإنجليزية في قتل «أسمهان»، وذلك لأنها عرفت الكثير ولم تكن عملية مأمونة أو محل ثقة لذلك كان لابد من تصفيتها..

لكن هل تمكن أحد من تفسير لغز مصرع هذه المطربة التي امتلكت صوتاً قلما يوجد الزمان بمثله ..؟.. بالتأكيد لم يحدث، بل إن القصة كلها أصبحت مطوية بالغازها وأسرارها في صفحات مجهولة من التاريخ .

«حريم السلطان» لعبة الموساد في مصر..!

خلال الحرب الطويلة التي دارت بين العرب وإسرائيل لعبت المخابرات دوراً كبيراً وربما الدور كله، بل يمكن أن نقول دون مبالغة إن نتائج هذه الحروب كانت رهناً بأداء وكفاءة هذه المخابرات أو تلك .

وكان اعتماد أجهزة المخابرات الإسرائيلية (الموساد) على الجنس وما يمكن أن تضطلع به المرأة في هذا المجال يشكل حجر الزاوية في العمليات التي قامت بها .. ونستطيع أن نلمح هذا الدور من خلال عمليات الجنس القذرة التي قام بها «الموساد» قبيل حرب يونيو وبعدها وتعقبها للعلماء العرب في مجال الطاقة النووية والعمل على تصفيتهم أو تجنيدهم ..

لقد بدأت أنشطة جهاز المخابرات الإسرائيلي في مصر - خاصة - قبل الثورة وقد رويينا تفاصيل دفع الراقصة «كاميليا» وحاشية الملك الفاسد لتمرير صفقة الأسلحة الفاسدة التي حارب بها الجيش المصري عام ١٩٤٨ .

لكن بعد قيام الثورة كشف «الموساد» أنشطته وكان يهدف في البداية إلى تعكير صفو المياه بين الثورة الوليدة وبين قوى الغرب خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، ثم تحول هذا النشاط إلى اختراق المجتمع المصري وقياداته خاصة القوات المسلحة ..

النكسة وحريم السلطان .. الفساد السياسي والعسكري

حفلة راقصة للطيارين المصريين ليلة ٥ يونيو ١٩٦٧م

في يوم الجمعة ١٩٦٧/٦/٢ اجتمع الزعيم «جمال عبد الناصر» مع المشير «عبدالحكيم عامر» وتسعة من قادة القوات المسلحة ؛ كان من بينهم قائد الطيران الفريق «صدقي محمود» والفريق أول «محمد فوزي» رئيس هيئة الأركان .. في هذا الاجتماع أُنذر «عبدالنصر» المشير والمجتمعين معه من القادة بأن إسرائيل ستوجه ضربة جوية صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ ..

ثم استطرد «عبدالنصر» داعياً قادة القوات المسلحة باتخاذ كافة الإجراءات الوقائية لامتناع هذه الضربة بأقل قدر ممكن من الخسائر ثم الاستعداد للرد بعد ذلك .. كانت هناك خطة تعرف بالخطة «قاهر» وضعت عام ١٩٦٦م لمواجهة هذا الاحتمال .. احتمال تعرض مصر لضربة خاطفة توجه للطيران والمطارات على وجه الخصوص ..

لكن ما حدث بعد هذا الاجتماع التاريخي كان غريباً ولا يتصور أحد أن يحدث في بلد تواجه حرباً .. كان ما حدث بعد ١٩٦٧/٦/٢ هو امتداد لسلوك ومنهج استعمر خلال سنوات الستينيات كلها .. وهو سلوك اتخذ طابع تورط كبار المسؤولين بالدولة مع راقصات وفنانات .. بل إن بعضاً من أجهزة الدولة الحساسة انغمست تماماً في عملية قدرة تفوح منها رائحة الجنس والفساد الأخلاقي والإباحية المطلقة ..

في ليلة ٥ يونيو ١٩٦٧ وقبل ساعات قليلة من الغارة الإسرائيلية على مطارات مصر وتحطم طائراتها على الأرض .. في هذه الليلة أقيمت حفلتان راقصتان، إحداهما في نادي الطيران بمصر الجديدة، والثانية أقيمت في قاعدة مطار بليس الجوي .. وقد استمرت الحفلتان إلى ساعة متأخرة من الصباح .. وشارك في الحفلات عدد كبير من الراقصات مع معظم الطيارين وقادتهم .. هل كان هذا مدبراً؟ .. وماذا حدث في الحفلات؟ ..

وفي أعقاب حرب ١٩٦٧ ظهر في الأسواق كتاب بعنوان (وتحطمت الطائرات عند الفجر) .. يكشف هذا الكتاب عن حقيقة ما حدث في الساعات القليلة التي سبقت تحطم جميع الطائرات والمطارات المصرية في بداية حرب الأيام الستة .

يتحدث «باروخ» في كتابه عن رجل يهودي يدعى «آرام أنوير» قيل إنه منه أصل تركي ودخل مصر عام ١٩٥٦ على أنه تاجر سلاح واستطاع بسرعة اكتساب ثقة بعض قادة القوات المسلحة، وتمكن هذا الرجل من إقامة العديد من العلاقات النسائية مع أوساط الفئانات والراقصات وقد ساعدته في ذلك كاتبة إسلامية وأديبة كانت لها شهرتها في الخمسينات وبداية الستينات هي س .. ق ..

وس . ق .. عرفها الناس، واكتسب اسمها معنى خاصاً بعد أن اتضح دورها مع رئيس المخابرات المصرية «صلاح نصر» ..

وكان لـ «س . ق» نشاط تجسس قبل قيام الثورة، فقد تعاونت مع بوليس القلم السياسي أثناء تولي «إسماعيل صدقي» رئاسة الوزارة .. وكانت تعتمد في جمع المعلومات والأسرار على مجموعة من النساء المحترفات وجميعهن على استعداد لتقديم الخدمة الجنسية مقابل معلومة تصل في نهاية الأمر إلى «س ق» التي ترفعها بدورها إلى القصر الملكي أو للسفارات الأجنبية في مصر، ولمن يدفع أكثر ! ..

وعندما قامت الثورة وكان من الضروري إنشاء جهاز للمخابرات عهد إلى «زكريا محيي الدين» تكوين نواته الأولى ثم تولاه بعد فترة «صلاح نصر» الذي أعاد تشكيله وتدريب عناصره حتى أصبح من أقوى أجهزة المخابرات في العالم .. وكان طبيعياً أن يكون للعنصر النسائي دور في هذا الجهاز الذي يعتمد في أداء وظيفته على العمل السري .. وهنا جاء دور «س . ق» كانت «س . ق» كاتبة صحفية في أكبر المؤسسات الصحفية أو آخر الخمسينيات وبداية الستينيات ولها ما يزيد على العشرين كتاباً .. وكان أن وقع أحد هذه الكتب في يد «صلاح نصر» فهو يعرف دورها في العهد الملكي، وقدرتها على التجسس وجمع المعلومات وتجنيد النساء بكفاءة كبيرة ..

وافقت «س.ق» على طلب «صلاح نصر» للتعاون مع جهاز المخابرات العامة، وبالفعل تمكنت من تجنيد شبكة كبيرة من الفتيات والسيدات سيئات السمعة .. كن جميعاً مستعدات لتقديم أجسادهن بسخاء مقابل الحصول على المعلومات أو لتحقيق هدف محدد يريده جهاز المخابرات .. وضمت شبكة «س.ق» سيدات من كل نوع، طالبات جامعة .. سيدات مجتمع شهيرات ... فنانات .. راقصات .. وكان لكل منهن دور وعمل محدد . لكن ما علاقة هذه المرأة مع الجاسوس اليهودي «آرام أنوير»؟ .. وكيف استطاع هذا اليهودي خداع قادة الطيران والطيارين المصريين قبل تنفيذ الغارة الإسرائيلية بساعات قليلة؟ ..

استطاعت «س.ق» ضم الكثرات من شهيرات الوسط الفني إلى شبكتها وكان من هؤلاء راقصة لها شهرتها في هذا الوقت وهي الراقصة كانت هذه الراقصة متزوجة من منتج وموزع سينمائي كبير .. وكثيراً ما استعان جهاز المخابرات بهذه الراقصة لتنفيذ بعض العمليات .. وربما كان هذا الدور المشبوه الذي قامت به هو السبب في طلاقها من زوجها المنتج السينمائي ..

ومما يذكر في هذا المجال أن جهاز المخابرات أراد أن يصور فيلماً فاضحاً للرئيس الأندونيسي «أحمد سوكارنو» .. وكان هذا الرئيس ضعيفاً أمام النساء وخاصة الراقصات ..

عند وصول الرئيس «سوكارنو» إلى القاهرة أعدت المخابرات حفلة راقصة في فيلا الفنان «عمر ذو الفقار» التي تقع فيما بين شارع الهرم الرئيسي ومنطقة فيصل .. كانت راقصة هذه الحفلة هي «س.م» التي رقصت أكثر من ساعة ونصف وقد ظهرت علامات الإعجاب والرغبة على وجه «سوكارنو» .. وكان لجهاز المخابرات ما أراد تحقيقه بتعاون هذه الراقصة ..

المهم أن هذه الراقصة عندما انضمت إلى شبكة «س.ق» تركت الإسكندرية إلى القاهرة للقيام بمهام أخرى ولتعمل في نفس الوقت في ملاهي القاهرة .. وفي القاهرة

تعرفت على الراقصة المغمورة «غ.ف» .. وكانت الأخيرة تسافر إلى بيروت للعمل بملاهيها وهناك تقابلت مع الجاسوس اليهودي «آرام أنوير» .

في هذا الوقت كان «أنوير» قد كوّن صداقات مع بعض القادة بالقوات المسلحة المصرية خاصة الطيارين، ولم يكن محل شبهة إلا أنه كان معروفاً عنه إقامة الحفلات الماجنة أو الفاضحة والتي يحضرها الجميع ومنهم مسئولون كبار بالدولة ..

ومن خلال «س.ق» التي تتعاون معه في توريد السيدات والفتيات اللازمة لسهراته، ومن خلال معرفته بعدد من الراقصات، استطاع «آرام» - كما يقول «باروخ» في كتابه - إقناع كبار قادة سلاح الطيران بإقامة سهرة راقصة للطيارين للترفيه عنهم وهو على استعداد لجلب الراقصات أو حتى العاهرات إذا لزم الأمر لتحقيق هذا الغرض القومي حتى إذا ما قامت الحرب كان الطيارون على أتم استعداد للمواجهة .. واقترح «آرام» أن يكون مكان الحفل نادي سلاح الطيران بمصر الجديدة .. أما الموعد .. فقد كان ليلة ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ..

يصف الكاتب الصحفي الإسرائيلي «باروخ» الحفل الذي أقيم مساء يوم الأحداث ٤ يونيو عام ١٩٦٧ فيقول : «لقد امتلأت صالة الحفل بأكثر من ٤٠٠ طيار وبدأت الراقصة الشابة - في هذا الوقت - «س» باستعراض مفاتها والقيام بحركات مثيرة موحية بينما طيارو مصر يصفقون وهم يوجهون سهام أنظارهم على جسد الراقصة وهي تتمايل أمامهم وبينهم كؤوس الخمر تدور ورؤوسهم وعيونهم تدور معها حتى إذا ما بزغ الفجر كان الطيارون غير قادرين على التمييز بين ساعة اليد وساعة قياس الارتفاع في طائرات «الميج ٢١» .

يستطرد «باروخ» في كتابه «وتحطمت الطائرات عند الفجر» : عقب انتهاء الحفل توجه «آرام» إلى منزله ودخل إلى غرفة نومه ليتقلب بعصبية فتقع يده على الجسد العاري للراقصة «س» التي قالت : يا «أنوير بك» أرجو أن تطلب لي سيارة للانصراف، من هنا، فأمسك بالتليفون وطلب لها ما أرادت .. ثم دخل الحمام لحلاقة ذقنه وارتندى ملابسه

وخرج إلى غرفة الصالون حيث يرقد الفريق الجوّي ... مرتدياً الزي العسكري قائلاً : «يجب أن أسرع لأن الطائرة ستقلع الساعة الثامنة والرّبع من مطار القاهرة غرب للقيام بجولة تفقدية هامة في سيناء مع المشير وبعض كبار قادة القوات المسلحة» .. كانت الساعة حينئذ السابعة والنصف صباحاً فتذكر «آرام» أن تل أبيب في انتظار رسالته اللاسلكية المحدد لها الوقت من السابعة حتى الثامنة صباحاً بتوقيت القاهرة ..

يستطرد «باروخ» فيقول : عقب مغادرة مارشال الجو المصري هو وعشيقته «سميرة» باب الفيلا .. أغلقه «آرام» بسرعة واتجه إلى غرفة النوم لفتح جهاز اللاسلكي منادياً .. «من روما إلى المسئول» فجاء الرد «من المسئول إلى روما .. أسمعك» ..

قال «أنوير» في رسالته اللاسلكية ما يلي : «نجحت الحفلة نجاحاً رائعاً .. يتوجه «ع» (يقصد خ . ع) و «ص» (يقصد ص . م) ليقابلا هناك جميع قادة سيناء .. الإثنان فقط مخولان باستعمال صواريخ «أرض جو» .. نقلت إلى مطار الأقصر ٨ طائرات توبولوف، و ١٠ طائرات اليوشن وأصبح في الأقصر الآن ١٦ طائرة توبولوف و ٢٠ طائرة اليوشن .. نقلت طائرات سوخوي من الأقصر إلى الغردقة .. ونقلت طائرات ميج ٢١ من الأقصر إلى أسوان .. ألغيت حالة الطوارئ والاستعداد في سلاح الجو المصري وحالفكم النجاح» ..

فجاء الرد من تل أبيب حاملاً عبارة : «انتظر» .. وكان الوقت في هذه اللحظة الساعة السابعة وخمسة وأربعين دقيقة صباحاً، وكان وقتها جميع قادة الفرق العسكرية بالمنطقة الشرقية في سيناء يقفون استعداداً لاستقبال سيارة المشير ..

فجأة .. سمع الجميع صوت محرك الطائرة التي تقل قائدهم فنظروا تجاه الغرب لتابعها ورغم أن صوت المحرك كان يزداد ارتفاعاً إلا أن الطائرة لم تظهر .. ثم أصبح الصوت أقوى وأشد، ولكنه جاء هذه المرة من جهة الشرق حيث ظهرت أربع طائرات مقاتلة في تشكيل حربي بمنقاره الطويل وتحت أجنحتها تظهر بوضوح مع ضوء الشمس نجمتا داوود، وما هذه إلا طائرات الميراج الإسرائيلية التي جاءت لتدمير قاعدة بير شمارة الجوية» ..

هذا ما يقوله الكاتب الإسرائيلي «باروخ» ولعلنا نلمح في السيناريو الذي أورده الكثير من الافتراءات والأكاذيب .. فمثلاً قد نتساءل .. كيف لم تكتشف مخبرات «صلاح نصر» وهي مخبرات مشهود لها بالكفاءة والقدرة، كيف لم تكتشف أمر الجاسوس الإسرائيلي «آرام»؟ وكيف كان يتحرك بسهولة ليصادق كبار قادة القوات المسلحة ويتعرف على أدق الأسرار دون أن يثير هذا أي شبهة حوله؟!

لكن رغم ذلك فإننا لا يمكن أن نغفل حقائق كانت سبباً فيما حدث من نكسة قاسية للجيش المصري وللعرب في كل مكان .. أول هذه الحقائق وأكثرها أهمية ما كانت تتمتع به المرأة من تأثير وتدخل في أجهزة حساسة بالدولة ولدى مسئولين كبار بداية من «ع.ع» الرجل الثاني في مصر - وانتهاء بضباط صغار .

كانت سياسة الدولة وتوجهاتها في هذا الوقت تحددها آهات الغواني في غرف النوم وأجساد الراقصات العارية في الحانات والمواخير .. لقد تركت مقادير الدولة في يد بعض النساء من عينة «س.ق» التي قال عنها «صلاح نصر» وهو في قفص الاتهام أثناء محاكمته بعد الهزيمة لهيئة المحكمة : «سألوها أزاى اتجوزت مرتين قبل الدكتور شهدي؟ طلقوها ليه؟ وضبطوها مع مين؟ أنا باشغلها معنا على هذا الأساس» !!

هكذا يعلن «صلاح نصر» في قاعة المحكمة أنه يتعاون مع ساقطة .. وهذا قد لا يكون غريباً فجميع أجهزة المخابرات في العالم تتبع أساليب مشابهة .. لكن أن يكون لهذه المرأة تأثير في سياسة البلد من خلال ما توفره لراغبي المتعة من المسئولين بالدولة وكلهم وزراء وضباط كبار، ويكون ذلك تحت بصر وسمع الجميع ولا يتحرك أحد وكأن الدولة كلها قد تحولت إلى ماخور كبير تفوح منه رائحة الفساد والجنس والفضائح .. فهذا هو الغريب والمدهش في آن واحد ..

لا شك أن المرأة كانت وراء أحداث ثقال هزت مصر والعالم العربي خلال سنوات الستينيات ولا يستطيع أي محلل منصف أو محايد أن ينظر إلى ما حدث في هذه الفترة وكأنه من عفو الخاطر أو أنه لم يكن خاضعاً لتدبير محكم يقصد قتل الحلم العربي وتحجيم دور مصر وزعامتها في العالم العربي ودول العالم الثالث .

ولنحاول أن نتعرف على حقيقة العلاقات التي ضمت مسئولين كبار في الدولة وفنانات وراقصات .. وكان نتاج هذا الثالوث المدمر .. (سياسة - سلطة - جنس) .. ما انتهى إليه الحال بالهزيمة المروعة التي منيت بها مصر عام ١٩٦٧ ..

الأربعة الذين حضروا التطوير معمل «خورشيد» - وهو الخبر الذي نقلته «س. ق» إلى «صلاح نصر» - كان جاسوساً وعميلاً للمخابرات الأمريكية وهذا ما عرف فيما بعد .. فهل يمكن بعد ذلك اعتبار أن ما حدث كان وليد الصدفة وتفاعلها مع نفوس ضعيفة؟ ..

كانت لعبة الجنس هي اللعبة المفضلة عند المسئولين وكبار رجال الدولة في هذا الوقت .. وبدأت سياسة الدولة وكأنها مشدودة بخيوط حريرية تنتهي عند أنامل غوان وراقصات ومحترفات دعارة ..

وتشير أحداث كثيرة عن هذه الفترة - الستينيات - إلى أن الجنس لعب الدور الأكبر في توريط بعض المسئولين، كما مارسه البعض للمتعة وإبعاد الملل وربما كان الأمر قد تحول إلى مناقشته كفضيحة .. ألم يقل «صلاح نصر» في محكمة الثورة التي حاكمته عقب الهزيمة وهو يتحدث عن «س. ق» : «مش هية دي اللي حاطة صور النسوان في شنتتها وبتلف على الوزراء؟ .. أنا ما أحبش أخرجهم» !!

وقد شاعت في هذه الفترة موجة توريط مسئولين من داخل مصر وخارجها في علاقات جنسية ثم الضغط عليهم بعد تصويرهم في حجرات النوم وهم بين أحضان راقصات مشهورات أو فنانات معروفات ..

السياسة في حجرات النوم

من القصص التي نشرت وعرفها الكثيرون الكيفية التي تم بها توريط «علي صالح السعدي» وكان وزير الداخلية في حكومة الرئيس العراقي «عبد السلام عارف» الذي قاد ثورة ضد «عبد الكريم قاسم» ..

كان «صالح السعدي» في منصب وزير الداخلية، بينما كان «طالب حسين شبيب» وزيراً للخارجية . وكلاهما من أقطاب حزب البعث . وكان الرئيس العراقي «عبد السلام عارف» ميالاً لـ «طالب حسين» وكان مقرباً منه جداً .. وحدث خلاف كبير بين «صالح السعدي» و«طالب حسين» وأرادت القيادة العراقية توريط «صالح السعدي» في فضيحة جنسية تقضي عليه فأرسلوه إلى مصر لتدبير هذه الفضيحة له ..

كان ظاهر الزيارة رسمياً لكن ما لم يكن يعرفه «صالح السعدي» أنه مطلوب تصويره وتوريطه، وقد أعد جهاز المخابرات خطته لتوريط الرجل في حفل عند فنانة مشهورة، لكن رجال «صالح السعدي» اكتشفوا الحطة وأفسدوها .. وبسرعة أعدت المخابرات حفلاً آخر عند الراقصة وفي هذا الحفل تمكن خبراء الجنس في جهاز المخابرات من تصوير الرجل في أوضاع مخلة وفاضحة، وأرسل الفيلم إلى العراق لاستخدامه عند الضرورة في الضغط على المسئول العراقي ..

ربما كان الجنس أحد الأسلحة التي تتعامل بها جميع أجهزة المخابرات في العالم . لكن ما حدث في الستينيات أن الجنس أصبح شاغل العديد من المسؤولين بالدولة، وترددت الإشاعات الكثيرة عن علاقات وزراء وضباط كبار ومسؤولين في أجهزة حساسة بسيدات، ورغم إن هذه قد تكون مجرد إشاعات إلا أن كل إشاعة لها ظل من الحقيقة .. ثم إن ترديد مثل هذ الشائعات نابع من الجو العام الذي تدار به أمور الدولة .. حيث كانت السياسة تتحدد في حجرات النوم وبين جدران شقق مشبوهة ..

لقد ترددت شائعات عن علاقة «س.ش» ابنة مسؤول سياسي كبير .. عن علاقتها بالسيدة «ك» فاتنة المعادي .. وكانت هذه الفتاة جميلة وتهوى التمثيل إلا أنها لم تنجح،

والتقت بالفنان «محمد فوزي» بعد ذلك وتزوجته ..

كما ترددت شائعات عن علاقة بين «م . ج» مدير مكتب «عبدالنصر» للشؤون الداخلية وبين الفنانة «ز . ث» .. وقيل وقتها إن «م . ج» تعرف على زوج «ز . ث» المنتج السينمائي المعروف وذلك حتى يتعرف على الزوجة «ز . ث» وتنشأ بينهما صداقة ..

هذه عينة من شائعات انطلقت وقد لا تكون حقيقية لكنها تعكس موجة عامة سادت الدولة بأجهزتها .. ولم تشهد مصر ما يشبه أحداث الستينيات إلا ما كان يحدث في الأربعينيات من فساد الملك وحاشيته وبعض الوزراء والمسؤولين وانغماسهم تماماً في مفاسد جنسية يندى لها الجبين ..

لاشك أن أي مؤرخ أو محلل للأسباب التي أدت إلى الهزيمة المروعة التي أصابت القوات المسلحة عام ١٩٦٧ والتي أصابت العرب وأحلام دول صغيرة كانت ترى في مصر شعلة للتقدم والكرامة .. لاشك أن أي مؤرخ لا يمكن أن يجهل الدور الذي لعبته المرأة في هذه الفترة.

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن هذا الدور كان حاسماً في قلب موازين المعركة لصالح الخصم .. لقد لعبت المرأة هذا الدور من وراء الكواليس وكان يتحرك على خشبة المسرح رجال قلوبهم صنعت من هواء وعقولهم صدأت من ضغط المرحلة التاريخية التي جاءت بها وبهم المقادير فلم تصمد قواهم النفسية أمام الإغراء الذي لاح أمام أنظارهم فسقطوا وضاعت معهم أجيال لا تزال تدفع الثمن حتى اليوم ..

كاميليا .. عشيقة للملك وعميلة لإسرائيل !

لا شك أن الممثلات يملكن كثيراً من مفاتيح هذه اللعبة، لعبة الجنس والسلطة، فلدى الممثلات جاذبية جنسية تفوق ما لدي غيرهن من عامة النساء، حيث إنهن يملكن الشهرة والمكانة والخبرة إضافة إلى الجمال وكيفية إبرازه، وهذه كلها عوامل تمكنهن من إيقاع زعماء وقيادات في شباكهن .. وقد تكون خيوط هذه الشباك مصالح ممتدة وواسعة تقوم عليها حكومات وسياسات دولية كبيرة .. ولعل أشهر مثال في ذلك الممثلة والراقصة كاميليا وعلاقتها بالملك «فاروق» ووكالة المخابرات اليهودية .. ولهذه العلاقة قصة مثيرة حدثت خلال فترة الأربعينيات من القرن العشرين ..

كانت «ليليان كوهين» والتي عرفت باسم «كاميليا» من أجمل جميلات مصر في الأربعينيات، والزمن منذ مولد نجمها وتألقها وحتى وفاتها محترقة داخل طائرة زمن قصير لا يتجاوز السنوات الأربع .. هذا الوقت القصير شهد علاقات ومصالح ومؤامرات وفصائح تبدو وكأنها حدثت خلال عشرات السنوات لا خلال سنوات أربع فقط .. وكانت كل الخيوط تبدأ وتنتهي عند هذه الممثلة الجميلة اليهودية الأصل .. «ليليان كوهين» أو «كاميليا» ..

كانت البداية في أغسطس عام ١٩٤٦ عندما كانت «كاميليا» على لقاء مع المليونير والممثل المصري «أحمد سالم» في فندق وندسور بالإسكندرية، بعد فترة خرجت «كاميليا» وهي معلقة بذراع «أحمد سالم» ..

في الطائرة قال «أحمد سالم» لـ «ليليان كوهين» - لم تكن قد عرفت بعد باسم «كاميليا» - أنه يفكر في الاسم الجديد الذي سوف يقدمها به للناس .. فلم ترد عليه، فسألها عن سبب شرودها .. فقالت : إنها تفكر في أمها .. ودار بينهما حوار ..

هو : أمك !

هي : نعم .. أهى مسألة عويصة جداً أن تكون لي أم !

هو : ولكنها لا تعلم أنك سافرت إلى القاهرة ..

هي : سأكلّمها بالتليفون من هناك .

هو : وأين أبوك ؟

هي : إنه غير موجود .

هو : مات ؟

هي : لا أعلم . دعنا من هذه الأسئلة الآن .

هو : وأين تقيم أمك .. وكيف تعيش ؟

هي : إنها صاحبة بانسيون .. في الرمل ..

وعندما وصلت «كاميليا» إلى القاهرة وصلتها برقية من أحمد سالم يخبرها بأنها أصبحت ممثلة ونجمة سينمائية وأن اسمها أصبح من الآن «كاميليا» .. بينما تؤكد روايات أخرى أن «يوسف وهبي» هو الذي اختار لها اسم «كاميليا» .

كانت هذه إذن هي البداية الحقيقية لكي تصبح «كاميليا» واحدة من ألمع نجومات المجتمع والسينما، وكان جمالها وما تتمتع به من جاذبية جنسية كفيلاً بجعلها حلم كل رجل وأمل كل صاحب جاه أو سلطة ..

مع بداية اشتغالها بالسينما اختارت لإقامتها أعلى شقة في مصر، فقد سكنت في الشقة رقم ٩٢٩ بعمارة الإيموبيليا .. ورغم أنها كانت مريضة بمرض السعال الديكي إلا أنها كانت شرهة للغاية في تدخين السجائر، فقد كانت تدخن في اليوم الواحد أربعين سيجارة ..

كانت «كاميليا» تتمتع بجمال غير عادي، وكانت الأموال والمجوهرات تلقى في طريقها بلا حساب، لكنها لم تفكر في الثروة بقدر ما كان طموحها يدفعها إلى طريق آخر، وما يروى عنها أن أحد أصدقائها أهداها في عيد ميلادها مجموعة من الأساور الذهبية والخواتم والأقراط فشكرته .. وفي اليوم التالي وزعتها على الخدم .. لكن ما هذا الطريق الآخر الذي كان طموح «كاميليا» يدفعها إليه ؟..

لقد كانت تحلم بالعالمية .. كانت تحلم بأن تكون ممثلة عالمية وهذا أقصى ما تتمناه أي

ممثلة في مصر .. وهذا الخيط بالذات هو ما تناوله الموساد - جهاز المخابرات الإسرائيلي - ليجند به «كاميليا» كما سنرى ذلك ..

في سنة ١٩٤٨ كانت «كاميليا» تمثل فيلم «ولدي» وفي فترة الاستراحة بين اللقطة والأخرى تقدم منها رجل إيطالي عجوز يرتدي ملابس السهرة - وكان واحداً من كثيرين يعملون في نفس الفيلم - فصافحها الرجل بحرارة، ثم قال لها إنه لم يعمل قبل ذلك «كومبارس» ولكنه اشتغل في هذا الفيلم فقط لكي يراها يوماً كاملاً عن قرب ..

لم يكن مظهره يدل على إنه عاشق جديد، ولكنه كان يتحدث بصوت متهدج فيه الكثير من الانفعال .. ودار بينهما حديث طويل ثم أخذته من ذراعه وذهبت به إلى غرفتها الخاصة، وفي هذه الغرفة استمعت كاميليا إلى قصة حياتها منذ ولدت إلى ذلك اليوم .. ولم تستطع العمل في تلك الليلة، وقد تعللت بها أصابها من صداع وتأجل العمل لليوم التالي، وخرجت «كاميليا» مع الرجل العجوز من الاستوديو في سيارتها الكاديلاك الفاخرة .. ودهش الممثلون والممثلات وعمال الاستوديو، وتساءلوا جميعاً .. من يكون ذلك الرجل العجوز الذي بكت أمامه «كاميليا» وامتنعت عن العمل من أجله ؟

وكانوا معذورين لأنهم لم يستمعوا إليها - قبل أن تذهب به إلى غرفتها الخاصة - وهي تسأله :

- من أنت ؟

- فأجابها الرجل .. أنا والدك .

وفي تلك الليلة عرضت «كاميليا» خدماتها على أبيها الذي رأته - للمرة الأولى والأخيرة في حياتها - فشكرها الرجل ولم يطلب منها سوى ثمن التذكرة التي يعود بها إلى أهله في إيطاليا .. ولم يرها الرجل بعد ذلك .. ولم يفكر في العودة إلى مصر إلا يوم أن قرأ نعيها في الصحف ..

هذه القصة التي رواها «جليل البنداري» عن راقصات مصر تفسر بإيضاح شديد أن «كاميليا» التي تؤمن باليهودية وتنحدر من أصول إيطالية والتي لم تعرف لها أباً حتى قبل وفاتها بسنتين . كان من اليسير عليها أن تتعاون مع جهاز المخابرات الإسرائيلي وتتورط

في قضية الأسلحة الفاسدة في حرب ١٩٤٨ مستغلة في ذلك علاقتها بالملك «فاروق» وحاشيته داخل القصر الملكي .. لكن كيف كان ذلك ؟ ..

كان للملك «فاروق» شهية مفتوحة على الدوام لكل امرأة جميلة تثير فيه غرائزه .. وعندما رأى «كاميليا» هام بها حباً، وانتهاز مستشاره الذي تخصص في علاقات الملك الخاصة «أنطون بولي» حب الملك لهذه الممثلة وتشاور في أمر ذلك مع «إلياس إندراوس» مستشار الملك للشئون الاقتصادية وفكراً سوياً في تقديم هذه الوجبة الشهية «كاميليا» للملك ..

وهكذا دخلت «كاميليا» القصر وعرفت كيف توثق صلاتها مع كل الحاشية التي تحيط بالملك وتوجه من خلاله دفة الحكم، كانت علاقة الملك الغرامية الملتهبة بـ «كاميليا» يحيط بها كتمان شديد وكانت لقاءاتها تتم في سرية شديدة وبتخطيط مرتب ومحسوب بمعرفة «أنطون بولي» .

وفي كثير من الأحيان كان الملك يلتقي و «كاميليا» على ظهر يخته «فخر البحار» أو في إحدى الفيللات بقبرص أو اليونان أو تركيا، وفي بعض الأحيان كان الملك يبحر سراً إلى جزيرة قبرص - مثلاً - ثم يرسل في طلب «كاميليا» حيث يتصلان في لقاء غرامي ملتهب ..

وحدث أن وقعت إحدى هذه البرقيات في يد الوكالة اليهودية في القدس، وكانت «كاميليا» قد أرسلتها إلى الملك «فاروق» وهو يتجول ما بين تركيا وقبرص على يخته «فخر البحار» وبدأت الوكالة اليهودية - جهاز المخابرات الإسرائيلي في هذا الوقت - في وضع خطة للاتصال بـ «كاميليا» لتجنيدها حيث تأكدت الوكالة اليهودية من عمق علاقتها - أي «كاميليا» - بالملك وبمدى تغلغلها داخل القصر حتى لتبدو وكأنها السيدة المسيطرة على القصر الملكي ..

اتصلت الوكالة اليهودية بممثل شبكة التجسس التابع لها في مصر وكان يدعى «يجمس زارب» وطلبت منه العمل على تجنيد «كاميليا» والاستفادة بها لها من صلات بكبار المسؤولين بالقصر الملكي وعلى رأسهم الملك «فاروق» ..

أخذ «جيمس زارب» يبحث عن الخطة التي يتمكن بها من تجنيد «كاميليا» وجعلها تنفذ المخططات الإسرائيلية في مصر ..

في هذا الوقت كانت «كاميليا» قد تلقت عرضاً من أحد مسارح بيروت للعمل فيه كراقصة على أن تتقاضى في الليلة الواحدة مائة وخمسين جنيهاً .. كان الغرض مغرياً ومن الصعب عليها رفضه .. فلم يعرض مثل هذا العقد على راقصة من قبل .. أبرقت «كاميليا» إلى صاحب المسرح بالموافقة على عرضه وفي الوقت نفسه اتفقت مع اليهودي «إيزاك ديكسون» مدرب الرقص على تعليمها ألف باء الرقص ..

كان «إيزاك ديكسون» يملك صالة لتعليم الرقص الشرقي في شارع فؤاد، ومن خلال هذا الرجل تمكن «جيمس زارب» الجاسوس الإسرائيلي من الوصول إلى «كاميليا»، وفي صالة الرقص عقدت الاجتماعات بين «زارب» و «كاميليا» وشعر «زارب» بطموح «كاميليا» الفني ورغبتها الجارحة لتمثيل فيلم عالمي تصبح من خلاله ممثلة عالمية لا تقل في شهرتها عن «ريتا هيوارث» ..

أبرق «زارب» إلى الوكالة اليهودية بما لمسه عند اجتماعه بـ «كاميليا»، وبدأت الوكالة في الاتصال بشركات الإنتاج السينمائي في بريطانيا وتمكنت من الحصول على عقد لتعمل «كاميليا» في فيلم أمام الممثل العالمي «إريك ورتمان» .. وأثناء عملها بالفيلم تعرفت بالممثل البريطاني الشهير «مايكل واينج» ..

كانت هذه الفرصة التي وفرتها الوكالة اليهودية للممثلة الطموحة «كاميليا» إيذاناً منها بدفع الثمن .. وجاء الثمن سريعاً .. وكان تمرير صفقة الأسلحة الفاسدة للجيش المصري والتي حارب بها عام ١٩٤٨ من خلال علاقتها الغرامية بالملك «فاروق» .

كانت الحرب والكارثة قد هزت وجدان كل مصري وأخذ الكاتب «إحسان عبدالقدوس» في كتابة سلسلة من المقالات في مجلة «روزاليوسف» في نهاية عام ١٩٤٩ تتناول هذه القضية والمتورطين فيها، كما أثار «مصطفى مرعي» نفس القضية في مجلس النواب ..

إثر ذلك طلب السيد «مصطفى نصرت» وزير الحرية في هذا الوقت من الفريق

«محمد حيدر» القائد العام للقوات المسلحة أن يأمر النائب العام بالتحقيق في صفقة الأسلحة الفاسدة ..

وهنا أظهرت التحقيقات تورط عدد كبير من كبار الضباط الذين كانوا ضمن البعثة العسكرية التي قامت بإتمام الصفقة .. وعند تفتيش منازل بعض من هؤلاء الضباط تكشف أسماء كبيرة داخل القصر الملكي من بينهم «كريم ثابت» و«إلياس إندراوس» و«كاميليا» .

ويبدو أن «إلياس إندراوس» المستشار الاقتصادي للملك «فاروق» والذي كان قد أهدى فيللاً لأم «كاميليا» «أولجا كوهين» في قبرص عام ١٩٤٦ كعربون تعارف معها .. يبدو أنه زج باسم «كاميليا» في القصة كطعم لإقناع الملك بالموافقة عليها لمعرفة مدى تعلق الملك بالراقصة الجميلة ..

كان وجود اسم «كاميليا» وكشف دورها في صفقة الأسلحة الفاسدة والذي أخذ يتأكد يوماً بعد يوم ومع استمرار التحقيقات وفتح المزيد من الملفات .. كان ذلك دافعاً لتدخل الوكالة اليهودية للعمل من أجل حماية عميلة الوكالة اليهودية بعد أن انكشف دورها .

كانت خطة الوكالة اليهودية تهدف إلى إقناع الملك «فاروق» بالزواج من «كاميليا» لتجنب له ولي العهد الذي يتلهف عليه .. وعندما يتحقق ذلك وتصبح «كاميليا» ملكة مصر لن يكون عليها خوف وتستطيع عندئذ أن تخدم مصالح إسرائيل وهي تتربع على العرش بجوار الملك ..

لم يكن الملك «فاروق» متحمساً لفكرة زواجه من «كاميليا» .. فرغم حبه له وتعلقه بها، إلا أنه يعرف أنها لا تزيد عن غانية باعت له جسمها بعد حفل أقيم في أوبرج الأهرام ..

كانت «كاميليا» في هذه الليلة الأولى لتعارفه قد رقصت شبه عارية على مائدة الملك وحوله حاشيته وكان جماها أخذاً لدرجة أنها تمكنت من إشمال مشاعر الملك وتحريك شهوته المتعطشة للجنس على الدوام ..

في هذه الليلة توجهت «كاميليا» من أوبرج الأهرام إلى قصر عابدين حيث حجرة نوم الملك حيث مارست معه الجنس، وهناك اكتشفت أن الملك رجل عادي .. وأنه ليس «فحلاً» في ممارسة الجنس - كما يردد رجال حاشيته - لكن المهم أن «كاميليا» استطاعت أن تشعر الملك برجولته وأن تجربته على التمسك بها .. لكن دون أن يصل هذا إلى الزواج ..

كان الملك متعطشاً للجنس وكان يجد متعته في أحضان الراقصات .. فقبل «كاميليا» كان على علاقة بالراقصة الشهيرة «سامية جمال» .. كانت هذه الراقصة التي هربت من أهلها في الواسطى ببني سويف لتحترف الرقص بالقاهرة قد تعرفت بالملك «فاروق» في حفل خاص أقامه مستشاره الخاص «أنطون بولي»، وبعد الحفل اصطحبها الملك إلى ركنه الخاص بحلوان حيث قضى معها لقاء ملتهباً ساخناً، وقيل وقتها إن الملك فعل ذلك بدافع الانتقام من المطربة «أسمهان» في شخص أخيها «فريد الأطرش» والذي كان يرتبط بقصة حب مع «سامية جمال» .. والمعروف أن «أسمهان» ووالدة الملك «فاروق» الملكة «نازلي» كان بينهما تنافس شديد وغيره بسبب صراعهما على رئيس الديوان الملكي «أحمد حسنين باشا» .. والغريب أن علاقة الملك بـ «سامية جمال» كانت مستمرة حتى وهو على علاقة مع «كاميليا» .. واستمرت علاقة الملك مع «سامية جمال» حتى قيام الثورة ١٩٥٢ ..

نعود إلى قصة «كاميليا» والملك «فاروق» .. فقد رأت الوكالة اليهودية أن أفضل ما تقوم به لحماية «كاميليا» وتسخيرها لخدمة المخابرات اليهودية بشكل أفضل أن تسعى لتزويجها من الملك، وبدأت الحاشية الفاسدة التي تحيط بالملك محاولة إقناعه بذلك .. ودبرت خطة لتنفيذ ذلك وكانت على وشك النجاح لولا تدخل القدر في اللحظات الأخيرة ..

وبدأت الخطة بخبر نشرته الجرائد الإنجليزية يفيد بأن الملك على وشك الزواج في بداية عام ١٩٥٠ وكانت صور الملكة القادمة «ناريان» تملأ هذه الصحف، ويبدو أن هذا كان بتحريض من «جيمس زارب» رئيس فرع الوكالة اليهودية في مصر ..

عندما قرأت «كاميليا» هذه الأخبار جن جنونها وكانت متأكدة بأن الملك لا يمكنه الاستغناء عنها وإنه إذا فكر في الزواج فلن يجد أمامه سواها .. هذا على الأقل ما أقنعتها به رجال الملك ..

بعد أن عرفت «كاميليا» بالأخبار المنشورة بالصحف الإنجليزية واجهت بها الملك الذي قابل الأمر بسخرية مما دفع «كاميليا» إلى الابتعاد عنه مما أثار قلقه وشوقه لتعلقه بها .. فقد استطاعت الراقصة اليهودية التغلغل داخله بما زرعت في وجدانه من الإخساس بالرجولة والقوة ..

عندما ابتعدت «كاميليا» عن الملك شعر المحيطون به بعصبيته التي وصلت إلى حد الثورة أحياناً مما أكد للحاشية الفاسدة بأن الوقت قد حان وأن الملك أصبح كالحديد الساخن الذين يسهل الطرق عليه وتشكيله بالكيفية المطلوبة ..

دخلت «كاميليا» على الملك وهو في أكثر حالاته رغبة واشتياقاً وبمجرد دخولها عليه مثلت الدور بكفاءة .. فارتمت على صدره وبكت مما جعل الملك يأمر على الفور بإصدار تكذيب رسمي للأخبار التي نشرتها الصحف الإنجليزية ..

اتفق الملك و «كاميليا» على الزواج عرفياً حتى إذا ما أنجبت ولي العهد يعلن الزواج ويصبح رسمياً وشعبيّاً .. وبناء على الاتفاق غيرت «كاميليا» من جنسيتها اليهودية إلى المسيحية في كنيسة «سان جوزيف» بشارع محمد فريد .. وخططا أن يكون هذا الزواج العرفي في فرنسا ..

وحتى تكتمل السرية لهذا الزواج طلب الملك من رجاله استخراج جواز سفر عادي باسم «أنور باشا المصري» للتجول به بصورة غير رسمية في أوروبا .. لكن الحقيقة أن كان يريد أن يتزوج «كاميليا» عرفياً بهذا الجواز وأن يسجل هذا الزواج بفرنسا كما طلبت «كاميليا» ..

إذن فقد كان هذا الزواج معداً وبإحكام شديد .. لكن جاء تدخل القدر ليقرب كل التدابير ويحول دون تنفيذ هذه الخطة .. فكيف كان ذلك ؟ ..

في الأيام الأخيرة من شهر أغسطس عام ١٩٥٠ كان الملك «فاروق» في «دوفيل»

بفرنسا ينتظر قدوم «كاميليا» إليه حيث تضمهما متعة الجنس بعيداً عن العيون وينفذان الخطة المتفق عليها .. وبالفعل ما أن حلت ليلة ٣١ أغسطس حتى ارتدت «كاميليا» أفخر ما عندها من ثياب وتخيرات منها ما يحبه الملك .. ثم تحلت بأثمن مجوهراتها، كانت تبدو بالفعل كعروس ليلة عرسها تبدأ لتوها شهر عسل .. ولم يكن هذا بعيداً عن الحقيقة .. لكن ما حدث أن الملك انتظر كثيراً ولم تصل عشيقته إليه، فقد تحطمت الطائرة «نجمة مارييلاند» في الصحراء بجوار مركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة. لقد تحطمت الطائرة في فجر أول سبتمبر وتحولت بركابها إلى رماد، ولم يعرف رجال البوليس جثة «كاميليا» من بين عشرات الجثث المحترقة إلا من القطع الماسية الملتهبة التي تناثرت حولها في الرمال ..

أما الملك «فاروق» فقد عاد إلى مصر وواصل حياته الماجنة اللاهثة وراء ملذاته، ولم يعد يذكر شيئاً عن قصته مع «كاميليا» فقد كانت ذكريات فراش وانتهت، ولم تكن كاميليا أكثر من واحدة من عشيقاته، أما عن زواجه فقد كان بعد شهر قليلة . فقد تعرف على الفتاة الجميلة «ناريان محمود صادق» الطالبة بمدرسة الأميرة فوزية الثانوية بنات، وكان جواهرجي القصور الملكية "أحمد باشا نجيب" هو الذي عرف "نارميان" بالملك، ولما أعجب بها الأخير خفق قلبه بحبها وذهب ما بقي لديه من ذكرى "كاميليا".

وفي ٦ مايو سنة ١٩٥١ تزوج الملك "فاروق" من "ناريان" وبعد أشهر تسعة أنجبت ولي العهد الأمير "أحمد فؤاد" الذي كان الملك يتلهف لإنجابه .. وبعد أشهر قليلة بعد ذلك فقد الملك عرشه بعد أن أطاحت به ثورة يوليو ١٩٥٢ لتنتهي حقبة من تاريخ حفلت بالمفاسد والفضائح ولم تنج من سياسة المصالح .. وهي حقبة من التاريخ تحتاج إلى مجلدات عديدة تروي كيف تحكمت مجموعة من النسوة في حياة رجال حكم وسياسة بلد ..

«حريم السلطان» والفساد السياسي والجنس

وسقوط السلطان السياسي

في الأربعينيات والستينيات .. الجنس ثمن للسقوط ..!

هناك حكمة تقول : «ما ضاعت أمة على طريق الحياة إلا وكان السبب في ضياعها كأس ووتر وامرأة..»

حدث هذا في فترة مختلفة من التاريخ .. إمبراطوريات ودول كبرى تفتت وضاع ملكها عندما عرف الغواني طريقهن إلى القصور وكراسي الحكم ..

وشيء من هذا جرى في مصر المحروسة خلال حكم الملك «فاروق» قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، وبعد الثورة خلال فترة الستينيات ..

ومن المثير أن ما حدث خلال الأربعينيات أثناء حكم الملك «فاروق» انتهى برحيل الملك وسقوط الملكية، أما ما حدث في الستينيات فقد انتهى بمأساة عرفها العرب كلهي وهي هزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ والتي لا تزال حتى اليوم نعاني من آثارها وويلاتها ..

في الأربعينيات كان الملك «فاروق» صغيراً في السن لم يتجاوز عمره الواحد والعشرين عاماً عندما تعرض الملك الصغير لأزمة كبيرة تركت آثارها الخطير على سلوكه ومنهجه في الحكم بعد ذلك ..

فقد حدث عام ١٩٤٣ أن تردد الملك في تعيين حكومة وفدية برئاسة «مصطفى النحاس» وهو ما كان يريده الإنجليز .. فما كان منهم إلا أن حاصروا قصر عابدين بالدبابات للضغط على الملك لتنفيذ مطلبهم ..

ورضخ الملك بعد افتقار من يسانده في معارضة رغبة المحتل الإنجليزي .. وقيل وقتها إن حكومة الوفد جاءت إلى الحكم على أسنة الرماح ..

في نفس الوقت كانت الملكة «نازلي» - أم الملك «فاروق» - على علاقة بـ «أحمد حسنين باشا» رئيس الديوان الملكي والتي انتهت بالزواج السري .. كانت هذه العلاقة تثير حفيظة الملك «فاروق» وكانت بمثابة جرح ينزف دون توقف ..

كانت هذه المشاعر المختلطة من الإحباط وسوء سلوك الملكة «نازلي» بمثابة مناخ جيد استغلته الحاشية المحيطة بالملك الصغير السن لدفعه إلى عالم الملذات والجنس .. ومن خلال القصر الملكي الذي تحول إلى مأخور كان من السهل توجيه الملك وسياسة البلاد ..

في هذه الفترة من الأربعينيات والتي تلت عام ١٩٤٣ ارتبط رئيس الديوان الملكي «أحمد حسنين باشا» بالمطربة «أسمهان» والتي كانت في ذات الوقت عميلة للمخابرات البريطانية ..

أما الشاب الثائر «عزيز فهمي» ابن «عبد السلام فهمي جمعة» رئيس مجلس الشيوخ والذي أسس الطليعة الوفدية .. فقد تعرف بالراقصة «ببا عز الدين» أو «فاطمة عز الدين» ..

كانت هذه الراقصة والتي عملت في فرقة «بديعة مصابني» لفترة ثم اشترت منها كازينو «أوبرا» بعشرين ألف جنيه، كانت قد تزوجت ست مرات، وترتبط - كمعظم راقصات هذه الفترة - بالمخابرات الإنجليزية .. وقد اختارتها هذه المخابرات لتقيم علاقة غرامية مع الشاب ابن رئيس مجلس الشيوخ ومؤسس الطليعة الوفدية .

أما الملك نفسه فقد كان غارقاً في ملذات لا تنتهي واستطاع المحيطون به أن يغرقوه في نشوة جنسية أصبح بها مخموراً .. وكان «أنطون بولي» سكرتيره الخاص هو المستشار الجنسي للملك - إذا أجزئ لنا هذا التعبير - وقد تمكنت المخابرات اليهودية (الموساد) بالتعاون مع المخابرات الإنجليزية من الاتفاق مع «أنطون بولي» لإدخال «كاميليا» إلى الملك لتكون عشيقته والمطلعة أولاً بأول على كل أسرار القصر بل وتفويت بعض السياسات المطلوبة من خلالها ..

وقد رأينا كيف لعبت هذه الراقصة اليهودية دوراً حيوياً وهاماً في توقيع صفقة الأسلحة الفاسدة والتي راح ضحيتها الكثيرون من أبناء مصر عام ١٩٦٨ ..

هذه العلاقات الغرامية التي ضمت العديد من المسؤولين في هذه الفترة وعلى رأسهم ملك البلاد كانت تعد وتخطط بعناية لتحقيق أهداف ونتائج مطلوبة وفور تحقيق هذه الأهداف أو اكتشاف الأصابع الخفية المحركة لهذه العلاقات فإن النهاية تكون درامية أو مأساوية وبصورة مفاجئة ..

فقد لقيت «أسمهان» مصرعها في حادث سيارة أثناء ذهابها إلى رأس البر إذ أسقطت سيارتها بخطة رسمية ببراعة شديدة لتلقي مصرعها على الفور .. كما احترقت طائرة «كاميليا» وتحولت إلى حطام قبل أن تغادر الأجواء المصرية .. أما «ببا عز الدين» وعشيقها «عزيز فهمي» فقد دبت لهما حادثة مماثلة لما وقع للمطربة «أسمهان» .. فقد سقطت بهما سيارتهما في النيل بجوار الكوبري ..

لم تكن أي من هذه الأمور مصادفة أو غير مدبرة .. فقد كانت دنيا المصالح السياسية تقتضي هذا وأكثر .. وكانت المرأة هي الطعم الذي لا بد أن تلتقطه الفريسة .. وعموماً فإن المناخ السياسي السائد في هذه الفترة كان فاسداً إلى درجة كبيرة .. وكانت سياسة الغواني هي التي تحقق في نهاية الأمر كل مطامع الاستعمار في المنطقة، وكان أكبر هذه المطامع إنشاء دولة إسرائيل ..

ليس غريباً إذن أن نقول إن سياسة هذه المنطقة من العالم خطته امرأة .. امرأة منحت جسدها مقابل مصالح شخصية رخيصة .. وعندما انتهى دورها أصبحت كالكارث المحروق يجب التخلص منه .

بنفس المنطق جاءت أحداث الستينيات وبعد قيام الثورة وبلورة الأحلام الكبيرة في الوطن العربي الواحد الذي يمتد من الخليج إلى المحيط .. في القومية العربية التي تجمع العرب كلهم تحت أهداف وآمال واحدة .. كانت الأمنيات عظيمة وكانت المخططات مرتبة جيداً وعلي نسق لا يحتمل الفشل ..

كانت مصر التي خاضت معارك ناجحة بداية من قيام الثورة .. معارك كثيرة وموجعة للأعداء .. تأميم القناة .. النصر السياسي والضمود في معركة ١٩٥٦ .. تمصير

الاقتصاد.. بناء السد العالي.. القوانين الاشتراكية وبناء مصر الحديثة وتحديث الجيش ومناصرة ثورات الشعوب لنيل حريتها واستقلالها .. كانت هذه المعارك قد بلغت ذروتها في فترة الستينيات وكان لابد من تحريك القوى المضادة ..

كان الهدف اصطياد رجال الحكم .. لم يكن «عبد الناصر» - بالطبع - من النوع الذي يمكن أن تغويه امرأة، وكانوا يعلمون ذلك جيداً فالتفوا حول «عبد الناصر» وألقوا بشباكهم حول رجاله .. فعلوها ونجحوا ..

لم يكن دور المرأة في كتابة تاريخ الستينات قاصراً على تغلغل الغواني والممثلات في ردهات السلطة داخل مصر بل تعدى ذلك إلى دور لها خارج مصر .. فقد لعبت امرأة هي «ماتيلدا كريم» دوراً خطيراً في حرب ١٩٦٧ ..

كانت «ماتيلدا كريم» زوجة رجل أعمال أمريكي وكان هذا الرجل صديقاً للرئيس الأمريكي السابق «ليندون جونسون» .. بينما كانت «ماتيلدا» الصديقة المقربة جداً وصاحبة العلاقة الخاصة بالرئيس الأمريكي .. لقد استطاعت هذه المرأة المتعصبة لإسرائيل أن تدفع «جونسون» لاتخاذ مواقف متطرفة ضد العرب في حرب عام ١٩٦٧ .. يقول أحد رجال «جونسون» - دونالد ديفي - في مذكراته عن حرب يونيو: «إنه من سوء الحظ أن الرئيس الأمريكي أسلم نفسه لمشاعر امرأة متحيزة في ساعات عصيبة ومعقدة وأجواء أزمة دولية خطيرة» .

وكانت في إسرائيل وعلى الطرف الآخر امرأة قاسية تكره العرب وتحلم بإسرائيل الكبرى .. كانت «جولدا مائير» امرأة شديدة الدهاء وكانت مولعة بانتهاز الفرصة التي تجبر بها «عبد الناصر» على الركوع .. وقد جاءتها الفرصة .. حرب يونيو ١٩٦٧ .

هكذا لعبت المرأة الدور الأكبر على الساحة السياسية خلال فترة ساخنة ومشتعلة بالأحداث في الستينيات .. وإذا كان دور المرأة خارج مصر قد جاء بالصدفة فإن دورها داخل مصر كان مخططاً ببراعة .. وربما ساعد في تحقيق هذا المخطط الرهيب الرجال الذين تحملوا المسؤولية فلم يكونوا على نفس المستوى .. لقد تركوا أنفسهم للأهواء

ولقلوبهم الهشة، ولم يدركوا حجم الدور التاريخي الذي أوجدتهم فيه الأقدار ..
والحقيقة أن دوراً آخر اضطلعت به المرأة كان مطلوباً بحكم التغيرات السريعة
والمتلاحقة في الأحداث على المسرح الدولي .. لقد كان دوراً قامت به ممثلات وفنانات
وراقصات ونجمات مجتمعات .. وقد تعاون هؤلاء جميعهن مع جهاز مخابرات كان له خبرته
وقدرته يديره «صلاح نصر» ..

كان «صلاح نصر» قد قام برحلة إلى الهند وهناك تعرف على قدرة الممارسة الجنسية في
فتح أفواه الرجال والضغط عليهم .. وهو كرجل مخابرات استخدم سلاح الجنس وقام
بتكوين شبكة شاركت فيها الكثيرات .. وكانت هذه الشبكة - الخاصة جداً - تتعامل
مع السيد «فتحي الديب» نائب رئيس جهاز المخابرات .. لكن لم يكن هؤلاء المتعاملات
من فنانات ومطربات وراقصات أي تعامل مباشر مع «صلاح نصر».

إن تفاصيل هذه العلاقات بكل ما تنطوي عليه من خصوصية تكشف لنا كيف كانت
تدار مصر في فترة هامة من تاريخها الحديث .. كيف أسلم البعض نفسه للغواني وكيف
سال لعبه للجنس مضحياً بالمسؤولية التي ألقيت على عاتقه وجعل مسؤوليته الحقيقية
هي إثبات رجولته في حجرات النوم وعلى فراش ناعم؟ ..

لم يكن غريباً - وكما سنرى - أن نصحو على هزيمة قاصمة لظهر العرب .. هزيمة
بددت أحلام جيل كامل بل أجيال جاءت لتدفع الثمن .. ثمن تفريط البعض وتهافت
البعض الآخر على الملذات ..

إدارات الأمن واستخدام النساء

غريباً أن تستخدم إدارات الأمن النساء في جمع المعلومات .. خاصة من **ليس** كبار المسؤولين في العالم .. فخبراء الجاسوسية في العالم يرون أن المرأة الجميلة الذكية اللعوب هي أفضل أنواع الجواسيس .. لأن مثل هذا النوع من النساء يجذب انتباه الرجال .. ويدخل في قلوبهم بسرعة .. وبذلك يكون إغراء الشخصيات واصطيادها بسهولة وأمان .

والرجال مهما كانت مراكزهم أو سلطانهم فهم ضعاف أمام سلطان المرأة .. لا يستطيعون الكتمان أمامها حتى لو كان ما يكتُمونه من أدق أسرار الدولة .

ويجدر بنا الإشارة إلى أن القائد الألماني أدولف هتلر أبدى إعجابه الشديد بالمرأة الجاسوسة .. أو المرأة التي تستخدمها أجهزة الأمن القومي .. وقال بالنص :

- إن المرأة الألمانية أنفع بكثير من الرجال في عالم التجسس .. وإنني شديد الإعجاب بذكائهن وخططهن النسائية .. نظراً لتفوقهن بسلاح الإغراء .. وقدرتهن الهائلة على وضع الطعم القاتل لفريستهن في جو هادئ .. حقيقي أن النساء لأعظم قوة كامنة في حزبنا السياسي !!

وأصبحت المرأة أداة هامة من أدوات جمع المعلومات لصالح دولهن .
ولأن الراقصات أكثرهن نعومة فقد استخدمتهن أجهزة الأمن في مهام خاصة وعاجلة ..

في الفترة الأولى من عام ١٩٧٤ شهدت القاهرة نشاطاً سياسياً كبيراً .. هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي ينتقل ما بين القاهرة وإسرائيل .. للوصول إلى اتفاق لانسحاب القوات الإسرائيلية من المنطقة التي احتلتها غرب القناة .. ويتنقل ما بين سوريا وإسرائيل للوصول إلى اتفاق أيضاً لانسحاب إسرائيل من المنطقة التي احتلتها في هضبة الجولان ..

رحلات كثيرة وجولات تفاوضية .. ووسط هذا كله تبرز أنباء هنري كيسنجر كنجم من كبار نجوم أمريكا .. فمرة ينشر عنه أنه تزوج من سكرتيرته «نانسي» .. ومرة أخرى يسهر في منطقة الأهرامات .. ولكن أهم سهرة كانت عندما شاهد وزير الخارجية الأمريكي نجوى فؤاد وهي ترقص .. وكان ذلك في أوائل شهر مارس ١٩٧٤ .. وطلب من أصدقائه استدعاءها .. وعندما حضرت إلى المكان الذي يجلس فيه - وبعد كلمات سريعة - وجه هنري كيسنجر الدعوة إلى نجوى فؤاد للرقص في الولايات المتحدة الأمريكية لمدة شهر كامل .. على أن ترقص في معظم الولايات هناك ..

وكانت نجوى متزوجة في تلك الفترة من مصمم الرقصات المعروف كمال نعيم .. وقد طلبت منه أن يختار لها بعض الرقصات التي كان يقدمها في الفرقة القومية للفنون الشعبية في أمريكا ..

لم تكن نجوى فؤاد الراقصة الوحيدة التي وجه إليها الدعوة أحد السياسيين .. ولكن سبقتها إلى ذلك الراقصة تحية كاريوكا .. وكان اتجاه كاريوكا إلى الشرق .. فبعد أن قامت برحلة طويلة بين عواصم الأفطار العربية سافرت إلى تركيا .. وعملت في أحد الملاهي الكبرى .. وعندما علم مصطفى كمال أتاتورك رئيس تركيا بوجودها طلب من مساعديه أن توجه الدعوة إليها لترقص أمامه في قصر الرئاسة .. وبالفعل ذهبت كاريوكا لترقص أمام أتاتورك .. وكانت هي الراقصة المصرية الوحيدة التي رقصت أمامه ..

وفي عام ١٩٥٣ اختارتها مصر لتشارك في مهرجان الشباب العالمي الذي أقيم في رومانيا ضمن البعثة المصرية .. وزارت تحية كاريوكا المزارع الجماعية التي أنشئت في رومانيا .. وكذلك المصانع .. وخاصة المصانع التي تهتم بالآلات الزراعية .. وعندما عادت قدمت مذكرة إلى المسؤولين في وزارة الإرشاد تطلب فيها زيادة عدد البعثات في المستقبل .. خاصة أن البعثة الفرنسية كانت تضم ٤٥٠ عضواً .. ويزداد العدد عند الروس حيث بلغ عدد البعثة ٦٠٠ عضو .. بينما لم تزد البعثة المصرية على ٥٣ عضواً ..

وقد عملت الدولة بمذكرة تحية كاريوكا عندما اشتركت مصر في مهرجان موسكو

للشباب العالمي عام ١٩٥٧ .. وكان البعثة المصرية من أكبر البعثات التي اشتركت في المهرجان ..

اشتركت مصر فنياً بأوبريت «يا ليل يا عين» الذي أخرجه زكي طليمات .. وقامت ببطولة الأوبريت الراقصة الراحلة نعيمة عاكف مع محمود رضا .. وكانت فريدة فهمي من بين راقصات الأوبريت .. وكان أوبريت «يا ليل يا عين» هو بداية زرع بذرة فرقة رضا للفنون الشعبية .

وكان الفوهرر هتلر من أكثر الزعماء إعجاباً بالراقصة المصرية حكمت فهمي .. فقد قدم له مساعدوه تقارير عن تلك الراقصة التي تعمل مع الألمان .. وأنها تجيد اللغة الألمانية .. مما جعل هتلر يطلب من مساعديه أن يوجهوا لها الدعوة لترقص أمامه .. وكانت حكمت فهمي من أوائل الراقصات اللواتي طفن أنحاء أوروبا .. قد غامرت في بداية الثلاثينيات برحلة فنية كبيرة بصحبة الممثل المصري أحمد البيه والذي اشترك مع الممثل حسن عزت في بطولة فيلم «لاشين» الذي أخرجه المخرج الألماني «فريتز كرامب» .. واعترضت عليه رقابة وزارة الداخلية في مصر في ذلك الوقت بناء على طلب من القصر الملكي .. وبعد ذلك هاجر حسن عزت إلى أمريكا الجنوبية وسافر أحمد البيه حيث كان يقيم في ألمانيا .

وكانت حكمت فهمي قد اصطحبت أحمد البيه معها إلى ألمانيا .. وكان لها نشاط كبير هناك .. وكان لها الفضل في تنوير الأذهان في الوسط الفني .. وكان حبها لألمانيا وإتقانها اللغة الألمانية سبباً في عملها لحساب المحور في الحرب العالمية الثانية .. واهتمتها السلطات المصرية وسلطات الحلفاء - وكانت مصر محتلة من الإنجليز في ذلك الوقت - بالعمل لحساب الألمان ..

وكان الرئيس الراحل أنور السادات قد اختفى في عوامتها أثناء هربه من قضية أمين عثمان .. وكان وقتها متعاطفاً مع الألمان ضد الحلفاء ..

أما أول راقصة خاضت تجربة الرقص في أوروبا فهي أمينة محمد .

فبعد أن انتهت أمينة محمد من إعداد فيلمها «نيتا وونج» الذي أخرجه بنفسها رحلت إلى أوروبا وطافت بجميع دولها .. فزارت فرنسا وألمانيا والنمسا وهولندا وإيطاليا .. وكانت أمينة محمد لا تملك ثروة كبيرة من أجل تلك الرحلة .. وإنما كانت تمتلك قوة العزيمة .

واستطاعت أن ترقص أمام رؤساء كل هذه الدول .

ولأمينة محمد قصة لفتت إليها الأنظار من خلالها .. فقد تقدمت للالتحاق بمرقص كبير في فيينا .. وفوجئت في يوم الامتحان بوجود عشرات من الراقصات الجميلات يتأهبن لأداء امتحان في فن الرقص أمام لجنة التحكيم .. وكانت طريقة الامتحان عبارة عن حلقة كبيرة للرقص .. وفي زاوية منها فرقة للموسيقى تعزف ألحانها الراقصة .. وهيئة التحكيم أمامها فتقرر نجاح من يفوز .. وكانت أمينة محمد في حاجة شديدة لتلك الوظيفة حتى تستطيع الاستمرار في الحياة في الخارج .. ففكرت في حيلة تلفت بها الأنظار نحوها .. وبعد ذلك يحدث ما يكون .

وعندما دقت الموسيقى دعيت أمينة محمد للرقص .. ودخلت إلى الحلقة وفرقة الموسيقى تعزف رقصة «التانجو» الحاملة .. ولكن أمينة محمد توقفت فجأة عن الرقص وقالت بأعلى صوتها :

- قف .

توقفت الفرقة عن العزف .. وتساءلوا عن السبب .. فقالت لهم :

- الموسيقى لا تعجبني .

فعزفوا لها «الرومبا» .. فقالت :

- لا .. إنها لا تعجبني .

وسرت همهمات بين أعضاء لجنة الامتحان وبين الحاضرين .. وراح الجميع يتساءل عن شخصية تلك الفنانة «المناكفة» . ومن أين هي .. وماذا تطلب إذن ؟

وكان من الصعب على أمينة محمد أن تتفاهم معهم بلغتهم .. ولكنها استطاعت أن تعبر عما تريد .

وجاء رئيس لجنة التحكيم يسألها عن رغبتها فقالت له :
- إنني مصرية وأريد نغماً شرقياً .

ثم دندنت بفمها بعض النغمات الشرقية المعروفة .. وفي الحال أمر رئيس لجنة التحكيم بإجابة طلبها .. وعزفت فرقة الموسيقى أنغاماً شرقية كانت تسمعها في أفلام «ألف ليلة وليلة» الأمريكية .

وبدأت ترقص رقصة البطن المعروفة .. فنالت نجاحاً لا مثيل له .. وتعاقدوا معها لأجل طويل ..

وانتشرت حكاية أمينة محمد في أوروبا كلها .. وعندما كان الجنرال دييجول مقيماً فرنسياً في لبنان وسوريا في عام ١٩٤٣ .. وكانت تربطه علاقات إعجاب بالمطربة الكبيرة أسمهان .. وقد توسطت لديه كثيراً لحل مشاكل جبل الدروز في تلك الفترة .. فقد طلب منها أن تقيم حفلة تدعو إليها الراقصة أمينة محمد .. التي سمع عنها منذ فترة في النمسا ..

وحضرت أمينة محمد إلى بيروت بناء على دعوة أسمهان .. ورقصت أمام دييجول الذي صار في الستينيات رئيساً لفرنسا .

وكان من رؤساء الدول المعجبين بالرقص الشرقي الرئيسي الأندونيسي أحمد سوكارنو.. وهو واحد من مؤسسي حركة عدم الانحياز في العالم .. وبدأ إعجابه بالرقص عندما وجهت إليه الدعوة لزيارة القاهرة .. وفي فيلا بالهرم وهي فيلا الممثل عمر ذو الفقار أقام له أحد الأجهزة حفلاً راقصاً .. رقصت فيه الراقصة سهير مجدي .. والتي اعتزلت الرقص بعد ذلك ..

وكان الرئيس سوكارنو يدعو بين الفترة والأخرى راقصات مصريات للرقص هناك .. وعندما زار القاهرة بعد ذلك كان أول طلاباته أن تقام له حفلة راقصة ليستمتع بالرقص الشرقي ..

وإذا كانت الراقصات المصريات قد رقصن بناء على طلب رؤساء الدول .. فإن راقصة مصرية هي الراقصة الراحلة ثريا سالم أثارت ضجة في انجلترا .. فقد رقصت أمام قصر بكنجهام في لندن .. وحيث تقيم الأسرة المالكة البريطانية .. ورقصت وهي شبه عارية .. وقد أثارت ضجة كبيرة ومشكلة سياسية خطيرة .. وطلب وقتها من السفير المصري في لندن التحقيق في الواقعة .. وإرسال نتيجة التحقيق إلى وزارة الخارجية لاتخاذ اللازم .. وكان من نتيجة ذلك التصرف فرض الرقابة الشديدة على سفر الفنانات المصريات إلى الخارج .. وفرض الرقابة عليهن في الخارج أيضاً ..

وتبين بعد اتخاذ الإجراءات والشروط اللازمة أن الراقصة التي رقصت أمام قصر «بكنجهام» كانت تريد جذب الأنظار إليها .. فقد سمعت بها قدمته الراقصات قبلها مثل تحية كاريوكا وأمينة محمد وحكمت فهمي .. وقيامهن بالرقص أمام رؤساء الدول مما حصلن من خلاله على شهرة كبيرة .. وأرادت أن تنفجر كقنبلة .. وتثير أجهزة الإعلام وتوجه أنظارها للكتابة عنها .. وبالفعل أخذت فرقته الموسيقية ووقفت أمام قصر بكنجهام وبدأت في الرقص وهي شبه عارية .

واستدعى المسئولون في القصر البوليس الإنجليزي .. وجاء البوليس وقبض على الراقصة وفرقتها الموسيقية .. وعندما علموا أنها مصرية أبلغوا السفارة المصرية هناك .. التي اتخذت الإجراءات اللازمة لترحيل الراقصة ..

الراقصات بين الرغبة والسلطة!

عندما كتب أستاذنا الراحل إحسان عبد القدوس قصته القصيرة «الراقصة والسياسي» كتب معها عبارة تقول .. «هذه القصة لم تحدث ولكنها ستحدث» . وفي حقيقة الأمر أن أحداث القصة كانت تجري بين فترة وأخرى في فترة الستينيات بفتة خاصة .

وقد يكون المسئولون عن تلك الظاهرة أخذوا من التاريخ القديم عبرة .. فقد دخلت الراقصات القصر الملكي في الأربعينيات أيام الملك فاروق .. فقد دخلته الراقصة الكبيرة

تحية كاريوكا .. ودخلته من بعدها سامية جمال .. والتي أشيع وقتها أنها ترتبط بعلاقة حب مع الملك .. وغيرهن من أنصاف المشهورات .. دخلن القصر الملكي وبيوت كبار رجال الدولة وارتبطن بصداقات معهم .

ولكن هذه المرة وفي فترة الستينيات كان النظام مختلفاً .. وكانت اللعبة لها دلالاتها وهدفها .

فقد رقصن في تلك الفترة أمام ملوك ورؤساء دول وسياسيين لهم دورهم في بلادهم .

وإذا كانت قصة «الراقصة والسياسي» التي كتبها إحسان عبد القدوس قد روت حادثة فردية أو نموذجاً مما كان يحدث في ذلك الوقت . فإن فترة الستينيات وخاصة الفترة بين ٦١ - ٦٧ كانت خاصة بالقصص والحكايات .

أولى الحكايات تبدأ في مطار القاهرة .. حيث وصل على متن طائرة أندونيسية الرئيس الدكتور أحمد سوكارنو، والذي كان رئيساً لأندونيسيا الإسلامية في ذلك الوقت وكان معروفاً عن الرئيس سوكارنو ولعه بالنساء وكانت آخر زوجاته فتاة يابانية ..

فقد أعد له أحد الأجهزة حفلة خاصة في فيلا الفنان عمر ذو الفقار .. وكن قد قام بتمثيل بعض الأدوار في السينما .. ورغم عدم نجاحه في ذلك فقد أسندت إليه مؤسسة السينما دوراً أمام فاتن حمامة في أحد الأفلام ثمناً للخدمات التي يقدمها لأحد الأجهزة .. كانت الفيلا تقع ما بين شارع الهرم الرئيسي وبين منطقة فيصل الآن .. وكانت نجمة الحفل الراقصة سهير مجدي .. وكانت قد بدأت تخطر في طريق الرقص الشرقي بعض الخطوات .. وقد أعجب بها سوكارنو أيما إعجاب .. وقد ظهر ذلك على تعبيرات وجهه .. ورقصت الراقصة سهير مجدي أكثر من ساعة ونصف أمامه .. وبعد أن انتهت من رقصتها انضمت إلى الضيوف .. واختارت مكانها إلى جوار الرئيس الأندونيسي سوكارنو ..

أما الحكاية الثانية فقد كانت مع سياسي عراقي اسمه على صالح السعدي .. أحد

زعماء حزب البعث العراقي .. والذي قام بالثورة على عبد الكريم قاسم .. وقام بالثورة معهم الرئيس العراقي عبد السلام عارف .

وعندما قامت الثورة العراقية ضد عبد الكريم قاسم أسند منصب وزير الداخلية إلى على صالح السعدي .. وكان شاباً طويل القامة أكثر طولاً من الرئيس العراقي السابق صدام حسين وأكثر ضخامة .

وكان معروفاً أن وزارة الداخلية من أخطر الوزارات في عصر الثورات بالذات .. والذي يتولاها لابد أن تكون له اليد الطولى في التنظيم الثوري ..

وتولى على صالح السعدي وزارة الداخلية .. وتولى طالب حسين شبيب وزارة الخارجية .. وكان الاثنان من أقطاب حزب البعث ومن قياداته .. وكان الرئيس عبد السلام عارف معجباً بطالب حسين شبيب .. وكان أحد المقربين له .. وحدث خلاف بين صالح السعدي وطالب حسين شبيب .. وكان لابد من توريث على صالح السعدي .. فقد أرسلوه إلى مصر .. وكان معروفاً في المنطقة العربية بل والعالم أن جهاز المخابرات المصري الذي يرأسه صلاح نصر من أقوى الأجهزة في العالم .. وهذه حقيقة لا يستطيع أحد أن ينكرها .. فقد لعب هذا الجهاز أدواراً هامة في جميع المجالات .

وجاء على صالح السعدي إلى مصر .. وكانت الزيارة في ظاهرها رسمية وفي باطنها توريثه وتصويره .. بحيث تستغل الصور ضده في أي فرصة في العراق طبعاً ..

أقامت الأجهزة حفلتين الأولى في منزل فنانة مشهورة في ذلك الوقت .. ولم يتم تصوير الحفلة .. لأن رجال على صالح السعدي اكتشفوا اللعبة وأفسدوا الأجهزة ..

فما كان من الجهاز الخاص بالتصوير إلا أن أقام حفلاً آخر في إحدى الشقق في جاردن سيتي .. وكانت نجمة الحفل الراقصة ناهد صبري .. وكانت الأخيرة إحدى الراقصات المشهورات في ذلك الوقت .. كانت ملاحها فلاحه مصرية صميمة .. فقد جاءت من أعماق الريف المصري .. وفي هذه الحفلة تم التمكن من تصوير على صالح السعدي رغم المحاولات الضخمة التي قام بها رجاله .

وبعد عودة على صالح السعدي إلى العراق احتدم الصراع بين قطبي حزب البعث

هو ونظيره طالب حسين شبيب .. وكانت النهاية إقالتها ..

وفي جليم بالإسكندرية وفي فيللا الموسيقار محمد عبد الوهاب أقيمت حفلة خاصة للملك الحسن ملك المغرب أثناء زيارته إلى مصر .. والمعروف أن الملك الحسن من هواة العزف على الأجهزة الموسيقية وخاصة العود ..

وقد وجهت الدعوة إلى راقصتين شهيرتين في ذلك الوقت هما نجوى فؤاد وسهير زكي .

وقد وجهت الدعوة في ذلك الوقت إلى عدد قليل من الفنانين وأيضاً من الصحفيين وخاصة الذين تثق فيهم الأجهزة ..

وفي تلك الليلة مارس الملك الحسن هوايته وعزف على العود ورقصت سهير زكي على أنغام العود ..

وأكثر الحكايات إثارة ما فعله الرئيس اليميني عبد الله السلال .. والذي قاد مع رفاقه الثورة في اليمن .. فعندما كان يزور مصر بين الحين والآخر كان من هواة مشاهدة الفنانين والفنانات وخاصة الراقصات .. وقد أدخلت عليه الأجهزة فتاة صغيرة كانت تهوى التمثيل في ذلك الوقت واحترفته بعد ذلك .. وهي ممثلة صغيرة شقيقة مطرب شعبي معروف .. وكانت تقوم بدور الاتصال في الحفلات التي تقام لها . وكان يفضل أن يحضر الحفلات في الإسكندرية .. وقد تم اختيار فيللا في العجمي البيطاش وعلى الشاطيء مباشرة لإقامته .

وكان مغرمًا بمشاهدة الرقص على جميع أنواعه .. الشرقي والجماعي .. وكثيراً ما رقصت أمامه نجوى فؤاد وسهير زكي وسهير مجدي وزينات علوي .. وقطقوطة .. ونوال الصغيرة وغيرهن .

لم يكن هاوياً لسماع الأغاني التي يغنيها كبار المطربين أو صغارهم .. وإنما كان هاوياً لمشاهدة الراقصات وخاصة على شط الإسكندرية .

وبعد أن قدم استقالته من منصبه وجاء إلى مصر ليعيش فيها فقد احتفظ لفترة

طويلة بفيلا العجمي وبفيللا في مصر الجديدة . وكان يمارس هوايته بمشاهدة الرقص الشرقي .. وظلت تقل الهواية رويداً رويداً حتى انتهت تماماً ..

وحتى الجنرال «زوكوف» قائد القوات السوفيتية مارس هواية مشاهدة الرقص الشرقي .. ففي أول زيارة قام بها للقاهرة كانت إحدى الحفلات التي أقيمت له في مقره الرسمي أن أرسلوا له إحدى الراقصات المشهورات لترقص أمامه .

وكانت نهاية الدور الذي لعبته الراقصات مع السلطة في ليلة ٥ يونيو ١٩٦٧ .. حيث أقيمت حفلتان إحداهما في نادي الطيران في مصر الجديدة والثانية في القاعدة الجوية بمطار بلبس .. واشتركت في الحفلتين مجموعة من الراقصات والمطربين والمطربات .. واستمرت الحفلتان إلى ساعة متأخرة من الصباح .

وبعدها حدثت النكسة .

ولم يعد مبرراً بعد ذلك الاستعانة بالراقصات لإقامة الحفلات لكبار الزوار .. حدثت بعدها حالات نادرة .. ونادرة جداً .. ولكن لم تكن بالصورة التي كانت تستغل بها في الماضي .

الحالات التي وقعت بعد ذلك كانت مجرد صفقات بين تجار سلاح أو سمسرة أو مقاولين مع كبار المسؤولين في العالم العربي .

وكانت بطلات هذه الصفقات الراقصات أيضاً .

حتى إن إحدى الراقصات حصلت من زعيم عربي سابق عن طريق تاجر سلاح معروف وعملائه على ثمانية ملايين جنيه .. أو أكثر ..

أقول مجرد حالات نادرة .. أما في فترة الستينيات فكانت علاقة الراقصات بالسلطة ظاهرة شاعت وانتشرت في حياتنا السياسية .

وكانت العلاقة بين الاثنين السلطة من ناحية والراقصات من ناحية أخرى على واحدة ونص !!

الباب الرابع

السلطة والرغبة



كان

«نابليون» يقول : فتش عن المرأة في كواليس الحكم وفي السجون .

تعكس هذه الكلمات واقعاً حقيقياً فرض نفسه على التاريخ الإنساني كله .

لم تكن المرأة يوماً ما بعيدة عن القرار السياسي، فقد تلعب الدور مباشرة من خلال امتلاكها لمقالييد الحكم أو من خلال تحريك الزوج الحاكم أو الرئيس الجالس على كرسي الرئاسة، وبطريقة الريموت كنترول أو من خلال لعبة الجنس والسلطة، وهي اللعبة التي تجيد المرأة اللعب على مفاتيحها، فهي تمنح الجنس ثمناً للسلطة وعندئذ يتحول رجل الدولة إلى ألعوبة في يد امرأة مدربة، يمكنها أن تحرك مشاعره في الاتجاه الذي تريده . وإذا كانت السياسة ترمز إلى القوة وهي غريزة أساسية في الإنسان فإن الجنس هو أيضاً غريزة توفر اللذة، وكل من اللذة والقوة يمثل حاجة ضرورية عند الإنسان - الرجل والمرأة على السواء .. ومن الطبيعي أن تكون هناك رغبة للإشباع، لكن دروب هذا الإشباع في الحقيقة ليست مجردة على الدوام، فقد تشتعل بالمصالح والفضائح أيضاً.

وفي العصرين القديم والحديث المعاصر نرى نماذج كثيرة لهذا المعنى، وفي هذا الباب ستتعرف على الكثير في هذا المضمار منذ عرفنا أن ندرس التاريخ ونتعرف عن قرب على أسرار وفلسفته وخباياه، وأيضاً على القصص والحكايات والروايات التي ملأت سطور من كل نوع ومن كل بلد في العالم كله، خاصة في الشرق والغرب، وإذا كان الرجل الحاكم السلطان قد عاش في نظام الجواري في قصوره المختلفة يحكم النساء الجميلات وكل مهارة الرجل في اصطيد فريسته الأنثى ذلك الزمن البعيد والذين يساعدونه على ذلك من أتباعه والذين يعملون في الحرملك ويأتون له بالنساء فتيات وسيدات يتحولن بقدرة قادرة إلى حريم السلطان فإن التاريخ قد حفل بمئات القصص حول ذلك !

والحقيقة أن عالمنا العربي ظل بمنأى عن هذا المزيج الغريب من الفضائح الجنسية لرجال الحكم، ولم يكن هذا البعد لطبيعة الطهر أو النقاء الذي تميزت به مجتمعاتنا

العربية، ولكن للقيود الشديدة التي كانت تحول دون المساس برجال الدولة وكأنهم قديسون لا يأتيهم الباطل من الأمام أو الخلف .

لكن ومع البصيص الضئيل من الديمقراطية التي بدأت تتسلل إلى عالمنا في الوطن العربي تكشفت حقائق كثيرة ومثيرة عن العلاقات الغرامية لرجال الحكم .. بل إن البعض منهم حوّل الجنس إلى سلاح ضغط وتهديد، والبعض الآخر استغل الأجهزة الحكومية المتاحة له بحكم نفوذه للإطاحة بخصومه أو توفير أفضل السبل الممكنة للاستمتاع بالمعشوقة المدللة ..

وبعيداً عن عالمنا العربي هناك عالم آخر وجد في الجنس ضالته المنشودة التي تجعل أقسى القلوب وأعتى العقول واهنة ضعيفة وفي حالة استعداد تام للإفصاح بكل ما لديها من معلومات وأسرار .. هذا العالم هو عالم المخابرات ..

اعتمدت أجهزة المخابرات في العالم كله على سلاح الجنس في اصطيد الضحايا، وأثبت هذا السلاح فاعلية كبيرة .. وقد نجح «صلاح نصر» رئيس المخابرات المصرية الأسبق في تسخير هذا السلاح لخدمة مصالح الدولة، لكنه انحرف به إلى إشباع غرائزه وبعض المسئولين .. فكانت النهاية الخزينة هزيمة ١٩٦٧ .. وتحمل صلاح نصر وجهازه عبء انحراف القادة، وقدم كبش فداء إلى المجتمع، بينما كانت صرخاته تدوي داخل قاعة المحكمة .. «حاكموني.. لو دفعت بامرأة شريفة واحدة للعمل معنا .. إنهن منحرفات جاهزات..» .

لقد أدرك «هتلر» بذكائه وخبرته ما للمرأة من تأثير جنسي فعال في عالم الجاسوسية .. ليس هو القائل : «إن المرأة الألمانية أنفع بكثير من الرجال في عالم التجسس، وإنني شديد الإعجاب بذكائهن وخططهن النسائية نظراً لتفوقهن بسلاح الإغراء وقدرتهن الهائلة على وضع الطعم القاتل للضحية في جو هادئ» .

وكما يقول المثل اليوناني : «المرأة إما أن تحكم أو تخدم» فإن التاريخ أثبت أن المرأة بما تتمتع به من دهاء وكيد وقدرة على التحكم في الرجال بما يتوفر لها من جمال وإغراء

أو باستدرار العطف عليها.. كل ذلك جعلته المرأة وسيلتها لقهر رجل السلطة الذي تلقى به المقادير أمامها .. ومن خلاله يمكنها بسرعة إدارة دفعة الحكم أو خدمة مصالح الآخرين .

هذا هو إبحار في عالم مثير .. غريب .. بحر هائج مضطرب لا تكاد تجد فيه للفضيلة شاطئاً أو سفينة، بل تحكمه مصالح وغرائز تحرك الأشرعة الهائمة إلى الوجهة التي يريدها من يملكون موازين هذا العالم يعرفون إلى أين يتجهون به ..

إن التاريخ بما يحفل به من قصص وحكايات عن فضائح رجال السياسة ونفوذ نساء الحكم يتيح للقارئ الحكم على الكثير مما يراه حوله ولا يجد له تفسيراً منطقياً معقولاً .. فمن كان يتصور أن ينحاز الرئيس الأميركي «ليندون جونسون» إلى إسرائيل بتعصب أعمى في حرب يونيو ٦٧ إرشاءً لامرأة أحبها هي «ماتيلدا كريم» وكانت تهيم حباً بإسرائيل .. إن هذا المثال وغيره يكشف للقارئ ببساطة أن ما يراه ليس إلا مسرحاً ظاهراً تتحرك عليه عرائس بأنامل موجودة خلف الكواليس .

عندما تكون السلطة ثمناً للجنس!

كانت بداية الحياة على الأرض صراعاً من أجل امرأة .. صراعاً تغلب فيه رجل على رجل، وكان التراب مثنى للرجل القليل بينما كانت المرأة للآخر .. وكان الأقوى ..

لم تتغير المرأة طوال الأحقاب المتتابعة للتاريخ .. فهي تبحث على الدوام في تطلع نابع من طبيعتها لامتلاك القوة .. وربما كان السؤال : ما الدافع الذي يجعل المرأة تنشُد القوة وتسعى إلى كل صاحب سلطة ؟ ..

يقولون إن المرأة بموقفها المتطلع إلى القوة إنما تستجيب لرد فعل للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي فرضها عليها الرجل صاحب السلطة والتي جعلتها تعتقد وتشعر أنها كائن ضعيف محكوم عليه أن يظل على الدوام قاصراً ..

لكن مهما كان دافع المرأة أو تطلعها إلى القوة التي يملكها رجل السلطة فهي تدرك أنها - بأنوثتها وبما تمتلكه من جاذبية جنسية - تستطيع أن تتخلص مما خصتها به طبيعتها من ضعف نفسي أو جسدي ..

وهي لا شك مدركة أن الرجل - أي رجل - مهما كان موقعه سواء كان في قمة السلطة أو في قاعها هو بالضرورة رجل ينشد اللذة ويرغب قبل أي شيء في إثبات ذاته وقدرته على الاستحواذ على المرأة، كما ضم من قبل زهوة السلطة وبريقها إلى مملكته .

والسلطة في حد ذاتها متعة كبيرة لا يشعر بها إلا كل من انغمس فيها وذاق حلاوتها، وجزء من هذه المتعة يحصل عليه رجل السلطة من خلال إحساسه بأن كل شيء ملك يده .. ولا تستثنى المرأة بالطبع من هذه الفرضية البسيطة ..

والمرأة التي طالما أحست بضعفها وقهر الطبيعة لها بحكم تكوينها رأت أن فرصتها قد واتها لتستحوذ على السلطة والقوة وتصبح بالفعل الحاكمة الآمرة في عالم تجرعت

فيه كؤوس الظلم منذ أن خلقها الله .

تقول الباحثة الأمريكية دكتورة «روزليند ميلز» في كتابها (المرأة والسلطة) : «إن القوة والسلطة حقيقة من حقائق الحياة، لكنها حقيقة ينكرها الرجال على المرأة، فهم يتصورون أن السلطة تتعارض مع المرأة ولا تناسب طبيعتها، لذلك حرموها منها طويلاً، وأصبح على النساء أن يكتشفن هذه المنطقة المجهولة» .

كانت المرأة بريقها عند بعض النساء، فاستخدمن الجنس سبيلاً لتحقيق حلمهن بالوصول إلى مقعد ... ولم يحفلن بما قد يتمخض عن هذه المغامرة من فضيحة، لأن رجل السلطة هو الذي سوف يسدد غالب الفاتورة في نهاية الأمر .. ويدفع الثمن ..! والسلطة هي التي للقوة مثلما الجنس هو انعكاس للذة .. وكل من القوة واللذة رغبات وربما غرائز إنسية تدفع المرء إلى إشباعها لأنه من خلال ذلك يحقق نداء ملحاً داخل نفسه .

يقول «دافيد ابتر» أستاذ العلوم السياسية في جامعة «ييل» الأمريكية في كتابه (مقدمة في التحليل النفسي) : «من المعلوم أن لكل شيء محوراً رئيسياً يدور حوله ذلك الشيء، فإذا كان للشجرة فرعها وللمذرة والخلية نواتها وللبناء أساساته، فإننا نستطيع القول إن محور الجنس هو «اللذة» ومحور السياسة هو «القوة» هناك هما المحوران أو مراكز اللذة اللذان يدور حولهما مجمل النشاط الجنسي أو السياسي ..» .

فالجنس بصفته نشاطاً إنسانياً غايته الرئيسية أو المركزية هي اللذة وإن اتخذ هذا النشاط أشكالاً اجتماعية وسلوكية تبدو وكأنها بعيدة عن المركز إلا أنها مرتبطة به ارتباط أغصان الشجرة وفروعه وأوراقها بجذع تلك الشجرة ..

والسياسة نشاط إنساني غايته الجوهرية هي «القوة» إذ أن كل فعل سياسي صغيراً كان أم كبيراً، عملياً كان أم نظرياً، محلياً كان أم دولياً إنما يدور حول القوة وامتلاكها كلها أو جزء منها والتأثير فيها، وذلك كما تدور الكواكب حول شمسها في مجموعة شمسية معينة ..

وإذا كانت «اللذة» الجنسية خاصة و«القوة» فعلى غريزيين كما يقول بذلك بعض علماء النفس وعلى رزسهم «سيجموند فرويد» (اللذة) و«ألفريد أدلر» (القوة)، فإنها بهذا المعنى منبعان لسلوك بشري مرتبط بالبقاء الإنساني ذاته سواء على مستوى الفرد أو الجماعة .

ومن ذلك نخلص ونستنتج أنهما - أي اللذة والقوة - باعثن لا يمكن إلغاؤهما، وخالقان لسلوك لا يمكن نفيه بصورة كاملة مهما كانت شدة المحاولات وعنفها ؛ إذ لا ينتج عن ذلك - إن حصل - إلا تشويه و«تشذيب» لتوازن الفرد والجماعة في الفكر والسلوك ..

وهكذا سمعنا عن نساء فهمن أن حاجة بعض رجال السلطة للجنس تفوق في أحيان كثيرة العديد من اهتماماته حتى ما يتعلق منها بالدولة أو مصالحها ..

ولا شك أن هذا المفهوم صحيح على الدوام ولم يستثن منه إلا فئة قليلة من رجال الحكم ... فالسلطة تمنح حاملها كل الأساسيات التي تمكنه من إطلاق العنان لرغباته ومنها رغباته وأوهامه الجنسية ..

ويحكى لنا التاريخ عن عاهرات وبائعات هوى تمكن من أسر أباطرة وزعماء وإيقاعهن في شباكهن الناعمة حتى سقطت السلطة بالفعل في أيديهن وكأنها فاكهة ناضجة ..

كانت «تيودورا» واحدة من هؤلاء .. لقد عاشت هذه العاهرة حيث كانت الإمبراطورية الرومانية تبسط نفوذها على معظم العالم القديم .. كان ذلك منذ ما يزيد على ألف وخمسمائة سنة ..

كانت «تيودورا» عاهرة تعرف قيمة جسدها وجانب فتنة هذا الجسم كانت فاتنة مثيرة تعرف بذلك كيف تصل إلى الرجل الذي تريده وكيف تحتل منه العقل والفؤاد معاً ..

لم تكن هذه الغانية سوى ابنة يتيمة لحارس الدبة في السيرك الإمبراطوري بروما، وقد دفعها الفقر المدقع والحاجة الماسة إلى احتراف تجارة الهوى!! وكانت تدرك بها حبتها

به الطبيعة من جمال وفتنة بأنها مطلوبة وأن الرجال يتحرقون شوقاً لمطارحتها الغرام ..
كانت هذه المرأة اللعوب قد عقدت العزم على الوثوب إلى كرسي العرش الإمبراطوري
وربما بما كانت تتمتع به من حدس قوي شعرت أن الأيام سوف تلقى في حبرها ما
تتمناه ..

كانت «تيودورا» تختار رجالها من أصحاب المراكز المرموقة في الدولة وكانت عن
طريقهم تتعرف على فن ممارسة الحكم، ليس ذلك فحسب بل وكانت تتعرف أيضاً على
أسرار العرش الإمبراطوري .

وبالفعل لم يكن قد مر وقت طويل حتى كانت والإمبراطور في فراش واحد .. لقد
استطاعت أن تسلب الإمبراطور عقله وقلبه معاً، فأحبها وتمسك بها وضرب بكل
أصول البروتوكول عُرْض الحائط ورفع هذه العاهرة إلى جواره وجعل منها إمبراطورة
لروما ..

إذن فقد كانت مقايضة .. كان فيها الجنس ثمناً للسلطة .. وكانت المرأة في هذه
المقايضة هي الرابحة على طول الخط .. لكن هذا لا يحدث دائماً .. فقد تنتهي علاقة
رجل الحكم بامرأة جمعها فراش واحد بفضيحة يعرف تفاصيلها القاصي والداني ..
خاصة في عالم اليوم والذي بات بمثابة قرية صغيرة مفضوح كل ما فيها أمام تكنولوجيا
تسمع وترى بل وتلمس كل ما يدور في الغرف المغلقة حيث يبدو الفراش ناعماً ومثيراً
والأنوار حمراء هادئة .

حريم السلطان .. في الغرب .. وأمريكا..!

الفضائم الجنسية للأمرء التاج البريطاني

واحدة من هذه الفضائم ما عرفه العالم عن العلاقات الجنسية داخل الأسرة المالكة البريطانية، والتي كان طرفاها الأميرة «ديانا» أميرة ويلز وولي العهد لعرش بريطانيا الأمير «تشارلز» .

لقد كان زواج «ديانا» و«تشارلز» في التاسع والعشرين من يوليو عام ١٩٨١م هو حدث القرن العشرين .. وكتب كثيرون عن سندريلا الجديدة التي استطاعت أن تسلب الشاطر «تشارلز» عقله وقلبه، هذه السندريلا التي لم يبق أمامها سوى عدة خطوات في طريق ينتهي عند التاج البريطاني لتصبح زوجة الملك وأم ولي العهد ..

لكن ما حدث مؤخراً كان غريباً ومثيراً .. لقد تسلل الجنس المفضوح إلى أشهر زوجين في العصر الحديث وأصبح لكل منهما عشيق يبادل كلمات الغرام الساخن عبر خطوط الهاتف، أما المستور من هذه العلاقات الجنسية فقد كشفت عدسات المصورين وهم يلتقطون الصور في الخفاء، ورأى العالم كله هذه الصور وثارت ضجة لم تهدأ إلا بالانفصال الشكلي والجغرافي بين الزوجين الشهيرين .. فالزوجة الأميرة «ديانا» تعيش في قصر «كينسينجتون» مع ولديها «وليم» و«هاري» .. أما الزوج الأمير «تشارلز» فهو يقطن قصر «هاي جروف» .

أما الأميرة «ديانا» فكان صديقها يدعي «جيمس جيلبي» وقد عرض التلفزيون الأسترالي برنامجاً تحت اسم «الزوايا الأربع» تناول جزءاً من مكالمات هاتفية بين الأميرة وعشيقها .. نعرف من المكالمات أن الأميرة لا ترغب في الحمل (الإنجاب) من عشيقها «جيمس جيلبي» .. أما الحوار كله فهو أكثر إثارة!..

يقول لها صديقها «جيلبي» إنه كان يحلم بها وإنه كان حلماً غير عادي .. غريباً .. غريباً جداً .. وجميلاً جداً ..

فردت «ديانا» .. أنا لا أريد أن أحمل .

«جيلبي» : عزيزتي .. هذا لن يحدث .. اتفقنا؟

«ديانا» : طيب .

«جيلبي» : لا تفكير بهذه الطريقة، لن يحدث يا عزيزتي، لن تصبحي حاملاً ..

فروت له هي عن أوبرا من الأوبرات التي شاهدها مؤخراً، الشخصية الأساسية فيها عندها طفل، الجميع يعتقد أنه طفلها من زوجها، ولكنه كان من رجل آخر .. يضحك الاثنان ..

«جيلبي» : قبليني .. يا إلهي كم هو رائع هذا الشعور .. أليس كذلك ؟ .. ألا يعجبك؟

«ديانا» إني أحبه .. إني أحبه ..

هذا الحوار الفاضح شاهده الملايين، وربما كانت الأميرة قد أقدمت على علاقة من هذا النوع هروباً من القيود والمشاكل التي تعاني منها داخل القصور الملكية والتي كشف عنها كتاب ظهر مؤخراً عن الأميرة بعنوان «ديانا .. قصتها الحقيقية» . وهو ما صرحت به لإحدى صديقاتها بصورة أكثر وضوحاً عندما قالت لها : إن كل المشاكل التي كانت تعاني منها أصبحت الآن واضحة المعالم أمام الجميع ..

لكن .. هل يستحق هذا أن تتورط في علاقة جنسية، وأن تثير فضيحة للعرش والتاج البريطاني ؟ ..

وعلى الجانب الآخر لم يكن الأمر حسناً .. فقد كان للأمير هو أيضاً عشيقته وكأنه يخرج لسانه للأميرة ويقول لها «محدث أحسن من حد» .. وكانت عشيقته تدعى «كاميللا باركر» .. وهي زوجة صديق حميم لـ «تشارلز» يدعى «أندورو باركر» .. قد يبدو غريباً أن تكون عشيقته هي زوجة صديقه .. لكن ليس هناك غريب في عالم السلطة والجنس ! ..

العشيقة «كاميللا باركر» تبلغ من العمر ٤٣ سنة وهي امرأة متزوجة كما قلنا من الصديق الحميم لـ «تشارلز» وقد أنجبت من زوجها طفلين .. ولا يستطيع أي شخص أن يقول إن هذه المرأة تفوق الأميرة «ديانا» جمالاً أو جاذبية .. لكنها مع ذلك استأثرت بالأمير وجعلته ينسى أن كل مكالمات القصر الملكي مسجلة بواسطة قسم محطة الخدمات الأمنية البريطانية التي من صميم عملها حماية الملكية .. لم يضع الأمير «تشارلز» أيّاً من هذه الاعتبارات أمامه وراح يخاطب معشوقته بكلمات جنسية لا تصدر عن مخمور في إحدى الحانات .. هكذا دون حياة .. أما تفاصيل الحوار فهو أكثر إثارة وانحطاطاً، بل إن المرء يندهش كيف تكون هذه كلمات من تعدد الأيام ليكون ملكاً لعرش دولة كبرى .. جاء في الحوار الذي قرأه العالم كله ..

تقول كاميللا لعشيقتها الأمير : إنني أريد أن آخذك أنت .

يقول «تشارلز» : إنني أيضاً أريد أن آخذك أنت .. أشعر بك كاملة بكل المعاني ..

«كاميللا» : هذا هو ما أحتاجه الآن يا «تشارلز» .

«تشارلز» : حقيقي؟

«كاميللا» : إنني أكاد أجن، لا أتخيل أن يمر مساء الأحد بدونك .

«تشارلز» : سأشحن بطايرتك كل يوم أحد .. ثم تنظمي نفسك طوال الأسبوع بعد ذلك .

«كاميللا» : سأشعر بالتحسن عندئذ .

«تشارلز» : مشكلتي إنني أحتاج إليك عدة مرات .. إنني أريد أن أعيش داخل بنطلونك .. لما لا ؟ .. إن هذا أسهل بالنسبة لي .

«كاميللا» : (بعد أن تضحك) .. هل تريد أن تصبح قطعة من ملابس الداخلية ؟

«تشارلز» : والله ... فكرة .

هذا هو رجل الحكم .. رجل ليس ملك نفسه بل هو ملك الجميع . إن كثيرين لهم علاقات غير شرعية، لكن عندما يقع رجل السلطة في علاقة جنسية على هامش حياته

تتفجر الفضائح ويعرف العالم كله .. لكن لماذا؟.

لأن فضول الناس وشراهتهم لمعرفة كل صغيرة وكبيرة في حياة رموز أي مجتمع - ومنهم رجال الحكم بالطبع - يدفع وسائل الإعلام إلى إشباع هذا الفضول بالتسلل من خلف الأسوار والموانع التي تحول دون رجل السلطة وما يدور في كواليس حكمه من حياة خاصة .

وهذا يحدث كثيراً في الدول الديمقراطية التي تتمتع فيها أجهزة الإعلام والصحافة بحرية كبيرة، أما في بعض دول العالم الثالث حيث الفضائح أكثر يصعب التغلغل في الحواجز الحديدية التي تحيط بالحكم وتحول دون كشف ما يدور وراء الكواليس من أحداث يندى لها الجبين حياء وخجلاً .. وربما كان المثال الأقرب لنا ما كان يدور خلال حقبة الستينيات في مصر من فضائح كان أبطالها رجالاً في صدارة الحكم وفنانات شهيرات، ولم يكن معروفاً أمام الناس ما يحدث بالفعل حتى انتهت هذه الفترة ورحل معظم رجالها فانكشف المستور وعرف الجميع كيف كانت تحكم مصر !!

لكن ليست كل فضائح السلطة هدفها جنسياً فقط، بل إن مصالح متشابكة قد تلعب دوراً هاماً في الكواليس وهي تغلف بغلاف رقيق في رقة ورقة السوليفان وهناك ترتفع نيران الغرام وتحترق أوراق التين ويبدو كل شيء مكشوفاً يعلن عن عالم من المصالح التي لا تعترف بسلطة أو بقوة ..

وقد يكون وصول المرأة إلى السلطة ووضع رجل الحكم في جيبها مع كل ما يمثله هذا لها من قوة ونفوذ .. قد يكون ذلك في حد ذاته مصالح تهون في سبيلها ما تبذله العشيقة من جسدها ومفاتها لصاحب السلطة حتى ولو أصبحت عشيقة في الظل تكتفي بالنفوذ المستر مانحة اللذة والشهوة في سرايب القصور وردحات الحكم ..

ولعل «فرانسيس ستيفونسون» هي آخر امرأة حصلت على هذا النفوذ إلى جوار العرش البريطاني .. فقد التحقت للعمل كمرربة صيفية لأطفال «لويد جورج» رئيس وزراء بريطانيا خلال وبعد الحرب العالمية الأولى .. ولكنها فيما بعد أصبحت عشيقته ثم

لم تلبث أن أصبحت سكرتيرته حتى يبدو لوجودها إلى جواره ما يبرره .
واستطاعت هذه المرأة أن تجثم على قلب الحكومة البريطانية مدة ٤٠ سنة هي مدة
علاقتها برئيس الوزراء .. ومن خلال علاقة العشق التي كانت تربطها به تمكنت من
الاطلاع على كل أسرار الشخصية والسياسية ..

لقد قيل - بحق - إنها هي الحكومة .. وقد قبلت أن تكون عشيقة في السر طوال هذه
المدة، لكن في المقابل كانت في مركز السلطة وهو مشدود إليها كالمغناطيس - كما كانت
تصفه - فلم يكن يستطيع أن يرفض لها طلباً، وكانت تدير دفة أمور كثيرة في الحكم، فما
أسهل التأثير على رجل وهو في أحضان امرأة مقيم بها !

لقد قالت إحدي العاهرات والتي كانت على علاقة جنسية مع وزراء وجنرالات
عديدين مارسوا جميعاً معها الجنس : «لو رأيت زوجة هذا الرجل المحترم المهم ما أفعله
بزوجها وأنا أختلي به في غرفتي لطلبت الطلاق أو لأصيبت بالجنون» .

إن الرجل - أي رجل - سواء كان مهماً أو عادياً مع امرأة متمرسة لها خبرتها
وجاذبيتها الجنسية لابد أن يسلم لها قياده وكأنه في حالة تنويم مغناطيسي .

إن الأقنعة التي يضعها رجل السلطة على وجهه من حزم وهيبة وتزمت كلها تسقط
في الغرف المغلقة في أحضان امرأة تظهر مفاتنها، ولا يلبث هذا الرجل المهيب إلا أن
يتحول إلى حيوان ذليل يلهث خلف متعته .. وتستطيع هذه المرأة عندئذ أن تأمره فيلبي،
وتصبح هي في حقيقة الأمر صاحبة السلطة .

إن المرأة ذات الجاذبية الجنسية الشديدة تمثل تحدياً لرجل الحكم - أو ربما أي رجل -
فهو لا يصدق أنه يمكن أن يخضع هذه المرأة، لذلك لا يتورع في تسليم جزء من سلطته
أو نفوذه - وقد تكون سلطته كلها - حتى يقنعها باستمرار هذه العلاقة الجنسية .

ليلة جنس واحدة بين مارلين مونرو وكينيدى

في الستينيات من هذا القرن وعلى الشاطئ الآخر للأطلنطي اهتزت الولايات المتحدة الأمريكية والعالم كله لفضيحة لكن - ولا يزال - لها صداها الكبير والمثير .. فقد كانت بطلة هذه الفضيحة ممثلة شهيرة ونجمة إغراء تثير أحلام الرجال في كل أرجاء الأرض، كانت الممثلة الراحلة «مارلين مونرو» .. أما بطل القصة أو الفضيحة فقد كان الرئيس الأمريكي الوسيم «جون كينيدى» .. ومن الغريب أنه رغم مرور كل هذه السنوات على أحداث هذه الفضيحة المثيرة إلا أن الكثير من وقائعها ما يزال ينطوي على غموض محير يثير تساؤلات ودهشة كبيرة .. ولنترك فصول هذه القصة تنسج أحداثها التي بدت ناعمة حريرية في البداية .

ولدت «نورماجين بيكر» أو كما عرفت فيما بعد بـ «مارلين مونرو» في أول يونيو عام ١٩٢٦ في مدينة لوس أنجلوس بولاية كاليفورنيا الأمريكية .. كانت طفولة «مارلين مونرو» بائسة حزينة .. فقد مات أبوها في حادث تصادم وكان عمرها ثلاث سنوات فلم تره، أما أمها «جلاديس بيكر» فقد كانت تعاني من اضطرابات عصبية شديدة أدت إلى دخولها مصحة عقلية وكانت «مارلين» في الخامسة من عمرها .

لهذه الظروف القاسية اضطرت «مارلين» أن تعمل خادمة في بيوت بعض الأغنياء وهي في هذه السن الصغيرة حيث قاست الاحتقار وامتهان الكرامة وحرمت من أبسط حقوق الطفولة البريئة، بل إن الأمر وصل إلى تعرضها للاغتصاب من أحد السادة الذين كانت تعمل لديهم وكانت لا تزال في التاسعة من عمرها ..

في السادسة عشرة من عمرها تزوجت «مارلين» من عامل في أحد مصانع الطائرات ويدعى «جيمس دوفرتي» .. كان زوجها بمثابة ملجأ اعتقدت أنه يمكن أن ينقذها مما تعانيه من فقر وتشرد .. إلا أنها صدمت في هذا الزواج وأحست بإحباط وفشل، وقالت فيما بعد عن زواجها هذا : «لم نكن نتحدث معاً إلا نادراً، ولم يكن لدينا ما يقال» .. هكذا

تحول هذا الزواج إلى مزيد من الشقاء والبؤس دفعها بعد عام واحد إلى محاولة انتحار فاشلة .

لم يدم زواج «مارلين» الأول طويلاً فقد طلقت من «زوفرتي» عام ١٩٤٦ وكان ضرورياً أن تبحث عن عمل يعينها على معيشتها، وبالفعل عملت كموديل في أحد معامل الرسم التابعة للجيش حيث اكتشفها أحد الرسامين ورسم لها لوحة حازت الإعجاب وحقت لـ «مارلين» الشهرة كأفضل موديل .. وكان هذا بداية الطريق الذي قادها إلى العمل في السينما ..

لقد كان عمل «مارلين» بالسينما بدافع وتحريض من صديقة أمها الحميمة «جريس ميكى» التي احتضنتها بعد دخول أمها المصححة النفسية، لقد دفعت «جريس» بـ «مارلين» إلى طريق السينما وحددت لها أدوار الإغراء لتقوم بأدائها، ولم تكتف «جريس» بأداء هذا الدور في حياة «مارلين»، بل إنها زرعت داخلها طموحات كبيرة وواسعة بأن تصبح أكبر ممثلة إغراء في العالم، ومن خلال هذا الدور قامت «جريس ميكى» بتوقيع أول عقد نيابة عن «مارلين» مع شركة «فوكس» للقرن العشرين، ثم لعبت دوراً كبيراً في تطبيق «مارلين» من «دوفرتي» ثم دفعت بها إلى الزواج من لاعب البيسبول «جوديثا جو» الذي لم يستمر زواجها منه سوى تسعة أشهر فقط حفلت بالمنازعات والعواصف حتى تم طلاقها منه .. ورغم ذلك كان هذا الرجل هو الأكثر وفاء لـ «مارلين» حتى آخر يوم في حياتها، وهو الذي ظهر في قمة أزمتها وانهيارها ليكون بجوارها يبكي ما تعانيه بالدمع الساخن ..

كان زواج «مارلين» الثالث من الكاتب المسرحي «أرثر ميللر» الذي كانت له شهرة مثار ضجة كبيرة وقد تعارفا «مارلين» و«ميللر» لأول مرة عام ١٩٥١ من خلال فريق مشترك هو المخرج العالمي «اليا كازان» .

كان «أرثر ميللر» متزوجاً من أخرى عندما رغب في الزواج من «مارلين» ونجح ر» في أن يشعر «مارلين» بحاجته لها فقد كانت تحب أن تشعر بحاجة الرجل لها لا

برغبته فيها .. وبعد الزواج اشتعل الحب بينهما حيث قام الكاتب الكبير بتطليق زوجته الأولى، ثم زاد إعجابها به عندما تصدى بشدة لمحاولات مكتب التحقيقات الفيدرالية والكونجرس لمحاولتهم إجباره على تحديد أسماء زملائه في الحزب الشيوعي الذي كان ينتمي إليه .

لكن سرعان ما أصيب هذا الحب بمقتل أودي بالزواج إلى انفصال وفشل، كان ذلك في ربيع عام ١٩٥٦ عندما كان الزوجان «مارلين» و«ميللر» في لندن حيث كانت تقوم «مارلين» بتمثيل فيلم «الأمير وفتاة الاستعراض» مع الممثل الشهير «لورانس أوليفيه» .. هناك عثرت «مارلين» على مذكرات «ميللر» .. وعرفت من المکتوب بخط يده أنه يصفها بأنها امرأة طفلة لا يمكن التنبؤ بأفعالها وإنه يشعر بالشفقة تجاهها كما يخشى أن تهدد قدراته الخلاقة في الكتابة .

لقد كان لهذه الكلمات تأثير قوي على «مارلين» شعرت معه باليأس والإحباط، وزاد من هذا الشعور فقدما لجنينها الذي كان من «ميللر» حيث كان الحمل خارج الرحم، ثم جاءت الطامة الكبرى عندما فضح «ميللر» على الملأ حياتها الخاصة وأفاض في وصف أدق مشاعرها .. لقد أدت هذه الأحداث المتلاحقة والمؤسفة إلى إصابة «مارلين» بآلم في معدتها كان يضطرها لإيقاف التصوير لعدة أيام ..

تقول «مارلين» عن زواجها من «ميللر» : «لقد لعبت دور «مارلين مونرو» طوال حياتي .. وكنت أريد أن أفعل شيئاً مختلفاً وهذا سبب انجذابي لـ «أرثر ميللر» عندما أحبني «ميللر» تصورت أنه يمكنني الهروب من «مارلين مونرو» من خلاله، وها أنا بعد أن تزوجته أقوم بنفس الدور الذي لم أعد أتحمله» .

لقد أرادت «مارلين» أن تهرب من الإطار الذي وجدت نفسها فيه بأنها مجرد جسد يحلم به الجميع وعلقت آمالاً على أن تخرج من ذلك بالزواج من كاتب مثقف جاد، لكن لم يكن ما توقعته سوى أضغاث أحلام ..

أما «ميللر» فيقول عن «مارلين» كلمات مختلفة تماماً : «كانت مثل الفائزة المكسورة،

شظاياها المتناثرة تعذب كل من يحاول جمعها وتصيبه بألم فظيع» .

عموماً لقد انتهى هذا الزواج قبل أن يكمل عامه الخامس وقد خلف لـ «مارلين» نفسية محطمة مكسورة ربما كانت البداية الحقيقية لنهايتها التي قيل إنها انتحار ..

لكن ما حقيقة علاقة «مارلين مونرو» بالرئيس الأمريكي «جون كينيدي» هل أحبها الرئيس الأمريكي؟ وهل هربها للبيت الأبيض لتقضي ليلة في فراش زوجته «جاكلين كينيدي» التي كانت في رحلة، وهل شاركه في حبها شقيقه «روبرت كينيدي»؟ .. لقد قيل الكثير عن علاقة الأخوين بـ «مارلين» .. وقيل الكثير عن علاقة المخابرات الأمريكية بمصرع «مارلين» أو انتحارها .. فما هي الحقيقة في كل هذا؟ ..

لقد تلاحت الإشاعات منذ وفاة «مارلين مونرو» في ٥ أغسطس عام ١٩٦٢ وحتى اليوم ؛ وكانت أكثر هذه الإشاعات رواجاً ما قيل عن علاقة ممثلة الإغراء «مارلين» بالرئيس الأمريكي الـوسيم «جون كينيدي» .. فقد قيل إن الرئيس كان على علاقة بها وامتدت هذه العلاقة بعد انتخابه رئيساً للولايات المتحدة، وبعد افتضاح هذه العلاقة اتصلت بها السيدة الأولى «جاكلين كينيدي» ودعتها إلى احتلال مكانها في البيت الأبيض إذا شاءت شرط أن تحصل هي على الطلاق من الرئيس الأمريكي ..

وقد قيل إن الأخ الأصغر للرئيس الأمريكي «روبرت كينيدي» ورث هذه العلاقة عن شقيقه ثم أصبح عليه أن ينهيها قبل أن تهدد مستقبله السياسي كوزير للعدل . هذا كله كان السبب - كما تؤكد هذه الإشاعة - في تدخل المخابرات الأمريكية للمحافظة على هيبة الحكم في أكبر دولة في العالم فتخلصت من «مارلين» .

وقد ظهرت أدلة وشواهد تدعم هذه الإشاعة .. فقد كانت «مارلين» على علاقة قوية بأخت «كينيدي» وزوجها الممثل السينمائي المشهور «بيتر لوفورد» وقد كانوا ضمن أفراد معدودين حضروا تشييع الجنازة والصلاة على الجثمان ..

أخيراً ظهر كتاب لمؤلفه «دونالد سبتو» بعنوان (مارلين .. سيرتها الذاتية) يكشف حقيقة علاقة ممثلة الإغراء المشهورة بالرئيس وحقيقة مصرعها .. فماذا يقول «سبتو»؟

يؤكد «دونالد سبوتو» في كتابه أنه لم تكن هناك علاقة عاطفية (عميقة) بين «مارلين» والرئيس الأمريكي، كل ما في الأمر أنها أمضت ليلة واحدة مع «جون كينيدي» في مزرعة الممثل الأمريكي «بيج كروسب» في «بالم بيتش» ليلة واحدة قضياها معاً .. وحدهما .. هذا كل ما في الأمر !!

بينما يقول «رالف روبرتس» مدلك «مارلين» الخاص والممثل : إن «مارلين» اتصلت به من مزرعة «كروسب» لتطلب منه استشارة طبية للرئيس «كينيدي» الذي كان يعاني من آلام مبرحة في العضلات والظهر .. كان ذلك في مارس عام ١٩٦٢ .. تحدثت «مارلين» مع «رالف» في البداية وأخذ «كينيدي» السماعه وشكره بنفسه ..

ويقول «سبوتو» أيضاً : إن «مارلين» أكدت له أنها المرة الوحيدة التي كانت فيها مع الرئيس وأنها علاقة عابرة لليلة واحدة فقط .. أما «روبرت» الأخ الشقيق لـ «كينيدي» فيقول «سبوتو» في كتابه : إنه لم يكن هناك علاقة خاصة بينه وبين «مارلين» وإنهما لم يلتقيا سواها إلا في أربع مرات وفي مناسبات عامة .

وينفي «دونالد سبوتو» تهمة قتل «مارلين» أو دفعها للانتحار بواسطة المخابرات الأمريكية، بل إنه يؤكد أن كل الشواهد تؤيد اشتراك كل من طبيب «مارلين» النفسي الدكتور «رالف جرينسان» ومديرة منزلها : «أونيس موراي» في العمل معاً لهذه النهاية الحزينة التي راحت ضحيتها أشهر من مثلت أدوار الإغراء في السينما العالمية .. «مارلين مونرو» .

حريم السلطان في إسرائيل..!

رايين يتدخل لإنقاذ سبعة رئيس جهاز الأمن الإسرائيلي!

قال «نابليون» في منفاه :

«إذا ضعف رجل سلطة أمام امرأة فليذهب إلى الطبيب» ..

لكن هذا لا يحدث في أغلب الأحيان - إن لم يكن في معظمها - فرجل السلطة قد يضعف ويتحول إلى العوبة أمام امرأة تلوح له بمفاتهاها الجنسية، وبدلاً من أن يذهب إلى الطبيب نراه يذهب في غيه حتى يجر معه النظام الحاكم كله إلى فضيحة قد يكون فيها فصل الختام .. وإلا كان من الضروري أن يتدخل كبير النظام الحاكم والمسؤول الأول في الدولة لإنقاذ الموقف .. وهذا ما حدث في إسرائيل .. ما هي القصة إذن ؟ .. وكيف كانت البداية ؟ ..

بدأت القصة عندما كانت «تدميلا بنشيه» المراسلة العسكرية للإذاعة الإسرائيلية تقوم بعملها كالمعتاد، وقد اضطرتها ظروف عملها أن توجد في أحد المنازل حيث تقابلت مع رجل شعرت نحوه بميل جارف؛ فتعرفت به وتعددت بينهما المقابلات الغرامية الملتهبة .

لم يمر وقت طويل على هذه العلاقة الغرامية حتى عرفت زوجة الرجل بأمر هذه العلاقة مع المراسلة العسكرية، وتصرفت كأى زوجة تجد نفسها أمام عشيقة لزوجها؛ فقد أخذت تهدد المراسلة «تدميلا» بفضيحتها وكشف هذه العلاقة الداعرة بينها وبين زوجها .. ولم تكتف الزوجة بذلك بل رفعت دعوى نفقة بعد أن استقر الزوج مع المراسلة وهجر بيت الزوجية .. إلى هنا والقصة تبدو عادية تحدث كثيراً .. لكن ما حدث بعد ذلك كان غريباً وغير عادي !

فكرت الزوجة في الانتقام من هذا الزوج الخائن .. وربما تحدثت إلى نفسها متسائلة .. ولماذا لا تحنن هي الأخرى ؟ .. ماذا يمنع أن تكون لها علاقة غرامية ويكون لها عشيق .. ؟ !

وبالفعل بحثت الزوجة عمن يصلح أن يكون عشيقاً واختارت .. لقد كان رئيس ديوان الأمن العام الإسرائيلي المعروف باسم «الشاباك» .. هذا الرجل هو المسؤول عن الأمن في إسرائيل وعمله يتطلب السرية الكاملة حتى إن اسمه نفسه يندرج تحت هذه السرية ..

لم ترض هذه الزوجة العشيقة أن تكون صديقة فقط لرئيس ديوان الأمن العام، بل أصبحت سكرتيرته الخاصة كذلك وأصبح الجميع يعرفون أن المسافة بين مكتب سكرتيرة مسؤول الأمن العام وفراشه قصيرة إن لم تكن معدومة أيضاً !.

كان إحساس المرأة بالإهانة يشعل ناراً داخل الزوجة لمجرد أن زوجها فضل عليها المراسلة العسكرية وعاش معها بعد أن هجرها، ووجدت أن خيانتها له مع مسؤول الأمن العام الإسرائيلي غير كافية ..

لقد دفعها هذا الإحساس إلى استغلال موقعها وعلاقتها بالمسؤول الأمني لمعرفة كل أسرار المراسلة العسكرية «تدميلاً بنشيه» وبدأت في شن حملة إرهاب عليها، فكانت تتصل بها وتسبها وتصفها بأنها بائعة هوى ..

بل إنها ذهبت لأكثر من ذلك فقد استغلت إمكانيات جهاز الأمن العام وعمدت إلى مراقبة تليفون العشيقة لتتعرف عما يدور بينها وبين الزوج ..

وسجلت مكالمات تحوي من الألفاظ الإباحية ما لا يجزؤ أي مخرج للأفلام الجنسية على تضمينه لفيلم يخرج .. بل إن تسخير جهاز الأمن العام بمساعدة من العشيق - رئيس الجهاز - أدى إلى معرفة علاقات المراسلة الجنسية مع سياسيين وعسكريين وصحفيين .. وعندئذ أحست الزوجة إنها قد وضعت يدها أخيراً على معلومات تمكنها من تخطيط غريمتها ..

لكن في المقابل حاولت المراسلة العسكرية «تدميلاً» أن تعرف سر هذه القوة التي أبدتها فجأة زوجة عشيقها، وعرفت بحكم عملها كمراسلة للإذاعة وصحفية أن الزوجة استغلت علاقتها الغرامية بالمسؤول الأمني الهام وبما لدى جهاز الأمن العام

من معلومات وإمكانيات، وهذا كله ساعد الزوجة على معرفة التفاصيل الدقيقة للحياة الخاصة للمراسلة العسكرية ..

حاولت «تدميلا» أن تكشف العلاقة - الفضيحة - بين الزوجة ورئيس الأمن العام إلا أنها لم تفلح لقوة خصمها، إلى أن جاء «إسحاق راين» إلى رئاسة الوزارة الإسرائيلية وجعل من «شمعون شيفس» رئيساً لجهاز الأمن العام والذي كان بدوره صديقاً قديماً للمراسلة العسكرية ..

هنا شعرت «تدميلا» أن الفرصة قد جاءت أخيراً فحركت «شيفس» الذي حرض «راين» على إجراء تحقيق داخلي عن فضيحة جهاز الأمن العام ورئيسه العاشق الولهان.

وكشف التحقيق عن نتائج خطيرة ومثيرة في وقت واحد .. فرئيس ديوان الأمن العام عين عشيقته سكرتيرة له، ثم سمح لها باستعمال سيارته الحكومية لتنقلها إلى بيت عشيقة زوجها - «تدميلا» - ليلاً لتسبها وتخلق لها الفضائح، كما سمح لعشيقته أن تستخدم التليفون الرسمي الخاص به لتكمل حملتها الإرهابية ضد المراسلة العسكرية، هذا بجانب أنها استخدمت «كومبيوتر» جهاز الأمن العام للحصول على المعلومات المطلوبة الخاصة بالمراسلة «تدميلا» وهي في جملتها معلومات سرية ..

لقد كانت هذه النتائج خطيرة وتسببت في إحراج حكومة حزب العمل الإسرائيلي برئاسة «إسحاق راين» ولم يكن أمام الأخير إلا أن يعلن توبيخه لرئيس جهاز «الشاباك» الإسرائيلي، كما أصدر بياناً أكد فيه أنه سيعفي رئيس الجهاز المتورط في هذه الفضيحة الجنسية من منصبه قريباً .. ولعله بذلك استطاع أن يلم شتات هذه الفضيحة والتي كان يمكن أن تهدد سمعة الحكومة الإسرائيلية كلها ..

زوجة نابليون الثالث إمبراطور فرنسا

تزيقه العذاب كله

وقع نابليون الثالث إمبراطور فرنسا وابن عم نابليون بونابرت في غرام ماري أوجيني وتزوجها ..

غير أن مستشاري الإمبراطور عارضوا في هذا الزواج، وأوضحوا له أنه ليس مما يتفق مع مكانته أن يتزوج من امرأة مجهولة الحسب والنسب مثل ماري أوجيني، ولكن الإمبراطور الذي كان حب أوجيني قد ملك عليه نفسه، لم يأبه لهذه المعارضة، ومضى في إتمام زواجه من أحب .

وتوافرت لنابليون الثالث وأوجيني كل أسباب السعادة من صحة وثراء، وجمال وحب، فهل قدر لهما أن يعيشا عيشة زوجية راضية سعيدة ؟!

كلا !.. بل سرعان ما خمدت نار الحب التي كانت تتأجج في قلوبهما وتحولت إلى كومة من الرماد، ولم يكن لهذا التحول العجيب غير سبب واحد .. ذلك هو الغيرة النكراء التي تملك أوجيني، فدفعت بها إلى أن تسوم زوجها الإمبراطور سوء العذاب .

فقد استولى عليها شيطان الغيرة وملك عليها الشك نفسها، فأنكرت على زوجها حق الانفراد بنفسه، وكانت تقتحم عليه مكتبه حينما يكون مشغولاً بشؤون الدولة، فتعصف به عصف الرياح وتنكد عليه عيشه، وما تلك إلا لأنها كانت تخشى دائماً أن يكون قد اتخذ لنفسه امرأة غيرها .

كانت لا تتورع عن التدخل في شؤون الدولة، وتلزمه أن يطلعها على ما فعله في يومه .. وكانت دائمة البحث في سجل التشريعات عن مقابلات الإمبراطور وتسأل الغرض منها . وضاق الإمبراطور ذرعاً بهذه التصرفات المؤلمة التي جعلته موضع سخرية .

ومع أنه كان يمتلك القصور الرائعة إلا أنه لم يكن يجد ركناً صغيراً يأوى إليه بعيداً عن هذه الزوجة المشاكسة . كان شبحها يلاحقه أينما ذهب، حتى أصبح في حالة نفسية شاذة وأضحت حياته مأساة، بل جحيماً لا يطاق .

وصفها الكاتب الفرنسي «برنهاردت» في كتاب له بعنوان «حياة الإمبراطور المحزنة» قال فيه :

كان الإمبراطور لا يعرف كيف يتخلص من مضايقات زوجته المتلاحقة، حتى إنه كان يفضل الموت على الحياة .

وكان يخرج في المساء متنكراً مع أحد خاصته، ويسير في طرقات المدينة حتى يسري قليلاً عن نفسه، فكان يحسدهم ويغبطهم على ما هم فيه من سعادة متمنياً لو كان مثلهم .

فماذا جنت أوجيني من وراء هذا العذاب الذي كانت توقعه بزوجها الإمبراطور ؟ لقد دفعته إلى أن يتسلل تحت جناح الظلام من أحد الأبواب الخلفية إلى إحدى غايات فرنسا، فينسى معها ما يلاقيه من حماقات زوجته وعذابها .

هذه صور تنبه الشباب كيف يحسن اختيار زوجته .. لأنها نصف حياته ونصف حاضره .. ونصف مستقبله .. ونصف تاريخه، ولن يحقق كل آماله مع أمثال هذه الزوجات المشاكسات ..

وراء كل رجل عظيم حب امرأة ناضجة

ووراء كل امرأة ناضجة حب رجل ناضج

رأينا مما سبق كيف استطاع حب المرأة العاقلة الناضجة أن ترفع زوجها وتمده بحنانها وفكرها الثاقب الناضج، ورأينا كيف استطاعت أن تقف بجانب زوجها في ساعات المحنة، ورأينا كيف مهدت لخلق جو هادئ سعيد تزدهر فيه المواهب والعقول. وكيف كانت تدفع اليأس في لحظات الضيق والتردد، كما فعلت زوجة «لويد جورج» رئيس وزراء بريطانيا في خلال الحرب العالمية الأولى، إذا دق الهاتف «التليفون» يطلب مستر «لويد جورج» ويقول له مارشال فرنسا «فوس» إن الجيش الألماني يتقدم والحالة خطيرة وإن مجلس الحرب الأعلى يريد سماع كلمة بريطانيا النهائية، فقالت له زوجته، وقد رأته في حيرة بالغة :

ما رأيك ؟

فقال لها سأوافق على رأى المارشال فوش .

فقالت له كما جاء في مذكرات لويد جورج . إذا كان رأيك يوافق رأي المارشال فوش، فإني أنذرك بأنه لن يضمني معك من اليوم بيت واحد .
ألم تقرأ يا عزيزي تاريخ بلادك ؟ ألم تقرأ أن بريطانيا لم تخسر حرباً، برغم أنها تكون قد خسرت معارك كثيرة .. قل للمارشال فوش أننا سنواصل الحرب حتى النهاية .

ولما استعاد «لويد جورج» شجاعته أمسك بساعة التليفون وقال :

- بريطانيا لن تفكر في عقد صلح إلا إذا أملت وحلفاؤها شروطه . وكان ما أراد لويد جورج وأرادت زوجته .

وما قاله مستر لويد جورج في الحرب العالمية الأولى فعله مستر تشرشل رئيس وزراء

بريطانيا في الحرب العالمية الثانية الذي قادها إلى النصر فكان لزوجته فضل كبير، إذ وقفت بجانبه تشد أزره في تلك الظروف العصيبة .

ماذا قال تشرشل نفسه عن كليمتاين أو «كليمي» كما كان يدعوها : «لم يكن ممكناً لأي رجل يشغل منصباً في الحياة العامة، أن يواجه الصعاب التي نجح في التغلب عليها بغير المساعدة المخلصة من جانب ما نسميه هنا في إنجلترا «النصف الحلو» أو النصف الأكثر حلاوة» .

وقفت هذه المرأة بجانب زوجها تسانده وتدفعه وتشجعه يقول هذا الزوج : «لقد كان زواجي بهذه المرأة أعظم إنجاز حققته في حياتي» كانت هذه هي كلمات تشرشل بالحرف الواحد، وهو يقترب من نهاية رحلته في عام ١٩٥٦ عن واحد وتسعين عاماً .

وتقول عنها «اليزابيث نيل» سكرتيرة مستر تشرشل في كتابها : وكانت الفارس الذي امتطى صهوة الجواد الجامح وعرف كيف يروضه .. وأنها كانت اللجام الذي وضعتة هي بيدها بين فكيه، ثم كانت بعد ذلك الصوت الرقيق الذي كثيراً ما كان يحجب عن الأذان حدة زئير الأسد البريطاني، واستردت تقول : لقد كنت دائماً أشعر بأن أهم دور قامت به «كليمتاين» في حياة زوجها تشرشل أنها كانت تقف ندّاً قوياً له في كل مناقشة وفي كل تصرف لا تراه مناسباً .. لقد كان من الممكن أن تجعل منه طفلاً مدلاً، كما تفعل بعض الزوجات مع أزواجهن وأبنائهن .. ولكنها لم تكن تجيد هذا الأسلوب، من التدليل .. كان أكثر ما يثيرها أن ترى ميلاً من جانب زوجها للعمل من أجل نفسه فقط . وتقول اليزابيث أن «كليمي»، وهي التي كانت وراء أخطر وأهم قرار اتخذته تشرشل في حياته السياسية الطويلة، عندما وقف عام ١٩٤٠ يقود بلاده في أقسى تجربة مرت بها .. خلال الحرب العالمية الثانية، وكان يومها شيخاً جاوز عامه الستين .. وكانت هي التي راحت تدق أبواب المنازل، وتطلب من ربّات البيوت أن يقدمن كل ما لديهن من الأواني المصنوعة من الألمنيوم .. التي ساهمت في إنتاج طائرة «السيثايفر» أحدث طائرة قتال إنجليزي ساهمت في انتصار بريطانيا في المعارك الجوية مع طائرات هتلر : يومها قال تشرشل «لقد قدمت لي «كليمي» ألد وأعظم وجبة في حياتي» .

وفي الحرب العالمية الثانية، وطائرات النازي تدك لندن التي انتقل سكانها ليعيشوا تحت الأرض فوق خطوط المترو، ذهب النواب الإنجليز إلى بيت تشرشل ووقفوا يتوسلون إلى زوجته أن تفعل شيئاً لتمنعه من الاستمرار في الرحلات الجوية التي كان يقوم بها فوق القنال الإنجليزي وسط نيران المدافع .. ووقف تشرشل ينظر إلى زوجته ليرى ماذا ستفعل، فوجدتها تبسم وهي تقترب منه وتضع يدها على كتفه وتقول : {إذا كان المئات من الشباب البريطاني يعبرون القنال بطائراتهم يومياً ويتعرضون للموت، فأنا لا أجد سبباً يمنع زوجي من أن يفعل مثلهم : لا بد له من أن يؤدي واجبه هو أيضاً} .

حدث أن التقيت به الممثلة الأمريكية أرلين ذات يوم وسألته عن الصفات التي يجب أن تتوفر في المرأة لكي تكون جميلة ؟ فقال «انظري إلى كليمتاين .. انظري إليها جيداً واستمعي إلى حديثها .. وسوف تجددين فيها أجمل امرأة في العالم» ! .

أما عن زوجات العلماء فقرأنا كيف كانت زوجة باستير تسهر على راحة زوجها وتعد له التقارير، حتى استطاع في النهاية أن يكشف لنا عالم الميكروبات التي تهدد حياتنا ولا تقل ضحاياها عن ضحايا الحروب .

وها هو «إديسون» كبير المخترعين، كيف قال له معلمه في مدرسة القرية أنت ولد غبي فغضب الولد ورفض أن يعود إلى المدرسة، ولكن أمه وكانت قبل زواجها مدرسة، راحت تعيد الثقة إلى نفسه، وتعلمه في بيتها، وتشتري له الكتب التي سيطلبها حتى خلقت فيه حب القراءة وحب البحث .. ثم تركته بعد ذلك يبحث عن المعارف، ويجري وراد الحقائق، حتى أصبح في النهاية عالماً وباحثاً في شئون الكهرباء مع أنه لم يدخل مدرسة أو جامعة .

فاخترع لنا المصباح الكهربائي الذي جعل الليل نهاراً .. ويكفي أن نتأمل قليلاً .. ماذا يكون الحال لو أن «أديسون» لم يقدم لنا هذا المصباح العظيم .

وأديسون لم يقف خيره على هذا المصباح فهو الذي قدم وسائل الاتصال كالتلغراف .. وهو الذي أضاف إلى اختراع المسرة «التليفون» إضافات جعلته بالصورة التي نراها

الآن، هذا عدا مئآت الاختراعات التي بعثها من العدم .

ماذا كان يكون موقف هذا الصبي الصغير، بعد أن قال له معلمه «أنت ولد غبي» ولم يجد أمه بجانبه تعيد إليه الثقة بنفسه ؟! فلولاها لانطفأت شعلته ولانقطع عن التعليم وحب القراءة، ولجرفته الحياة إلى مهنة صغيرة لكسب قوته، ولما سمعنا عن اسم «أديسون» وما قدمه من مخترعات .

وإذا كان وراء كل رجل عظيم امرأة فإن وراء كل امرأة ناجحة رجل ناضج فها هي مدام كوري البولندية جاءت من بولندا من أسرة فقيرة، واجتازت ألمانيا في عربة قذرة من عربات السكة الحديد في الدرجة الرابعة وصلت باريس .. والتقى بها الدكتور «بيير كوري» فأعجب بها وباهتمامها بالعلم، فعرض عليها الزواج وقبلت، وسميت وقتئذ باسم «مدام كوري» وساعدها حتى حصلت على درجتين علميتين، وعملاً سويّاً، وراح يدفعها ويشجعها إلى البحث حتى ظهرت مواهب كثيرة وقدمت قدراً كبيراً من الكفاية والجهد المتصل، وهو من ورائها يمدّها بمزيد من الأمل وحب العمل، حتى قدما للبشرية «الراديو» .

وأي أثر أعظم من الراديو، الذي يحمل لمرضى السرطان والأورام الخبيثة نعمة الأمل والرجاء والشفاء .

حريم السلطان من النوعية الأخرى المثالية

كيف تستطيع المرأة أن تكون عوناً على نجام زوجها

استعرضنا فيما سبق أثر المرأة في حياة مشاهير الرجال .. وما فعله وفاء المرأة وحبها في حياة زوجها .. وكيف مهد هذا الحب وهذا الوفاء لمعيشة سعيدة، وكيف عبد الطريق إلى الهناء والسعادة، وكيف حقق في النهاية النجاح والتفوق والتفوق على الزملاء والأقران.

واستعرضنا أيضاً أمثلة من نساء كانت تغذي الحماسة وتشعلها في نفوس الرجال، فينطلق الواحد منهم في عمله أو رسالته ككتلة متدفقة من الحماسة والنشاط والعمل، فإذا به في النهاية في قمة النجاح أو على مقربة منها .

واستعرضنا أيضاً حياة الرجال الناجحين قبل الزواج، ورأينا كيف استطاعت الزوجات تشجيع أزواجهن للحاق بموكب النجاح أو الوصول إلى قمة المجد، وكيف استطاعت أخريات أن يدفعنهم إلى هاوية الفشل والنسيان .

وعلى ضوء تحليل الدراسات السابقة، وصور الحياة المتباينة أقدم هذا الفصل في هذا الكتاب ليوضح للمرأة العربية الطريق الذي تسلكه لتسعد زوجها وترضع أبناءها وبناتها القيم السليمة، ولكي تقوم الأسر على الإخاء والوفاء والحب والتعاون ولكي يبادل الأزواج زوجاتهم حباً بحب، ووفاء بوفاء، ولكي يحسن الشباب المتطلع إلى المجد اختيار من تشاركه في كفاحه الطويل .

قالت «دليل كارنجي» زوجة العالم النفساني الكبير في معرض الحديث «كيف تمهد الزوجة طريق النجاح لزوجها» فقالت يجب أن نذكر دائماً أن نجاح أزواجنا هو نجاحنا نحن، فنجاحهم لا يعود بالخير عليهم وحدهم، بل يعود علينا وعلى أولادنا .. وفي

مقدورنا أن ننتفع بفترات انشغالهم بأعمال إضافية إذا وقفنا بجانبهم نشجعهم ونشد أزهرهم، مؤكدين ثقتنا وإيماننا بهم وكفائاتهم .

ورأينا مما سبق زوجات وقفن مانعاً دون نجاح أزواجهن، بتدخلهن المستمر في أعمالهم وإثارتهم ضد رؤسائهم وزملائهم، بالشكوى من ضآلة أجورهم التي لا تتناسب مع كثرة أعمالهم مما يضعف حماسهم للعمل، وفي نفس الوقت رأينا زوجات استطعن زيادة فرص تقدم أزواجهن، بلبقاتها وقدرتها على مسايرة الناس وحسن معاملتها لهم . وليس من الصعب على الزوجة أن تروض نفسها على ذلك، فإن ذلك يرفع من قدرها وقدره زوجها بين الناس .

ورأينا بعض الزوجات يعمدن إلى المشاكسة والإثارة واستغلال نقط ضعف أزواجهن للسيطرة عليهم أو لتحقيق مطالب شخصية، ومثل هذا الموقف عواقب وخيمة هدامة. المشاكسة مرض هدام ولكن علاجه ميسور، وذلك بأن تروض الزوجة نفسها ألا تكرر طلب شيء أو الإصرار على شيء معين . وإذا اضطرت إلى ذلك لتؤجله إلى لحظات أخرى، وليكن ذلك بلباقة ومن غير إلحاح، على أن تظهر أمام زوجها دائماً بالابتسامة والبشاشة . ولا مانع بعد أن تهدأ أعصابه وأعصابها من أن تراجع معه ما سبق في هدوء تام، أما الإصرار والمشاكسة فلن تجدي شيئاً، ولنا في صور الزوجات المشاكسات خير منفر منهن .

قد يكون الزوج في بداية حياته عادياً، لكنه لن يلبث بعد عدة سنوات أن يصحب من كبار رجال العلم أو المال أو الصناعة، فهؤلاء لم يبدؤوا حياتهم من القمة، بل وصلوا إليها بالجهد والمثابرة، لذلك يجب على مثل هذه الزوجة أن تكافح معه لكي تكون جديرة بما تصل إليه إذا بلغ هذا الشاب قمة النجاح والشهرة بعد عشرين أو ثلاثين عاماً . يجب على مثل هذه الزوجة الصغيرة أن تخطط وتحتمل وتضحى في أثناء صعود زوجها إلى قمة الشهرة، فعندئذ ستستمتع بشاهاها ولا بد لمن يجني الثمار من أن يجتهد من البداية .. بداية كفاحها مع زوجها المجاهد المكافح .

وبجب أن تحرص الزوجة دائماً على أن تخلق لزوجها جوّاً هادئاً في البيت يساعده على تجديد نشاطه، ومواصلة عمله كل صباح بسرور وأمل .

ومهما يكن الزوج محباً لعمله، فإن أعصابه لا بد أن يصيبها شيء من الإرهاق ووظيفة ربة البيت أن تبدد هذا الإرهاق . والزوج المرهق الأعصاب قد يضايقه النظام الذي تفرضه الزوجة فلا بأس أن تخفف الزوجة من نظامها بعض الوقت، وتذكر أن البيت هو المكان الوحيد الذي يستطيع أن يسترخي فيه وأن يأخذ راحته .

والزوجة هي المسؤولة الأولى عن الجو الذي يظلل البيت ويسود فيه الاطمئنان، ولتعلم أن الجو الهادئ المناسب أو الجو الثائر المشاكس له تأثير كبير في علاقاته وتصرفاته في خارج البيت.

ويعتقد الدكتور بول بويينو مدير معهد لوس أنجلس للعلاقات الزوجية أن البيت ينبغي أن يكون ملجأ للزوج يهرب إليه من مشكلات العمل اليومي، فالحياة ليست نزهة هادئة، فالرجل يكافح طول اليوم، بشكل أو بآخر، حتى إذا حان موعد انصرافه من عمله، استبد به الحنين إلى الراحة والحب ولا بد أن يجدهما في منزله حيث الملاك الذي يرعاه .

والقصة التالية تصور تأثير الزوجة في حياة الزوج .

في أحد مدافن ألمانيا مقبرة لسيدة راحلة كتب عليها زوجة ممتازة . كنت سعيداً بها.. ومدين لها بنجاحي .

هذه العبارة تتمناها كل زوجة بعد وفاتها، لا شك أن هذا الزوج الحزين الذي كتب على قبر زوجته هذه العبارة كان يحمل لها في نفسه أجمل الذكريات الحبيبة الدافئة . كان يتمثل في ذهنه بسماتها المشرقة التي كانت تلقاه بها عند عودته إلى منزله، وكان يتردد في ذاكرته صدى ضحكاتها التي كانت تملأ جوانح نفسه .

وهناك ارتباط بين حب الزوجة ونجاح الزوج، فالخبراء يجمعون على أن الأزواج الذين توفر لهم زوجاتهم السعادة في البيت أوفر حظاً من فرص النجاح في الحياة .

والعجيب أن بعض الزوجات اللاتي شغفن حباً بأزواجهن يجعلن كيف يسعدنهم، نراهم يجتهدون في إتقان زينتتهن إرضاء لأعين أزواجهن، ولكنهن قل أن ينفقن مثل هذا الوقت الذي ينفقنه في زينتهن، في تفكيرهن في الوسائل النفسية التي تدخل الرضا والسعادة على قلوب أزواجهن ونفوسهن، يجب أن تؤكد دائماً أن الزيجات الناجحة تحدث في البيوت التي تصنع فيه الزوجات ما يرضى نفوس الأزواج وقلوبهم وأذواقهم ونفوسهم، أما الاعتماد على إرضاء عين الزوج ومعدته فهذا وحده لا يكفي .

سئل «فردريك وليمسون» ذات مرة، وكان قد شغل منصب مدير السكك الحديدية بنيويورك :

ما سر النجاح في العمل ؟
فأجاب على الفور :

الحماسة للعمل سر عظيم من أسرار النجاح .. إن الفارق في المهارة والقدرة والذكاء بين الناجحين والفاشلين هو فرق غير كبير . ولو أنك أتيت برجلين تساويا في كل شيء، لوجدت أن ذلك الذي يمتاز بالحماسة أقرب إلى بلوغ النجاح من غيره .
الحماسة معناها أن تؤمن بعملك، وأن تحبه مهما يكن نوع هذا العمل .
والرجل الممتلئ حماسة يجد متعة وهواً في عمله مهما كان صعباً .

• وكتب إيمرسون، أحد كبار المفكرين في أمريكا يقول :
«لم يتحقق عمل جليل إلا والحماسة من خلفه» .

فالحماسة هي الصفة الوحيدة التي يشترك فيها الناجحون جميعاً سواء كان يبدأ عملهم في كتابة الصحف أو إدارة شركة أو في نحت التماثيل .

• وضع «وليم ليون فيلبس» وهو من أكبر أستاذة جامعة «ييل» كتاباً أسماه «متعة التعليم» يقول فيه :

التعليم بالنسبة لي أكثر من فن أو وظيفة إنه عاطفة، فإنني أحب أن أعمل، كما يجب أن ينظم الشاعر قصيدته أو كما يحب المغني أن يغني، وكما يحب الفنان أن يرسم .

ثم استطرده يقول :

- إن من أكبر عوامل النجاح في الحياة المقدرة على الاحتفاظ بالحماسة في العمل .. ومن أقدر من الزوجة على أن تغذي الحماسة وتشعلها في نفس الزوج .
- والحماسة تؤتي ثمارها في كل الأعمال . وقد تحدث «سير إدوارد فيكتور أبلتون» العالم الذي نال جائزة نوبل الذي أدت أبحاثه إلى اكتشاف رادار عن الحماسة للعمل فقال :
- «إنني أقدم الحماسة على المقدرة كعامل من عوامل النجاح . فإذا كانت الحماسة على هذا القدر من الأهمية عند كبار الباحثين، فما بالنا أهميتها عند الشباب المبتدئ في البحث والجهد والكفاح» .

قد يقول قائل إن الحماسة تنبعث من أعماق الرجل .. لا أنكر ذلك .. ولكن لا ننكر تأثير بعض الزوجات فالزوجات إما أن تزيد حماسة الرجل التهاباً وقوة، وإما أن تطفئ هذه الشعلة المتقدة، بأن تخلق روح اليأس والهزيمة والمساكنة .

قليلون من الرجال من تتوافر لهم من البداية المعرفة اللازمة للمناصب التي يطمعون في الوصول إليها في المستقبل، ومن ثم فعليهم أن يعتمدوا على أنفسهم في جمع العلم والخبرة والمعرفة .

وكثير من الناجحين الذين بلغوا ذروة النجاح كانوا يعتمدون على ما جنوه من علم ومعرفة خلال أوقات فراغهم على تشجيع زوجاتهم .

- كان «تشارلس فروست» إسكافياً ولكنه استطاع أن يصبح من المبرزين في الرياضيات بتخصيص ساعة واحدة من يومه للدراسة .
- وكان «جون هنتر» تاجر أخشاب وشرع في دراسة التشريح المقارن في أوقات فراغه، حتى أصبح حجة في هذا الميدان .
- ودرس «جيمس وات» الكيمياء والرياضة أثناء عمله بالتجارة فأمكنه أن يخترع المحرك البخاري .

وها هو «جورج ستيفنسون» قد تعلم الرياضيات في أوقات نوباته الليلية وقد ساعده ذلك على اختراع القاطرة البخارية .

والعجيب أن بعض الزوجات اللاتي شغفن حباً بأزواجهن يجعلن كيف يسعدنهم، نراهم يجتهدون في إتقان زينتھن إرضاء لأعين أزواجهن، ولكنھن قل أن ینفقن مثل هذا الوقت الذي ینفقنه في زينتھن، في تفكيرھن في الوسائل النفسية التي تدخل الرضا والسعادة على قلوب أزواجهن ونفوسھن، يجب أن تؤكد دائماً أن الزيجات الناجحة تحدث في البيوت التي تصنع فيه الزوجات ما یرضى نفوس الأزواج وقلوبھم وأذواقھم ونفوسھم، أما الاعتماد على إرضاء عين الزوج ومعدته فهذا وحده لا يكفي .

سئل «فردريك وليمسون» ذات مرة، وكان قد شغل منصب مدير السكك الحديدية بنيويورك :

ما سر النجاح في العمل ؟

فأجاب على الفور :

الحماسة للعمل سر عظیم من أسرار النجاح .. إن الفارق في المهارة والقدرة والذكاء بين الناجحين والفاشلين هو فرق غير كبير . ولو أنك أتيت برجلين تساویا في كل شيء، لوجدت أن ذلك الذي یمتاز بالحماسة أقرب إلى بلوغ النجاح من غيره .

الحماسة معناها أن تؤمن بعملك، وأن تحبه مهما يكن نوع هذا العمل .
والرجل الممتلئ حماسة يجد متعة وهوأ في عمله مهما كان صعباً .

• وكتب إيمرسون، أحد كبار المفكرين في أمريكا يقول :

«لم يتحقق عمل جليل إلا والحماسة من خلفه» .

فالحماسة هي الصفة الوحيدة التي يشترك فيها الناجحون جميعاً سواء كان يبدأ عملهم في كتابة الصحف أو إدارة شركة أو في نحت التماثيل .

• وضع «وليم لیون فیلبس» وهو من أكبر أستاذة جامعة «ییل» كتاباً أسماه «متعة التعليم» يقول فيه :

التعليم بالنسبة لي أكثر من فن أو وظيفة إنه عاطفة، فإنني أحب أن أعمل، كما يجب أن ينظم الشاعر قصيدته أو كما يجب المغني أن يغني، وكما يجب الفنان أن يرسم .

ثم استطرد يقول :

- إن من أكبر عوامل النجاح في الحياة المقدرة على الاحتفاظ بالحماسة في العمل.. ومن أقدر من الزوجة على أن تغذي الحماسة وتشعلها في نفس الزوج .
- والحماسة تؤتي ثمارها في كل الأعمال . وقد تحدث «سير إدوارد فيكتور أبلتون» العالم الذي نال جائزة نوبل الذي أدت أبحاثه إلى اكتشاف رادار عن الحماسة للعمل فقال : «إنني أقدم الحماسة على المقدرة كعامل من عوامل النجاح . فإذا كانت الحماسة على هذا القدر من الأهمية عند كبار الباحثين، فما بالنا أهميتها عند الشباب المبتدئ في البحث والجهد والكفاح» .

قد يقول قائل إن الحماسة تنبعث من أعماق الرجل .. لا أنكر ذلك .. ولكن لا ننكر تأثير بعض الزوجات فالزوجات إما أن تزيد حماسة الرجل التهاباً وقوة، وإما أن تطفئ هذه الشعلة المتقدة، بأن تخلق روح اليأس والهزيمة والمساكسة .

قليلون من الرجال من تتوافر لهم من البداية المعرفة اللازمة للمناصب التي يطمعون في الوصول إليها في المستقبل، ومن ثم فعليهم أن يعتمدوا على أنفسهم في جمع العلم والخبرة والمعرفة .

وكثير من الناجحين الذين بلغوا ذروة النجاح كانوا يعتمدون على ما جنوه من علم ومعرفة خلال أوقات فراغهم على تشجيع زوجاتهم .

- كان «تشارلس فروست» إسكافياً ولكنه استطاع أن يصبح من المبرزين في الرياضيات بتخصيص ساعة واحدة من يومه للدراسة .
- وكان «جون هنتر» تاجر أخشاب وشرع في دراسة التشريح المقارن في أوقات فراغه، حتى أصبح حجة في هذا الميدان .
- ودرس «جيمس وات» الكيمياء والرياضة أثناء عمله بالتجارة فأمكنه أن يخترع المحرك البخاري .

وها هو «جورج ستيفنسون» قد تعلم الرياضيات في أوقات نوباته الليلية وقد ساعده ذلك على اختراع القاطرة البخارية .

ولو أن هؤلاء لم يجدوا تشجيعاً من زوجاتهم لما نجحوا .

كم كانت تخسر البشرية والإنسانية لو أن هؤلاء الرجال قنعوا بأعمالهم المتواضعة ولم يجدوا الحماسة التي تدفعهم إلى الاستزادة من العلم والمعرفة .

هل كان يستطيع هؤلاء أن يستزيدوا بالعلم، لو أن لهم زوجات مشاكسات لا يرغبن في تشجيع أزواجهن ولا يرغبن في خروج الزوج من بيته ليعمل لمستقبل أيامه .

على الزوجة عموماً أن تعد نفسها للاستغناء عن زوجها بضع ساعات، يرفع بها قدره، وعليها أن تلائم بين نفسها وبين ما يتركه غياب زوجها من إحساس بالوحشة .

وعلى الزوجات أن يتأملن حولهن ليرين أن الرجال الناجحين لم يولدوا ناجحين، وإنما كسبوا البراعة والقدرة والخبرة التي دفعتهم إلى طريق النجاح اكتساباً . ولو كان الزوج قد بلغ النجاح والخبرة قبل الزواج، فهو في حاجة إلى مزيد منها، حتى يصل إلى قمة هذا النجاح، ولن يكون ذلك إلا بزوجة تضحى وتشجع الزوج للوصول إلى هذه القمة .

وخير ما تصنعه الزوجة لتضرب عصفورين بحجر واحد، أي أن تفسح لزوجها مجال الدراسة، وتقضي على أسباب الوحدة الوحشة؟! .. خير ما تصنعه هو أن تستغل هي نفسها هذه الفرصة للاستزادة من العلم والثقافة . فقد تستطيع إذا سمحت لها الظروف المالية أن تلتحق ببرنامج ليلي تدرس فيه شيئاً يمتعها ويوسع أفق ثقافتها، أو تدرس ما يدرسه زوجها لتكون أقدر على فهم عمله، أو تدرس شيئاً مقارباً أو مكملًا لما يدرسه الزوج .

من هذه الدراسة وهذا التحليل كله لاحظت حقيقة ملموسة وهي أن الزوجات اللاتي استطعن خلق الجو المناسب والبيت الهادئ لأزواجهن، واللاتي نجحن في تربية أولادهن، واللاتي استطعن إثارة الحماسة للعمل والخلق والإبداع في نفوس أزواجهن، لم يستطعن ذلك إلا على أساس الحب الناضج المتبادل .

ووجدنا أيضاً أن الأزواج السعداء الناجحين أكثر عدداً في الحالات التي كان فيها

حب الزوجات قوياً ضماناً من عدد الحالات التي كان فيها حب الأزواج أقوى، لأن المرأة بوجه عام عاطفية لا تعرف الاعتدال في الحب والتضحية والعطاء، فهي عندما تحب تعطي بلا حدود .. وإذا ضعف هذا الحب تبدد هذا العطاء سريعاً . إذن حب الزوجة أمر ضروري .

وهذا يتفق كثيراً مع رأي شكسبير الكاتب المسرحي الإنجليزي الكبير عندما قال :

لا شيء أن تحب .. وبعض الشيء أن تحب .. وكل الشيء أن تُحِب وتُحَب .

ولهذا أقول للشباب الصاعد على سلم النجاح يجب أن يختار شريكة الحياة على أساس الحب المتبادل، لا على أساس حب من جانب واحد . وقد رأينا في حياتنا أمثلة كثيرة تؤكد ذلك .

وليس المقصود هنا حب المظهر، بل حب الفكر للفكر، وحب الروح للروح، وجانب هذا الحب يجب أن تكون الزوجات على قدر من الثقافة والحكمة .

وختاماً أيها الشباب، بعد أن عرضنا أثر المرأة في حياة رجال السياسة والحرب وفي حياة العلماء والأدباء ولفنانين، لا بد أنكم لمستم كيف وقفت الزوجات والشابات الناضجات بجانب الأزواج في ساعات الضيق والمحن والشدائد سنداً وعوناً، تشد كل واحدة منهن أزر شريك حياتها، تطارد منه كل ملل وبأس، وتفتح أمامه باب الأمل على مصراعيه، حتى يصلها معها إلى قمة النجاح والهدف المنشود . ولهذا نأمل أن تكون هذه الصور الناجحة المشرفة قدوة لفتياتنا وزوجاتنا حتى تنجح الأسرة وتسعد . والأسرة السعيدة الناجحة هي بدورها قدوة حسنة لأطفالها وللمجتمع كله .

حريم السلطان .. في عالم السياسة

النساء يحكمن العالم ! .. حقيقة

«مارجريت تاتشر» رئيسة الوزراء البريطانية السابقة :
قالت «في السياسة إذا أردت شيئاً يقال أسأل رجلاً، وإذا أردت شيئاً يعمل
أسأل امرأة»..

فالرجل في عالم السياسة يقول أما المرأة فإنها تنفذ .. وقد يقتصر دورها على التحريض
أو التخطيط لكن في نهاية الأمر تتحول رغبتها إلى أوامر .

وأذكر أن عضوات في إحدى الجمعيات النسائية في إنجلترا خلال فترة حكومة
«ونستون تشرشل» قد ذهبن إليه وطلبن منه المزيد من الحقوق والامتيازات الضرورية
للمرأة لكي يصبح لها صوت مسموع .. فضحك «تشرشل» وقال لأعضاء هذه الجمعية:
«إن المرأة تحكم بالفعل وليست بحاجة إلى قرارات أو امتيازات فالمرأة تدفع الرجل إلى
الطريق الذي تريده».. .

ثم استطرد «تشرشل» ساخراً وهو يقول : «إن ابني هو الذي يحكم الإمبراطورية
البريطانية .. فابني يحكم أمه، وأمه والتي هي زوجتي هي أيضاً صاحبة الكلمة العليا في
البيت والحكم .. ما الذي تحتاجه المرأة بعد ذلك؟» ..

حقاً .. ما الذي تحتاجه المرأة بعد ذلك ؟ .. هل يستطيع رجل أن يصمد أمام ما تتمتع
به المرأة من أسلحة، بداية من دموع التماسيح وحتى شهوة الجنس مروراً بالكلمة الناعمة
والهمسة الحاملة ..

قديماً كنا نتبادل نكتة كثيراً ما أضحكتنا وكانت النكتة .. إن إحدى الشركات الكبرى
أقامت مسابقة لاختيار رجل للعلاقات العامة وطلبت في المتقدم شرطاً واحداً أن يكون

قوي الشخصية وفي المقابل طلبت من كل متقدم أن يأتي ومعه زوجته .. وبالفعل تقدم للعمل كثيرون وكان مع كل منهم زوجته كطلب الشركة، وعندما تجمع كل هؤلاء وقف مدير الشركة وطلب من الجميع طلباً واحداً وهو أن يقف كل الرجال الذين يأترون بأمر زوجاتهم في الجانب الأيمن بينما يتجه إلى الجانب الأيسر هؤلاء الذين لا يأترون بأمر زوجاتهم ..

ودهش مدير الشركة عندما وجد أن كل الرجال ما عدا واحداً فقط قد اتجهوا إلى الجانب الأيمن فهم لا ينكرون أنهم يسرون كيفما تريد منهم الزوجات ما عدا واحداً توجه إلى الجانب الأيسر .. فسر المدير وقال له : أنت بلا شك رجل قوي الشخصية وهذا ما نبحت عنه .. ثم سأله :

لكن لماذا اتجهت إلى هذا الجانب، ألا تخشى زوجتك ؟

فأجاب الرجل بجدية شديدة : إن زوجتي يا سيدي هي التي طلبت مني أن أقف في هذا الجانب .

ربما كان هذا واقعاً لا مهرب منه .. فالمرأة تحكم العالم فعلاً سواء كان هذا مباشرة من خلال وجودها في سدة الحكم أو من خلال رجل تحركه بأناملها وكأنه أحد دميات مسرح العرائس ..

لقد قال «سوفوكليس» أحد كتاب الدراما الإغريقية القديمة : «إذا جعلت المرأة مساوية للرجل فإنها تصبح أفضل منه» .. وبالفعل تحولت هذه المقولة إلى واقع ملموس على يد نساء في العصر القديم والحديث مثل شجرة الدر، وزنوبيا، ومارجريت تاتشر، وسيريافو باندراناكيه، ومنيوليتاري شامورو ..

وكثيراً ما كان الزعيم الصيني الراحل «ماوتسي تونج» يقول : «إن النساء يملكن نصف السماء..» أي أنهن يملكن النصف في كل شيء حتى في قرار الحكم، لكن زوجته «جيانج كينج» كان لها رأي آخر ..

لقد كانت هذه السيدة الشريرة تؤمن بأن المرأة تملك كل السماء أما الرجل فهو تابع

لها أو في أحسن الأحوال هو واجهة لكل ما يصدر عن مؤسسة الحكم .. ليس أكثر من ذلك ..

كانت «جيانج كينج» ممثلة سينمائية ومسرحية وكانت ابنة امرأة غانية يعرفها الرجال خاصة الأثرياء منهم .. ولقد التحقت «جيانج» بالحزب الشيوعي ودرست ماركس ولينين وتدربت تدريباً عسكرياً لكنها وضعت عينيها صوب هدف واحد «ماوتسي تونج» نفسه ومن ثم السلطة .. وحتى تتمكن من تحقيق ذلك نقلت نفسها إلى معسكره، ثم أجبرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي على التوقيع لها حتى يمكنها من الزواج من الزعيم وذلك على أساس أنها هجرت السياسة إلى الأبد ..

لكنها ما لبثت أن تسللت إلى السياسة من جديد، لكن هذه المرة كان تسللها من الأبواب الخلفية، فقد بدأت تهتم بالفن والأدب ومن ثم أصبحت المستشار الثقافي لجيش التحرير الشعبي في عام ١٩٦٦ ..

ومن خلال مركزها الجديد أخذت في ممارسة دور جديد في السلطة من خلال فكرة ما يجب وما لا يجب - وهو ما عرف بـ «الثورة الثقافية» - وهكذا مكنها من الحصول على سلطة شخصية واسعة، فقد أصبحت المتحدث الرسمي باسم «ماوتسي تونج» باعتبارها الحارسة على فكره الثوري .. ثم أكدت سلطتها بالتحاقها بالمكتب السياسي للحزب الشيوعي وأصبحت تتدخل في كل كبيرة وصغيرة تخص الدولة .

لكن بعد أن توفي «ماوتسي تونج» عام ١٩٧٦ وكان لم يمر على وفاته سوى عشرة أيام حتى تم القبض على الأرملة الشريرة «جيانج كينج» وأودعت السجن فيما عرف بقضية عصاة الأربعة حيث تم اتهامها بتهمة متعددة تتراوح بين تخطيط سلطة الحكومة واستخدام العنف ضد الأفراد، وكامرأة شريرة مدمرة فقد استغلت سلطة ليست ملكها ولا تصلح لها، وقد أصدرت المحكمة حكمها بإعدام «جينج كينج» .. لقد فقدت هذه المرأة كل مقومات بقائها في السلطة لأن الزعيم الذي كانت تستمد قوتها واستمرارها من خلاله قد مات، وقبل رحيل الزعيم رحلت المعادلة التي اعتمدت عليها «جيانج كينج» وهي مبادلة الجنس بالسلطة ..

تقول الدكتورة «روزليند ميلز» في كتابها «المرأة والسلطة»: إن القوة والسلطة حقيقة من حقائق الحياة .. لكنها حقيقة ينكرها الرجل عن المرأة .. فهم يتصورون أن السلطة تتعارض مع المرأة ولا تناسب طبيعتها .. لذلك حرموها منها طويلاً .. وأصبح على النساء أن يكتشفن هذه المنطقة المجهولة ..

لقد أظهرت الأيام تجارب عديدة مع نساء حكمن العالم من شرقه إلى غربه، وما أكثر الأسماء .. «أنديرا غاندي» في الهند، و«سيريفو باندرانايكه» في سيلان، و«جيهان السادات» في مصر، و«مارجريت تاتشر» في بريطانيا، و«إيزابيل بيرون» في الأرجنتين، و«فيولتيادي شامورو» في «نيكاراجوا» و«بنازير بوتو» في باكستان، و«كورازون أكينو» في الفلبين ..

هذه عينة من سيدات تسلمن بالفعل على مقدرات الحكم في العالم، منهن من تغلغلن في شئون الحكم ومن خلفهن حزب مؤيد يعمل جاهداً على تجميع كل الأوراق في أيديهن، ومنهن من كن يحكمن من خلال رجال الحكم وكن يعتمدن في سلطتهن على مؤسسة الرئاسة نفسها .

ولا نستطيع القول بأن نساء الحكم أو السلطة قد سيطرن على مقاليد الأمور سواء كانت سياسية أو غير ذلك من الأنشطة الأخرى، لم يسيطرن بها يتمتعن به من جاذبية جنسية فحسب بل إن بعضهن كان يملك قوة الشخصية والقدرة على الحسم .. ويمكن أن نصنف امرأة مثل «جولدا مائير» أو «مارجريت تاتشر» أو «جيهان السادات» بأنهن من هؤلاء اللاتي اعتمدن على طموحهن الشديد للسلطة مع ما يتمتعن به من عزيمة وشخصية مهيمنة ..

وبنفس النظرة يمكن النظر إلى امرأة مثل «إيزابيل بيرون» أو «إميليدا ماركوس» أو الشهبانو «فرح ديبا» بأنهن حكمن من خلال ما لديهن من جاذبية جنسية فضلاً عن طموح للسيطرة والسلطة ليس له حدود .. لقد قالت الشهبانو «فرح ديبا» بعد أن فقد شاه إيران الحكم وتم نفيه خارج البلاد .. قالت : «عيب زوجي الشاه أنه لم تكن أذنه صاغية في الفراش إلى نصائحي، فقد كنت الوحيدة القادرة على الإبقاء على كرسي الطاووس»!!

هذا إذن مقبول .. لكن أن يصل الأمر إلى أن تضرب زوجة الرئيس زوجها .. ومن؟ ..
رئيس أكبر دولة في العالم .. هذا هو الغريب والمثير ..

تشير تقارير المخابرات المركزية أن «كليتون» يتلقى بين يوم وآخر علقه - وأحياناً
علقتين - على يد زوجته .. وأن المخابرات المركزية اضطرت لإنشاء فرع سري من فرع
«سي-آي-إيه» يضم رجالاً أقوياء مدربين لكي يتدخلوا في الوقت المناسب لإنقاذ
الرئيس الغلبان من يد زوجته الشرسة المفترية .. ويهدف تدخل المخابرات إلى حماية هيبة
الرئيس الوديع، وبالتالي هيبة أكبر دول العالم ..

وتقول تقارير المخابرات إن الرئيس الأمريكي رغم عنف ما يتلقاه من ضرب على
يد زوجته إلا أنه يتحمل كل ذلك صاغراً دون أن يصرخ أو يتأوه .. فهو يتلقى «العلقة»
دون أن يبدو عليه أي ألم لأنه - ببساطة - تعود حتى تحول الأمر عنده إلى إدمان!.

الحقيقة أن نشر هذه التقارير قد أثار ضجة كبيرة تحولت إلى فضيحة في الشارع
الأمريكي .. وتساءل الناس : كيف لدولة أصبح العالم كله في قبضتها يكون رئيسها بهذا
الضعف والخضوع الذي يصل إلى الذل؟ .. قال البعض : إنها الديمقراطية التي تسمح
بالدخول إلى حجرة نوم «كليتون» وتعرض على الناس بعد ذلك ما يدور بين الرئيس
وزوجته في خلوتهم الخاصة ..

أما بعض الخبثاء فإنهم يقولون : إن الرئيس يتحمل «علق» زوجته لأنه يدرك تماماً
أن منصب الرئيس في الولايات المتحدة هو منصب مؤقت لن يدوم طويلاً، وبعد فترة
لن تزيد عن ٨ سنوات سوف يعود سياسياً مغموراً بينما زوجته تظل على بريقتها ولمعناها
كأكبر محامية في أميركا .. وهكذا عليه أن يتحمل السبت حتى يجد الأحد عندما يجد
نفسه خارج البيت الأبيض .. منطوق غريب ولا شك! ..

من «كليوباترا» إلى «إيزابيلا بيرون»

الجنس في خرملة السلطة

قالت «جيرالدين فيرارو» نائبة مرشح الرئاسة الأمريكية «والتر موندل» عام ١٩٨٤ : «عندي عقل وعندي رحم وأنا استعمل الإثنين!!» .. إن هذه العبارة تعبير بسيط عما يعتلج في نفسية أي امرأة لديها طموح شديد للسلطة، فهي تدرك بالعقل ما لا تدركه بالجنس، وتحصل من خلال جاذبيتها الجنسية عما يصعب عليها الحصول عليه بالعقل وقوة الشخصية .. ونطالع في التاريخ - قديمه وحدثه - أمثلة صارخة لهذا الاستعمال المزدوج .. قوة العقل ونداء الجنس .. وكله في سبيل الحكم والسلطة يهون ..

«كليوباترا» .. امرأة طاغية الجمال شديدة الذكاء .. تمكنت بما وهبها الله من فتنة وجاذبية جنسية أن تصل إلى حكم العالم القديم، إلا أن الأقدار عاندتها فخسرت كل شيء ..

لقد انحدرت «كليوباترا» من أسرة البطالسة التي استولت على حكم مصر بعد وفاة الإسكندر الأكبر .. وقد تولت «كليوباترا» عرش مصر بعد وفاة أبيها وكان العرش مناصفة بينها وبين أخيها .. كانت عندئذ لا تزال في السادسة عشرة من عمرها، ورغم صغر سنها إلا أنها كانت تتفجر أنوثة وجمالاً وكان لديها طموح شديد للسلطة يغذيه ما كانت تتمتع به من ذكاء وثقافة واسعة ..

استخدمت «كليوباترا» الحيلة والدهاء للاستيلاء على قلب «يوليوس قيصر» فقد دخلت إلى قصره ملفوفة في سجادة وما أن رآها حتى انبهر بجمالها وما لديها من جاذبية جنسية، فتزوجها وأعادها إلى الحكم وعمل على قتل أخيها حتى تنفرد بحكم مصر وتظل في الحكم عشرين عاماً في حماية القيصر الذي أنجب منها طفله «قيصرون» ..

كانت «كليوباترا» تحلم بحكم العالم من خلال تسلطها على قلب القيصر الذي يحكم الرمبراطورية الرومانية، لكن القيصر قتل، ولم يكن أمام الملكة الجميلة سوى البحث عن خليفته القوي فكان القائد الروماني «مارك أنطونيو» الذي أوقعته بسرعة في حبها وأقامت معه علاقات غرامية فجعلها ملكة على مصر وقبرص وليبيا وسوريا ..

كان لانغماس «أنطونيو» في ملذاته الجنسية مع «كليوباترا» أثر سيئ عند القيصر الجديد «اكتافيوس» والذي كان في نفس الوقت الأخ لزوجة «أنطونيو» الرومانية، فما كان من «اكتافيوس» إلا أن أعد جيشاً وذهب لملاقاة الحبيين في معركة «أكتيوم» وفيها هُزمت «كليوباترا» وحليفها حبيب القلب «أنطونيو» .. ولم يجد كلاهما مفرأ أمامه سوى الانتحار لتنتهي هذه الصفحة من التاريخ .. صفحة تفوح منها رائحة الجنس والحروب والمؤامرات ولا تخلو بالطبع من الحب الممزوج بالخيانة .. لكن هذا كله لم يكن سوى رغبة في السلطة والحكم ..

وإذا كانت «كليوباترا» قد حكمت مصر عشرين عاماً فإن ملكة أخرى تماثلها جمالاً وذكاء وجاذبية لم تحكم مصر سوى ثمانين يوماً فقط .. إنها الملكة «شجرة الدر» .. كانت «شجرة الدر» زوجة ملك مصر «نجم الدين أيوب»، وهو الذي منحها هذا الاسم لما كانت تتمتع به من جمال أخاذ وفتنة طاغية ..

استطاعت «شجرة الدر» أن تقود الجيوش وتقوم على مصالح الأمة أثناء حملة الصليبيين على مصر بقيادة ملك فرنسا «لويس التاسع» .. فقد حدث أن توفي الملك «نجم الدين أيوب» عام ١٢٤٩ وكان الصليبيون قد احتلوا مدينة دمياط ..

عندما توفي الملك تكتمت «شجرة الدر» خبر موته وأخذت تصدر الأوامر إلى الجيوش موقعة بخاتم الملك وكأنه ما يزال حياً يرزق ..

وقد تمكنت «شجرة الدر» بالفعل من دحر الصليبيين في معركة المنصورة وفيها تم أسر قائد الصليبيين الملك «لويس التاسع» ..

بعد هزيمة الصليبيين بويعت «شجرة الدر» ملكة على مصر ولكن هذا لم يرض

أمير المؤمنين «المستعصم بالله» وكانت «شجرة الدر» قد قضت في حكم مصر ثمانين يوماً.. كان خطاب أمير المؤمنين ينطوي على قدر كبير من السخرية فقد طالب المصريين بأن يحكمهم رجل وإذا لم يكن في مصر رجل لهذه المهمة فهو على استعداد لإرسال هذا الرجل لهم ..

لم يكن أمام «شجرة الدر» سوى الإذعان لأمر أمير المؤمنين، لكنها في الوقت نفسه لم تكن لتسلم السلطة بسهولة .. كان أمامها سلاحها الذي لا يخذلها .. جماها وما تتمتع به من فتنة وجاذبية ..

وهكذا لم يمض وقت طويل حتى أوقعت قائد جند المماليك «عزالدين أيبك» في غرامها، وكان «أيبك» متزوجاً من امرأة قبل «شجرة الدر» كما تزوج من ابنة أمير الموصل بعد اقترانه بـ «شجرة الدر» .

كل هذا أثار حفيظة «شجرة الدر» وهي المرأة الجميلة الساحرة التي تنافس على حبها الرجال .. لقد اعتبرت ما أقدم عليه «عز الدين أيبك» إهانة لأنوثتها فحرضت على قتله..

وعندما علمت زوجة «أيبك» الأولى بمقتله بتحريض من «شجرة الدر» دبرت حيلة لقتلها، وبالفعل حرضت الجواري على قتلها بضربها بالقباقيب ثم أقامت حفلة كبيرة وزعت فيها الحلوى ومنها الحلوى المعروفة باسمها حتى الآن «أم علي» وقد قيل إن أول طبق صنعته من هذه الحلوى زينته بحلمتي ثدي «شجرة الدر»...!!

هناك مثل إنجليزي يقول : «أجمل امرأة في العالم لا يمكنها أن تمنحك أكثر مما لديها جمالاً..» فقد يكون هذا المثل صحيحاً في حالات كثيرة لكنه بالقطع ليس صحيحاً في حالة «إيزابيلا بيرون» زوجة الرئيس الأرجنتيني الراحل «خوان بيرون» .. هذا الرجل الذي أحب الراقصات فتزوج منهن اثنتين .. كانت «إيفا بيرون» زوجته الثانية .. راقصة، كما كانت «إيزابيلا» - الزوجة الثالثة - راقصة أيضاً ..

«إيزابيلا بيرون» أول رئيسة في أميركا هي الراقصة التي طالما رقصت في الملاهي

بين رنين الكؤوس وضجيجات السكارى .. وهي رئيسة الحزب الحاكم التي تعرضت للاغتيال بقنبلة ترن ٤٥٠ جراماً وضعت في طائرتها ونجت منها .. لقد كانت «إيزابيلا» جميلة ومغرية تعلمت كيف تراقص قلوب الرجال وتلهو بأعصابهم وهم يراقبون جسدها الجميل يترقص أمامهم .. كيف أصبحت رئيسة للأرجنتين؟

عندما تقابل «خوان بيرون» مع «إيزابيلا» كان الفارق بينهما خمسة وثلاثين سنة .. كان هو في خريف العمر بينما كانت هي زهرة يانعة يسيل لعطره اللعاب .. كان «بيرون» كسير القلب لأنه كان مطروداً من السلطة وكان حزيناً لفقده حبيبة قلبه ومعبودة الجماهير «إيفا بيرون» التي ماتت بالسرطان عام ١٩٥٢ م ..

كان هذا حال «خوان بيرون» عندما رأى «إيزابيلا» وهي ترقص في ملهى «الأرض السعيدة» في بنما .. لم يكد «بيرون» يرى جمالها وما تتمتع به من جاذبية جنسية حتى نسى حبيبته الراحلة «إيفا» وهام وراءها رغبة وحباً ..

كانت «إيزابيلا» عندئذ في الخامسة والعشرين من عمرها بينما كان «بيرون» في الستين، وكان قد قضى في المنفى أكثر من ١٨ سنة .. قبل أن يعلن الزواج منها رسمياً عام ١٩٦١، وقد قضى معها خمس سنوات احتسى معا كؤوس اللذة وعندما تزوجها رفعها معه إلى السلطة فجعلها نائبة له في الحكم والحزب .. لم تكن «إيزابيلا» تملك حتى وقت زواجها من «بيرون» أي مواهب تؤهلها لهذا المنصب اللهم إلا جمالها وما تتمتع به من مفاتن وهذا هو الثمن الذي دفعته لـ «بيرون» حتى تكون بجانبه ..

اسمها الحقيقي «ماريا استيلا مارتينز كارتاس» ولدت عام ١٩٣١ في لاريوجا وكان لها أربع أخوات إحداهن كانت تدعى «إيزابيلا» وهو الاسم الذي أطلقته على نفسها عندما احترفت الرقص والذي رفعها بعد ذلك إلى كرسي الرئاسة .. في صغرها لم تبد أي اهتمام بالدراسة حتى توقف تعليمها عند الصف السادس .. وكان هذا هو كل ما تحمله من مؤهلات ..

لم تكن «إيزابيلا» هي المرأة التي يرضى عنها الشعب لتكون نائبة لرئيس الجمهورية ..

وكان الشعب يقدس ذكرى «إيفا» الزوجة الثانية لـ «بيرون» والتي جعلت الشعب يحبها لما قامت به من أعمال وما زرعت في وجدان الجماهير من أفكار احتواها كتابها «غاية حياتي» .. وكان كل أرجنتيني لا يستطيع أن ينسى عبارتها الرائعة التي تقول فيها : «كل طريق يفتح أمامي كنت أسلكه بما أوتيت من عزم علي أساعد قضية الشعب» ..

عندما اختار «بيرون» زوجته «إيزابيلا» نائبة له في رئاسة الجمهورية تحت ضغط غرامه لها .. قالت «إيزابيلا» مخاطبة الشعب : «لا أستطيع أن أعدكم بالكثير لست سوى تلميذة له» .. لكن الجماهير الغاضبة لم تتقبل هذا الأمر وهي تعقد مقارنة بين «إيزابيلا و «إيفا» .. بعد تسعة أشهر من اختيار «بيرون» لها نائبة له، سقط فريسة مرض قاتل قضى عليه، وظهرت «إيزابيلا» دامعة على شاشة التلفزيون وهي تقول : «إن القائد توفي بنوبة قلبية» ..

كانت «إيزابيلا» خلال السنوات التي قضتها بجوار الرئيس «خوان بيرون» قد اكتسبت خبرة سياسية كبيرة وأدركت بالقطع أن الجمال والاعتماد على المفاتن الجنسية لن يصلحها الآن للحفاظ على السلطة .. لقد استطاعت بقوة شخصيتها وخبرتها أن تحصل على دعم المعارضة والبيرونية معاً وأصبحت الرئيسة الرسمية للأرجنتين عام ١٩٧٤ .. لكن بعد سنتين فقط أسقطت من الحكم بانقلاب عسكري أطاح بحكمها وذهبت إلى المنفى الجاهز في مدريد ..

المرأة عندما تتحول إلى رجل

إذن فقد كان البعض من النساء يجد طريقة للسلطة من خلال الجسد والرغبة الجنسية.. إنها نوع من سلطة الغواني والراقصات .. وهي تعتمد على ضعف الرجل - أي رجل - أمام جمال الأنثى ومفاتنها، وعندما يصبح لزاماً عليه أن يسلم جزءاً من سلطته أو كل سلطاته إلى المرأة التي لعبت بأوتار اللذة عنده .. ورجل السلطة عندئذ لا يهمه قيمة ما تنازل عنه فهو كالمخمور يشعر بأنه يملك الدنيا ويسيطر عليها والحقيقة أنه لا يستطيع حتى السيطرة على نفسه .. فالطرف الآخر يقوم عنه بكل شيء ..

لكن على النقيض وفي المقابل نجد نساء حكمن وسيطرن من خلال ما تتمتع به من شخصية جبارة وسلوك «رجالي» لا صلة للأنوثة به .. من هؤلاء نجد «مارجريت تاتشر».. و«سيرمافو باندرنيكا» و«جولدا مائير» و«كورازون أكينو» و«فيوليتاري شامورو» .. إن هؤلاء حكمن بقبضة حديدية وربما كن تأكيداً لعبارة قديمة قالها «سلوفوكليس»: «إذا جعلت المرأة مساوية للرجل فإنها تصبح أفضل منه» ..

«مارجريت تاتشر» رئيسة وزراء بريطانيا السابقة، وهي أول سيدة تصبح في هذا المنصب خلال ٢٠٠٠ سنة من تاريخ هذه الدولة .. «مارجريت تاتشر»

هتلر : «إن النساء أعظم قوة كامنة في حزبنا السياسي»

الحقيقة البسيطة التي تعد بمثابة بند رئيسي في كل دساتير المخابرات في العالم أن الرجل - مهما كان مركزه - ضعيف أمام غرائزه .. وأن سلاح الجنس يصعب مقاومته خاصة إذا كانت صاحبتة جميلة وجذابة ومتمرسة على فنون الإغراء .. لقد أدرك الزعيم الألماني «أدولف هتلر» هذه الحقيقة جيداً .. بل إنه هو نفسه وقع في عشق «إيفا براون» التي لازمتها وكان لها تأثير عليه حتى انتحرت معه قبيل ساعات من انهيار الرايخ الثالث وهزيمة ألمانيا .. لقد قال «هتلر» عن قوة المرأة وتأثيرها من خلال ما تتمتع به من إغراء وجاذبية جنسية : «إن المرأة الألمانية أنفع بكثير من الرجل في عالم التجسس، وإنني شديد الإعجاب بذكائهن وخططهن النسائية نظراً لتفوقهن بسلاح الإغراء وقدرتهن الهائلة على وضع الطعم القاتل للفريسة في جو هادئ .. حقيقة إن النساء أعظم قوة كامنة في حزبنا السياسي» ..

ولم يمض وقت طويل حتى تحول كلام القائد النازي إلى عمل جرى تنفيذه على أرض الواقع، فقد أمر «رينهارد هيدربنج» رئيس المخابرات الألمانية بتكوين شبكة من فتيات ألمانيات يتمتعن بالجمال والولاء وقام بتوزيعهن على علب الليل وتكليف بعضهن بعمليات محددة كان لها تأثير خطير في أحداث الحرب العالمية الثانية .

ولعل الشبكة التي كونتها «كي مي شميدت» مع بداية عام ١٩٣٩ بالتعاون مع رئيس المخابرات الألمانية كانت الأخطر فيما قدمت للزعيم النازي من خدمات ومعلومات .. فقد كشفت شبكة «كي مي شميدت» عن عمليات تهريب أموال اليهود إلى خارج ألمانيا، كما كشفت عن الكثير من القوى المعارضة لسياسات «هتلر» من المدنيين والعسكريين وكان أغلب هؤلاء من الرتب العليا بالجيش ..

كان زبائن «كي مي شميدت» يكشفون ما لديهم من معلومات وأسرار وهم في

حالة تخدير جنسي بين أحضان عاهرات مدربات جيداً وفي غرف متعة مجهزة بأحدث ميكروفونات التسجيل ..

إن عزيمة الرجل تضعف وتذوب أمام وهج اللذة وبين أحضان فانتات مدربات يعرفن سبيلهن إلى قلوب الرجال وعقولهم .. هذه الحقيقة هي بمثابة دستور لجميع المخابرات في العالم .. فسلح الجنس هو الأمضى في هذا الطريق ..

وإذا كان المثل الدارج يقول : «إن المرأة لعبتها الرجل» .. فإن أجهزة المخابرات تعرف ما لهذا القول من مصداقية حقيقية ..

وفي ملفات المخابرات نجد شبكات للجنس كانت تبيع اللذة من أجل الحصول على الأسرار والمعلومات .. وكان الحصاد لهذه الشبكات خطيراً ومريعاً وسبب صدمة عنيفة وقاتلة للخصم ..

ففي أوائل الخمسينيات وأوائل السبعينيات تكون في ألمانيا الغربية - وقت ذلك - شبكتان تعملان لصالح المخابرات السوفيتية (K.G.B) .. كانت كل منهما عبارة عن مركز للتدليك حيث تقوم بالخدمة فتيات من أجل بنات أوروبا .. لقد كان ظاهره أنه مركز للتدليك لكن الحقيقة أنه ماخور يقدم الجنس اللذيذ بين أحضان جميلات حيث تنساب الموسيقى الهادئة والأضواء الحمراء، وكان الزبون - وهو عادة شخصية بارزة يفضي بكل ما عنده بينما هو مخدر باللذة والمتعة ..

كانت الشبكة الأولى قد أنشأتها «ليديا كوزازوفا» في أوائل الخمسينيات وقد كان مركز التدليك الفاخر الذي أقامته في فرانكفورت مقصد كل رجال الدولة وضباط الجيش والدبلوماسيين، وذلك للحصول على المتعة وممارسة الجنس مع فتيات اختارتهن «ليديا» بعناية شديدة .. وكانت «ليديا» لا تقوم فقط بالحصول على المعلومات من زبائنها المهمين بل كانت تصورهم في أوضاع جنسية فاضحة وتقدم الصور إلى رجال الـ (K.G.B) لابتزازهم أو تجنيدهم .

وكان من أبرز هؤلاء الزبائن الرقيب «جلين روهرر» الذي كان يعمل على جهاز

كشف الكذب لدى وكالة المخابرات الأميركية والذي بعد تجنيده من خلال الضغط عليه بالصورة الجنسية التي أخذت له في ماخور «ليديا» أصبح متعاوناً مع المخابرات السوفيتية، وكشف لها أسماء الأشخاص المتعاونين مع المخابرات الأميركية في أوروبا حتى قيل بحق إن هذه السنوات كانت بمثابة مجزرة لعملاء الـ (C.I.A) ..

أما الشبكة الثانية فقد أقامت عملية المخابرات السوفيتية مدام «ماريا» وكانت هي الأخرى عبارة عن مركز فخم للتدليك أقيم في بون، وكان المركز ملاصقاً لمركز شرطة المدينة في إحدى ضواحي بون الرائعة وبالتحديد في مدينة «بارجوسبرج» .. استطاعت «مارتا» استقطاب العديد من الشخصيات الذين لم يخفوا شيئاً تحت وهج اللذة وسلطان الجنس، وكانت المعلومات والأسرار تنقل مباشرة إلى موسكو . وهكذا على مدار ثلاث سنوات تمكن مركز «مارتا» من الحصول على معلومات وأسرار خطيرة وقعت كالصاعقة على رجال المخابرات الأميركية عند معرفتهم بها بعد القبض على «مارتا» وعضوات مركزها وما كشفه التحقيق معهن ..

الحقيقة أن الزعيم النازي «أدولف هتلر» كان سباقاً لمثل هذا النوع من التجسس وتجنيد العملاء، وكان يدرك بطبيعة الحال أن المرء ضعيف في حالتين .. عند تعرضه للألم أو إذا كان في حالة لذة .. لكن المرء عند شعوره باللذة الجنسية يكون مستعداً لعمل أي شيء يطلب منه وهو مستمتع بذلك، فهو عندئذ في حالة خدار نفسي وجسدي لا يترك لديه أي مجال للمقاومة أو المراوغة ..

لذلك لم يتردد الزعيم النازي في طلب رئيس مخابراته «رينهارد هيدربنج» ليفوضه في تكوين شبكة من العاهرات المدربات وتوفير المكان المجهز لهن من أجل هذا الغرض .. ولم يجد «هيدربنج» من هي أصلح لتزعم هذه الشبكة سوى عاهرة معروفة هي «كيمي شميدت» .. وكان هناك بالفعل - وكما توقع «هتلر» - إنجاز حققته الشبكة من زبائنها وهم فوق سرائر غرف النوم المريحة ووسط دفء أحضان العاهرات ..

في أحضان ديمترا الجميلة ..

انتعش باباندرىو سياسياً من جديد ..! وبعد أربع سنوات في الظل السياسي .. عاد إلى الأضواء كانت امرأة معروفة بطموحها وأطماعها وتسعى إلى المزيد من النفوذ والقوة .. لكن خصوم باباندرىو استخدموا سلاحاً مؤثراً وخطيراً ضده وهو : نشر صور فاضحة جداً لديمترا عندما كانت مضيئة جوية ! ثم مات الزوج العجوز باباندرىو .. وترك «ميمي» أرملة في مهب الريح، تحاول أن تستقر على شاطئ جميل . وهو السلطة .. مات باباندرىو ولكن طموحاتها لم تمت !

هذه المرأة المثيرة الفتاة .. اسمها «ديمترا» .. وهو نفس اسم «ديمترا» إلهة الخصوبة في اليونان .. ولأنها غاية في الجمال والإثارة يطلقون عليها أيضاً «فينوس» هذا العصر وهو اسم إلهة الجمال في عهد الإغريق .. أيضاً لها اسم آخر على سبيل التذليل والدلع وهو «ميمي»!

ميمي . أو ديمترا .. استطاعت بمجهودها «الشخصي» أن تصبح سيدة اليونان الأولى بحكم أنها قد أصبحت زوجة العجوز السياسي ... الداهية .. أندرياس باباندرىو رئيس وزراء اليونان وزعيم الحزب الاشتراكي المعروف باسم «الباسوك» هو من مواليد ١٩١٩، وهي من مواليد ١٩٥٤ .. أي فارق السن ٣٥ عاماً !! ووالدها كان جنرالاً في الجيش وعمها كان سفيراً في اليابان .

ولكن كيف اجتمع الجمال والصبا .. بالشيوخوخة .. كيف اجتمع الربيع بالخريف ! إنها قصة حب .. عنيفة للغاية .. بدأت فصولها في عام ١٩٨٥ .

بالنسبة للزوج العجوز باباندرىو .. فهو رجل غني عن التعريف .. صاحب تاريخ سياسي حافل بالأبجداد والانتصارات السياسية .. غني عن التعريف لأنه سطع في سماء السياسة في منتصف الستينيات كعضو برلماني بارز .. وعرفه اليونانيون والعالم في بادئ الأمر باعتباره السياسي الناشئ ابن رئيس وزراء اليونان الراحل جورج باباندرىو .. ثم

ذاع صيته بعد أن أصبح زعيماً للاشتراكيين هناك .

أما بالنسبة للزوجة «ميمي» أو ديمترا .. فلم يعرفها الجميع داخل وخارج اليونان إلا في نهاية الثمانينيات .. وهذه هي حكايتها مع بابندريو :

تملك ميمي .. كل مواصفات الجمال الساحر الجذاب .. طولها ١٨٠ سنتيمتراً .. تتمتع بقوام مثير .. كانت تشعر دوماً بأنها أنثى فوق العادة .. كثيراً ما كانت تظهر على الشواطئ وهي بالمايوه البكيني .. طبعاً قبل زواجها من بابندريو .. وكثيراً ما كانت تفضل الاستمتاع بالجلوس على الشاطئ تحت أشعة الشمس .. فتجذب حولها أنظار المعجبين . تزوجت في بادئ الأمر بشاب يتكافأ عمره مع عمرها .. ولم يدم الزواج طويلاً.. ثم اختارت الزواج الثاني في عام ١٩٨٠، وراحت تبحث لجمالها وأناقته وجاذبيتها .. عن عمل «مناسب»! .. اختارت عالم الجو بعيداً عن الأرض ! فقد عملت كمضييفة على الخطوط الجوية اليونانية . أولمليك التي كانت معظم أسهمها ملكاً للمليونير اليوناني الراحل أوناسيس ..

ومن المثير أنه قيل إنه خلال عمل ديمترا كمضييفة جوية في الثمانينيات، تعرفت في بادئ الأمر على السيدة مارجریت زوجة بابندريو الأولى !! وهي امرأة أمريكية الأصل .. تزوجها بابندريو خلال وجوده في أمريكا عندما هرب إلى هناك عام ١٩٣٩ .

وكان بابندريو اليساري المناضل قد سافر إلى هناك وأكمل دراسته في جامعة هارفارد حتى وصل إلى رئيس قسم الاقتصاد في جامعة كاليفورنيا .. وخلال وجوده تعرف على مارجریت وكانت شابة جميلة وتزوجها وهو يحمل الجنسية الأمريكية، ثم عادا إلى اليونان عام ١٩٥٩ وقد أنجبا أطفالاً .. ثم تخلى عن الجنسية الأمريكية ليتفرغ لمشواره السياسي .

وعندما تعرفت ديمترا على السيدة مارجریت في الطائرة . كما يقال . انتهى الأمر بأن قامت الزوجة - التي كانت آخر من يعلم - بمساعدة ديمترا لكي تنتقل كمضييفة على طائرة رئيس الحكومة بابندريو !!

وبالفعل .. أصبحت «ميمي» ضمن طاقم طائرة بابانديرو زوج مارجريت!!
وكان أول لقاء بين ديمترا أو ميمي وبابانديرو في عام ١٩٨٥ خلال رحلته إلى الهند..
وهي رحلة طويلة تستغرق العديد من الساعات من أثينا حتى نيودلهي ..
وهنا .. كانت بداية الإعجاب .. فتن بها بابانديرو إلى أبعد الحدود .. نبض قلبه
المريض لجملها المثير .. سحرته بابتسامتها .. وهي أيضاً مالت إليه واكتشفت أن من
أمامها هو رجل في سن الشباب وعمر الربيع .. تتدفق من لسانه العذب كلمات الغزل
الخفيف .. وفي نهاية الرحلة .. ذهاباً وعودة من نيودلهي . كان بابانديرو قد قرر أن تكون
هذه المرأة الجميلة له .. وكانت الزوجة مارجريت التي عاشت معه ما يقرب من ٤٠
عاماً لا تعلم في بادئ الأمر أي شيء عن علاقة هذا الزوج بهذه الفاتنة التي كانت قد
ساعدتها!

ميمي الفاتنة .. نجمة القمة الأوروبية!

ولكن تفشى خبر الإعجاب والحب في كل مكان باليونان .. وزاد الأمر إثارة عندما
استضافت اليونان في ديسمبر ١٩٨٨ قمة السوق الأوروبية المشتركة، وظهر بابانديرو
خلال لقائه بزعماء القمة من قادة أوروبا وهو في صحبة ديمترا المتألقة .. المثيرة التي
خطفت الأنظار من مؤتمر القمة، وجعلت منه أشبه بمهرجان سينمائي لا يضم سوى
نجمة واحدة جميلة هي ديمترا التي كانت ترتدي وقتها الميني جيب !! وهو عبارة عن
تاير أصفر اللون وفي غاية الإثارة والأناقة .. وكان شعرها وقتها أحمر اللون يبدو مثل
تاج مشع بضوء أحمر مثير .. وإلى حد كبير كانت واجهة التاير صارخة .. فصدر الثوب
كان ذا فتحة كبيرة تجذب العيون !

كل العالم .. راح يتابع حكاية ديمترا الفاتنة .. والزوجة الأولى التي صارت عجوزاً
- مارجريت - أيقنت بكل شيء .. في البداية كانت ترفض الطلاق .. وفي النهاية أرادت
أن تصون كرامته وكبرياءها، فتم الطلاق من بابانديرو نهاية عام ١٩٨٨ .

باباندرىو .. يتحدى المرض

وقبل أن يتزوج باباندرىو ديمترا الجميلة .. كان على موعد مع المرض .. كاد قلبه يتوقف فينتهي كل شيء، لقد أصيب بأزمة قلبية خطيرة، وتم نقله إلى لندن لإجراء جراحة في القلب .

ووقفت ديمترا إلى جانبه .. وكانت الزوجة الأصلية مارجريت حريصة أيضاً على أن تطمئن عليه بحكم العشرة والأولاد !

ونجا باباندرىو من الموت .. شفي بعد الجراحة .. وقال بعد شفائه : لقد كانت ديمترا هي التي وقفت بجانبى في مرضي .. لقد فعلت معي كل شيء لتسهر على راحتى .

كان باباندرىو .. قد بدأ وهو في السلطة في نهاية الثمانينيات يواجه معارضة سياسية كادت تفترسه . فظهر في ذلك الوقت كتاب مثير يحمل صورة لـ «ديمترا» وهي شبه عارية .. ويقول الكتاب هذه هي المرأة التي تريد أن تحكم اليونان !!

وفي صيف ١٩٨٩، خسر باباندرىو الانتخابات وسقطت حكومته .. ولم يبق لديه من فوز سوى «ديمترا» بعد أن كان قد طلق زوجته، وهي أيضاً طلقت من زوجها الثاني .

وبعد الزواج فاحت رائحة فضيحة سياسية تتعلق بسمعته .. فضيحة مالية امتدت إلى ساحة القضاء .. وانتهت ببراءة باباندرىو في بداية ١٩٩٠ .

السياسة .. في أحضان ديمترا !

وفي أحضان ديمترا الجميلة .. انتعش باباندرىو سياسياً من جديد وبعد أربع سنوات في الظل «السياسي» .. عاد إلى الأضواء بفوز حزبه في انتخابات خريف ٩٣، واعتلى السلطة من جديد مظفراً بأصوات الناخبين الذين وجدوا فيه رجلاً سياسياً ليس له مثيل .. وعاشقاً ولهاناً ليس له أيضاً مثيل !! والشعب اليوناني بطبيعته وبحكم ثرائه المجيد .. يعيش دوماً على مشاعره وعواطفه .. شعب يعشق الحب . ولذلك كان باباندرىو مندوباً عنه في ذلك !

بعد وصول بابانديريو إلى السلطة .. لم تكن ديمترا مجرد زوجة فقط، بل اختارها الزوج كدميرة لمكتبه .. كل من يريد مقابلته لابد أن يرى وجهها الجميل المشرق قبل أن يجتمع برئيس الوزراء ! وبالتالي لم تعد تفارقه في البيت أو المكتب حيث مقر الحكومة اليونانية .

ولإضفاء المزيد من الجمال والسحر والجاذبية، ذكرت صحيفة الصنداي تايمز في أول أكتوبر ١٩٩٥، أن ميمي الفاتنة قد أجرت جراحة تجميل لتخفيض حجم صدرها ونشرت صحيفة أفراني اليونانية على صدر صفحتها الأولى صورة السيدة الأولى ديمترا وهي تغطي صدرها قبل أن تتوجه إلى غرفة العمليات !!

وهذا أمر شخصي .. لا يهم أحد سواها هي وزوجها العاشق المحب .. ولكن ما يهم كل يوناني الآن .. هو طموح ديمترا الجميلة الشابة لقد صرحت بعد جراحة التجميل أنها تنوي ترشيح نفسها في انتخابات البرلمان لتصبح نائبة، وأنها ستخوض معركتها الانتخابية من مسقط رأسها في منطقة فلورينا اليونانية .

وهنا بدأ الكل يعرف أنها امرأة طموح .. تسعى إلى المزيد من النفوذ والقوة .. وقد شنت عليها بعض الصحف اليونانية هجوماً عنيفاً، قالوا إنها أصبحت متسلطة وتمتّع بنفوذ كبير داخل الحزب الاشتراكي، مما أدى إلى حدوث انشقاقات في صفوف الحزب الذي يتزعمه زوجها . وقد استخدم بابانديريو سلاحاً مؤثراً وخطيراً ضده وهو: نشر صور فاضحة جداً لديمترا عندما كانت مضيئة جوية !

ثم مات الزوج العجوز بابانديريو . وترك «ميمي» أرملة في مهب الريح .. تحاول أن تستقر على شاطئ جميل .. وهو السلطة. مات بابانديريو ولكن طموحاتها لم تمت !

البرلمان الإيطالي .. موعود بالعاريات اللفاتنات!!

درست الفلسفة ثم الطب ! ثم ظهرت عارية على صفحات الصحف والمجلات ..
ثم احتشمت ودخلت البرلمان ..

ولكن النواب .. يتخيلون جسدها العاري ..!

ويتخيلون أيضاً نظرات جدها الدكتاتور !

حملت الرصيد الذي تركه هذا الديكتاتور جدها «موسوليني» وهو جد من الأب ..
وتلك قصتها ..!

البرلمان الإيطالي .. موعود بالعاريات اللفاتنات!!

خرجت منه اللاتنة تشتولينا في بداية التسعينيات وكانت معروفة بأنها نجمة
الجنس .. والساستربتز !! ودخلته السندرا الجميلة الجذابة بعد نجاحها في آخر انتخابات
برلمانية عام ١٩٩٤!

ولكن الأخيرة .. السندرا .. دخلت البرلمان كبداية لرحلة طموح طويلة، هذه
اللاتنة الصارخة .. ليست غريبة عن الإيطاليين .. إنها حفيدة أبشع دكتاتور عرفه
العالم .. هو بنيتو موسوليني .. الدوتشي .. الزعيم الإيطالي رائد الحركة الفاشية في العالم
الذي استولى على الحكم في عام ١٩٢٢ .. وظل متشبهاً بالسلطة على مدى ٢١ عاماً ..
ارتكبت خلالها المذابح والمجازر وتحالف مع هتلر من خلال المحور في الحرب العالمية
الثانية، وكانت نهايته بشعة مثل حكمه .. فقد صدر حكم بإعدامه في نهاية الحرب في
عام ١٩٤٥ . وكان الحكم شتقاً، وعلقت جثته مقلوبة في عمود بأحد ميادين نابولي
ومعه عشيقته «كلارا»!

دخلت السندرا البرلمان الإيطالي بعد فوزها في الانتخابات وهي تحمل هذا الرصيد
الذي تركه جدها موسوليني، وهو جد من الأب .. وتلك قصتها التي تتباهى بتفاصيلها

وتؤكد أنها ستصل إلى كل ما تصبو إليه يوماً ما :

ولدت السندرا في روما في عام ١٩٦٢، وهي ابنة رومانو أصغر أبناء الدكتاتور موسوليني وأحبهم إلى قلبه، أما أمها فهي ماريا الشقيقة الصغرى للفنانة الإيطالية المعروفة صوفيا لورين .

وقد ولدت أم السندرا ونشأت في قرية صغيرة اسمها «بوزلي» يعمل أهلها في الصيد، وهي من ضواحي مدينة نابولي مسقط رزس موسوليني وصوفيا لورين . وقد تزوجت الأم ماريا من رومانو الذي يعمل عازفاً للبيانو . ويوم أن اختارته زوجاً لها لم تبال بما قيل عن أنه ابن موسوليني .. أعجبت به وقالت لا يهمني أن يكون ابن موسوليني .. فقد أحبته من أول نظرة عندما سمعت موسيقاه وهو يعزف البيانو ..

السندرا .. في مدرسة راهبات!

ولدت السندرا في روما بعد ١٧ عاماً تقريباً من إعدام جدها موسوليني .. وفي بداية طفولتها رأت جدتها راشيل أرملة موسوليني التي عمرت طويلاً، وعندما بلغت السندرا سن الدراسة، ألحقها الأم التي كانت قد انفصلت عن الأب بمدرسة راهبات .. السندرا وقتها كانت صبية يافعة تتباهى بجملها، وكانت ترفض ارتداء ملابس الراهبات، وتتمسك بالبنطلون !! وفي البداية اتجهت السندرا لدراسة الفلسفة .. ثم اتجهت إلى دراسة الطب .. وبعد الدراسة .. انشقت عن الطب واتجهت إلى عالم الفن .. عالم السينما والأضواء والإثارة .. تأثرت بحياة خالتها صوفيا لورين في بادئ الأمر، فهي لا تنسى أنها مثلت معها وهي طفلة ... وفي شبابها بعد أن اكتملت أنوثتها وجمالاً .. ظهرت على غلاف مجلة بلاي بوي وهي شبه عارية .. وكانت المناسبة هي ذكرى مرور مائة عام على مولد جدها الدكتاتور موسوليني الذي لم تره في حياتها ..

كان ظهورها على مجلة الفضائح .. بداية مشوار قصير جداً إلى السينما .. فقد اختارها المنتجون لأداء دور فتاة يهودية في فيلم عن المقاومة خلال الحرب العالمية الثانية، ولكن

توقف تصوير الفيلم، بعد أن شن اليهود في إيطاليا حملة عنيفة ضدها لأنها حفيذة الرجل الذي تحالف مع هتلر في ذبح وتعذيب اليهود .

ثم كانت على موعد مع فيلم آخر جرى تصويره في إسرائيل ويحمل اسم «الطريق إلى عين هاروت» ولعبت فيه دور جنديّة إسرائيلية، وكانت القصة من تأليف الكاتب الإسرائيلي عاموس كينان .. وفي إسرائيل، حرصت على أن تزور حائط المبكى الملاصق للمسجد الأقصى الشريف، وقد تدمر الحاخامات عندما رأوها تقف أمام الحائط بالميني جيب، وشاهدت خلال وجودها في القدس مساوئ الجنود الإسرائيليين وما يفعلونه ضد الفلسطينيين، ويومها قابلت شيمون بيريز الذي كان زعيماً للمعارضة في ذلك الوقت وقالت له بمرارة إنها شاهدت جنوداً إسرائيليين يطاردون الفلسطينيين بنيران بنادقهم .

جدي الديكتاتور .. في ذاكرتي دائماً!!

بعد تصوير هذا الفيلم، تزوجت السندرا من فلورياني الضابط بجمرك ميناء نابولي الذي تعرفت عليها قبل عام من الزواج عندما شارك في إنقاذها من الغرق وهي في الزورق الذي كانت تجرّه وسط العواصف ..

والثير أن السندرا اختارت أن يكون زفافها يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٨٩ وهو يوم مرور ٦٧ عاماً على استيلاء جدها موسوليني على الحكم في إيطاليا !

ويقال إنه في اليوم التالي لزواجها كان أول خروج لها .. هو زيارة مقبرة جدها حيث كانت قد قررت بدء حياة جديدة .. وتركت الفن لتقتحم نفس المجال والطريق الذي سار عليه جدها الدكتاتور .

الفاشية .. أهم من السينما

أسست الشابة الجميلة السندرا الحزب الفاشيستي الجديد .. وأطلقت عليه اسم «الحركة الاجتماعية الإيطالية» .. قررت أن تهجر الفن بعد رحلة قصيرة قد بدأت من

عاً ١٩٨٣ عندما ظهرت في برنامج تليفزيوني مثير ثم ممثلة مسرح ثم السينما حتى نهاية عام ١٩٩٠ . وقتها كانت تحلم بأن تجلس على نفس المقعد الذي كان يجلس عليه جدها موسوليني داخل البرلمان الإيطالي والمثير أن خالتها صوفيا لورين شجعتها على ذلك وقالت لها : لا شيء مستحيل والمثل الإيطالي الذي يردده سكان نابولي يقول : «اصعدي الجبل حتى لو كنت عرجاء»!

وبالفعل .. صعدت السندرا الجبل بكل ما أوتيت من قوة .. صعدت جبلاً وعراً وشاقاً، حتى نجحت في بلوغ قمته .. فعندما فازت في الانتخابات البرلمانية عام ١٩٩٢، وكان فوزها ساحقاً على منافسيها .. وقتها قالت : لقد حققت الحلم الذي ظل يراودني منذ كنت فتاة صغيرة .. لم أتردد لحظة واحدة .. وقد شجعتني خالتي العظيمة صوفيا .. لقد واجهت صعوبات شديدة لأن الكل ينظر لي على أنني سليلة آل موسوليني .. وبالتالي فلم يكن فوزي وانتصاري سهلاً على الإطلاق .

والمثير أن الكل كان يتذكر موسوليني عندما خاضت حفيدته السندرا المعركة الانتخابية كانوا يقولون مثلما كان أحد المخرجين يقول لها أمام الكاميرا : إن نظرة عينيك قاسية وحادة ومفزعة مثل نظرات جدك موسوليني .. ولم تتأكد أنها كذلك إلا عندما قال لها أحد أقربائها : نعم يا السندرا .. أنت تذكريني بجدك موسوليني .. لقد ورثت عنه نفس النظرات !! في تلك اللحظة تضايقت السندرا .. كانت تقول : ماذا أفعل ؟ .. أتريدون أن أجري جراحة لتجميل عيني الجميلتين ؟!!

ثم ترد السندرا .. وتقول : إنني فخورة بنظراتي إليكم !!
ولكن .. ماذا في جعبة السندرا مؤسسة الفاشية الجديدة .. وماذا تريد أن تفعل في المستقبل ؟!

تقول السندرا :

«إن الفن .. كان بالنسبة لها أصعب بكثير من السياسة .. في الفن يهتمون بجمالي

وجاذبتي وسحري .. ولا يهتمون بموهبتي !! .. أما في السياسة .. فهي موهبة .. تحتاج
الصدق والإقناع والمنطق» ..

وتضيف السندرا :

«إنني أتمنى أن أحقق المزيد من التقدم للشعب الإيطالي من خلال حزبي .. إنني
أريد أن أشجع الناس على أن ينتزعوا من الأحزاب السياسية السرقات التي حصلوا
عليها على مدى ٤٠ عاماً من الحكم السياسي الفاسد !! .. لقد اخترت أن أقتحم معركة
الانتخابات في نابولي لأن الناس هناك في حاجة إلى من يهتم بشئونهم .. إنها مدينة بائسة
تحتاج إلى من يرهاها .. مدينة تنتشر فيها الجريمة .. والمخالفات والأعمال غير المشروعة
وغير الأخلاقية !

وتؤكد السندرا : إنني لست امتداداً للفاشية القديمة : إنني أنتمي إلى موسوليني
وأعترف بأنه جدي !!

وترغم السندرا الجميلة الفاتنة التي تتجه إليها كل عيون أعضاء البرلمان عندما تدخل
القاعة : إن جدي كان رجلاً تقدماً على عكس ما كانوا يقولون .. لو كان على قيد الحياة
الآن لتغيرت أحوال إيطاليا !! .. لأن سياسته .. كما تقول .. كانت تناسب الأحداث
والأزمات الحالية !! .

وتؤكد السندرا أن يوم دخولها البرلمان، شعرت بأن ذكرى جدها ما زالت حية رغم
مرور نصف قرن على موته .. يوم نجاحها في البرلمان، راح أنصارها يذكرونها بأعجاز الجدل
وتاريخه .. قالوا لها إن الأحوال وقتها أفضل من عصر التسعينيات .

كانت هناك روح التطور والأخلاق !! ومن هنا تقول السندرا أن فكرها يقوم
على أساس تنظيم أمور الحياة في المجتمع الإيطالي والسيطرة في نفس الوقت على كل
شيء !

لن أنسى موسوليني حتى الموت!

إن السنديرا .. ما زالت رغم مزاعمها تعيش على ذكرى جدتها الدكتاتور موسوليني .. وتؤكد من حين لآخر وهي تدافع عنه : إن جدي موسوليني كان يحب إيطاليا .. عرفت ذلك من أصدقائه القدامى الذين قالوا لي : إنه كان يحب بلده كما لو كان أباً يحب أبناءه .. كان يقول لهم .. أريد أن أحمل إيطاليا بين أحضاني وهي طفلة حتى تكبر .. وتصبح أكبر قوة في أوروبا والعالم !!

وتقول السنديرا : كم كنت أتمنى لو أنني عاصرت حكم موسوليني حتى أكون في موقف أحكم عليه بصدق بدلاً مما أسمع الآن !!

ولكن إذا كانت السنديرا في غاية الوفاء لذكرى جدتها .. فإن عليها أن تقرأ بصدق أولاً كل كتب التاريخ بكل دقة .. لأن هذا الجد كان نكبة على إيطاليا والعالم !

الباب الخامس

فساد حریم السلطان في العصر الحديث



«حريم السلطان» في ديوان زكريا عزمي

هذا الفساد السياسي والأخلاقي الذي تفشى في بعض الدول العربية من ضمن أو من أبرز الوجوه فيه «النساء» حريم السلطان، وهي وجوه جديدة تقوم بدور كامل واضح وساطع في تنفيذ أعمال مليئة بالسرقة والنصب والاحتيال دون أدنى رادع أو وازع من ضمير ولعل سوزان مبارك في مصر ولىلى الطرابلسي تمثلان نماذج لهذا الفساد الذي قامتا به أثناء حكم السلطان أقصد الزوج الحاكم وهذا هو ما رأيناه في عصرنا الحديث .. وزماننا المعاصر بكل أسف .

سمير فراج «ابن الشاطئ» يكشف أسرارهِ (*)

رئيس الديوان وحريم السلطان:

الفساد السياسي والأخلاقي كان الملمح الرئيسي لعصر الرئيس المخلوع حسني مبارك .. وما تنشره الصحف وما يتداول في قاعة محكمة الجنايات لرموز العهد البائد ليس إلا قطرة واحدة من مياه المحيط ولكنها كافية لمعرفة طعم المحيط كله .

ومنذ أيام أصدرت محكمة الجنايات حكماً بحبس زكريا عزمي رئيس دوان حسني مبارك ٧ سنوات وتغريمه وزوجته ٧٢ مليون جنيه! أما ما لم يحاكم عنه زكريا عزمي فهو دوره في صناعة حريم السلطان واستخدامهن للتخلص من خصومه ومنهم المشير أبو غزالة وأسامة الباز ! .. محكمة جنابات القاهرة نوهت في حيثيات حكمها إلى أن المتهم زكريا عزمي قد بدأ حياته فور تخرجه في الكلية الحربية وألحق بالحرس الجمهوري ضابطاً بالمدرعات ثم بمكتب رئيس الجمهورية للأمن القومي ورئيس ديوان رئيس الجمهورية إلى أن استقال من الوظيفة العسكرية برتبة مقدم في ١٩٧٤ / ٨ / ٢١ وعاد إلى ديوان رئيس الجمهورية في الفاتح من سبتمبر ١٩٧٤ إلى

* جريدة صوت الأمة ٢٠١٢ / ٦ / ٢ .

أن تبوأ مقعد رئيس الديوان في ٢٢ مارس ١٩٨٩ وأصبح صاحب الكلمة المسموعة والمسيطر على مجريات الأمور .

طوعت وظائفه المدنية والصفات النيابية والحزبية لذكريا عزمي أمر الحصول على الكسب الحرام دون وازع من ضمير أو رادع من قانون بما يخرج عنه مقتضى الأمانة والنزاهة المفترضة في الموظف العام في حكمه وساعده على ذلك الديكتاتورية السياسية والبيروقراطية الإدارية التي سادت هذا العصر وانتشر الفساد السياسي والأخلاقي، واستغل المتهم هذا المحيط الفاسد الذي قسم فيه النصيب وجعل سلطان وظيفته العامة وصفاته النيابية والحزبية وسيلة للحصول على مكاسب غير مشروعة لنفسه ولزوجته على حساب الشعب الذي عانى في السنوات الأخيرة من فقر وجوع بالمعيشة، وتبعه ترد في غياب الوعي ..! وصدقت المحكمة حينها وصفت عهد هذا المتهم ذكريا عزمي رئيس ديوان القصر الجمهوري بأنه عصر الفساد الأخلاقي والسياسي .. فكم ارتكب من فضائح مستغلاً منصبه وحماية السلطان صاحب الجلالة فخامة الرئيس محمد حسني مبارك له .. آسف أقصد صاحب المكانة الأسوأ في التاريخ المصري كله عبر عصوره المختلفة الرئيس الذي خلعه الشعب المصري الطهور بثورته المجيدة في ٢٥ يناير ٢٠١١ ومن قاذورات ذكريا عزمي كسابقه صفوت الشريف توريد النساء إلى قصور الرئاسة والاهتمام بشئون الجنس والعردة ..!

وقصص وحكايات ذكريا عزمي مع الفساد السياسي كثيرة هي والفساد الأخلاقي ومعنى أن يتعاطى الرئيس المخلوع حسني مبارك حقنة منشطة ثمنها «ثلاثون ألف دولار» .. وهي ذات الحقنة التي كان يتعاطها رئيس دولة عربية وذكريا عزمي رئيس الديوان الذي قال ذات يوم تعليقاً على علاقته بمبارك : واحد يركبني وأنا أركب البلد كلها، وقد استخدم ذكريا عزمي كلمة سوقية محل «يركبني» !.

وذات مرة كلفت الراقصة فيفي عبده رئيس الديوان بمهمة خاصة في دولة عربية وهي تجديد جواز السفر الخاص بزوجها والأجهزة الأمنية كانت تتابع ذلك وكما قال شريف الشوباشي في كتابه «مستقبل مصر بعد الثورة» : إن من أطرف ما يتذكره أن عمر

سليمان روى أمامه في منتصف التسعينيات في أحد فنادق باريس خلال زيارة لمبارك أن رئيس دولة عربية آنذاك يتناول حقنة ثمنها ٣٠ ألف دولار تعيد له الشباب والحيوية وكان هذا المبلغ في ذلك الوقت فلكياً وما زال مبلغاً كبيراً حتى الآن، لكنه من المؤكد أن سعر هذه الحقنة قد زاد كثيراً منذ أن حكى عنها عمر سليمان! .

ويتصور الشوباشي أن هذه المعلومة كانت جديدة في هذا التاريخ ولم يكن يعلم بها أحد، ولا شك أن زكريا عزمي هو الذي نقلها إلى السلطان مبارك...! ونصح به أن يتناول هذه الحقنة لإنعاش جسده الذي بدأت تظهر عليه أعراض الوهن والضعف والشيخوخة، وعلى أي حال فمن الثابت أن مبارك كان يتناول حقنة منشطة من نوع خاص جداً في السنوات الأخيرة من حكمه يوفرها له رئيس ديوانه زكريا عزمي!!... هكذا كان يمارس زكريا عزمي دوراً في الديوان الرئاسي يضعه في مزبلة التاريخ .

وفي حكاية أخرى من حكايات الشوباشي ترددت كثيراً في ذكر بعض تعبيراته لكن في النهاية استقر رأيي على ذكرها كما جاءت في سياق سرده لوقائعها وقبل ذكر مضمون هذا الكلام نقول لقد تزايدت خطورة زكريا عزمي بطريقة ملحوظة من بدايات التسعينيات وسار هو المتحكم في كل ما يخص الرئيس ولا يجرؤ أحد أن يناقشه واستطاع أن يطيح بكل من ينافسه على نيل ثقة مبارك من خلال الدسائس والمكائد! وفي أحد الأيام قال أحد أصدقاء الشوباشي المقربين لزكريا عزمي إن هذا الأخير قال له تعليقاً على علاقته بمبارك : «واحد يركبني .. وأنا أركب البلد كلها»!! وقد استخدم زكريا عزمي كلمة سوقية مكان «يركبني»؟! لا يمكن أن نذكرها لكن لا بد من الربط بينها وبين تلك الحقنة التي بثلاثين ألف دولار والتي كان يسهل أمرها للسلطان زكريا عزمي لزوم انعاش جسده الذي بدأت تظهر عليه أعراض الوهن والشيخوخة! كان هذا هو المنطق الذي يسير عليه زكريا عزمي إذ هو يتحمل أي شيء من السلطان مبارك! ويتحلى بالصبر في كل المواقف وذلك في مقابل أن يظل في موقعه الذي كان يتحكم منه في الوزراء والكبراء .. فما بالنا بباقي خلق الله من البسطاء والضعفاء وقد كان هذا المنطق شائعاً في عصر السلطان مبارك ورئيس ديوانه زكريا عزمي وخلاصته أنه يكفي الحصول على ثقة

«الرأس الكبير» في العمل وكل من عداه لا يساوي شيئاً على الإطلاق بل يمكن البطش به وإذلاله .

السر البائع لزكريا عزمي:

وكشف أحد كبار العالمين بالرئاسة في قصور السلطان حسني مبارك...! عن هذا السر البائع لزكريا عزمي الذي لا يتمتع سوى بكفاءة محدودة لكنه مع ذلك يحظى بالثقة الكاملة وشبه العمياء لمبارك...! وفتح كف يده اليمنى قائلاً: «هو فاهمه وحافظه زي كف إيده»! وهكذا كان زكريا عزمي ينظر للسلطان ويحاول أن يرضيه بأي شكل حتى إن كان عن طريق حريم السلطان!

قتل المطربة ذكرى:

ولم تخل القصور الرئاسية من دراما القتل مع سبق الإصرار والترصد وكله تحت إشراف رئيس الديوان زكريا عزمي وقال شقيق المطربة ذكرى إن نجل السلطان مبارك! جمال مبارك خلف تلك الجريمة التي ارتكبت دون أدنى وازع من ضمير أو رحمة وتراقصت بشأنها علامات استفهام كثيرة ومتعددة وقيل فيها العديد من الآراء دون الكشف عن القاتل الحقيقي المحرض والفاعل الأصلي، فلم يكن الأمر مجرد رصاصات أطلقت من «السويدي» فقتلتها! والذي يعلم الحقيقة في ذلك أكثر من غيره هو زكريا عزمي لا شك في ذلك فالقصور الرئاسية حافلة بجرائم السلطان ونجليه! والحارس الأمين على أسرارها المثيرة حامي حمى أسرة السلطان زكريا عزمي رئيس الديوان البهلوان...!!

الفساد بقى للركب!

أليس رئيس الديوان هذا زكريا عزمي هو القاتل في مجلس الشعب المصري وهو عضو فيه: الفساد بقى للركب في المحليات! كان يعرف إنه الفاسد الأول أو على الأقل كان مشاركاً في الفساد حتى الركب كما يقول هو وليبدأ بنفسه، لكنه كان يضحك علينا

جميعاً على الشعب المصري الذي وصفه للأسف بأنه كان يركبه! إلى هذه الدرجة استهان رئيس الديوان زكريا عزمي بالأخلاق والقيم، وبشعب أمة عظيمة كبيرة خالدة لها حضارتها التي تزيد على سبعة آلاف سنة .. جاء ذكرها في القرآن الكريم .. جاء ذكر مصر أم الدنيا التي أهانها زكريا عزمي وقال إنه يركب شعبها العظيم الطاهر!

ومقتل المطربة سوزان تميم:

وأحاطت الشائعات أيضاً إثر مقتل المطربة اللبنانية سوزان تميم بأن جمال مبارك تحوطه الشبهات حول الحادث وكذلك والدته التي خدعنا فيها سوزان مبارك!.. زوجة السلطان التي تؤكد الشائعات أنها لعبت هي الأخرى تحت رعاية زكريا عزمي رئيس الديوان دوراً مهماً في الضغط لإنقاذ هشام طلعت مصطفى من جبل المشنقة!

وعلاء مبارك وحكاياته مع شريهان:

وشهدت أروقة القصر الرئاسي تحت إشراف زكريا عزمي العديد من الحكايات بطلها علاء مبارك الذي حامت حوله الشبهات عن غرامه لشريهان ومطارداته لها في كل مكان وإصراره على الزواج منها، وكلنا شاهد علاء مبارك في استديوهات التصوير التلفزيوني وهو ولهان بشريهان وأيامها رفضت سوزان هانم والدته زواجه منها، وعلى الفور أعقب ذلك إلقاء شريهان في الإسكندرية من مكان عالٍ ليبارك الله في عمرها رغم الإصرار والترصد لها لتقتل وتموت هي الأخرى في حادث غامض لكن الأقدار لم تمكن القتلة الحقيقيين من قتلها فأصبحت فقط .. ونجاها الله الرحمن الرحيم، وقيل في ذلك الوقت تحديداً أن زوجة صاحب شركة سيارات صاحب شهرة اسعة ارتبط بعلاقة مع شريهان وهي التي دبرت هذا الحادث غيرة منها على زوجها! وكان هذا هو الافتراء بعينه على الحقيقة التي تعرفها جيداً الهانم وحامي حمى القصور الرئاسية زكريا عزمي والتي تقول إنه كان لابد من أن تتم هذه الجريمة لتتخلص أسرة السلطان مبارك من شريهان ولا يتزوجها النجل الأكبر علاء مبارك رغم أنف والدته ووالده السلطان!

شائعات حول زواج السلطان بالمطربة إيمان الطوخي:

وتحت إشراف رئيس الديوان حامي حمى السلطان مبارك! تسربت شائعات كثيرة اختلطت لا شك بحقائق ربما صدقها البعض واعترض عليها البعض الآخر غير مصدقين وكله بفضل زكريا عزمي وقدراته وسره البائع في إخفاء الحقائق وطمس معالمها بالغة الدقة خصوصاً عندما يتعلق الأمر بولي نعمته السلطان مبارك!..

وحامت شبهات متعددة حول السلطان بأنه يحتفظ بعلاقات وزيجات سرية من بعض الفنانات أشهرهن المطربة والممثلة الجميلة التي أعرفها جيداً وهي إيمان الطوخي.. والتي تشتهر بأدبها الجم وأخلاقها الرفيعة لكن ماذا تفعل أمام إلحاح السلطان؟ خاصة وقد طاردها شوقاً وولعاً وغراماً بجهاها الفتان وأنوثتها الواضحة، ولعل هذا كان بسبب الحقنة إياها صاحبة الرقم الرهيب أم الثلاثين ألفاً من الدولارات التي تنعشه وتنشط وظائفه وقدراته وتعيد إليه شبابه وحيويته وكيف لا وهو السلطان!! .

أمانى أبو خزيم مذيعة التلفزيون:

وهذه المرة يتكتم زكريا عزمي رئيس ديوان السلطان حكاية واحدة قيل إن الهانم كانت تغار منها وتعرف أنها أصبحت من ضمن حريم السلطان زوجها، أو هكذا وقع اختيار السلطان عليها وهي المذيعة التلفزيونية أمانى أبو خزيم التي دخلت السجن وعاشت فيه للأسف وتراقصت علامات استفهام كثيرة حول قصتها مع الهانم سوزان وقالت أمانى بعد خروجها إنها السبب في كل ما عانته ودخلت السجن ظمناً وغدراً وأن زكريا عزمي حامي حمى السلطان مبارك وكاتم أسرار قصوره الرئاسية يعرف الحقيقة كاملة في قصة المذيعة والسلطان أو المذيعة والهانم حرم السلطان! وقيل الكثير من الروايات والحكايات والقصص المثيرة حول علاقة فنانات كثيرات يتمتعن بالإغراء والجمال الذي يعجب السلطان مبارك ويدعمه رئيس ديوانه وكاتم أسرار زكريا عزمي وهو الذي يختار بنفسه حريم السلطان .. ويعرف ذوقه وتأثير حقنة الثلاثين ألف دولار عليه - أي على السلطان، ولذلك يختار له نجومات من كل مكان من مصر والعالم العربي

يعني حريم السلطان من كل مكان عن طريق رئيس الديوان المتمكن زكريا عزمي الذي يوفر المتعة والحياة الممتعة للسلطان!

لوسي آرتين:

ومن الأسماء التي ارتبطت بالديوان وحريم السلطان وقصور الرئاسة في مصر الحسنة لوسي آرتين .. وهي سيدة عاشت قصصاً كثيرة وكثيرة جماها أوروبي رغم مصريتها وقرباتها من الفنانتين نيلي ولبلبة، إلا أنها أكثر منها إثارة في كل شيء فالفنانة نيلي عرفت فقط بالتفوق الفني عن الكثيرات من الفنانات واشتهرت بالاستعراض والاستعراضات وابتعدت إلى درجة كبيرة عن قصص الحب والغرام فلم يعرف عنها ارتباطها بقصة أو بأخرى مع هذا أو ذاك من رجال السياسة أو غيرهم من كبار المسؤولين، فقط هي تزوجت من المخرج السينمائي المعروف الراحل حسام الدين مصطفى أبرز أزواجها وعلى نفس المنوال عاشت الفنانة لبلبة ولم تتزوج بضجة أو عاشت قصص الحب والغرام مع رجال السياسة أو غيرهم من كبار المسؤولين ونجد لبلبة فقط تزوجت من الفنان حسن يوسف قبل أن يطلقها ويتزوج من الفنانة شمس البارودي وهما يعيشان معاً حتى الآن تجربة زواج ناجحة وأنجبا الأولاد وحياتها الزوجية أيضاً مليئة بالحب والهدوء والاستقرار، لكن تأتي لوسي آرتين كنموذج آخر وجماها الأنثوي الصارخ جداً لعب دوراً بارزاً في حياتها من البداية وحتى مطلع شبابها جاء اسمها جنباً إلى جنب مع شخصيات بارزة ومسئولة في الدولة مثل المشير الراحل أبو غزالة وقيل الكثير بشأن ذلك، بل ما هو أخطر حيث قدمها ديوان السلطان برئاسة زكريا عزمي حامي حمى مبارك وكاتم أسرارهم في القصور الرئاسية المصرية ليقترن اسمها باسم هذا الرجل صاحب الصيت المدوي في العسكرية وهو الأشهر بين الأسماء التي جاء ذكرها دائماً معها منذ مطلع التسعينيات وأواخر الثمانينيات، بل وقيل أيامها أنها كانت السبب المباشر في إقالة أبو غزالة الذي كان يتصرف معها بحسن نية، وأقسم بالطلاق يوماً أنه لم يرتبط بهذه الحسنة بأى علاقة غرامية ..! لكن مكائد ودسائس القصر الرئاسي اقتضت عليه ..!

ولعل قصر العروبة ورئيس ديوانه زكريا عزمي لعب الدور الأكبر والرئيسي والخطير في حبكة موضوع هذه الحسنة المثيرة لوسي آرتين مع المشير أبو غزالة وكله لصالح السلطان مبارك ومن أجل أن يتخلص من رجل قيمة عسكرية على مستوى رفيع مثل المشير أبو غزالة إلى أن كان يتمتع رحمه الله بسمعة طيبة وبمكانة رفيعة بين صفوف العسكرية المصرية وكان السلطان يخشاه ويخشى أن يأتي اليوم الذي يتخلص فيه منه وتصبح بيده هو مقاليد الحكم في البلاد، ولم يمكنه السلطان من ذلك ووضع في طريقه وبمعرفة زكريا عزمي رئيس ديوان قصر العروبة هذه المرأة المشوقة القوام الطاغية الجمال والتي أيضاً أزاحت باثنين من كبار قيادات وزارة الداخلية من منصبيهما لارتباطهما بحكايات وروايات مثيرة مع لوسي آرتين، بل إن شيخ العرب نفسه وزير الداخلية الأسبق عبد الحليم موسى لم يسلم من حكايات وروايات مع لوسي آرتين رغم سلامة نيته وحسن أخلاقياته فالرجل كان فاضلاً وأوقعت هذه الحسنة بقاض شاب كان سيحكم في قضية تخصها وأصبح طوع أمرها، وانتهت حياته وذهب عنه منصبه الرفيع في السلك القضائي وأيضاً كان ذلك بحسن نية منه ولكن بسوء نية من البعض طبعاً! ونجح زكريا عزمي رئيس ديوان السلطان في استغلال هذا كله في الإطاحة برجل في قيمة وقامة ومكانة رجل مثل المشير أبو غزالة!! حسب تعليمات وتوجيهات وخبث ودهاء السلطان مبارك.. الذي كان يستخدم عن طريق زكريا عزمي، حريم السلطان في التخلص من هؤلاء الذين كانوا يسببون له إزعاجاً مثل المشير أبو غزالة، ولعلنا نتعرف أكثر على أسلوب الغدر الذي تم فيه استدعاء الرجل إلى القصر الرئاسي واستبداله بوزير الدفاع الجديد يوسف صبري أبو طالب وارتداء الزي العسكري الجاهز لبديل أبو غزالة الذي فوجئ بالموقف تماماً، ولم يكن يعرف أو يدرك أن السلطان مبارك بهذا القدر من الغدر وأن لوسي آرتين كانت ضمن خطة كبيرة للتخلص منه بأسلوب رئيس ديوان القصر زكريا عزمي..!

ونستطيع الكشف أكثر في تفاصيل قصة لوسي آرتين في قصور الرئاسة تحت إشراف رئيس الديوان زكريا عزمي وكاتم أسرار السلطان مبارك والحكايات كثيرة عن دور

زكريا عزمي في استخدام هذه الحسنة الطاغية الجمال والأنوثة لوسي آرتين داخل قصور الرئاسة وكانت لوسي آرتين هذه يسمح لها في أغلب الأوقات التي تراها في دخول قصر الرئاسة وتقابل على الفور من يحب رؤيتها وإطلالتها البهية رئيس الديوان زكريا عزمي وبالمطبع اعتبارها من حريم السلطان واستخدامها على هذا الأساس، وكانت لوسي آرتين عندما تظهر بملابسها المثيرة والقصيرة وعلى أحدث الموضات العالمية وبعملها الأوروبي المعروف يتسابق الجميع من القيادات الشرطة والأمنية داخل قصر السلطان مبارك وفي حرم رئيس الديوان زكريا عزمي من أجل الترحيب بها واستقبالها بلهفة شديدة ونشوة وفرحة عارمة بإطلالتها لدرجة أنها كانت تدخل قصر السلطان وهي تقود سيارتها المكشوفة وكأنها نجمة على قمة عرش السينما المصرية أو حتى العالمية وكانت وهي تدخل قصر السلطان يحس المشاهد أن رئيس الديوان زكريا عزمي يترك لها مساحة هائلة للتحرك داخل الديوان بحرية شديدة وغريبة في نفس الوقت، وكانت علامات الاستفهام تتراقص بشدة حول تصرفات هذه الحسنة وقدرتها الخارقة على اختراق الحواجز في القصور الخاصة بالسلطان مبارك، وكان هذا يؤدي إلى دافع الفضول عند الكثيرين ماذا تفعل هذه المرأة الطاغية الجمال والأنوثة في قصور الرئاسة ولماذا اعتبارها من حريم السلطان بأمر رئيس الديوان زكريا عزمي ؟!

وكيف ولماذا وما هو الذي أدى إلى هذا؟

الأغرب في قصة لوسي آرتين مع حريم السلطان والسلطان نفسه ورئيس ديوانه وكاتم أسرار زكريا عزمي أنها كانت تذهب أحياناً إلى القصر برفقة قريبتها الفنانة لبلبة لكن لم تكن الأخيرة تدخل إلى القصر وتنطلق عائدة إلى حيث جاءت وذلك عندما تكون لوسي آرتين قد جاءت إلى القصر بغير سيارتها المكشوفة إياها .. وقيل الكثير من الروايات حول طلب السلطان مبارك أن يتعرف على هذه المرأة الحسنة المثيرة لوسي آرتين، وعلى الفور كان رئيس ديوانه زكريا عزمي وكاتم أسرار القصور الرئاسية وخاصة أسرار السلطان مبارك .. يحقق له ذلك من باب العلم بالشيء .. ولعل السلطان كان مستفيداً للغاية بالحقنة إياها أم الثلاثين ألف دولار التي كان يتعاطاها لتعيد إليه شبابه وحيويته وقوته!!

وبواسطة رئيس الديوان تنكسر كل القيود وتحدث المعجزات الخارقة حتى لو كانت لقاءات مع لوسي آرتين التي دوخت بجهاها السلطان والعاملين في قصر السلطان وتحت إشراف كاتم أسرار السلطان رئيس الديوان زكريا عزمي واستطاعت لوسي آرتين بدهاء وذكاء وبأنوثتها الطاغية أن تخترق كل قصور الرئاسة وتجعلها طوع أمرها وبإشارة منها أو نظرة ساحرة تلقيها على الشخص المراد مهما كان وضعه ومنصبه ومكانته تحق لنفسها كل المرجو منه حتى لو كان لبن العصفور يأتي به إليها رئيس ديوان السلطان وزكريا عزمي هو صاحب المكانة الرفيعة عند لوسي آرتين أليس هو الذي يسهل لها كل شيء وأي شيء، وهو الذي يسمح لها بدخول القصور الرئاسية ويعطي الأوامر العاجلة ! افتحوا كل الأبواب للوسي آرتين ويا عيني على المواطن الإنسان الغلبان !

نبيلة عبيد والدكتور الباز وزكريا عزمي :

وباعتراف الفنانة نبيلة عبيد والتي أعرفها جيداً واقتربت منها كثيراً في مشواري الصحفي بأنها تزوجت من الدكتور أسامة الباز المستشار السياسي للسلطان مبارك ! لمدة تسع سنوات ونبيلة لا تكذب في مثل هذه الأمور ولا تخلط بين الهزل والجد، وكم كنت أعرف وأدرك تماماً حكاية نبيلة عبيد بالمرح أشراف فهمي وأنها قد تزوجا عن حب، لكن في أمر زواج نبيلة من الدكتور الباز كانت المفاجأة كبرى وكبيرة جداً ومذهلة أمام كل الأوساط ولا شك في ذلك ويبقى الدور الخفي لزكريا عزمي في هذه القصة وهل كان يجب أن يبعد الدكتور أسامة الباز عن السلطان مبارك لهدف عند يعقوب؟! هل قرر الإطاحة به عن طريق شائعة زواج عرفي بين نبيلة والباز..؟! دسائس ومكائد السياسة كثيرة ومتنوعة، وكلها تتراقص بشأنها علامات استفهام كثيرة.

مذكرات نبيلة عبيد هل تكشف زكريا عزمي؟! :

ولعل نبيلة عبيد تكشف لنا في مذكراتها التي أعلنت أنها ستصدرها قريباً وأتمنى أن أسجلها لها كما سجلتها لغيرها بداية بالملكة فريدة، وتكشف فيه النقاب عن حقيقة هذا الزواج وكيف بدأت العلاقة بينها وبين هذا الرجل السياسي المتهذب أسامة الباز؟

والفارق كبير بين رجل سياسة من الطراز الرفيع مثل الدكتور أسامة الباز ونجمة سينائية مثل نبيلة عبيد أو بلبلة كما نداعبها وندلعها دائماً بهذا الأسم أفسد بين السياسة وبين الفن...! بين الراقصة والسياسي عندما ذكر ذلك إحسان عبد القدوس...! عموماً المؤكد أن زكريا عزمي له دوره في هذه القصة المثيرة عن زواج أسامة الباز من نبيلة عبيد، وهو المستشار السياسي للسلطان...!

هل لعبها صح زكريا عزمي للإطاحة بأسامة الباز؟!

ولعل الفنانة نبيلة عبيد تكشف لنا في مذكراتها خفايا قصة زواجها من السياسي الدبلوماسي البارز الدكتور أسامة الباز والدور الحقيقي الذي لعبه رئيس ديوان السلطان مبارك زكريا عزمي .. الحقيقة كاملة عند نبيلة عبيد أسرار القصور الرئاسية توجد عند نبيلة عبيد عن طريق الدكتور أسامة الباز لكن بصفة خاصة أريد أن أعرف منها الدور الخفي والمجهول لنا حتى الآن لزكريا عزمي .. وهل كان هذا الزواج بداية انهيار عرش مستشار السلطان مبارك؟! عن طريق دسائس زكريا عزمي .. عند نبيلة عبيد الحقيقة!!

وراء كل فاسر .. هانم

ثروات زوجات رجال نظام مبارك المجهولة

«الهوانم» التالية أسماؤهن، تمّ التحفظ على أموالهن فردوس عباس زوجة سمير رجب وابنته ريهام .. فيروز محمود عبد العزيز زوجة ممتاز القط وابنته سارة، عايدة صبحي عبد النور زوجة محمد على إبراهيم وابنته دينا والقائمة تطول ! إنهن «حريم عصر مبارك» مضافاً إليهن بالطبع أسماء «ثقيلة» و«رنانة» من قبيل : سوزان ثابت خديجة الجمال وهايدي راسخ .. الإشكالية أن «أموال الأزواج» المدفونة في أرصدة «الزوجات» قد تخرج براءة .. ليصبح الرجال في السجن والزوجات في هواء الحرية الطلق .

منذ أيام قليلة أكدت مصادر قضائية بجهاز الكسب غير المشروع الذي يترأسه المستشار يحيى جلال مساعد وزير العدل، أن الجهاز شكل لجاناً من كبار مسؤوليه للتعاون مع مباحث الأموال العامة والجهاز المركزي للمحاسبات والأجهزة الرقابية، لفحص ثروات رجال النظام السابق وعلى رأسهم الرئيس المخلوع حسني مبارك، لبيان مصادر الثروة ومقدارها .

هذا الإجراء اتخذه المستشار يحيى جلال، بعد أن جاء خلفاً للمستشار عاصم الجوهري، وتبين وجود قضايا انتهى منه الجهاز في عهد الجوهري، إلا أنها لم تحال حتى الآن إلى القضاء بسبب تأخر تقارير خبراء الكسب .

وأشارت المصادر، إلى أن اللجنة بدأت أعمالها وتمكنت من ضبط باقي المستندات والأوراق الخاصة ببعض فيلات مسؤولي النظام السابق، والتي توضح مدى تضخم الثروة، ولم تكن مثبتة في التحقيقات الأولية .

وأثبتت التحقيقات وتقارير الجهاز أن الأموال التي دخلت مصر عن طريق التحويلات البنكية بعد الثورة وقبلها بأيام أكبر من التي خرجت منها .. والحقيقة أن الأوراق الرسمية تؤكد أن رموز النظام خططوا منذ سنوات لهذه اللحظة التي ينهار فيها الحكم .. وبذلوا جهودهم في غسيل أموالهم خارج مصر في شركات «أوف شور» عبر البحار مثل التي أنشأها جمال مبارك في قبرص وهرب إليها معظم أمواله .. وبالمناسبة قبرص ومثيلاتها لا تتعاون في رد الأموال المهربة لأنهم يهتمهم وجود هذه الأموال في بلادهم وإرضاء عملائهم الخارجين عن القانون بغض النظر عن القانون الدولي .

وقام رموز النظام السابق بلعبة غسيل الأموال بإقامة مشروعات في العديد من الدول الأوروبية التي تسعى بعضها الآن إلى الاستيلاء على هذه الأموال التي يؤول معظمها إلى الدولة في حالة موت صاحبها .. الواقع يؤكد أن مبارك ورموز نظامه أنفقوا على إخفاء أموالهم بالخارج ملايين الدولارات .. وهذا الأمر لم يحدث في يوم وليلة .. وحتى الآن لم نكتشف إلا قشوراً في ملف أسرار أموال رموز النظام .. والأمر كان يحتاج إلى لجان متخصصة لها خلفية أمنية للتفاوض مع رموز النظام داخل السجن لرد هذه الأموال مقابل السماح لهم ببعضها .. بدلاً من انتظار حبائل القضاء .. وتعطف الدول الأوروبية التي تراوينا لرد أموالنا المنهوبة .. فمن المؤكد أننا خسرنا بعد الثورة أضعاف هذه الأموال .. وبالتحديد ٣٠٠ مليار جنيه . وكان من الممكن ضخ هذا المبلغ في الموازنة العامة لإنعاش اقتصاد البلاد بدلاً من الجري وراء شعارات الانتقام التي لم تفد الشعب المصري .

فتش عن المرأة:

(فتش عن المرأة) عبارة تقال عقب كل كارثة أو مصيبة تحدث للرجل لأن الاعتقاد السائد في العالم بأسره أن المرأة هي المحرض الأول لكل البلاوي والكوارث، وذلك منذ بدء الخليقة حين أوصت حواء آدم بأن يأكل التفاحة وكان ما كان، اليوم سقط النظام الحاكم في مصر وأصابع الاتهام لم تتوجه فقط لرجال الحكم أو الرئيس السابق مبارك،

حيث كانت لزوجاتهم حصّة الأسد في ذلك كونهن كن الأيادي الخفية والعقول المدبرة أو بالأحرى المشاركة في اتخاذ القرار السياسي .

لكن اليوم الوضع مختلف ودخل رجال النظام السجن ودخلت أموالهم في حسابات زوجاتهم، وبدأت الأخبار تشير إلى أن سبع زوجات من رموز الحكم السابق طلبن الطلاق على الأقل رغبة منهن وأزواجهن في الحفاظ على الثروات التي آلت إليهن خوفاً من تجميدها أو المنع من التصرف .

على رأسهن بل وأشهرهن شاهيناز النجار زوجة أحمد عز التي تطلقت منه حتى تتمكن من تقديم تظلم جديد للمحكمة لرفع التحفظ على أموالها وممتلكاتها الخاصة والثابتة ملكيتها لها قبل زواجها من أحمد عز لكن المحكمة رفضت تظلم شاهيناز النجار من زوجها .

وقد أكد المحامي الخاص بشاهيناز النجار في أحد اللقاءات الصحفية أن علاقتها بإمبراطور الحديد ما زالت مستمرة حتى الآن ولم تطلب الطلاق منه على الإطلاق كل ما في الأمر أنه قبل الثورة كان هناك بعض الخلافات بينها كأي زوجين وحصلت الثورة ودخل أحمد عز إلى السجن وأي خلاف بينهما قد تجمد نهائياً .

- وشاهيناز ليست الزوجة الوحيدة لعز، الكل يعرف أنه كان مزواجاً .. في تاريخه أربع زوجات معلنة، الأولى هي خديجة أحمد كامل ياسين، وهي ابنة نقيب الأشراف السابق، وقد استفاد عز من هذا الزواج كثيراً، خاصة أنه كان في بداية حياته، وهي كانت من أسرة عريقة وميسورة، واستطاع من خلالها أن يصبح من الأشراف .

- الزوجة الثانية هي عبلة عمر فوزي، ويقال إنها كانت سكرتيرة عز الخاصة، وكانت دائماً تلازمه في كل مواقع العمل، خاصة في مجلس الشعب حين كان رئيساً للجنة الخطة والموازنة، وكان كل من بالمجلس يعرفون أن عبلة زوجة عز، البعض كان يدعي أنه متزوج منها عرفياً والبعض الآخر كان يؤكد أن زواجهما

رسمي ولكنه غير معلن، زواج أحمد عز من عبلة فوزي كان له سمات خاصة، فقد تزوجها على طريقة الجاهلية الأولى، تحديداً فيها يخص زواج السادة والعبيد، فقد كان السيد يعاشر الجارية، وإذا حملت منه، وجاء المولود ذكراً حررها وولدها وأصبحت سيدة في قومها، بعد سنوات الرق .

عز تعامل مع سكرتيرته المشوقة الحسنة بنفس المنطق، فقد تزوج من عبلة بشرط أن يكون الزواج سرياً، وإذا استطاعت أن تصبح هي أم الولد، فسوف يعلن الزواج على الجميع، وبالفعل أنجبت عبلة لأحمد عز ابنه الذي منحه اسمه وهو أحمد .. لتصبح أم الولد زوجة علنية لرجل الأعمال الشهير، بل والأوفر حظاً من الأخريات لأنها أم الولد، والميراث الأكبر له بحكم الشرع، أي أن ما يمكن أن يتبقى من ثروة أحمد عز شبه مضمون .. لذلك فهي الأكثر حرصاً ودفاعاً عن زوجها وأكثر اطمئناناً لموقفها ..

الزوجة الثالثة واسمها مجهول للعامة، كانت صديقة سكرتيرته عبلة، وتعرف عليها بعد أن تزوج عبلة، ولم يستمر معها فترة طويلة وطلقها دون إعلان أي أسباب لذلك فإنها محتفية الآن عن حياته، ولا يعرف عنها أي معلومات تذكر ..

الزوجة الرابعة هي شاهيناز النجار، التي تزوجها عز في ٢٠٠٧ وكانت نائبة في البرلمان، لكنها قدمت استقالتها وكان هذا شرطه الأول والأساسي، وقد كانت موافقة شاهيناز على الزواج من عز مثار جدل كبير في الوسط الإعلامي والسياسي، فقد تنازلت عن طيب خاطر عن مكسبها السياسي الأكبر، وهو عضوية مجلس الشعب، لكن من المؤكد أنها كانت تعرف ما الذي تفعل فهي اليوم تتنازل عن عضوية مجلس الشعب، مقابل أن تحصل على ما هو أكبر وأهم، فأحمد عز رجل بلا سقف لطموحه، وقد يكون الرجل الثاني في المستقبل، بل ليس بعيداً أن يكون الرجل الأول، وبذلك يمكن أن تصبح في يوم من الأيام السيدة الأولى في مصر .. الأحلام .

خديجة رفضت الطلاق:

تأتي بعد ذلك أخبار عن السيدة خديجة مبارك ونقلت الصحف عن مصادر موثوقة بها أن والدها رجل الأعمال محمود الجمال ضغط عليها لتطلب الطلاق ما جعلها تترك

شرم الشيخ وتعود إلى شقتها في الزمالك وبرفقتها طفلة فريدة لكن تبين بعد ذلك أن كل ما يقال مجرد فرقعات إعلامية لأن زوجة السجين لا يمكنها طلب الطلاق إلا بعد الحكم عليه أكثر من ثلاث سنوات وتنقضي منها سنة وأن الحالة الوحيدة التي يمكن قبولها هي الخلع كما فعلت المذيعة هالة عبد الله زوجة رجل الأعمال هشام طلعت المتورط في قضية قتل سوزان تميم؟

هايدي زوجة علاء مبارك؟

وإذا كانت الأنظار كلها مركزة على خديجة زوجة جمال فإن هناك أيضاً هايدي راسخ زوجة علاء مبارك الابن الأكبر للرئيس المخلوع والذي تزوجته عام ١٩٩٦ وانجبت منه ولدين هما محمد الذي ولد عام ١٩٩٧ وتوفي عام ٢٠٠٩ وعمر مواليده ٢٠٠٣ وبعد قيام الثورة المصرية أعلنت هايدي أنها ترفض السفر أو مغادرة مصر حتى تتمكن من زيارة قبر طفلها محمد وبعد إلقاء القبض على جمال وعلاء استدعى المستشار عاصم الجوهري كل من هايدي وخديجة في ٢٦ أبريل ٢٠١١ وحقق معهما بالكسب غير المشروع لكن التحريات كشفت أن هايدي تمتلك فيلتين قبل ارتباطها بعلاء لكن هذا لا يمنع من أن ثروتها ازدادت بعد زواجها منه خصوصاً أن علاء كان شريكاً في أكبر شركات مصر من دون رأس مال وقيل إنه السبب بموت وجيه أباطة بعد أن سرق منه صفقات استيراد شركة البيجو الفرنسية وأصبح من الأغنياء بسبب استغلال نفوذ والده بالحصول على صفقات ومساحات شاسعة من الأراضي .

زوجات العادلي:

لعل العادلي ضرب الرقم القياسي بالزواج من بين رجال النظام السابق حيث تزوج عشر مرات، منها زواجه من الصحفية إلهام شرشر طليقة أشرف السعد صاحب إحدى شركات التوظيف . مع سقوط النظام تقدم طليقتها ببلاغ يتهمه فيه بالاستيلاء على شقته في الزمالك وكيف أنه لم يكن ليجرؤ أن يتكلم خوفاً من بطش العادلي وحملت الوثيقة التي تضمنها البلاغ عن امتلاك أشرف لشقتين في الزمالك تم التحفظ عليهما ويقدر

ثمنهما بـ ٦ ملايين جنيه وكلف أشرف محاميه جميل سعيد بمتابعة القضية والمفارقة أن إلهام بعد سقوط النظام حاولت ترك مصر لكنها فشلت ثم حاولت أن تواكب نبض الشارع لكنها طردت وفشلت خصوصاً أنها كان تعمل محررة في صفحة الحوادث في الأهرام. (*)

«حاکمة قرطاج»..

أسرار سيطرة لیلی بن علي وعائلتها علي تونس

في كتاب «حاکمة قرطاج الید المهيمنة علي تونس» يكشف الصحفيان الفرنسيان نيكولا بو وكاترين جراسيه كواليس الحكم في تونس، كما يرصدان بالتفاصيل كيف تحولت سيدة تونس الأولى السابقة لیلی الطرابلسي زوجة الرئيس المخلوع زين الدين بن علي إلى المرأة الحديدية في قصر الرئاسة، نجحت لیلی بن علي في التحكم في شؤون البلاد والسيطرة على كل القطاعات الاقتصادية من خلال شبكة عائلية أقرب للمافيا مسكت مقاليد الحكم التونسي ورسمت أقدار الشعب الذي أصبح كله تحت رحمة لیلی وعائلتها.

وكانت لیلی الطرابلسي قد رفعت قضية أمام المحاكم الفرنسية وطلبت حظر بيع هذا الكتاب، ووصفت الكتاب بأنه يعتمد التشهير بها والهجوم عليها دون وجه حق. ولكن القضية تم رفضها وحكم على سيدة تونس الأولى في ذلك الوقت بدفع تعويض قدره ١٥٠٠ يورو لدار النشر، ومن المعروف أن لیلی الطرابلسي هي الزوجة الثانية لزين العابدين تزوج منها عام ١٩٩٢ بعد علاقة عاطفية استمرت عشر سنوات في الخفاء وأنجب منها ابنتين هما نسرين وحليمة وفي عام ٢٠٠٥ أنجبت له لیلی ابنه الوحيد محمد. وكان زين العابدين متزوجاً من نعيمة الكافي ابنة الجنرال الكافي وارتبط بها عام ١٩٦٤ وساعده والدها في الصعود السياسي وأنجب منها ثلاث بنات هن دورصاف برين وغزوة، وقد طلقها عام ١٩٨٨.

١- جندتها المخابرات التونسية للتقرب من أصدقاء القذافي

يطرح الكتاب في بدايته سؤالاً مهماً وهو من هي ليل الطرابلسي؟ هل هي فتاة سهلة، كما لم يتردد بعض المواطنين في وصفها، امرأة من خلفية متواضعة تسعى لتحقيق النجاح دون الاهتمام كثيراً بالاعتبارات الأخلاقية؟ أما هي امرأة طموح ومستقلة ساعدتها العلاقات العاطفية على الصعود الاجتماعي؟ من الصعب جداً الإجابة عن هذا السؤال مع عدم وجود حد فاصل يميز بين الشائعات والحقائق. ومما يزيد من صعوبة الموقف هو وجود اثنتين من ليل الطرابلسي.

اسم الطرابلسي وكما ذكرنا شائع جداً في بلاد الياسمين، وليس من الغريب انتشار اسم ليلي الطرابلسي، ولكن المفاجأة الحقيقية، أن المجتمع التونسي عرف امرأتين بهذا الاسم عملتا في نفس المجال الذي جمع بين صالونات تصفيف الشعر ووزارة الداخلية في فترة الثمانينيات من القرن الماضي.، هذا التشابه كان من شأنه أن يلقي بظلاله على سيرة حياة سيدة تونس الأولى السابقة. فالسيدة التي تحمل نفس اسمها عملت في الثمانينيات في محل تصفيف الشعر «دونا» الذي كان مقراً لسيدات المجتمع الراقي ومركزاً للعلاقات المتشابكة، ومن خلاله نجحت ليل في تكوين شبكة علاقات قوية وعملت مع وزارة الداخلية ثم مع المخابرات حيث لعبت دوراً مشابهاً لدور ماتا هاري الراقصة الهولندية الشهيرة التي استغلت المخابرات علاقاتها مع كبار رجال السلطة والسياسة من أجل جمع المعلومات. وبفضل جمالها الساحر استغلت المخابرات التونسية ليلي الطرابلسي لجمع المعلومات في الأوساط الليبية. في بداية الثمانينيات كانت العلاقات متوترة بين ليبيا وتونس، وكانت الأولى تنظر لجارتها الخضراء باعتبارها مركزاً للمتعة، ولهذا لجأت المخابرات التونسية للدفع بعدد من النساء في أحضان أصدقاء القذافي، وكانت ليل الطرابلسي واحدة من تلك النساء، ويقال إنها ليبية الأصل والدليل اسمها نجحت المخابرات التونسية في تجنيدها، وهذه الافتراضية معقولة خاصة أن لديها جواز سفر مزدوجاً ولقبها مقتبس من مدينة طرابلس.

علي أية حال، عرفت ليلي طريقها للسلطة، وعرفت الكثير من رجال الحكم بما في ذلك الجنرال زين العابدين بن علي، وفي أواخر الثمانينيات أصبحت عشيقة محمد علي المحجوبي المعروف لدي أصدقائه باسم الشاذلي الحامي. هذا الرجل كان أول رئيس لأمن الرئيس زين العابدين بن علي ثم وزير الداخلية. ولكن الشاذلي الحامي وعشيقته ليلي كانا مصدر إزعاج للسيدة الأولى المستقبلية، ففي ذلك الوقت لم تكن ليلي الطرابلسي سوي عشيقة للرئيس ابن علي. لقد شعرت عشيقة الرئيس بالتهديد من جانب عشيقة وزير الداخلية التي يجمعها نفس الاسم، وكانت النتيجة طلب ابن علي من الشاذلي التخلص من الحبيبة غير الشرعية ذات التاريخ المثير للجدل، ولكن الشاذلي رفض لتأخذ القصة مجري مختلفا. في عام ١٩٩٠ تم القبض على وزير الداخلية وعشيقته واتهمهما بالتخابر مع إسرائيل. حل علي الجنزاوي محل الشاذلي في الخارجية والأمن وكان يحظى بحماية ليلي الطرابلسي الرئيسة الفعلية لتونس. والمؤكد أن قصة التخابر مع إسرائيل كانت قصة وهمية والدليل الإفراج عن الشاذلي بعد مرور عامين.

أما ليلي الطرابلسي زوجة رئيس تونس السابق فقد ولدت عام ١٩٥٦ في عائلة متواضعة تعيش في باردو والبعض يشير إلي أن أغلب أفراد عائلة الطرابلسي يعيشون في مدينة حفيصة وهي واحدة من أكثر المناطق المتهدمة في تونس. والدها بائع فواكه مجففة ووالدتها ربة منزل تتولي تربية ١١ طفلاً وطفلة. دخلت ليلي مدرسة تعلم تصفيف الشعر وعملت في البداية بمحل تصفيف وفاء حيث التقت وهي في الثامنة عشرة من عمرها مع زوجها الأول خليل معاوية صاحب إحدى وكالات الرحلات ولكنها لم تستمر معه سوي ثلاث سنوات قبل أن يطلقها. في ذلك الوقت عملت ليلي في وكالة ٢٠٠٠ السياحة وكانت لاتزال في بداية العشرينيات، فتاة مستقلة صغيرة تقود سيارة رينو وتسعى لاكتشاف العالم وتعشق السهر، بدأت ليلي رحلتها مع عالم جديد عليها تعرفت فيه على رجال الأعمال والسلطة وأدركت أن طموحاتها تتجاوز أحلام الفتاة الصغيرة القادمة من بيئة متواضعة. في ذلك الوقت كانت معروفة باسم «ليلى جن» حيث كانت تعشق مشروب الجن الكحولي، وكانت حريصة علي إبقاء علاقاتها العاطفية

المتعددة سرا. في محاولة لزيادة دخلها كانت تسلم بعض البضائع الجمركية ما بين ايطاليا وباريس، وفي إحدى المرات تم كشفها وسحب جواز سفرها.

أما اللقاء الذي أعاد تشكيل حياة ليلى الطرابلسي كان مع فريد مختار أحد الشخصيات العامة في تونس عاشق الفن وكرة القدم وصاحب الشركة التونسية لصناعة الألبان إحدى كبرى الشركات التونسية، كما أنه شقيق زوجة محمد مزالي رئيس الوزراء آنذاك. بفضل فريد تم التعاقد مع ليلى بوصفها الأمين التنفيذي في باتيمات إحدى الشركات المصرفية الكبرى.

علاقة ليلى مع فريد مختار استمرت لأربع سنوات حتي وضع فريد نهاية لها عام ١٩٨٤، وهو نفس العام الذي شهد عودة ابن علي من منفاه في بولندا. لقد عاد المحب القديم وفي تلك المرة لم يكن ابن علي مستعداً للابتعاد عن حبيبته التي أصبحت عشيقته الرسمية، وبالفعل اشترى لها فيللاً أنيقة على طريق سكرة، وعاشت ليلى في ظل عشيقها الذي عاد لمنصب وزير الداخلية. جمع بينهما الحب والطموح السياسي وكان ابن علي يقول لها «اصبري سنكون قريباً في قصر قرطاج».

٢- الصراع بين الرئيس والرئيسة

ليلي الطرابلسي لا تكتفي فقط بدور السيدة الأولى فهي تسعى دائماً لسياسة مرتفعة خاصة بها، ولا تكتفي بأن الجميع يطلق عليها لقب الرئيسة وأن الكل يدرك أنها من تحكم بالظل، فهي تريد مكانة علانية ومعترفاً بها. وقد كثفت جهودها في الفترة ما بين ٢٠٠٤ و ٢٠٠٥ من أجل تحقيق هذا الحلم، وفي أكتوبر ٢٠٠٤ حظيت بشرف قراءة الكلمة الختامية لمرشح التجمع الدستوري الديمقراطي، وهو زوجها. لقد صفق لها الجميع عندما أنهت كلمتها، ولكن لم يكن الجميع يشعر بالرضا، في مقدمة الراضين لمحاولة ليل لاحتلال مكانة سياسية كان نبيل عادل الرجل القوي في الأمن الرئاسي والمسؤول عن ملف الإرهاب والإسلاميين، لقد عبر عن رفضه لهذه المحاولات وكانت النتيجة القبض عليه بتهمة الفساد. ثار العديد من المسؤولين في الدوائر الأمنية على الطريقة التي تعاملت بها زوجة الرئيس مع نبيل عادل، كما عبر عدد من العسكريين ومن كوادرات التجمع الدستوري الديمقراطي عن غضبهم في رسالة غير موقعة نشرت على الإنترنت في أبريل ٢٠٠٥ عبروا فيها عن رفضهم لممارسات قصر الرئاسة. وأمام حالة الغضب التي اجتاحت الأوساط السياسية والدوائر المحيطة بقصر الرئاسة، فضلت ليل التراجع عن مخططها السياسي والتركيز على قضايا المرأة. ظاهرياً، لم تلعب زوجة الرئيس أي دور سياسي حقيقي، ولكن مكانتها في الحكم زادت صلابتها منذ إنجابها للابن الذكر الوحيد لزين العابدين بن علي والملقب بالأمر الصغير الذي يحتل قلب والده المجنون به.

هناك الكثير من الحكايات عن قوة ونفوذ ليلي ... محمد جيجهام رجل يحمل تاريخاً كبيراً بالعمل السياسي، فهو يحظى بثقة زين العابدين، وزير دفاع سابق، وزير داخلية سابق، ومستشار الرئيس السابق، لهذا الرجل سيرة لا غبار عليها، لكن هذا التاريخ العريق لم يساعده في مواجهة غضب ليلي. في ٢٠٠٧ قدم هذا الرجل مشورة لزين

العابدين بضرورة الانتباه لزيادة فساد عائلة الطرابلسي. لم تنتظر ليلى كثيرا وتم نفي الرجل خارج تونس كسفير لبلاده في روما ثم تم نقله إلى بكين ولكنه رفض وفضل التقاعد ليبدأ عمله الخاص.

ولكن يبقى المجال المفضل لزوجة زين العابدين هو المجال الاقتصادي، وتؤكد الشائعات أنها كانت تجتمع مع عائلتها في الصالون الأزرق بقصر قرطاج لكي يتشاوروا بشأن المجال الاقتصادي الذي يمكن الاستيلاء عليه. إذا شعرت بأهمية مشروع اقتصادي تحدد أحد من أفراد أسرتها لكي يدخل في المشروع ويشارك أصحابه المكاسب. وفي حالة حدوث خلاف تتولى هي الحكم بين المختلفين من أفراد عائلتها، فهي زعيمة المافيا التي يخضع لها الجميع.

والسؤال الذي يطرح نفسه أين زين العابدين؟ ماذا كان يفعل الرئيس؟ وأين ذهب في الوقت الذي زاد فيه نفوذ زوجته وعائلتها؟ أسئلة عديدة حاول بعض الملاحظين الإجابة عنها ومنها أنه كان منشغلاً بالقضايا الأمنية والعلاقات الدبلوماسية. وهناك تحليل آخر مجهول المصدر حمل عنوان «المناخ الفاسد في قصر قرطاج» تم نشره عام ٢٠٠٦ علي موقع تونس نيوز، وأشار هذا التحليل إلى أن زين العابدين محاط بعائلة زوجته، تلك العائلة التي تحولت لستار يحيط بالرئيس تنقل له ما تريد وتعزل عنه ما تخشاه، وفي النهاية الأمر يشعر زين العابدين بأنه الرئيس ولكنه في الحقيقة مجرد شخص ينفذ خطط الآخرين التي لا يدركها. البعض لا يتفق مع هذه الواجهة من النظر، حيث يرى الكثيرون أن زين العابدين هو من يمسك خيوط اللعبة ويحركها في الاتجاه الذي يريده، لقد أطلق لزوجته حرية التحرك والتخطيط ولكن حرص على أن تكون له الكلمة الأخيرة مستمتع في نفس الوقت بدور الضحية التي تسيطر عليه زوجته.

٣- الرئيس لعائلة زوجته: اسرقوا .. لكن المشكلة أن الناس كشافكم

خلال السنوات الأربع الأولى التالية على زواج ابن علي من ليلي الطرابلسي عام ١٩٩٣، لم تحظ عشيرة الطرابلسي بأي منافع من هذه الزيجة. هذا الوضع لم يستمر طويلاً، وفي عام ١٩٩٦ بدأت هذه العائلة في مسيرتها لنهب تونس. لم تصمد كثيراً عائلات الطيف مبروك أو شيبوب أمام العائلة الجديدة القادمة بقوة من أجل أخذ نصيبها من التورثة التونسية. في هذا العام وضع الشقيق الأكبر لزوجة الرئيس والقريب من قلبها بلحسن الطرابلسي يده على شركة الطيران التي سيصبح اسمها خطوط طيران قرطاج. لعب بلحسن الطرابلسي دور منسق الشؤون المالية لعائلته.

ويبدو أن تورثة تونس لم تعد تكفي سوى عائلة واحدة، فعشيرة الطرابلسي لا تفضل من يشاركها طعامها. لم يعد هناك صفقات مع أجناب دون أن يكون لعائلة الطرابلسي نصيب بها، لا توجد أرض قيمة لم يضعوا أيديهم عليها. لا يوجد فرد واحد من هذه العشيرة لم يستفد من الوضع الجديد. منصف الطرابلسي شقيق ليلي الثاني بدأ حياته مصوراً، وأراد الحصول على قرض من البنك لاستصلاح أرض زراعية، أبناء هذا الرجل وبفضل «ليلى الطرابلسي» أصبحوا من أهم رموز المجتمع التونسي. الابن الأكبر حسام أسس شركة موسيقية اشتهرت بعدم احترام العقود، الابن الثاني معز وشقيقه عماد المفضل لذي عمته زوجة الرئيس تورط في عملية سرقة ليخت بفرنسا عام ٢٠٠٨ ولكن بفضل عمتها لم يخضع لأي مساءلة قانونية.

جلیلة شقيقة لیلی حظيت بنصيبها من الفوائد وزوجها الذي كان يملك كشكا للبنزين أصبح واحداً من أشهر الأسماء في مجال العقارات.

في عام ٢٠٠٢ أدرك ابن علي أن عائلة زوجته تسيطر على البلاد وفي محاولة لحفظ النظام التقى بعدد من الأعضاء البارزين في أسرة الطرابلسي وقال لهم «إذا أردتم المال، فعلى الأقل قوموا بإخفاء الأمر، استخدموا ستاراً من الشركات والشخصيات الوهمية». أي في عبارة أخرى اسرقوا باحترافية.

ولكن يبدو أن عائلة الزوجة لم تنفذ نصيحة بن علي، لقد تدخلت عائلة الطرابلسي في كل القطاعات الاقتصادية سواء بعلم أو بدون علم الرئيس التونسي بن علي. فقد كان هناك ملكة تحكم قصر الرئاسة وتونس هي ليلي حاكمة قرطاج.

الباب السادس

عالم حریم السلطان

الاکثر اشارة..!

لوسی آرٹین فی مصر، لبنی وصوفیا فی المغرب

کریستین کیلر فی إنجلترا

وحکایتھن مع رجال الأمن العام الکبار ووزراء الحرب العظام



لوسي أرتين

أبرز النساء في حريم السلطان في مصر

إنها «فاتنة بيانكي» أو «كريستين كيلر مصر» كما وصفوها كلها أسماء لبطلة الفضيحة الأولى التي هزت مصر وصارت حديثاً يلوكه العامة والخاصة وأصبح اسمها مقترناً بعدد لا بأس به من الشائعات والروايات والحكايات، بينما في المقابل شملت قائمة المتورطين معها في الفضائح إياها أسماء لضباط كبار وقضاة ووزراء ومسؤولين لهم مراكزهم وسلطاتهم.

من هي لوسي أرتين...؟

وكيف ولماذا جعلوها نسخة مكررة من «كريستين كيلر» التي هزت بفضائحها الجنسية بريطانيا في فترة الستينيات وكانت سبباً مباشراً في انهيار حكومة حزب المحافظين!!

«لوسي أرتين» امرأة أرمنية في الثلاثين من عمرها بدأت الشائعات تنمو وتتكاثر حولها ورائحة الجنس تفوح من كل النواحي في ميادين وجودها في أي مكان جميلة رائعة جذابة شقراء مشوقة القوام لها حضورها الأنثوي الواضح للعيان في أي وقت حتى عندما يتذكرونها وهي غير موجودة..!

وهي في ملامحها تشابه - ليس في القصة فحسب - مع «كريستين كيلر».. لقد أوقفت «كريستين كيلر» وزير الدولة في وزارة الحرب البريطانية «جون برفيومو» والذي كان متزوجاً من الممثلة «فاليري هوتسون» أوقعته في غرامها عندما شاهدها تستحم عارية في يوم من أيام الصيف بالتحديد في ٨ يوليو ١٩٦١م وكانت ضيفة في "قصر كلايفدن" الذي يملكه «اللورد استور».

كانت «كريستين كيلر» في الوقت نفسه عشيقة لمساعد الملحق البحري السوفيتي

وعميل المخابرات السوفيتية في الاتحاد السوفيتي القديم. الكابتن «بوجين إيفانوف»، وكان هذا الرجل يمارس الجنس مع كيلر، وقد قالت فيما بعد أنه كان يشبع شهوتها وشغفها الجنسي فقد كان «مثل الفحل» على حد تعبيرها..!

تعددت لقاءات «كريستين» مع الوزير «برفيومو» وكان الجنس مشتتلاً بينهما، ونظراً لعلاقة «كريستين» مع عميل المخابرات السوفيتي «إيفانوف» فكان من الضروري تدخل رئيس جهاز الأمن لوقف هذه العلاقة. إلا أن «كريستين» تمكنت من إغراء رئيس جهاز الأمن وجمعت معها في فراش واحد.. لم يمض على بداية هذه العلاقات الفاضحة وقت طويل حتى نشرت كريستين مذكراتها في الصحف تفضح المسؤول الكبير بالدولة ورئيس جهاز الأمن وتتحول القضية إلى فضيحة كبرى تتفجر في مجلس العموم البريطاني في ٢٣ مارس ١٩٦٣.

ولابحد رئيس الحكومة «هارولد ماكميلان» ما يرد به على هذه الفضائح الجنسية لأعضاء من حكومته إلاً بقوله إن الحقيقة لم تصل إليه كاملة لأن رئيس جهاز الأمن - المشترك مع الوزير في الفضيحة - لم يخبره بها..!

كانت التفاصيل التي نشرتها الصحف عما كان يحدث في الفراش بين رجال الدولة و«كريستين» مقززة ومثيرة إلى حد كبير، ولم يكن أمام الوزير «برفيومو» ورئيس الأمن إلا أن يقدمَا استقالتهما إلى رئيس الحكومة بل إن الحكومة كلها انهارت وضاع حلم حزب المحافظين في مواصلة الحكم فقد كانت الفضيحة أكبر من أن تستمر بعدها حكومة نزيهة..

هذا ما حدث في بريطانيا خلال الستينيات، فقد أدت فضيحة جنسية إلى انهيار حكومة لفقدان الثقة وانعدام النزاهة، لم يقل أحد أن عضواً أو اثنين في الحكومة قد انحرفا في قضية أخلاقية وأن الأمر لا يقتضي أكثر من بتر العضو الفاسد وينتهي الأمر.. لكن للأسف لم يحدث في مصر على أثر تفجر فضيحة «الوسي أرتين» أن سقطت حكومة أو تحولت القضية إلى جهة تحقيق نزيهة، بل إن رئيس الحكومة قابل القضية

كلها باستهجان غريب عندما أثار صديقي المحامي الدمياطي الشهير الراحل الأستاذ كما خالد «بلدياتي» الفضيحة في مجلس الشعب!..

أيامها قال لي كمال خالد: لن أترك الأمر يمضي هكذا بسهولة نحن أمام انحراف رهيب وسلطان يجب ألا نتخاذل في توقيع العقاب على كل مسؤول ثبت عليه هذا الانحراف الأخلاقي عن طريق لوسي أرتين!..

بدأت الفضيحة بخبر بسيط نشر في جريدة الأهرام بالصفحة الأولى عن استقالة المشير عبدالحليم أبو غزالة» مساعد رئيس الجمهورية أيامها حسنى مبارك المخلوع الآن من الحكم ويقضي عقوبة المؤبد في سجن طرة!

في يوم نشر الخبر كان المشير أبو غزالة مسافراً إلى جنيف ولحقت به زوجته لقد فسر البعض خبر الاستقالة المفاجئ بأن الرجل يريد أن يتفرغ لإدارة أعماله الخاصة، لكن ما حدث بعد ذلك بدد الصمت المحير والغموض الذي يلف جميع الأوساط في مصر .. وتراقصت علامات استفهام كثيرة حول هذا الأمر، وحاولنا أن نوقفها ولكنها كانت تزداد تراقصاً!

فقد تم دفع مدير الأمن العام اللواء «ح-أ» ومفتش المباحث بوزارة الداخلية اللواء «ف.ع.أ» لتقديم استقالتهم غضباً!

وعندئذ تحول الهمس إلى صراخ وتبدلت الحيرة إلى تساؤلات، وبدأ الناس يخوضون في أمر فضيحة كبيرة بطلتها حسناء أرمنية لها علاقات فاضحة مع شخصيات بارزة منهم وزراء وضباط وقضاة وموظفون ومحافظ سابق!

أيامها قال الكاتب الصحفي الأشهر مفيد فوزي في مقاله «صباح الخير» :

لم أفهم مغزى تسرب معلومات عن «صاروخية لوسي أرتين» التي لعبت بذقون كبار رجال الدولة، وما المقصود من تمريرها للرأي العام؟ أم هي اجتهدات مخبر صحفي؟! وهل المسألة تقتصر على سلطان هذه المرأة الفتاة على الرجال؟!..

أو هناك ما هو أبعد من سرير لذة؟!

صحيح أن الفضيحة هي التستر على الفضيحة، ولكن لإشهار الفضيحة مغزى أعمق..!

بينما يقول نفس الشيء ولكن بصورة أخرى الكاتب الصحفي الكبير الراحل «عادل حسين» رئيس تحرير الشعب لسان حال حزب العمل المعارض:

دعكم من حواديت «لوسي» وعشاقها وقولوا لنا حكاية «أبو غزالة» فأنا أعرف كمواطن أنه من أبطال نصر أكتوبر العظيم وأنه عقلية عسكرية فذة، وأن تنحيته من وزارة الدفاع كانت في ظروف غضب أمريكي بسبب اتهامه بالعمل سرّاً على تنمية «صناعة الصواريخ المصرية» .. ثم يشير عادل حسين رحمه الله إلى وجود جهة ما خلف ترويج الشائعة هذه التفاصيل، وهذا التواتر المنتظم للشائعات التي ربطت بوضوح «أبو غزالة» بأنشطة المخدرات وتهريب السلاح وربطت كل ذلك بحكاية «لوسي أرتين» وشبكة عشاقها!؟

المعروف تماماً عن المشير أبو غزالة تمسكه بالقيم الرفيعة وأخلاقياته الرفيعة القيمة أيضاً، وأن الرجل يغار منه رئيس الجمهورية في ذلك الوقت حسني مبارك، وأنه وراء هذه الشائعات كلها عن طريق زكريا عزمي وآخرين رئيس الديوان وأتباعه في القصر الجمهوري..!

على كل حال تحولت التساؤلات في شائعات علاقات بين هذه الحسنة الأرمينية «لوسي» وكبار المسؤولين وعلى رأسهم أبو غزالة نفسه تحولت هذه التساؤلات بالفضيحة وتراقص علامات الاستفهام المستمر فيها من مجرد فضيحة داخلية تعكس الفساد والإساءة لبعض أجهزة الحكم إلى مؤامرة خارجية تريد إشعال النار وهدم عمد الاستقرار في هذا البلد..!

ومرة أخرى كان التساؤل عن التفاصيل المثيرة، وما هو أصل القصة والرواية؟ وما مغزى هذه التساؤلات والشائعات التي رافقت مولد هذه الفضيحة حتى تفجرها في جلسة ساخنة بمجلس الشعب وبتفاصيل يندى لها الجبين، كان بطلها بدون

شك المحامي الأشهر كمال خالد الذي عُرف دائماً بأنه يثير القضايا من هذا النوع، تماماً مثل إصراره في الدفاع عن اعتماد خورشيد ومرافعاته الشهيرة في المحاكم بشأن علاقاتها مع أجهزة الحكم والأجهزة السيادية، وكان يحاول أن يعرض للفساد من كافة صوره، وأن الفساد الأخلاقي يدمر البلاد كلها..!

من هي لوسي أرتين؟

هذه قصتها من الألف إلى الياء!

هل هي واحدة من حريم السلطان في عصر مبارك المخلوع..؟!

البداية في سطور تفاصيل هذا كله نقول عنها:

«لوسي أرتين»، سيدة أرمنية درست في مدرسة «نوبريان» وهي إحدى مدارس الأرمن بمصر الجديدة، كان أبوها موظفاً بإحدى الشركات الأجنبية وكان ميسور الحال، أما أمها «مايدا كوبليان» شقيقة «الفنانة لبلبة» فقد كانت تصغر الزوج بكثير عندما تزوجها وكانت في الرابعة عشرة من عمرها..!

وكما يقول المثل الشعبي «البت لأمها» فإن تحديد ملامح الأم «مايدا» يعكس لنا شخصية «لوسي» وقد يفسر سلوكها الذي انتهى بها إلى هذه الفضيحة!

عملت الأم «مايدا» موظفة علاقات عامة بأحد الفنادق الكبرى على النيل والمرأة ذات شخصية قوية مهيمنة وإن كانت متوسطة الجمال، لكن هذا لا يمنع أنها طموحة ولديها شغف غريب للمال، ولما كان جمالها وظروفها المتواضعة لم تمكنها من تحقيق أحلامها فقد وضعت كل ثقلها في ابنتها «لوسي» التي تتمتع بالجمال الرائع والجاذبية الشديدة إضافة إلى الطموح الزائد في حب المال..!

كانت رغبة الأم في استثمار جمال «لوسي» ودفعها إلى ما لم تستطع تحقيقه هو السبب في رفضها لشاب متوسط الثراء هو «بلاتيان»، كانت لوسي قد أحبتة وأصررت على الزواج منه إلا أنها رضخت لرغبة الأم خاصة عندما تقدم لخطبتها الشاب «يرفانت هواجيم أرتين» الثري والذي يملك والده مصنعاً للدخان في شبرا بالقرب من محكمة «زنانييري»

للأحوال الشخصية، والمصنع من أكبر مصانع القطاع الخاص المنتجة للدخان.

كان «برفانت أرتين» أو «يرو» كما يعرفه الأرمن شاباً وسيماً وجذاباً يهتم بأناقته، تلقى تعليمه في لندن وحصل على دبلوم تجاري من هناك كما سافر إلى معظم بلاد العالم. واستقر به الحال في مصنع الدخان الذي يملكه والده، وقد أدخله شريكاً معه بنسبة ٣٣٪ من المكسب إضافة إلى مرتب ثابت يتقاضاه كل شهر.

كان «يرفانت أرتين» قد تعرف على «لوسي» في أحد الأندية الخاصة بالأرمن وجذبه إليها جمالها الأخاذ وجاذبيتها الشديدة فأحبها حباً جماً لدرجة أنه تحدى أهله من أجلها، فلم يكن أبوه أو أمه في الواقع راضيين عن زواجه منها..!

لكن رغم ذلك وبالرغم من المشاكل التي حدثت في فترة الخطوبة إلا أن الزواج تم في ديسمبر ١٩٨٤، وكان «يرفانت» في الثلاثين من عمره بينما كانت لوسي في الواحدة والعشرين من عمرها..!

كان حفل الزفاف فنياً سياسياً، فقد حضر الحفل من الفنانين والدها خال أم «لوسي» «ولبلبة» و «بدر الدين جمجوم» وحسين فهمي كما كان مفروضاً أن يحضر الزواج شخصية سياسية كبيرة كما أخبرت «لوسي» بذلك المدعويين - إلا أن الظروف حالت دون حضور هذه الشخصية، ولا يعرف أحد من كان هذا المسؤول السياسي الكبير، وما صلته بـ «لوسي»!

المهم أن الزواج قد تم بين الخواجة «يرفانت أرتين» و «لوسي» وكان الزوج قد اشترى لها شقة تحتل الدور الأرضي من فيلا مكونة من ثلاثة طوابق بأحد الشوارع الهادئة بضاحية مصر الجديدة، وتتكون الشقة من خمس حجرات كبيرة ولها ثلاث شرفات تطل على حديقة الفيلا التي تكسوها الخضرة والزهور الجميلة.

أما صالة الشقة فتوسطها صورة كبيرة مرسومة لـ «لوسي أرتين» وبالرغم من القضايا والمشاكل والانفصال - والذي سوف نتعرض له بين الزوجين إلا أن زائر الفيلا لا

يزال يجد اسم الزوج «يرافنت هواجيم أرتين» مكتوباً على قرص خشبي مثبت على أحد البابين الخارجين للفيلا.

بعد عام واحد من الزواج أنجبت «لوسي» ابنتها الأولى «ناتالي» وبعد ذلك بعامين أنجبت طفلتها الثانية «ميلاتي» عام ١٩٨٧ وقبل إنجاب الطفلة الثانية وعندما كانت «لوسي» حاملاً بدأت المشاكل بينها وبين زوجها «يرفانت» ويهمنا هنا الإشارة إلى ذلك تفصيلاً لأنها البداية الأولى على الطريق.

هذه البداية كانت عندما ذهبت «لوسي» إلى قسم مصر الجديدة لتحرير محضر ضد الزوج ادعت فيه بأنه هجم عليها بسكين، وقالت في المحضر: «هو عايز يخرج البيبي من بطني»..! هذا في الوقت الذي ينفي الزوج «يرفانت» ذلك تماماً ويقول إنها هي التي ذهبت إلى الدكتور لتجهض نفسها..!

بعدما أنجبت لوسي الطفلة الثانية، تجددت المشاكل بصورة كبيرة بين «لوسي» و«يرفانت» وكان للأم، الدور الأكبر في دفع ابنتها «لوسي» إلى إرهاب الزوج بالطلبات المالية الباهظة التي كان يتهرب من تلبيةها مما دفعها إلى اللجوء للمحاكم بتشجيع ومساعدة من أمها..!!

بدأ طريق المحاكم بقضية نفقة وانتهى هذا الطريق بفضيحة كبيرة تزكم الأنوف، جرت في أذيالها العديد من كبار الشخصيات والمسؤولين بالدولة كانت «لوسي» قد رفعت قضية النفقة عام ١٩٨٧ أمام محكمة مصر الجديدة حيث حكمت لها المحكمة بنفقة ٦٠٠ جنيه شهرياً وحكم لابنتها «نثالي» و«ميلاتي» بنفقة قدرها ٥٠٠ جنيه شهرياً، وتأييد هذا الحكم في استئنافين مرفوعين من جانبها وزوجها.

إلى هنا والقضية تبدو نزاعاً عادياً بين زوجين يحدث كثيراً ونشهد مثله الكثير يومياً في محاكم الأحوال الشخصية، لكن ما حدث بعد ذلك هو الذي تحول بالقضية إلى فضيحة جنسية وأخلاقية هزت أركان المجتمع المصري وحركت سكونه وصمته..!!

لوسي تصبّح من حريم السلطان وتستنّين به...١

أصبحت لوسي بقدرة قادر من حريم السلطان .. أي سلطان من الحكام والرؤساء وكبار الشخصيات والوزراء والقادة والساسة وغيرهم، واستغلت صلاتها ببعض كبار رجال الدولة وحركت القضية من جديد بهدف رفع قيمة النفقة الشهرية، وقد حدث بالفعل أن ارتفعت النفقة ارتفاعاً مجنوناً، فبعد أن كانت نفقتها ٦٠٠ جنيه ارتفعت إلى ٥٦٠٠ جنيه في الشهر، وارتفعت نفقة طفلتيها من ٥٠٠ جنيه إلى ٣٥٠٠ جنيه في الشهر!!

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إن الزوج «يرفانت» تعرض لمحاضر مختلفة، وشبه يومية، كما تعرض للضرب وتحطيم صدره وسيارته..!

واستشعر الزوج المسكين أن هناك قوة وسلطاناً قوياً لا يستطيع مواجهتهما ولا قبل له بها تقف مع زوجته مؤيدة ومساندة، وأنه يمكن أن يتعرض لما هو أكثر من ذلك إذا بقي في القاهرة في مصر، ولم يجد أمامه عندئذ سوى أن يهرب بجلده إلى خارج البلاد فسافر إلى استراليا.

حتى هذه اللحظة لم يكن في القضية ما يمكن أن يثير الرأي العام فقد كان كل شيء يحدث في نطاق محدود، لكن حدث ما فجر القضية كلها وأدى إلى تدخل جهات رقابية وأجهزة تحقيق، وأصبحت القضية فضيحة اجتماعية على كل لسان فما يا ترى الذي حدث وأدى إلى كل ذلك؟

وتراقصت علامات استفهام كثيرة في هذا التطور المفاجئ في القضية!؟

بعد مغادرة الزوج القاهرة ومصر كلها، استطاعت «لوسي» أن تحصل على حكم جديد من المحكمة يلزم والد الزوج «هواجيم أرتين» بدفع نفقة شهرية تبلغ ٩١٠٠ جنيه وبأثر رجعي وذلك بناء على فتوى حصلت عليها «لوسي» بتدخل شخصية كبيرة سنلقي الأضواء عليها فيما هو قادم - وكان هذا الحكم مخالفاً للقانون وينطوي على قدر كبير من التعسف، وكانت رائحة فضائح «لوسي» وعلاقاتها مع كبار المسؤولين

مما مكنها أن تصبح من حريم السلطان .. قد بدأت تتسلل إلى الأنوف وأخذت خيوط الفضيحة تذوب خيطاً بعد آخر لتكشف ما كان يحدث في الحجرات المغلقة وفي الظلام وكيف تورط الكبار من المسؤولين في كافة الميادين معها، وكانت الحيرة والتساؤلات والذهول الذي أصاب الجميع..!

عندما كثر الهمس واللمز حول هذه الحسناء الجذابة التي يسيل إليها لعاب الرجال...! خاصة من كبار المسؤولين!

تدخلت جهات رقابية في مراقبة تليفونها وتسجيل محادثاتها...!!
أما ما جاء في شرائط التسجيل فيقول عنه الأستاذ كمال خالد المحامي وعضو مجلس الشعب في ذلك الوقت:

«إن أشرطة التسجيل التي سجلت مكالمات هذه المرأة «لوسي أرتين» مع كبار المسؤولين مدتها تسع ساعات .. وما عليها رهيب ومثير ومجمل...!!»

هذه المكالمات نفسها هي التي دفعت محامي «لوسي أرتين» عندما تم إلقاء القبض عليها فيما بعد الأستاذ / مرتضى منصور الصديق العزيز، حيث ربطت بيني وبينه منذ القديم علاقة وثيقة واحترام كبير مني لشخصه أقول هذه المكالمات هي التي دفعته إلى التراجع عن الدفاع عنها كما ذكر عن ذلك فيما بعد حيث قال الأستاذ / مرتضى منصور:

«بعد سماعي التسجيلات وجدت أنه من غير اللائق أن أستمّر في الدفاع عنها» بل أنه قال أيضاً بع ذلك أنه سيرفع قضية على «لوسي أرتين» بصفته مواطناً يتهمها باستغلال النفوذ!

ومعروف عن مرتضى منصور تصديه من زمن طويل يسبق هذه القضية أنه يتصدى للفساد في أي موقع ولا يخشى في الحق لومة لائم .. إنه صاحب موقف في ذلك.

كمال خالد يكشف أسرار لوسي أرتين

وقال كما خالد أيامها في مجلس الشعب الذي كان عضواً فيه عن دائرته دمياط مسقط رأسه: هذه المرأة الفاتنة تمتلك شاليهاً فاخراً بشاطئ بيانكي في الإسكندرية. استقبلها الوزير الطيب -وزير الداخلية السابق «محمد عبدالحليم موسى» في مكتبه، وكلف بدوره مدير المباحث الجنائية اللواء «ف.أ» بتسهيل مهمتها وإنهاء مشكلتها وما كانت لهذا الوزير أن يستقبلها لولا أنها ذهبت إليه من طرف الدكتور «يوسف والي» وزير الزراعة..

ما هي علاقة وزير الزراعة ونائب رئيس الوزراء الأسبق الدكتور يوسف والي «المسجون» حالياً في سجن طرة بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ بـ «لوسي أرتين» ...؟! لم يكشف عنها «كمال خالد» في ذلك الوقت ومات ورحل عن الحياة دون أن يكشف عن تفاصيل هذه الصلة بين الدكتور يوسف والي والمعروف عنه أنه لم يتزوج في حياته على الإطلاق، بهذه المرأة الحسنة المثيرة الرائعة الجمال لوسي أرتين .. ولعل هذا أحد الجوانب الخفية في هذه القضية، أو هذه الفضيحة!

علاقة مشبوهة بين اللواء مدير المباحث الجنائية والحسنة

القاتنة لوسي أرتين .. ١..

لكن هناك علاقة قديمة مشبوهة يشير إليها «كمال خالد» بين الحسنة «لوسي أرتين» ومدير المباحث الجنائية في ذلك الوقت اللواء «ف.ع.أ» ٤٧ سنة كان قد تخرج من كلية الشرطة عام ١٩٦٦ والتحق بإدارة البحث الجنائي بقسم روض الفرج، وأصبح له مرشدون في كل مكان بالقسم، وفيما بعد تنقل بين وحدات الأمن في شمال وشرق وغرب القاهرة تساعده علاقاته وموقع عائلته الثرية وسمعته في الإدارة التي كانت تعتبره أفضل من يعيد الاستقرار لمناطق التوتر، حتى ترقى إلى منصب مفتش المباحث

بوزارة الداخلية كلها إذن فلم تكن هناك ضرورة لطلب وزير الداخلية من مفتش المباحث الشهير الإسراع في إنهاء مشكلة «لوسي» .. فقد كانت بين الحسناء والمفتش علاقة قديمة - كما قال «كمال خالد» في مجلس الشعب!

كيف ساعد مفتش المباحث المرأة الحسناء لوسي أرتين؟!

تتراقص علامات كثيرة حول علاقة مفتش المباحث صاحب السلطان على مستوى الجمهورية في وزارة الداخلية بالمرأة المثيرة الرائعة الجمال والتي تجذب كل الرجال؟
يشرح ذلك الخواجة هواجيم أرتين والد «يرفانت» زوج «لوسي أرتين» يقول : حضر عندي أحد الجنود وأخذني إلى مكتب مفتش المباحث بوزارة الداخلية مباشرة..
وجدت عنده «لوسي» ووالدتها والصغيرتين «ناتالي» و«ميلاني»!..

تأملت المشهد في صمت ولم أتكلم على الإطلاق بل نظرت إلى الجميع في تأمل؟!
حتى فوجئت بمفتش المباحث يقول لي:

يا خواجه انت ليه مانع ابنك يروح عند مراته؟!

فففيت ذلك وأخبرته بالحقيقة!

ويضيف «هواجيم» مكملأ قصته: بعدها طلب مفتش المباحث من «لوسي» أن تعتذر لي وتقبل يدي، ولكنها بدلاً من ذلك أخذت تسبني علناً أمام الجميع، وبعد ذلك صعدوا بي عند أحد ضباط وزارة الداخلية وقام بتحرير المحضر اللازم لهم، وبقيت في القسم الذي نقلوني إليه بعد ذلك حتى بعد منتصف الليل بساعتين وأحسست بإرهاق شديد جداً. . وأخذت أصرخ وأنا في حالة هياج وغضب شديد مردداً: أنا رجل متعلم ولي مكانتي في البلد وسوف أطالب برد شرف!..

ولم يسأل عني أحد...!!

أما اللواء «ح.أ.» الذي أصبح مديراً لمصلحة الأمن العام بالوزارة فقد تعرض لضغط شديد من الوزير السابق «عبدالحليم موسى» .. ! لكي يقدم استقالته، واستمر

هذا الضغط لأكثر من ساعة ونصف وذلك عندما تكشفت علاقته - هو الآخر - مع «لوسي»!!

كان مدير الأمن العام بالداخلية في ذلك الوقت، قد تخرج من كلية الشرطة عام ١٩٦١ وكان من الضباط المشهود لهم بالكفاءة والامتياز، وهذا ما أهله لكي يصبح مديراً لمباحث الوزارة ثم وكيلاً لمصلحة الأمن العام ثم مديراً لها.

وقد ساعد هذا الرجل صاحب المنصب الرفيع بالداخلية «لوسي» في استخراج جواز سفر لها بأنها آنسة!!

رغم الحقيقة البارزة والواضحة والمؤكدّة والمعروفة بأنها متزوجة ولها قضية نفقة، وبهذا الجواز تمكنت «لوسي» من السفر إلى جهات مختلفة، وبصفة خاصة الولايات المتحدة الأمريكية!!

وعندما حاول الزوج الاستفسار عن الكيفية التي استطاعت بها زوجته من السفر إلى جهات لا يعلمها ودون إذن منه تعرض إلى علقه ساخنة على أيدي رجال الأمن وبأوامر صريحة من مدير الأمن العام بالوزارة!

إن المرء تملكه الدهشة من النفوذ الذي كانت تتمتع به «لوسي» داخل ردهات وزارة الداخلية في عهد حسني مبارك الذي كان رئيساً لمصر وتم خلعها بعد قيام الثورة الشعبية ضده في ٢٥ يناير ٢٠١١ والذي تراقصت علامات استفهام كثيرة حول علاقته هو «بلوسي» وأن زكريا عزمي رئيس ديوان الرئاسة كان شغله الشاغل تلقين «لوسي» النكات الرخيصة لتقوم بسردها أمام مبارك الذي كان يتمتع بذلك، والذي سيأتي دوره بعد ذلك في التخلص من ألد خصوم المشير أبو غزالة عن طريقها بشائعة رخيصة ضد رجل فاضل محترم اسمه المشير عبدالحليم أبو غزالة وكما ستعرف على ذلك أو سندرك أن «لوسي» لعبت عن طريق أنوثتها الصارخة أبرز أدوار حريم السلطان!!

لقد وصل الأمر إلى الدرجة التي استطاعت بها «لوسي» الحصول على رخصة سلاح

في فجر نفس اليوم الذي طلبت فيه ذلك رغم أن هذا يحتاج عادة إلى إجراءات معقدة وطويلة!

لكن كيف لا يحدث هذا وهي العشيقة المدللة لكبار الضباط بالداخلية في ذلك الوقت، كما جاء في روايات كثيرة لآخرين..!

نص الحوار الذي دار بين مدير الأمن العام والفتاة الجميلة «لوسي»

ونعرض هنا لتفاصيل الحوار المثير الغريب الذي كان ضمن التسجيلات التي قامت بها الجهة الرقابية وكانت بين «لوسي» ومدير الأمن العام بالوزارة:

لوسي: إنت رايح فين النهاردة؟

اللواء: رايح أسيوط

لوسي: خليك هنا .. يا راجل . أسيوط إيه .. بيعطوك هناك كام يعني!!

كان هذا بعض الكلام في التسجيلات بين الحسنة واللواء..!

لقد صرخ أحد المتورطين مع «لوسي» في هذه الفضيحة بقوله:

أنا بتاع نسوان وبتاع خمرة..! بس عارف مسئولياتي تماماً وأحترم التزاماتي، أما حياتي الخاصة فأنا حر فيها؟!

بعد تفجر الفضيحة لواحدة من حريم السلطان جاء قرار القبض على الفتاة الساحرة للتحقيق معها في أكثر من قضية..!

في التحقيق المبدئي قالت باستهتار ولا مبالاة:

الرجال الكبار اتجننوا .. كلهم وقعوا في حبي .. ! دول بيعيشوا حالة مراهقة على كبر..! ثم أضافت قائلة: «وأنا ذنبي إيه؟!

كان المشير المتقاعد ومساعد رئيس الجمهورية السابق عبدالحليم أبو غزالة وهو رجل كما قلنا وذكرنا عنه من قبل أنه يتمتع بالأخلاق الرفيعة، لكنه تورط بحسن نية مع هذه الحسناء في هذه الفضيحة، لقد لجأ المشير إلى دار الافتاء مستخدماً نفوذه للحصول

على فتوى تقضي بأن يدفع والد الزوج «يرفانت» متجمد يبلغ ٤٧٠ ألف جنيه بالمخالفة للقانون حيث أن «لوسي» وزوجها من المسيحيين الأرمن الأرثوذكسي، لقد صدرت الفتوى بسرعة مثيرة للدهشة فلم تستغرق الخمس دقائق، وهذه الفتوى كانت الأساس الذي اعتمدت عليه المحكمة - ثبت تورط رئيس المحكمة في الفضيحة في إصدار حكمها لصالح «لوسي» فما كان من محاميها إلا أن أسرع بالحجز على عمارة كبيرة تملكها أسرة الزوج الهارب تمهيداً لنزع ملكيتها مقابل متجمد النفقة!

لقد زج باسم فضيلة المفتى «د. محمد سيد طنطاوي» في القضية وقيل إنه تأثر بنفوذ طالب الفتوى - المشير «أبو غزالة» لكن فضيلة المفتى رحمه الله نفى ذلك «فهو القائل: كل ما قيل من أن دار الإفتاء تأثرت بشخص ما أو مسؤول فهو من باب الكذب والجهل.. وأنا لا أبيع الدين، ولا نأخذ تعليمات من أحد ويضيف قائلاً: أكبر من «المشير» يتصل بي ويقول لي: يا فضيلة المفتى المسألة كذا وكذا فماذا أفعل!

يجيب بنفسه على الفور: أعطيه الفتوى والإجابة الشرعية السليمة ولا أتأثر مطلقاً بشخصية السائل أيّاً كان موقعه أو منصبه...».

هذا ما قاله مفتي الديار المصرية الدكتور محمد سيد طنطاوي، لكن قيل في نفس الوقت ما الذي يدفع رجلاً بثقل المشير أبو غزالة لمحاولة الحصول على فتوى لهذه المرأة الحسنة مستغلاً نفوذه!

هذا كان التساؤل الهام المطروح أيامها ولقد يبدو تساؤلاً ساذجاً ولكنه طرح نفسه! وتراقصت علامات الاستفهام أيضاً حول حجم الصلة والعلاقة بين المشير والحسنة لوسي أرتين...؟ وهل كانت العلاقة من ذلك النوع الذي لا ينفع معه إلا أن يقدم المشير استقالته ويغادر مصر في نفس يوم تقديم الاستقالة؟!

ومن الغريب أن الفضيحة لم تشمل أصحاب النفوذ والسلطان من كبار رجال الدولة فحسب، بل إنها ربطت في أذيالها من صغار الموظفين اثنين من موظفي البريد ومحامياً وموظفاً بمحافظة السويس..

جميعهم كانوا في خدمة الملكة المتوجة في بلاط العشق!

وتراقص بشأن ذلك علامة استفهام ضخمة ..؟

أما الأحكام المتعسفة التي حصلت عليها «لوسي أرتين» بالمخالفة للقانون فكان وراءها رئيس محكمة وهو الذي أصدر هذه الأحكام!! للأسف الشديد لقد ضبط هذا الرجل بعلاقته مع هذه الحسناء الساحرة، ثم دخل معها السجن عند تفجر أحداث الفضيحة!

لقد كانت هناك شبهات وتساؤلات حول الظروف التي أحاطت بهذه القضية وهذا العدد الهائل الذي ضمته أوراقها من المتورطين فيها خاصة أن الدولة بأجهزتها هي التي أشعلت فتيلها وحركت أحداثها وكأن الخوض فيها وتحويلها إلى قضية رأي عام كان بأمر رسمي من الحكومة، لذلك ردد البعض أن الفضيحة كلها - ليست إلا صراعاً في النفوذ بين شخصيات المسؤولين الكبار وأنها لا تزيد عن تصفية حسابات!

وفي الآونة الأخيرة وبعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ ترددت أقوال كثيرة تتهم الرئيس مبارك المخلوع من حكم المصريين بأنه وراء شائعة اتهام المشير أبو غزالة بعلاقة ما مع هذه الساحرة الفاتنة «لوسي» عن طريق زكريا عزمي رئيس الديوان الرئاسي كما ألمحنا من قبل ثم ترددت روايات أخرى عن قدرة هذه المرأة على دخول القصور الرئاسية في أي وقت وأنها كانت دائماً من «حريم السلطان» المفضلة باستمرار وأنها كانت تدرك تماماً أهميتها في الدور الذي تلعبه بأوامر من السلطان وأعوانه!!

وأنا من جانبي أربط بين كل الأحداث في حكاية لوسي أرتين أبرز نساء السلطان وكبار المسؤولين في عصر المخلوع مبارك، وتذكرنا هذه الحكاية المثيرة بحكايات حريم السلطان والجواري في العصور القديمة، وأن السلطة لا تتخلى عن العلاقات مع الحسنات والجميلات والفاتنات، وتسير المسألة جنباً إلى جنب مع القرارات السياسية والقرارات السيادية وأحياناً العسكرية أيضاً وللأسف الشديد مع صدور بعض الأحكام من بعض أصحابها.

يبقى أن نقول إن الاستجواب الذي تقدم به الأستاذ خالد المحامي وعضو مجلس الشعب الشهير، انتقل بالقضية إلى منحني آخر عندما تحدث عن شقيق «لوسي»

«هاجوب» فقد درس هذا الشقيق فن السينما لمدة أربع سنوات في الولايات المتحدة الأمريكية وعندما عاد بدأ يعمل في إنتاج وتصوير الإعلانات التليفزيونية، وقد كان وجوده هناك فرصة لكي تطير «لوسي» كثيراً إلى هناك ..!

وهذا ما حدا بـ «كمال خالد» لاتهام الشقيق بمحاولة تجنيد شقيقته لحساب جهة أجنبية تريد إشعال النار في مصر..!

ويضيف كمال خالد طبقاً للمصادر التي تحت أيدينا: أن الشرائط التي سجلت لهذه المرأة تمتلئ بالجنس والكلام الفارغ والأخطر منه ما يتصل بأمن الدولة وقال: «إن أسئلتها للمسؤولين الذين كانت تتصل بهم أو تلتقيهم كانت تدور كلها حول نمو التيار الديني وانتشاره!

المفاجأة الكبرى

لكن المفاجأة الهائلة هي الإفراج عن «لوسي أرتين» بعد فترة قصيرة لم تتجاوز الشهرين قضتها في سجن القناطر للنساء، وكان الإفراج عنها بلا ضمان حيث اعتبرت «مبلغة» أي هي التي قامت بالإبلاغ عن أشياء كثيرة في هذه القضية، وهذا يعني وفقاً للمادة ١٠٧ من قانون العقوبات أنها ساعدت جهات التحقيق، وهذا ما يعني أن ملفها كله قد أغلق، وتحولت القضية إلى الحفظ الإداري - كانت هذه القضية بالذات والتي عرفت بالقضية رقم (١) لسنة ١٩٩٣م حصر في مكتب النائب العام هي التي فجرت هذه الفضيحة، وقد انتهى الأمر أيامها باعتبار هذه الفاتنة لوسي أرتين ساعدت جهات التحقيق، فهل نراها بالفعل قد ساعدت جهات أخرى لتحطيم سمعة البعض من المسؤولين بالدولة مع إقصاء البعض الآخر عن مناصبهم؟! كان هذا مجرد سؤال مطروح أيامها. لكن تأكد بعد ذلك الدور الخفي الذي لعبه رئيس الديوان زكريا عزمي في عهد السلطان المخلوع مبارك وراح ضحيته بلا شك المشير أبو غزالة..!

قالت نفس المصادر السابقة:

في نفس الوقت تقريباً الذي كانت قضية «لوسي أرتين» تتفاعل فيه وتوسع رقعة

فضائحها مع كل وافد جديد تلتف حول عنقه خيوط الفضيحة، كانت هناك فضيحة أخرى تهز بلداً عربياً آخر، بطلها مسؤول أمن له قوته ونفوذه وضحاياه بلغن ٥١٨ من حريم السلطان اغتصبهن جميعاً وخلال عامين، بل وصورهن عاريات معه في الفراش على شرائط فيديو، ويقال إنه كسب من وراء ذلك أكثر من المليون دولار..!

يجدر بنا هنا أن نشير إلى وزير بارز في حكومات مبارك المخلوع عرف عنه أيضاً متعة التصوير لضحاياه في الفراش أبرزهن نجمة شهيرة رحلت عن الحياة وقيل أن معمر القذافي طلب منه شراء هذه الأفلام الجنسية التي تخصها من تصوير وإبداع هذا المتخصص في إرضاء «السلطان» في أي زمان ومكان ومن عهد عبدالناصر الرئيس العظيم الدمث الخلق والذي لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك إلى عهد مبارك الذي استبيح فيه الاعتداء على الأعراض والشرف والطهارة وجذب «حريم السلطان» للاستخدام السياسي في الوقت المناسب ربما للإمساك بشيء يحقق لمثل هذا الوزير الساقط الاستمرار في تولي المناصب الهامة!

ونعود لقصتنا مع حريم السلطان ولكن هذه المرة في المغرب..!

فهل نحن عشنا ونعيش بحق زمن الفضائح الجنسية بالذات في عالم حريم السلطان استمراراً لعالم الجواري في الزمن القديم البعيد .. الذي استعرضناه من قبل بتفاصيله المثيرة!

وهذه الفضائح تأتي من مسؤولين كبار في الدول في الشرق والغرب، لكن على كل حال نستعرض هذه القضية وأحداثها المثيرة والغريبة في وقت واحد!

حریم السلطان في المغرب

في أحضان رجال الأمن العام

مدينة الدار البيضاء أحد أجمل المدن المغربية وفي أول شهر فبراير من العام **في** ١٩٩٣ كان العميد شرطة «محمد مصطفى ثابت» المسؤول الأمني الكبير بالمدينة الجميلة، يمر صباحاً وكعادته مستقلاً سيارته المرسيديس الزرقاء الفارهة..

عندما رأى فتاتين جميلتين هما «لبنى» و «صوفيا»..!

كان عمر كل فتاة لايزيد عن الثالثة والعشرين، وكانتا قد فرغتاً لثوهما من استذكار دروسهما حيث أنهما طالبتان بالجامعة.. توقف العميد «محمد ثابت» أمام الفتاتين وعيناه تجوبان جسديهما بنظرات تشتعل برغبة وجنساً..! عرض عليهما توصيلهما إلى حيث تريدان، لكنهما ترددتا، فما كان منه إلا أن عرفهما بنفسه وهو مفتش المباحث المسؤول الأول عن البلد أمنياً وهو فوق ذلك متزوج!!

زال الخوف عن الفتاتين فقد اطمأنتا للرجل، فركبتا معه بلا تردد، لم تتجه السيارة إلى حيث طلبتا الفتاتان، بل إن الرجل سلك دروباً أخرى بعيدة عن وجهتهما حتى توقف أمام مخبز اسمه «أمور» بشارع «إميل زولا» حيث أطل برأسه من السيارة فأحضر به أحد الأشخاص علبتين من الحلوى ثم واصل سيره في طريق لا تعرفه الفتاتان، بل إنه أمرهما بالصمت عندما حاولتا الاستفسار عما يحدث!

بعد جولة قصيرة بالسيارة في شوارع الدار البيضاء، توقف «محمد ثابت» أمام إحدى العمارات بشارع عبدالله بن ياسين وأمرهما بالهدوء والصعود معه إلى شقته لم يكن أمام الفتاتين إلا الرضوخ وقد بدأ الخوف يتسرب إلى نفسيهما وهما لا يدريان المجهول الذي ينتظرهما!

جلست الفتاتان في ذهول وهما لا يجدان إجابة عن الأسئلة المزدهمة في رأسيهما، فقد أغلق «العميد محمد ثابت» الباب بالمفتاح ثم هجم عليهما على الفور محاولاً الاعتداء عليهما، لكنهما قاومتا في البداية ثم رضختا ومارس معها الجنس...!

بعد أن مارس معها الخطيئة لمحت واحدة منهما «كاميرا» تطل على السرير وهي مخبأة في الحائط المقابل للسرير فصرخت قائلة:

إنها «كاميرا» تطل على السرير، وهذا جعل مسؤول الأمن يغتاظ فأخذ يسب الفتاتين محاولاً ضربهما إلا أنها هربتتا منه إلى الحمام في الوقت الذي سمع طرقاً على الباب، فأغلق عليهما باب الحمام وأسرع إلى الباب يفتحه ليجد أحد زواره..!

كانت العملية قد انتهت، لكن قبل انصراف الفتاتين أخذ منها البطاقات الشخصية (الهوية) وأخذ بيانات عنهما وطلب منها الانتظار أسفل العمارة إلا أنها انتهزت الفرصة ولاذتا بالفرار ..

في اليوم التالي كانت الفتاتان «صوفيا» و«لبنى» تمران في شارع عبدالمؤمن عندما لمحتا سيارة «محمد ثابت» تمر بجوارهما، فما كان منها إلا أن أسرعتا بالهرب وتقدمتا بشكوى للسلطات التي باشرت التحقيق، فوضعت يدها على ما يزيد عن خمسمائة وستين شريطاً مصوراً لمسؤول الأمن الخطير، مع فتيات وسيدات وهو في أوضاع جنسية معهن .. كما عثرت السلطات على الكاميرا التي يصور بها ضحاياها!

المثير أنه عندما بدأت محاكمة العميد الفاجر ومواجهته بالفتاتين، أنكر ما جاء بأقوالهما وقال إنهما ركبتا معه بمحض اختيارهما، بل جاءت أقواله في ملف التحقيقات كالاتي:

«أنا كنت ماراً بسيارتي بالقرب من مختبر التحليلات بدرب غلف - مكان بالدار البيضاء - حينما أثار انتباهي فتاتان تتعدان عن تليفون عمومي اقتربت منهما مقلداً من سرعتي إلى أن توقفت بجانبهما وتبادلت معها لغة العيون ثم دنت الفتاتان من السيارة وصعدتا بتلقائية معي ..! في السيارة تبادلنا السلام والكلام معي، وقدمتا نفسيهما باسم «ندى» و«أسماء» كما عرفتهما بنفسي بأنني الحاج «حميد»!

وبعد جولة قصيرة وسط المدينة عرضت عليهما مرافقتي إلى سكني فاعترضتا لأن الوقت متأخر .. ! لكنهما اتفقتا معي على اللقاء غداً بعد الانتهاء من دروس الصباح، ثم أوصلت إحداهما إلى المكان الذي قابلتهما فيه، بينما رافقتني الأخرى، وكانت تشكولي من زوجة أبيها التي تعيش معها تحت سقف واحد، لكنهما رغم كل شيء تفضل الحياة معها على أن تعيش مع أمها وأخوتها الذين يضايقونها كلما عادت متأخرة إلى البيت.

في اليوم التالي وفي الموعد المحدد توجهت إلى المكان المتفق عليه معهما، فوجدتهما - في انتظار، فأخذتهما وتوجهت مباشرة إلى مخبز «أمور» حيث أخذت بعض المأكولات الخفيفة والحلويات، ثم انطلقت إلى شقتي بشارع عبدالله بن ياسين ...

حيث طلبت منهما أن تسبقاني إلى الشقة ريثما أجد مكاناً أضع فيه سيارتي وقلت لهما بأنهما قد يجدان «بوابة العمارة» فإذا ما استفسرت منهما عن سبب وقوفهما تخبرانهما بأنهما في انتظار الحاج «حميد» ثم دخلت معهما إلى الشقة وحدث ما حدث!

لقد كشفت التحقيقات أن مسؤول الأمن الكبير يكذب وأنه مريض بالجنس، وقد استغل منصبه ومركزه الحساس في الإيقاع بضحاياه هذا بالرغم من أنه متزوج من امرأتين وله منهما خمسة أولاد!

كانت قصة «البنى» و «صوفيا» بمثابة الشرارة التي كشفت أسلوب يتبعه العميد مسؤول الأمن العام منذ ١٣ سنة حتى أن كل بيت في الدار البيضاء أصيب بالوساوس من أن تكون إحدى بناته قد سقطت فريسة لهذا الذئب، فإنه يسعى كسلطان أمني لحريم السلطان..!

ونعود إلى السؤال هل لهذه الفضيحة الأخلاقية خلفيات سياسية؟

بالتأكيد، وإلا لماذا هذا الوقت بالذات الذي تضع فيه السلطات يدها على الرجل وتفضحه على الملأ وهو الذي يمارس الفجور طيلة ١٣ سنة كاملة دون أن يتعرض له أحد؟!!

يكشف والد «ثابت» هذه الملاحظة تحديداً فيقول:

«محمد هو ابني الوحيد الذي خرجت به من الدنيا وهو من صلبى ووهبت له كل

حياتي، إنني راضٍ عنه وهو معيلي حتى في آخر هذه الأيام والتي أصارع فيها شبح الموت! كل ما سمعت عنه كذب وحقد، لقد حفروا له بئراً وسقط فيها بعدما سمعوا بأنه سيترقى في وظيفته!

هذا دفاعاً عن الرجل، فهو فاجر ومحترف جنس لا شك في هذا، وهو مبتز ومستغل لنفوذ مركزه في البوليس ليس في هذا شك لقد كان العميد «محمد ثابت» يحسب أن الدنيا بين يديه فعات في الأرض فساداً واستغل سلطته ليضيع مصير فتيات كثيرات وسيدات متزوجات بين يديه، لقد كان يجمع معلومات وأسراراً عن كل امرأة ترميها الأقدار في طريقه ثم يلعب دور حلال المشاكل ويمارس هواية فرض سلطته ونفوذه حتى تسقط الفريسة في مصيده سواء راضية أو غير راضية.

وهكذا تتحول المرأة إلى شريط فيديو مسجل به وقائع فاضحة، وقد يجد الشريط طريقه إلى الأسواق بعد ذلك كأحد شرائط الأفلام «البورنو» للجنس المفضوح!

الغريب أن الزوجة الأولى لرجل الأمن الرهيب السيدة «فاطمة العباسي» والتي تزوجته عام ١٩٦٤ وأنجبت منه ثلاثة أطفال، تقول عنه بعد تفجر فضيحته الجنسية: «أنه كان دائماً محباً للخير ويساعد الجميع...!!

لكن تراقص علامات الاستفهام حول هذا الرجل، هل كان مريضاً بالانفصام «التشيزوفرينا».. لقد صرخ في المحكمة بحرقه قائلاً: «إنني مريض بالجنس فعالجوني بدلاً من أن تحاكموني» لقد كنت أصور مغامراتي الجنسية بالفيديو لأعرضها على الطبيب النفسي الذي كان يعالجني...!!

قد يكون الرجل مريضاً بالفعل، لكنه مريض بالسلطة، فقد جعلته السلطة لا يضع اعتباراً لشيء، فقد تصور أنه ملك الأرض ومن عليها وطال فسادُه زمناً، وهنا الموقف السياسي الذي تركز عليه فأين كانت الأجهزة الحكومية؟

ولماذا صمتت على رجل أمن قوي من الكبار لا يهم سوى بحريم السلطان الذي هو سلطان أمني رهيب!

يغتال شرف النساء والفتيات وكرامة كل واحدة منهن بالقوة رغم أنه المسؤول الأول عن الأمن العام..؟!!

لم تأخذ المحكمة بأي دفاع عن هذا العرييد الذي يبلغ الثالثة والخمسين من عمره في ذلك الوقت الذي ارتكب فيه جرائمه وفضائحه والذي لم يزرجه عمره أو مركزه بل لم يضع في حسابه أهله وبيته وبلده..!

لم تقر المحكمة أنه مريض بالجنس كما قال أو أنه مريض بالانفصام النفسي كما قال عنه بعض أطباء النفس، ولم تهتم ببعض التحليلات التي اعتبرت الرجل مرتداً إلى سنوات المراهقة، بل نظرت إليه على أنه مرتد عن الدين والأعراف والأخلاق..!

لذلك صدر عليه الحكم في يوم الاثنين ١٦ مارس ١٩٩٣ بالإعدام مع تعويض ضحاياه اللواتي دون أسماءهن بنفسه دليلاً وبرهاناً وهكذا أسدل الستار على فضيحة هزت الشعب المغربي كما هزت فضيحة «لوسي أرتين» الأوساط المصرية في نفس الوقت تقريباً، قد لا يكون الأمر مجرد مصادفة، لكنها بالقطع مصادفة محسوبة لها مداها السياسي، وهي أولاً وأخيراً تكشف عن الفساد الجنسي عند بعض المسؤولين السياسيين الذين سقطوا في كشف الهيئة فلم يعد للنظام الحاكم حاجة إليهم..!

لفظهم السلطان رغم أنهم جاءوا له أيضاً بحريم السلطان.. إن المغزى الحقيقي للفساد الأخلاقي يتجسد في رغبات ملحة لبعض الحكام والرؤساء والسلاطين والملوك والقيادات العليا في أي بلد.. وقد تكشف ذلك تماماً في تونس ومصر بعد الثورة فيهما ضد كل فساد وضد السلطان الحاكم، ولتظهر حتى نساء كل سلطان أيضاً فساداً من حول السلطان وبعضهم كان يأتي للسلطان بحريم السلطان..!!

ولعل التاريخ يجسد حكايات الثلاثة الكبار في مصر مثلاً مع توريد حريم السلطان للسلطان، إنها فضائح بل كوارث سجلها التاريخ بدموعه!

لكن المثير هو على سبيل المثال أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي إبان عهد الملك السابق فاروق، وعلاقاته المتعددة في الحرملك مع حريم السلطان الملك ومن هم

حواليه، لقد ارتبط حسنين بعلاقات مع الملكة نازلي وتزوجها عرفياً ومشى مع الفنانة المطربة أسمهان كما عرفنا وعاش الملك فاروق نفسه في نزواته مع كاميليا وغيرها من حريم السلطان!

والمثير جداً حكايات وروايات رجال الأمن العام الكبار في مصر والمغرب ضمن الفساد الأخلاقي مع الحريم، إنهم نساء ورجال في نفس الوقت من محترفي ومحترفات الانزلاق الأخلاقي، وليس هذا يحدث في العالم العربي فقط من أيام الجوارى إلى أيامنا هذه، إنما التاريخ حافل في الغرب أيضاً بقصص الفساد الأخلاقي مع «حريم السلطان» من الرؤساء والقادة وغيرهم!

وتعالوا نتعرف على قصة أشهر فضيحة سياسية أخلاقية فضيحة الغانية البريطانية الأشهر «كريستين كيلر» التي أطاحت بوزير الحرب البريطاني لقد كانت أهم فضائح حريم السلطان في العالم كله!

حريم السلطان في إنجلترا في أحضان

وزير الحرب البريطاني

«كريستين كيلر» فتاة الليل اللعوب

في ليلة من ليالي شهر ديسمبر الباردة في فصل الشتاء وزمهريره عام ١٩٦٢ وقفت سيارة أجرة صغيرة أمام منزل من المنازل الأنيقة في شارع هارلي بمنطقة وينبول نيوز غرب لندن العاصمة الإنجليزية، وهو شارع اشتهر بأنه شارع الأطباء .. ونزل من السيارة شاب أسمر من أبناء جزر الهند الغربية المقيمين في إنجلترا، ثم طلب من السائق أن ينتظر، وضغط على جرس الباب لتفتح له فتاة شقراء في الثامنة عشرة من عمرها هي «مارلين ديفيز» ليسألها عن زميلتها وصديقتها «كريستين كيلر» ..! أنكرت مارلين وجود صديقتها وأغلقت الباب في ووجهه بعنف، وعندما رجع عائداً إلى سيارة الأجرة رفع بصره نحو نافذة البيت، فشهد مارلين وكريستين تطلان سوياً من النافذة لتأكد من انصرافه، فصرف الشاب السيارة ورجع غاضباً ناحية المسكن ليطلق على الباب ثلاث طلقات وطلقتين أخريين على «إحدى النوافذ» التي كانت تطل منها الفتاتان، وقبل أن ينصرف أطلق طلقة سادسة!

طلقة الأحداث الهامة ..!

إن الكثير من الأحداث الهامة تبدأ بطلقات نارية تحول مجرى التاريخ ..! فالحرب العالمية الأولى بدأت بطلقة قتلت الأرشيدوق النمساوي، وكذلك تلك الطلقات التي أطلقها ذلك الشاب الأسمر الذي كان يدعى: «جون آرثر إيد جكومب» .. فرغم أن طلقاته لم تصب مارلين ديفيز أو صديقتها الحسنة كريستين كيلر،

إلا أن هذه الطلقات جعلت من هذا الرجل شخصية يتردد اسمها في كل أجهزة الإعلام في أوروبا بأكملها، كما كان سبباً في القضاء على المستقبل السياسي لواحد من أهم الوزراء في الحكومة البريطانية في ذلك الوقت وهو وزير الحرب وحامي حمى الإمبراطورية البريطانية وعضو البرلمان «جون دينيس بروفيمو» والذي كان يحمل أيضاً لقباً شرفياً بحكم منصبه كسكرتير صاحبة الجلالة للشؤون العسكرية.

الطلقات الست التي أطلقها «جون» قاصداً إصابة الحساء الهيفاء «كريستين كيلر» لم تحطم مستقبل هذا الوزير فحسب بل حطمت أكبر الأحزاب السياسية في بريطانيا وهو حزب المحافظين بعد ست سنوات من الحكم قضاها «هارولد ماكميلان» رئيساً لوزراء بريطانيا فسقط الحزب سقوطاً مخزياً في الانتخابات التالية ..

بسبب الفضيحة والعار الذي ألحقته به الفضيحة الشهيرة التي عرفت باسم فضيحة «كريستين كيلر».

ملف الضربة القاضية: قد لانود أن نستبق الأحداث، ولكن خلفية الأحداث السياسية والعداء التقليدي بين حزبي المحافظين والعمال في بريطانيا قد ساعد بدوره في تفجير هذه الفضيحة التي حركها في مجلس العموم البريطاني، الكولونيل «جورج ويغ» عضو البرلمان العمالي الذي كان كثيراً ما ينتقد وزير الحرب وينسب إليه التقصير في تعزيز القوات البريطانية التي ترسل في مهام في أنحاء العالم...

وكان «ويغ» هو الذي أعد الملف الذي حملة رئيس حزبه وزعيم المعارضة في ذلك الوقت «هارولد ويلسون» ليقف في مجلس العموم البريطاني مندداً بمسلك الوزير «بروفيمو» على مشهد من أعضاء البرلمان بعدما توافرت عناصر الفضيحة ليوجه الضربة القاضية لخصمه اللدود حزب المحافظين.

اللقاء الأول بين كريستين كيلر ووزير الحرب البريطاني جون بروفيمو:

قبل ستة أشهر من إطلاق جون أرثر الطلقات الست الشهيرة كان أول لقاء بين وزير الحرب البريطاني «جون بروفيمو» والحسنة المدللة «كريستين كيلر»، وهو اللقاء الذي أطاح بصوابه..!

والمعروف عنه البحث عن الجمال والمتعة رغم أنه كان متزوجاً من إحدى نجمات السينما الممثلة السابقة «فاليري هوسبون».

كيف كان هذا اللقاء الأول:

ظروف ذلك اللقاء كانت عندما اصطحب الدكتور «ستيفن وارد» نجم المجتمع البريطاني تلك الحسنة لتناول الغداء في القصر الريفي لأحد الشخصيات الإنجليزية الشهيرة اللورد «استور» بمنطقة «كليغدن»، والدكتور «ستيفن» من أشهر أطباء العظام، سبق أن تولى علاج المشاهير مثل «سير ونستون تشرشل» و «اليزابيث تيلور»، والمليونير «بول جيتي» إلى جانب أنه فنان مرموق سبق أن رسم لوحات لبعض أفراد الأسرة المالكة والشخصيات الشهيرة في بريطانيا.

كان من ضيوف ذلك الحفل وزير الحرب جون بروفيمو وزوجته .. وكانت هناك لمسات خفية ومداعبات بين الوزراء وتلك الحسنة خاصة هذا الوزير «بروفيمو» عندما اصطحبها في نزهة مسائية في أرجاء حدائق المزرعة .. وقضى الضيوف ليلتهم في ضيافة اللورد استور وفي الصباح كانت هناك سيارة سوداء رسمية هي سيارة القومندان «أوجين إيفانوف» الملحق البحري السوفيتي من بين الضيوف في تلك الليلة.

هكذا التقى وزير الحرب في الحكومة البريطانية مع الملحق البحري السوفيتي وبقية الضيوف الذين قضوا ساعات يتمتعون فيها بالسباحة وفي مناخ ماجن حرص خلاله جون «بروفيمو» ألا يبتعد كثيراً عن تلك الحسنة التي أدارت رأسه!

العشيقة...!

منذ ذلك اللقاء أصبحت «كريستين كيلر» عشيقة لوزير الحرب البريطاني «جون بروفيمو» وواحدة من حريم السلطان فلم يستطع أن يقاوم إغراء هذه الحسناء الرائعة الجمال ابنة العشرين ربيعاً التي كان كثيراً ما يدس في يدها مبلغاً من المال هدية منه لوالدتها التي لم يكن يعرفها في طريقة مهذبة لدفع أجر هذه اللقاءات الآثمة..!

وكانت هذه اللقاءات عادة تجري في سكن الطبيب وارد، حيث كانت كريستين وصديقتها مارلين تقيان بشكل دائم به ويتوجه إليها وزير الحرب «بروفيمو» أثناء غياب الطبيب في عيادته بنفس المسكن دون أن يدري بما كان يحدث!

ففي كثير من الأحيان وقبل أن يصل وزير الحرب إلى منزل الطبيب لمقابلة عشيقته، يكون قد انصرف قبله بلحظات الملحق البحري «ايفانوف» وهو موقف كانت تضحك منه الفتاتان سراً ضحكات سخرية من ذلك الموقف المتناقض!

لم يكن وزير الحرب البريطاني يعرف أيضاً أن الدكتور ستيفن كان موضع شك المخابرات البريطانية التي لم تكن تنظر بارتياح ل صداقته الوطيدة للملحق البحري السوفيتي.

وفي ذات مرة وأثناء زيارة بروفيمو لكيلر في شقة الطبيب دق جرس الباب وفتحت كريستين لاستقبال رجلاً لم يكن يتمنى جون بروفيمو أن يلتقي به في هذه الظروف، فقد كان ذلك الضيف هو سير «نورمان بروك» الذي كان يشغل منصب سكرتير عام مجلس الوزراء الذي فوجئ بروفيمو بزيارته لهذا المكان ليلغله أنه من غير المفضل أن يواصل صداقته بالدكتور ستيفن الذي عرف بأنه صديق للسوفييت.

في اليوم التالي لسماعه لهذه النصيحة أدرك وزير الحرب مغزاها وكتب خطاباً قصيراً لكريستين ليقول في أسطر قليلة إنه يعتذر عن موعد لقائهما في اليوم التالي، هذا الخطاب القصير الذي أصبح فيما بعد المسمار الأخير في نعش المستقبل السياسي لذلك الوزير. لم يقصد «جون بروفيمو» بذلك أن يقطع علاقته تماماً بكريستين كيلر، فعلاقته بها استـ

ولكن في قلق وتوتر منذ أن زاره سير «نورمان بروك» سكرتير مجلس الوزراء ورئيس جهاز الأمن..!

ولم يعد يصطحبها إلى الأماكن العامة كالماهي والمطاعم مكتفياً بأن يصحبها في سيارة صغيرة ليخرج معها في جولات بالمناطق البعيدة..!
وذكرت كريستين كيلر بعد ذلك ..

أنه اصطحبها مرة إلى منزله عندما كانت زوجته متغيبه لزيارة أقارب لها في أيرلندا، بعد موعد نوم الخدم!

وقالت أيضاً: إنه حاول كثيراً أن يقنعها بأن تقيم في مسكن آخر خلاف شقة الدكتور وارد!

كان من الممكن ألا ينظر إلى العلاقة إلا باعتبارها علاقة بين عشيقين لولا وجود شخصيات مثل الدكتور ستيفن والملحق البحري إيفانوف في الصورة، فوجودهما كان يعني أخطاراً تهدد الأمن القومي لبريطانيا بأكملها!

لم يكن «جون بروفيمو» يعرف أنه بالإضافة إلى إدارة المخابرات البريطانية كانت الشرطة السرية تعرف أيضاً بأمر هذه العلاقة، وكان من الممكن إلى جانب ذلك أن تظل الأحداث سرّاً من أسرار أجهزة الأمن.

لولا تلك الطلقات الست التي أطلقها الزوجي جون آرثر على نافذة الدكتور ستيفن وارد يوم ١٤ ديسمبر، فقد كان ذلك الزوجي أحد الأطراف الخفية في تلك الفضيحة التي لم يكن وزير الحرب يدرك أبعادها الحقيقية.

للصحافة في بريطانيا أنفها الحساس الذي يشتم الفضائح، فحتى قبل واقعة إطلاق النار كانت هناك شائعات اشتمها أنف الصحافة، وكانت هناك همسات التقطتها آذانها، وكان أول ما نشر من تلميحات بهذا الشأن مقالاً صغيراً نشر في مجلة «ذاكرين» يقول فيه الكاتب المختص بالشائعات في أسطر قليلة!

«أود أن أعرف إلى أين ستنتهي الأحداث!

ففي بيت أحد المشاهير ما إن تغادر سيارة روسية من نوع زيج بابيه الأمامي حتى تصل سيارة فاخرة يقودها سائق في زي رسمي لأحد الكبار في الدولة، والذي ينزل فيها ليدخل نفس المنزل الذي تركته تلك الشخصية السوفيتية!

لم يفصح الكاتب عن مقصوده، ولم يدل بتفاصيل أكثر من ذلك ولم يعرف أحد شيئاً عن فضيحة جون بروفيمو، حتى كتب عن أقوال الزنجي الذي أطلق رهن المحاكمة تفاصيل عن علاقته بـ «كريستين كيلر» التي كانت عشيقته لفترة!

وأخذ يذكر تفاصيل عن حياتها كفتاة فقيرة مولعة بإيقاع الأغنياء والمشاهير في شباكها الأثوية الصارخة، ولكنه لم يذكر شيئاً عن الوزير «جون بروفيمو» فيما نشر له بإحدى الصحف!

أما الكولونيل «جورج ويغ» عضو البرلمان العمالي والعدو التقليدي «لجون بروفيمو» فكان قد تلقى مكاملة تليفونية من مجهول يبلغه فيها عن العلاقة الغرامية بين وزير الحرب البريطاني وعلاقته بفتاة وهي علاقة من شأنها أن تعرض الأمن القومي لبريطانيا للخطر!

وبعد هذا الاتصال بثلاثة أسابيع كانت واقعة إطلاق النار على منزل الدكتور ستيفن وارد، وهي واقعة لم تثر الكثير من الانتباه باستثناء أنها محاولة لإطلاق النار على حسناوين من الحسان اللاتي تنشر الصحف أخبارهن.

ولكن نشرت الصحف كذلك بعض أقوال الشاب الزنجي «جون آرثر» الذي دفعته الغيرة إلى إطلاق النار على كريستين كيلر عندما أرادت أن تنهي علاقتها به!

قدم الشاب للمحاكمة في الوقت الذي بدأ الاهتمام يتزايد بكريستين خاصة بسبب ما نشر عن علاقتها بالمشاهير، وتلك أمور تعد من الفضائح التي تلهث الصحافة البريطانية خلفها..!

كانت كريستين كيلر من بنات الليل يغريها الثراء ويستهوئها المال، وجدت الفرصة

متاحة لها لكي تحقق كسباً كبيراً من هذه الفضيحة فتحت يدها خطاب من جون بروفيمو يستهل بكلمة «حييتي»، فبدأت تساوم على بيعه، فهي تعرف المشترين، فتلك سلعة تدفع فيها الصحافة البريطانية آلاف الجنيهات وخاصة أنها بدأت تلمح عن علاقتها الخاصة مشيرة إلى وزير الحرب البريطاني جون بروفيمو والملحق البحري السوفيتي «جون إيفانوف» وسرعان ما تبينت مجموعة صحف «ميرو» أنها وقعت على أكبر ضربة صحافية يمكن أن تضاعف من توزيعها..!

دارت مفاوضات بين صحيفة صنداي ميرو وكريستين كيلر، التي اشترت منها هذه القصة وخطاب الوزير ودفعت الصحيفة لها ٢٠٠٠ جنيه، ولكن الجريدة سرعان ما تبينت خطورة نشر هذه الفضيحة بسبب تلك الزوبعة التي كانت قد أثارها الحكومة وزجت باثنين من الصحفيين بالسجن في الأحداث المتعلقة بضبط الجاسوس «فاسال» عندما رفض الصحفيان الإفصاح عن مصادر معلوماتهما وفضل المسؤولين عن هذه الجريدة ألا يفجروا هذه الفضيحة.

في ١٧ يناير ١٩٦٣ مثل جون آرثر أمام محكمة أولد بيلي، وقد اتهم بأربعة اتهامات، أهمها الشروع في القتل وإحراز سلاح بدون ترخيص..!

وحضرت كريستين كيلر لأداء الشهادة، وفي اليوم التالي كان القومندان «أوجين إيفانوف» الملحق البحري بالسفارة السوفيتية في لندن يستقل الطائرة من مطار هيثر وليرود في هدوء إلى روسيا..!

في نفس الوقت كانت هناك زوبعة في شارع فليت - وهو شارع الصحافة - إذ كان حافيون لا يعرفون كيف يكتمون أنفاسهم أو يتحكمون في أعصابهم في محاولة خلسة منهم لكبت انفعالاتهم وحاسهم لتفجير هذه الفضيحة التي تعرفها، وكان الحل الوسط هو نشر بعض التلميحات عن وجود بعض الصور الفوتوغرافية والمستندات التي تشير إلى علاقة وزير الحرب البريطاني بإحدى الفتاتين المجني عليهما في حادث إطلاق النار الأخير!

استجواب كريستين كيلر ..!

في ٢٦ يناير عام ١٩٦٣ استجوبت الشرطة كريستين كيلر عن معلوماتها في حادث إطلاق النار، وقالت أثناء استجوابها الكثير، وإن كان من أخطر ما قالتها أنها عندما كانت ترتب لأحد لقاءاتها مع وزير الحرب البريطاني بروفيمو طلب منها الدكتور ستيفن أن تحاول الحصول على معلومات من الوزير البريطاني عن أمور تتعلق بالأسرار الذرية، وعما أعطته بريطانيا من سلاح ذري لألمانيا الغربية؟!

ونظراً لخطورة هذه المعلومات نقلت إلى المدعي العام البريطاني سير «جون هبسون» الذي قام على الفور بالاتصال بوزير الحرب البريطاني «جون بروفيمو» ليرتب اللقاء معه.

وأثناء اللقاء بين الرجلين أكد له بروفيمو أن مثل هذه الأقوال لا أساس لها من الصحة، وأنكر علاقته الخاصة بكريستين، وإزاء إصراره على الإنكار ..!! قال له المدعي العام البريطاني إنه ما دام واثقاً من أقواله، فإنه على استعداد لمقاضاة كل من يروج هذه الشائعات عن علاقته بكريستين ..!

ولكنه قبل أن يتركه نصحه بأن يستشير محاميه الخاص «ديريك كلوج» تقابل جون بروفيمو مع محاميه ديريك كلوج ليقنعه بدوره ببراءته من هذه التهم، وأكد له محاميه عندئذ أنه سيقاضي مروجي مثل هذه الشائعات ويوجه إليهم تهمة القذف.

واعتقد الجميع في براءة الوزير حتى كان يوم ١٣ مارس.

وهو الموعد الذي تحدد لمحاكمة الشاب الزنجي ليمثل أمام محكمة أولد بيلي للنظر في التهم الموجهة إليه ..

صدمة وزير الحرب!

يوم صدور الحكم كانت جريدة «الديلي إكسبريس» قد قررت أن تضرب ضربتها الكبرى، فنشرت على صدر صفحتها الأولى عنواناً بالأحرف الكبيرة يقول:

«صدمة وزير الحرب» وتحت هذا العنوان قالت الصحيفة! إن جون بروفيمو وزير الحرب عرض تقديم استقالته إلى رئيس الوزراء هارولد ماكميلان لأسباب خاصة إلا أن رئيس الوزراء طلب منه البقاء في منصبه!

ظهر الخداع الصحفي في الأسلوب الذي أعدته هذه الصحيفة من حيث ترتيب الموضوعات بها فإلى جانب هذا الخبر نشرت صورة كبيرة على ثلاثة أعمدة لكريستين كيلر.. وخبراً يفيد أنها اختفت، وكانت الصحيفة بذلك تود أن تلفت الأنظار إلى العلاقة بين الخبر والصورة.

لابد أن جون بروفيمو أصيب بالصدمة عندما فتح صفحات هذه الجريدة في الصباح ليقرأ هذه الشائعات عن خبر استقالته، وازدادت همومه عندما وجد الصحفيين يلاحقونه ليسألوه عن صحة الخبر الذي نفاه في عنف مؤكداً لهم أنه كان في اجتماع مع رئيس الوزراء يناقشان ميزانية الجيش لم يكن بروفيمو كاذباً فيما قرره عن لقائه مع رئيس الوزراء، ولكن ما لم يكن يعرفه رجال الصحافة أن هارولد ماكميلان كان قد أصدر تعليماته لسكريته الخاص كاتم أسرار مجلس العموم البريطاني لمقابلة وزير الحرب ويسأله إذا كان يرى أنه قد يفضل أن يستقيل؟!!

ولكن الصحافة كان لها رأي آخر، فلم تعد تستطيع أن تتكتم الأمور أكثر من ذلك فالجريدة التي نشرت أول خبر مباشر حول هذا الموضوع هي جريدة شبه خاصة، يقتصر توزيعها على المشتركين فيها، ويقتصر دورها على نشر قطوف تهم بعض القيادات السياسية، كما أن توزيعها محدود وهي جريدة «وستمنستر كونفدنشال» التي نشرت في ٨ مارس ١٩٦٣ خبراً موجزاً يقول إن أحد أعضاء البرلمان الإنجليزي يحاول التحقق عن تفاصيل قصة تناولها أعضاء البرلمان وأصبحت على لسان الجميع..!

وهي تتعلق بفتاتين من الساقطات في حادث إطلاق أحد الزوج النار عليهما، وأنه يقال إن الفتاتين تبيعان قصتهما إلى بعض الصحف ومنها صحيفة «ذا بيبول» وأنها تقولان فيما ترويانه أن إحداهما لديها خطاب كتب على الأوراق الرسمية الخاصة لوزير الحرب وعليها توقيع باسمه الأول.

وتقول هذه الفتاة إن من بين زبائننا ذلك الوزير المتزوج من ممثلة سابقة هوجون بروفيمو، وأيضاً الملحق البحري السوفيتي الكولونيل إيفانوف. وأنه من المرجح أن تعتمد هذه الزوجة والممثلة الشهيرة السابقة إلى الطلاق من زوجها! هذه الأخبار قد تثير أسئلة عديدة من أهمها:

من هي اليد المحركة خلف تلك الفتاة للحصول على الأسرار..!

هل هو وزير الحرب البريطاني .. أم الملحق العسكري السوفيتي؟

تلك الإجابة التي تحاول أجهزة الأمن الإجابة عنها..! أما عضو البرلمان الذي أشارت إليه هذه الصحيفة في خبرها فكان في الواقع هو العدو اللدود لوزير الحرب جون بروفيمو الكولونيل جورج ويغ..!

تقول كريستين كيلر في مذكراتها:

إن ما حدث أثناء فضيحة «بروفيمو» جعلني أشعر بفقدان الأمل. والأصعب من ذلك كانت أحاسيس الغيرة، فكل النساء كن يشعرن بالغيرة مني، وكنت بدوري أعرف أخطار علاقات النساء بالرجال!

وكنت أخشى أن تنتقم مني إحدى النساء بعد ذلك فلم أكن لا أتركه يغيب عن نظري، ولعل هذا هو سبب فشلي في زواجي!

قد لا تصدقون أنني في طبيعتي امرأة خجولة، ولكن كيف حدث هذا معي لا أعرف، لعلني كنت أثق في الآخرين أكثر مما يجب أو لعل ذلك كله بسبب قلة خبرتي، إلا أنني في نفس الوقت لا أستسلم بسهولة أنا أتحمل نظرة المجتمع لي، الذي ينظر لي باعتباري عاهرة..!

لم يكن الخطأ هو مسؤوليتي أنا...!

ماذا يمكن أن تفعل في حياتك إذا كنت لا تعرف شيئاً عن الحياة؟

لقد وجدت نفسي في مفترق الطرق وسط رجال أقوياء لهم مصالح متضاربة لقضايا لا يمكن أن تلم بها فتاة في سني..!

ولكنني الآن أدفع الثمن ..!

أحاول أن أعطي أخطاء الماضي، وفي الواقع أحاول أن أعطي حياتي كلها أتمنى عندما أموت أن توضع على قبري لوحة رخامية كُتب عليها:

«هنا ترقد امرأة حرمت من حقوقها الإنسانية» فما زلت لا أعرف كيف ولماذا كنت على علاقة مع بروفيمو وغيره فقط كنت معصوبة العينين، لا أفهم ولا أعني تماماً ما يحدث وسوف يحدث لم أعرف دفء الأسرة أو السعادة حتى الآن .. وهذا هو الثمن!! كانت هذه بعض القطوف عن أشهر فضيحة سياسية في القرن العشرين يفتح ملفها من جديد لتعود إلى الأضواء مرة أخرى بكل ما شهدته من صراع بين السياسة والانحراف والتجسس والخلافات السياسية فضيحة امتزجت بالأكاذيب وكشفت عن الفساد الذي يختفي وراء جهة المظاهر .. فضيحة كريستين كيلر هي فضيحة فتاة الليل اللعوب التي أطاحت بوزير الحرب البريطاني البارز جون بروفيمو، وأدت في النهاية إلى استقالة حكومة هارولد ماكميلان ودفعت حزب المحافظين لسنوات في الظل، بدأت الأحداث بست طلقات دوت ليلاً في أحد الأحياء الهادئة في لندن وانتهت بتحطيم حكومة بأكملها..!

عادت الفضيحة إلى الأضواء بمناسبة صدور كتاب «الجاسوس العاري» الذي يروي فيه الملحق العسكري السوفيتي أوجيه إيفانوف تفاصيل دوره كأحد الشخصيات الرئيسية في هذه الفضيحة منذ أول لقاء بينه وبين وزير الحرب جون بروفيمو وكريستين كيلر في حمام السباحة بقصر اللورد استور وكيف استغل كريستين للإيقاع بوزير الحرب واخترق أسرار حلف شمال الأطلسي لمعرفة الأسرار حول تزويد بريطانيا لألمانيا بالصواريخ الذرية عام ١٩٦٢م.

هذه قصص حريم السلطان في مصر وفي المغرب وفي بريطانيا .. وكلها بين رجالات أمن بارزين ووزراء كبار مشهورين.

لكن مع الفارق ففي مصر .. افتروا على المشير أبو غزالة الرجل الفاضل المحترم

وأساءوا إليه بغير ذنب في حكايته مع الفتاة الساحرة لوسي أرتين، لكن الحقيقة كانت مع ضباط أمن عام كبار على مستوى الدولة، انبهروا بجهاها هي وغيرها من الفتيات والنساء كما حدث في المغرب وبريطانيا، لكن ما يلفت الأنظار بشدة هو:

• رجال الأمن العام في مصر ..!

• ورجال الأمن العام في إنجلترا ..!

• ووزير الحربية في مصر ..!

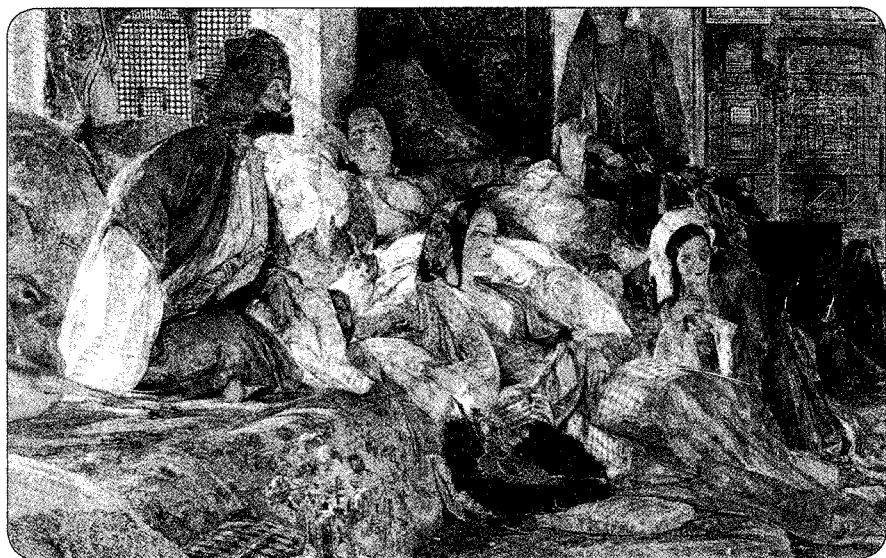
• ووزير الحرب في إنجلترا ..!

الوحيد بالطبع الذي كان الأمر حوله مجرد شائعة رخصية هو المشير الراحل رحمه الله عبدالحليم أبو غزالة .. الذي اتضح بعد ذلك أن «مبارك» الذي خلعه الشعب في ٢٥ يناير ٢٠١١ كان إلى حد كبير وراء الشائعة وأن رئيس ديوانه زكريا عزمي هو الذي لعب الدور الأكبر في حكاية لوسي أرتين، وأنها كانت بالفعل واحدة من أهم نوعيات «حريم السلطان» في عهد هذا الرئيس الذي أتلّف الحياة في مصر .. ويبقى القول: أن القارئ ليدرك الآن تماماً أن المرأة الحسنة لعبت أدواراً مختلفة بين قيامها بالتجسس والارتقاء في أحضان كبار المسؤولين مثل كريستين كيلر ولوسي أرتين في إنجلترا ومصر، والفضائح امتزجت بالحقائق والأكاذيب أحياناً وكشفت عن الفساد الذي يختفي وراء واجهة المظاهر!! مثل فضيحة فتاة الليل اللعوب كريستين كيلر، التي أطاحت بوزير الحرب البريطاني البارز «جون بروفيمو» وقادت في النهاية إلى استقالة حكومة هارولد ماكميلان ودفعت حزب المحافظين لسنوات طويلة في الظل!!

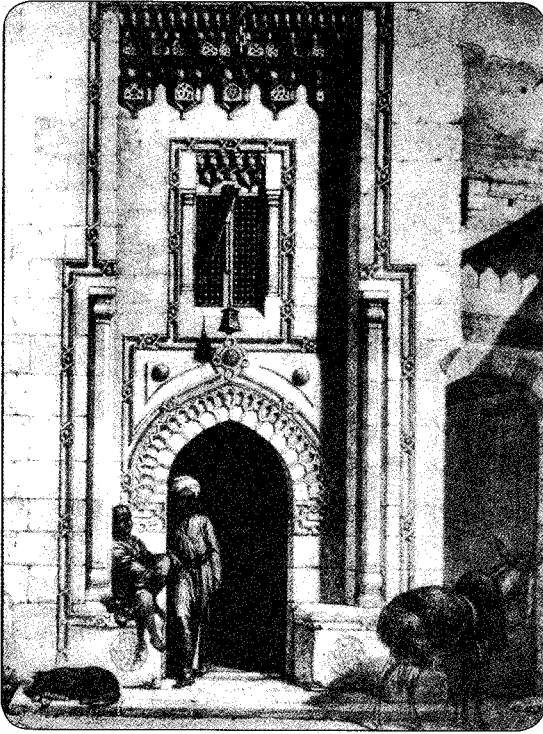
حريم السلطان يفعلن الكثير في قيادة بعض الدول وهن في أحضان الزعماء والرؤساء والقادة .. ومنذ أقدم عصور التاريخ!!

ملحق الصور





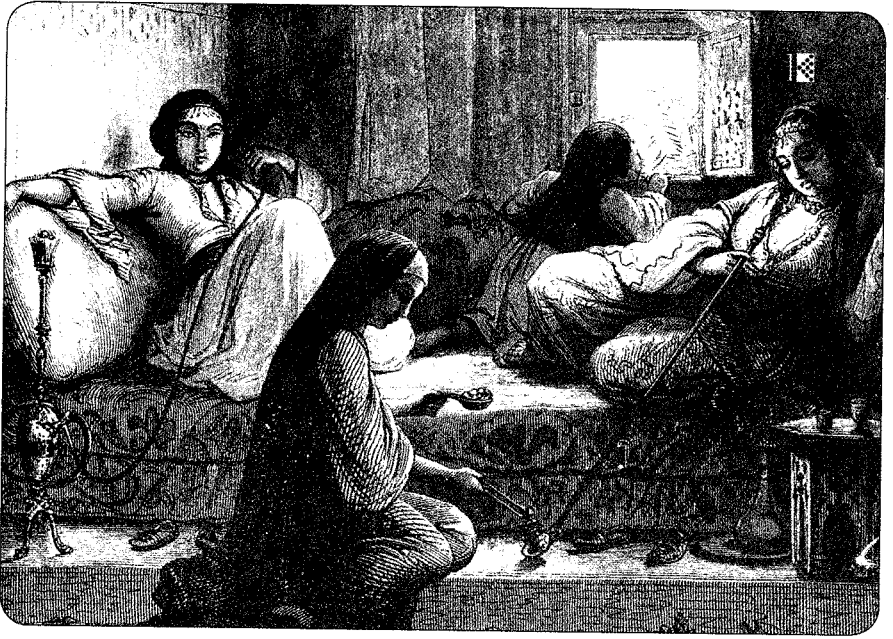
صور مختلفة للجواري في القصور السلطانية عبر العصور القديمة



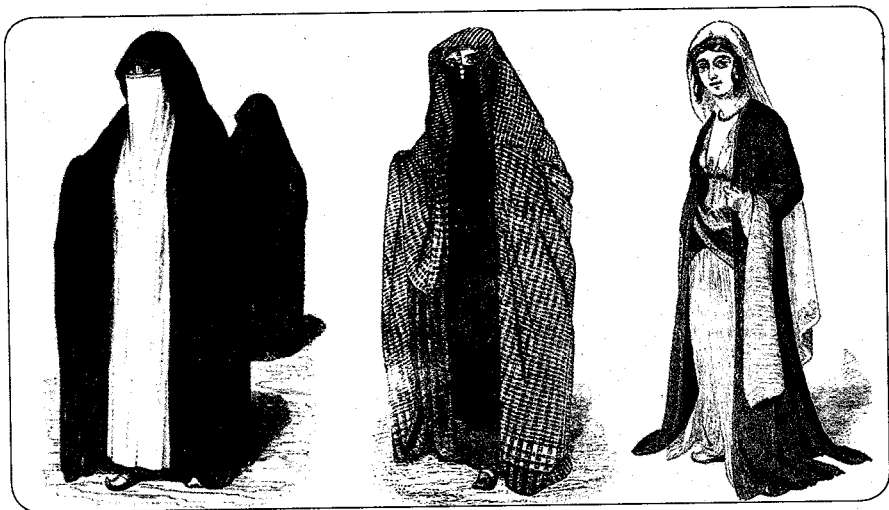
صور مختلفة للجوارى في القصور السلطانية عبر العصور القديمة



صورة للجواري في القصور السلطانية عبر العصور القديمة



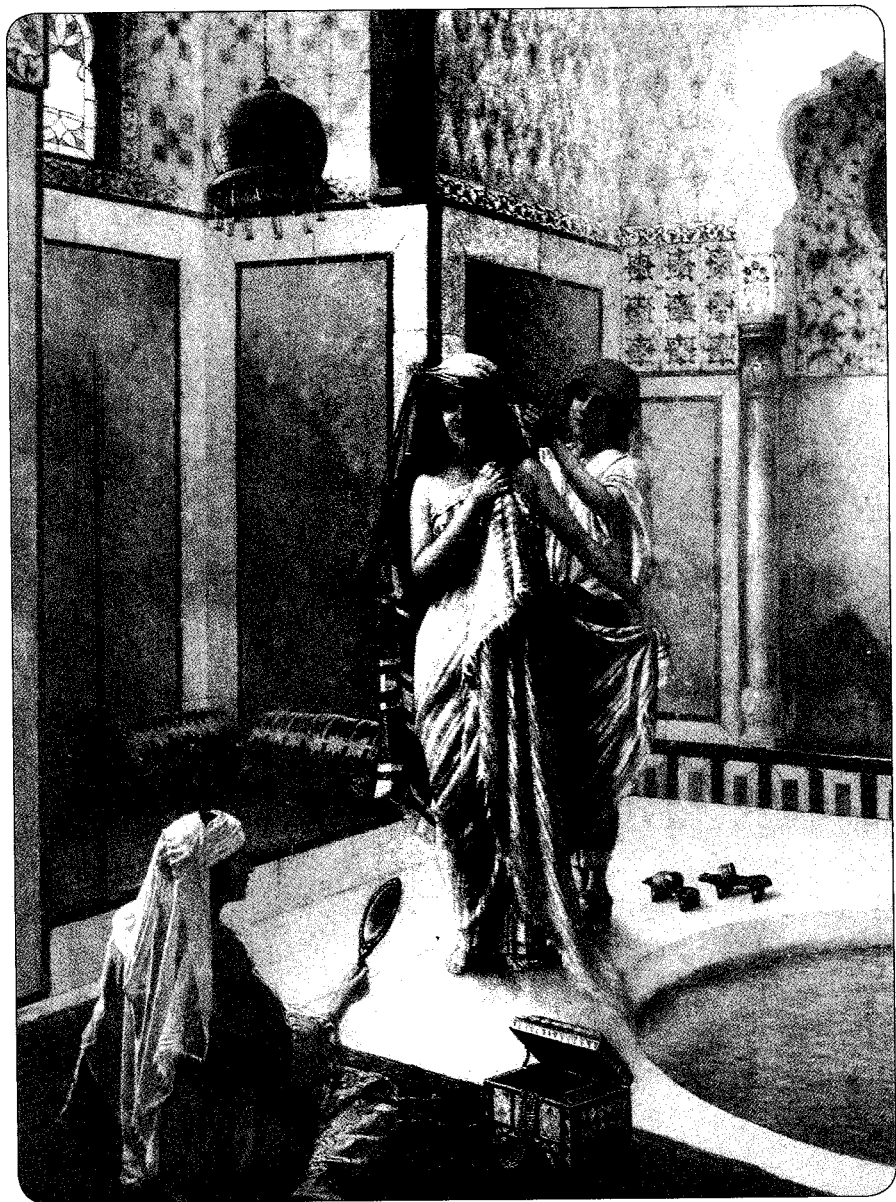
صور مختلفة للجوّاري في القصور السلطانية عبر العصور القديمة



صور مختلفة للجواري في القصور السلطانية عبر العصور القديمة



صورة للجوّاري في القصور السلطانية عبر العصور القديمة



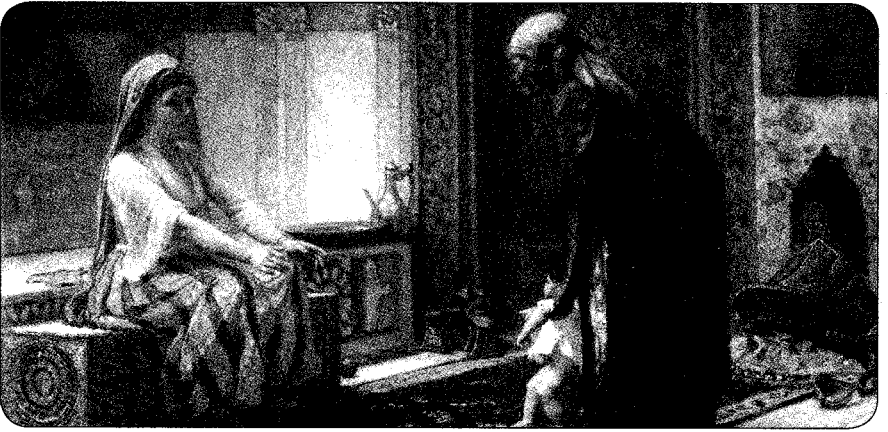
صورة للجواري في القصور السلطانية عبر العصور القديمة



صورة للجوّاري في القصور السلطانية عبر العصور القديمة



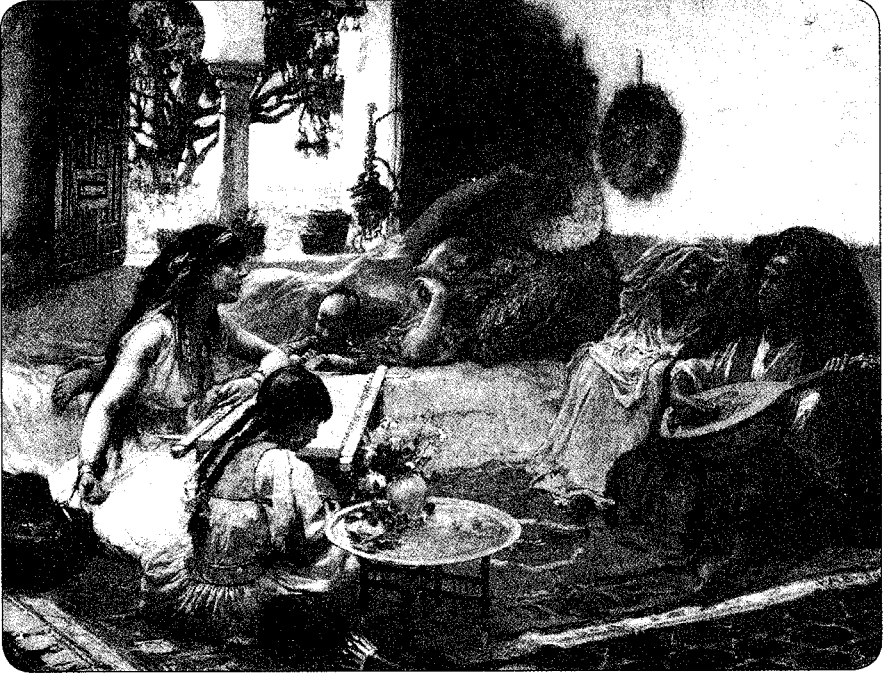
صور مختلفة للجواري في القصور السلطانية عبر العصور القديمة



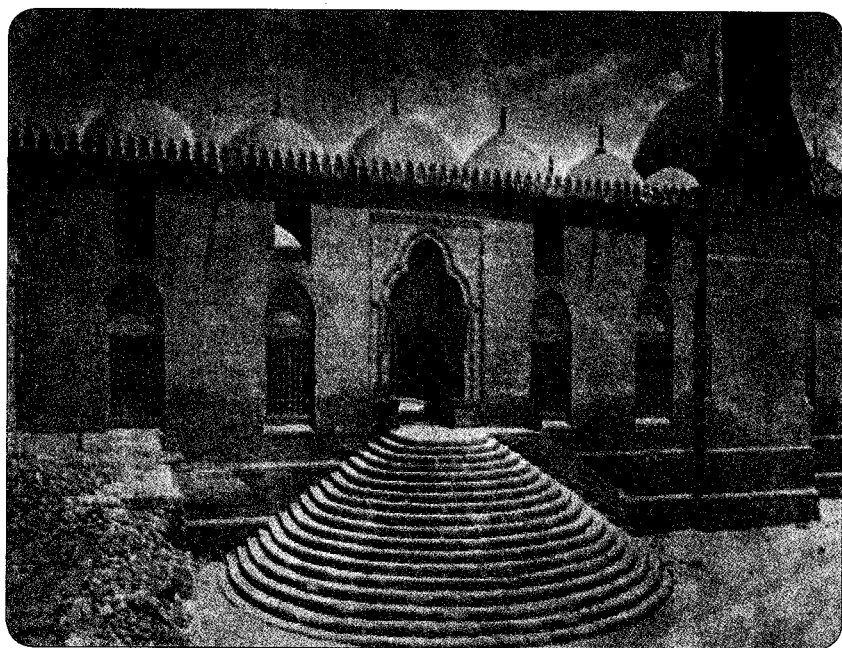
صور مختلفة للجوّاري في القصور السلطانية عبر العصور القديمة



صورة للجواري في القصور السلطانية عبر العصور القديمة



صور مختلفة للجوارى في القصور السلطانية عبر العصور القديمة



مسجد صفية بالقاهرة والتي كانت من حريم السلطان مراد الثالث



إبراهيم باشا



رئيس الوزراء التركي الحالي طيب رجب أردوغان



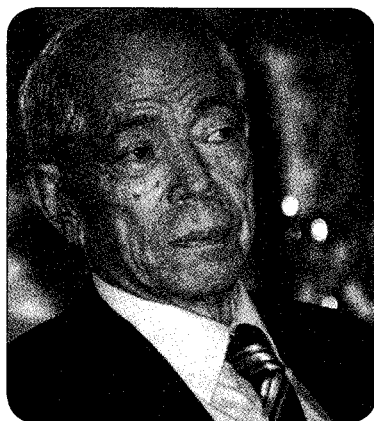
مشهد من مسلسل حريم السلطان يجمع بين السلطان سليمان وروكسلانا



الممثلة والراقصة المصرية سامية جمال



الممثلة والراقصة المصرية تحية كريبوكا



صور تجمع بين أهل الحكم في مصر أيام مبارك وأهل الفن في مصر
د. زكريا عزمى رئيس الديوان الجمهوري وجمال مبارك الوريث وصورة لعائلة مبارك
وصورة لأسامة الباز مستشار الرئيس المخلوع وزوجته الممثلة نبيلة عبيد



صور للعائلة الحاكمة المخلوعة في تونس .. الرئيس زين العابدين بن علي وزوجته وابنته



«لوسي آرتين» أبرز النساء في حريم السلطان في مصر



«كريستين كيلر» التي هزت بفضائعها الجنسية بريطانيا

المراجع

- ١- تاريخ الأمم والملوك - المؤلف الطبري.
- ٢- النجوم الزاهرة - المؤلف أبو المحاسن يوسف الأتابكي.
- ٣- كتاب بغداد - المؤلف ابن أبي طاهر طيفور
- ٤- تحفة الأمراء - المؤلف الصابي.
- ٥- الإحاطة في أخبار غرناطة - المؤلف لسان الدين بن الخطيب.
- ٦- المعجب في تلخيص أخبار المغرب - المؤلف التميمي المراكشي.
- ٧- تاريخ التشريع الإسلامي - المؤلف الخضري.
- ٨- المدونة - المؤلف مالك بن أنس.
- ٩- إرشاد الأريب إلى معرف الأديب - المؤلف ياقوت الرومي.
- ١٠- المغرب في حلى المغرب - المؤلف ابن سعيد.
- ١١- مصارع العشاق - المؤلف السراج.
- ١٢- المحاسن والأضداد .. التاج .. رسالة الفتيان - المؤلف الجاحظ.
- ١٣- محاضرات الأدب - المؤلف الراغب الأصفهاني.
- ١٤- العقد الفريد - المؤلف ابن عبد ربه.
- ١٥- يتيمة الدهر - المؤلف الثعالبي.
- ١٦- قلائد العقبيان - المؤلف الفتح بن خاقان.
- ١٧- الأزمنة والأمكنة - المؤلف المرزوقي.
- ١٨- صفة المغرب - المؤلف اليعقوبي.
- ١٩- الفصل في الملل والأهواء والنحل - المؤلف ابن حزم.

- ٢٠- الملل والنحل - المؤلف الشهرستاني.
- ٢١- الفرق الإسلامية - المؤلف من صبح الأعشى للعلقشندي.
- ٢٢- المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها - المؤلف عبدالله عفيفي المحرر العربي للديوان الملكي .. الجزء الثالث - الطبعة الأولى - ١٣٤٨ / ١٩٣٠.
- ٢٣- الجاسوس العاري - القصة الكاملة لحياة كريستين كيلر - د. السيد أبو مسلم ١٩٩٥ م - مكتبة مدبولي الصغير.
- ٢٤- المرأة في حياة مشاهير الرجال - المؤلف د. عز الدين فراج - دار الفكر العربي - ١٩٨١ م.
- ٢٥- المنزلة الجنسية للمرأة العربية - المؤلف سمير عبده - منشورات دار النصر - بيروت - ١٩٨٥ م.
- ٢٦- عاشقات السلطة - المؤلف حسن صابر - مكتبة مدبولي الصغير - ١٩٩٧ م.
- ٢٧- السلطة والجنس - المؤلف د. سامي محمود - الكتاب العالمي - ١٩٩٣ م.
- ٢٨- وزراء في جيوب الفنانات - المؤلف ناصر حسين - دار الشباب العربي - ١٩٩٣ م.
- ٢٩- المرأة الجديدة - كتاب اليوم - المؤلف قاسم أمين - ديسمبر ١٩٨٩ م.
- ٣٠- استعباد المرأة - المؤلف علي محمد علي - الدار الصوفية للطباعة والنشر - ١٩٤٥ - ١٩٦٣ م.
- ٣١- معركة المرأة المصرية للخروج من عصر الحريم - مكتبة الأسرة - المؤلفة أميرة خواسك - ٢٠٠٤ م.
- ٣٢- قصة المرأة العربية على أرض مصر - المؤلفة د. إجلال خليفة - القاهرة ١٩٧٣.

٣٣- عصر محمد علي ونهضة مصر في القرن التاسع عشر - المؤلف د. عبدالحميد البطريق (١٨٠٥ - ١٨٨٣).

٣٤- الملكة فريدة ثائرة على عرش فاروق - المؤلف سمير فراج ابن الشاطىء - الناشر الزهراء للإعلام العربي - الطبعة الأولى - عام ١٩٩١ مدينة نصر - الناشر / كنوز للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية عام ٢٠١٠ قصر النيل.

٣٥- ناريمان آخر ملكات مصر - المؤلف سمير فراج «ابن الشاطىء» - سفنكس للطباعة والنشر - الطبعة الأولى عام ١٩٩٢ - القاهرة شارع فؤاد - الطبعة الثانية - كنوز للنشر والتوزيع عام ٢٠١٠ م.

٣٦- فاروق وكاميليا - قصة غرام هدد عرش مصر - المؤلف سمير فراج «ابن الشاطىء» الناشر دار الصدى للنشر والتوزيع عام ١٩٩٦ م - الطبعة الأولى - الطبعة الثانية - كنوز للنشر والتوزيع عام ٢٠١٠ م.

٣٧- ملكة الهلس - «مادونا» - المؤلف سمير فراج «ابن الشاطىء» - مصرية للنشر والتوزيع عام ١٩٩٧ م.

٣٨- عشيقات الملك فاروق - المؤلف سمير فراج «ابن الشاطىء» - الناشر كنوز للنشر والتوزيع - ٢٠١٢ م.

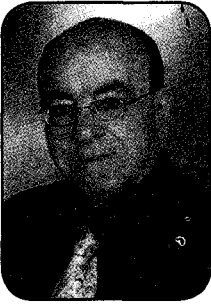
٣٩- الملكة ورئيس الديوان - المؤلف سمير فراج «ابن الشاطىء» - كنوز للنشر والتوزيع - ٢٠١٢ م.

٤٠- سعاد حسني انتحرت أم قتلت؟ المؤلف سمير فراج «ابن الشاطىء» - الناشر مكتبة جزيرة الورد - ٢٠١١ م.

٤١- اعتماد خورشيد - امرأة في بركان الغضب - المؤلف سمير فراج «ابن الشاطىء» - الناشر مكتبة جزيرة الورد - ٢٠١١ م.

الدوريات:

- جريدة الأبناء في الكويت - مقالات وتحقيقات وحوارات الكاتب والباحث سمير فراج «ابن الشاطئ».
- جريدة «صوت الأمة» حلقات عن الفساد وحريم السلطان ورئيس الديوان - للمصدر السابق.
- مجلة بنت النيل - مجلة النهضة النسائية - فتاة الشرق - فتاة الغد - الأهرام - ديوان الأهرام.



المؤلف في سطور

تخصص الكاتب الصحفي والكاتب الأديب سمير فراج «ابن الشاطئ» في الغوص في دروب التاريخ بحثاً عن الحقيقة التاريخية والطفو بها على الشاطئ لصالح القراء الأعزاء وقد نالت مؤلفاته التاريخية الاحترام والتقدير من الجامعات المصرية والعربية مثل هذا التكريم الكبير الذي ناله في جامعة المنصورة عام ١٩٩٢ تحت عنوان «المبدع سمير فراج» فن كتابة التاريخ الحديث بمنهج جديد .. وبالإضافة إلى شهادات التقدير المتعددة من كافة الجهات الثقافية والأدبية في مصر والعالم العربي وهو مرشح لنيل جائزة الدولة التقديرية بالإضافة أيضاً لترشحه لنيل بعض الجوائز العربية من الجهات والمراكز الأدبية في قصور الثقافة المصرية والمؤلف من مواليد دمياط المدينة التاريخية العريقة والتي أنجبت العديد من الرموز من المشاهير الكبار أمثال الدكتور علي مصطفى مشرفة والدكتور زكي نجيب محمود والدكتور عبدالرحمن بدوي والدكتور محمود حافظ والدكتورة بنت الشاطئ وهو أيضاً عضو باتحاد كتاب مصر واتحاد كتاب العالم العربي والعديد من الجهات الثقافية والأدبية والاجتماعية، ومحاضر مركزي بوزارة الثقافة المصرية، وصاحب قلم شهير ومعروف في الأوساط الصحفية بمصر والعالم العربي تقترب مؤلفاته من المائة كتاب في كافة فروع المعرفة وتحظى باهتمام هائل من القراء، ومن أبرز مؤلفاته موسوعة الحضارة الإسلامية، أجزاء، وموسوعة التاريخ الملكي في مصر، بداية من «الملكة فريدة ثائرة على عرش فاروق» منذ أكثر من ربع قرن.

وهو نجل الكاتب الصحفي الكبير الراحل والأديب والشاعر ورجل العلم والدين المرحوم الأستاذ طاهر محمد فراج، وحفيد العالم الجليل الراحل الشيخ محمد فراج وهما من أصحاب المكانة الرفيعة في دمياط، وتعتبر مقالته في جريدة الندوة عام ١٩٧٥م من القرن الماضي: ماذا بعد حريق المسجد الأقصى؟ على صفحتين متقابلتين من أهم مقالات الكتّاب العرب ونال عنها تقديرًا خاصاً من المغفور له الملك خالد ملك السعودية.

يعتبر من كبار كتاب الثورة المصرية الحديثة في ٢٥ يناير ٢٠١١م حيث نشرت له صفحات عديدة واحدة من أكبر الصحف المصرية المعارضة والمستقلة وهي جريدة صوت الأمة، وكلها تبرز الفساد الذي كان قبل الثورة، كما استضافته الفضائيات المختلفة للحديث عن الثورة وأجراها التي تحققت، وكذلك إخفاقاتها بغير قصد، كما شارك في العديد من المؤتمرات الثقافية والسياسية على مستوى مصر والعالم العربي كمحاضر يحظى بسمعة الطيبة في أوساط المجتمع السياسي والصحفي والأدبي والثقافي.

أهم ما يفكر فيه جلياً عند صدور مؤلفاته هو حديث النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

الفهرس

- ٥ ١- الإهداء
- ٩ ٢- المقدمة
- ٢٧ ٣- قبل أن تقرأ
- ٣٣ - حكاية مرسي مع حريم السلطان
- ٣٥ - حريم السلطان في العالم العربي من الواقع التاريخي إلى الدراما التلفزيونية
- ٨٣ ٤- الجواري الباب الأول
- الجواري يملكن أزمة العرب، وسائل الفتنة، الجمال، التجميل، وصف
 الجاحظ للجواري وتأثيرهن، أدب الجواري، شعر الجواري، غناء
 الجواري غلبة الجواري على قلوب العرب، الجواري في عهد المهدي
 والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتمد والمتوكل.
- نفوذ الجواري، الهادي والخيزران، ذات الخال وهويه، حديث الجاحظ
 عن نفوذ الجواري، الجواري عيون الخلفاء، يعقوب بن داود والمهدي.
 الجواري يتجسسن للمأمون. رقابة الجواري. أمومة الجواري، الجواري
 في الأندلس، قمر، الناصر وجواريه، الزهراء، قصر الزهراء، صبح، شعر
 ملوك الأندلس في الجواري، المعتمد وجواريه، اعتماد، الجواري المدنيات
 في الأندلس، بنو الأغلب، الجواري في العصر الفاطمي.
- ١٤٩ ٥- الحرملك .. أسرار وإهام الباب الثاني
- الحرملك عالم يكتفه الغموض وتلفه الأسرار والحكايات المرأة هي الأهم
 .. والقيمة الأشم!
- حوا: أنا يا آدمي أنا من ضلوعك ... قد خرجت وأنت مني تُولد
 أم الحياة أنا، أنا امرأة، أنا في الأرض سيدة وأنت السيد إن كنت إنساناً
 فإنسان أنا ... لا أنت تُعبد أو أنا أُستعبدُ الفنانون الأوروبيون استبعدوا
 «الرجل الشرقي من لوحاتهم» انتقاماً من غيرته على حريمه!
- دخل الرسامون والمكتشفون الأوروبيون إلى هذا العالم الشرقي حيث
 البلاط والقصور، فصوروا سحره المخبوء في أعماقه والذي لم يره الشرقي

نفسه..! وفي عام ١٣٠٨م تأسست الدولة العثمانية فشكّلت تهديداً لأوروبا وبدأ هذا العالم الشرقي القادم بقوة مخيفاً وبعد حين تحول إلى مصدر فضول. وسجلوا بلوحاتهم أسرار الحرمك وحريم السلطان وخباياه.

البداية عثمانية .. كانت صورة مصغرة لما كان عليه الحريم السلطاني في الدولة العثمانية لأن حكام مصر حتى مقدم محمد علي باشا كانوا من الأتراك العثمانيين الذين أشربوا التقاليد العثمانية لحاكمين لها نيابة عن السلطان العثماني وتشبهوا بسادتهم السلاطين ومن بينهم الحريم..!

«حرمك على الطريقة المصرية» الجارية يجب ألا تبدو جميلة أمام سيدها بأمر الزوجة والأم ورئيسة الجوارى! الأطفال درع الحريم في مواجهة الضرة، الجوارى والرقيق، محمد علي نفى «الغوازي» خارج القاهرة! الاعتقاد في الخرافات، طراز المنازل بمصر والمشريات .. الرجل الشرقي .. تجاهل متعمد .. كأن إغفاله من اللوحات وإحلال الرقيق والأغوات محله بمثابة استبعاد رمزي أو فكري! نظام الحريم ساد فترة طويلة من الزمن سلب المرأة إنسانيتها وأحالتها إلى متاع في أواخر القرن التاسع عشر بدأ نظام الحريم ينهار في مصر..

حكاية مسجد صفية!

عالم الجوارى مليء بالأسرار والمكائد .. ساحته كانت قصور الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء.

٦- سياسة . سلطة .. جنس الباب الثالث ١٦٥

السياسة هي فن الممكن وكل ما تنطوي عليه هذه الجملة مباح ومشروع حتى وإن اصطدم بالأخلاق والمبادئ!

أي نظام سياسي يعرف جيداً أنه لا يشينه استخدام لبعض الأعمال القدرة لتحقيق أهداف أو نتائج مطلوبة!

على سبيل المثال : تعتمد الأجهزة الأمنية السيادية في تنفيذ بعض عملياتها على المال و الجنس والنساء لجمع المعلومات باستخدام سلاح الإغراء..!

ونجح «الموساد» في استغلال المناخ السائد في فترة «الستينيات» وتمكن من

اختراق بعض الشخصيات القيادية وهذا ما أدى في النهاية وساعد على نكسة ١٩٦٧ المريعة وكثيراً ما تتسبب النساء من حريم الحاكم وأعوانه على هزائم غير متوقعة! وقد رأينا كيف استطاعت الوكالة اليهودية تجنيد الممثلة «كاميليا» لتحصل على المعلومات الخطيرة من الملك فاروق، وهي يهودية الأصل كما أشارت الروايات وقد أصبحت من أبرز عشيقات فاروق وكان طريقها مفتوحاً إلى حجرة نوم الملك ونستطيع أن نلمح أدواراً لفنانات جاسوسات في بلدان العالم الأخرى مثل الممثلة العالمية الشهيرة «جريتاجاربو»!

لكن حكايات حريم السلطان والنساء في مصر والعالم العربي تبدو كثيرة وأبرزها حكاية المطربة ذات الصوت الملائكي «أسمهان»!... وراقصة الزعماء والشعراء «حكمت فهمي»!...

٧- السلطة والرغبة الباب الرابع ٢١٣

كان نابليون يقول: فتش عن المرأة في كواليس الحكم وفي السجون .. وفي الواقع تعكس هذه الكلمات الحقيقة كاملة التي فرضت نفسها على التاريخ الإنساني كله!...

عندما يتحول رجل الدولة إلى العوبة في يد امرأة مدربة تجيد تماماً لعبة الجنس والسلطة، فهي تمنح الجنس ثمناً للسلطة والرغبة!...

وتتعرف في هذا الباب على العديد من القصص والروايات والحكايات في أنحاء العالم خاصة في الشرق والغرب التي تبرز كيف يتحول السلطان إلى قطعة شطرنج أمام الرغبة حقائق كثيرة ومثيرة عن العلاقات الغرامية لرجال الحكم .. واعتمدت أجهزة المخابرات في العالم كله على سلاح الجنس والرغبة في اصطيد الضحايا!...

على سبيل المثال: أدرك «هتلر» بذكائه وخبرته «ما للمرأة» من تأثير جنسي فعال في عالم الجاسوسية!... أليس هو القائل: «إن المرأة الألمانية أنفع بكثير من الرجال في عالم التجسس، إنني شديد الإعجاب بذكائهن وخططهن النسائية نظراً لتفوقهن بسلاح الإغراء وقدرتهن الهائلة على وضع الطعم القاتل للضحية في جوهادهي»!

عندما تكون السلطة ثمناً للجنس! .. الفضائح الجنسية لأمرأء التاج البريطاني ليلة جنس واحدة بين مارلين مونرو والرئيس الأمريكي جون كينيدي، زوجة نابليون الثالث إمبراطور فرنسا تذيقة العذاب كله! وراء كل رجل عظيم حب امرأة ناضجة .. ووراء كل امرأة ناضجة حب رجل ناضج، كيف تستطيع المرأة أن تكون عوناً على نجاح زوجها «نظرة عميقة لدور المرأة» النساء يحكمن العالم ..! من كليوباترا إلى «إيزابيلا بيرون» .. الجنس في خدمة السلطة!

البعض من النساء يجد طريقة للسلطة من خلال الجسد والرغبة الجنسية .. هتلر وقع في عشق «إيفا براون» حتى انتحرت معه! بابا ندريو في أحضان ديمترا الرائعة الجمال!.. مات بابا ندريو، ولكن طموحات ديمترا لم تمت!.. حفيذة موسوليني تظهر عارية في الصحف والمجلات .. ثم احتشمت بعد ذلك بعد أن دخلت البرلمان .. وكان النواب يتخيلون جسدها العاري!

٨- فساد حريم السلطان في العصر الحديث الباب الخامس ... ٢٧٣

الفساد السياسي والأخلاقي كان الملمح الرئيس لعصر الرئيس المخلوع مبارك، برز دور الديوان في توريد حريم السلطان، للسلطان، ربما للفكاهة، ربما للإحساس بالنشوة ربما للإحساس بالرجولة والشباب على طريقة ليت الشباب يعود يوماً، وأصدرت محكمة الجنايات حكماً تاريخياً بحبس زكريا عزمي رئيس هذا الديوان «السابق» سبع سنوات سجن وتغريمه وزوجته ٧٢ مليون جنيه مصري، أما ما لم يحاكم عنه زكريا عزمي فهو دوره في صناعة حريم السلطان واستخدامهن للتخلص من خصومه - خصوم السلطان وغيره من المسؤولين وأبرزهم المشير أبو غزالة وأسامة الباز، ودور رئيس الديوان في استخدام الحقنة إياها بالثلاثين ألف دولار المنشطة لحيوية مبارك!

وتراقصت علامات استفهام كثيرة بشأن دور زكريا عزمي هذا! هل كان وراء زواج الفنانة نبيلة عبيد والدكتور أسامة الباز للتخلص منه؟!

وهل له دوره في قتل المطربة ذكرى؟

وهل له دوره في مقتل المطربة سوزان تميم؟

وهل له دوره في حكايات علاء وجمال مبارك مع نجمة الاستعراض
الفنانة شريهان؟

وهل هو الذي سعى لشائعة زواج الرئيس المخلوع والمطربة الوقور إيمان
الطوخي؟

وما هو بالضبط حجم ثروات زوجات رجال حكم مبارك - التي هي
ثروات مجهولة للآن!

«وراء كل فاسد .. هانم» .. الأرصداء والزوجات من حريم السلطان في
هواء الحرية الطلق - والأزواج من كبار المسؤولين داخل السجون في
زنازين ضيقة؟!

ليلي الطرابلسي في تونس تحولت من مصففة شعر إلى سيدة تونس الأولى!
أحاطت بوزير الدفاع بعدما كشف فساد عائلتها - وأسرار سيطرة ليلي
الجن وأسرتها على تونس، بعدما أصبحت ليلي حاكمة قرطاج!

جندتها المخابرات التونسية للتقرب من أصدقاء القذافي!

الصراع بين الرئيس وأبرز حريم السلطان في تونس!

عندما قال الرئيس لعائلة زوجته:

اسرقوا ..! لكن المشكلة أن الناس كشفاكم ..!!

٩- عالم حريم السلطان الأكثر إثارة ..! الباب السادس ... ٢٩٩

لوسي أرتين في مصر ..

لبنى وصوفيا في المغرب ..

كريستين كيلر في إنجلترا ..

وحكايتهم مع رجال الأمن العام الكبار ووزراء الحرب العظام.

يستطيع القارئ العزيز أن يدرك ويعرف تماماً أن المرأة الحسنة المثيرة في
أنوثتها لعبت دوراً أو أدواراً مختلفة بين قيامها بالتجسس والارتقاء في
أحضان كبار المسؤولين من وزراء وقادة للدفاع والأمن العام الكبار
من أبرز حريم السلطان هنا وهناك في الغرب كريستين كيلر الغانية

اللعوب ولوسي أرتين في مصر الشائعات والوقائع ربطت بينهما وبين وزير الحرب البريطاني «جون برفيمو» ووزير الدفاع المصري المشير عبدالحليم أبو غزالة» الذي اتهم ظلماً بشائعات رخيصة من نظام مبارك المخلوع ورئيس ديوانه زكريا عزمي لقد امتزجت الفضائح بالحقائق والأكاذيب أحياناً .. وكشفت عن الفساد والفاستدين فقد أطاحت فتاة الليل اللعوب كريستين كيلر بوزير الحرب البريطاني وقادت في النهاية الأمور إلى استقالة حكومة هارولد ماكميلان رئيس الوزراء ودفعت حزب المحافظين لسنوات طويلة في الظل!

كذلك أنهت لوسي أرتين في مصر على كبرياء وكيان شخصيات كبيرة في الأمن العام..!

وارتبطت بشائعات كثيرة مع آخرين أبرزهم وزير الدفاع الأسبق كما بينا المشير أبو غزالة.

كذلك نصبت فتيات الليل في الجامعة أدواراً خطيرة مع رئيس الأمن العام في «المغرب»، حريم السلطان يفعلن الكثير ويقدمن الفضائح في أحضان الزعماء والرؤساء والقادة العسكريين والأمنيين في الدول كلها ومنذ أقدم عصور التاريخ..!

- | | |
|-----|--------------------------|
| ٣٣٧ | ١٠- ملحق الصور |
| ٣٥٧ | ١١- المراجع |
| ٣٦١ | ١٢- المؤلف في سطور |
| ٣٦٣ | ١٣- الفهرس |

تم بحمد الله

اللعبوب ولوسى أرّتين فى مصر الشائعات والوقائع ربطت بينهما وبين وزير الحرب البريطاني «جون برفيمو» ووزير الدفاع المصري المشير عبدالحليم أبو غزالة» الذي اتهم ظلماً بشائعات رخيصة من نظام مبارك المخلوع ورئيس ديوانه زكريا عزمي لقد امتزجت الفضائح بالحقائق والأكاذيب أحياناً .. وكشفت عن الفساد والفاستدين فقد أطاحت فتاة الليل اللعبوب كريستين كيلر بوزير الحرب البريطاني وقادت فى النهاية الأمور إلى استقالة حكومة هارولد ماكميلان رئيس الوزراء ودفعت حزب المحافظين لسنوات طويلة فى الظل!

كذلك أنهت لوسى أرّتين فى مصر على كبرياء وكيان شخصيات كبيرة فى الأمن العام!..

وارتبطت بشائعات كثيرة مع آخرين أبرزهم وزير الدفاع الأسبق كما بينا المشير أبو غزالة.

كذلك نصبت فتيات الليل فى الجامعة أدواراً خطيرة مع رئيس الأمن العام فى «المغرب»، حريم السلطان يفعلن الكثير ويقدمن الفضائح فى أحضان الزعماء والرؤساء والقادة العسكريين والأمنيين فى الدول كلها ومنذ أقدم عصور التاريخ!..

- | | |
|-----|--------------------------|
| ٣٣٧ | ١٠- ملحق الصور |
| ٣٥٧ | ١١- المراجع |
| ٣٦١ | ١٢- المؤلف فى سطور |
| ٣٦٣ | ١٣- الفهرس |

تم بحمد الله

حريم السلطان

التاريخ حافل بحكايات وروايات وقصص الجواري والغواني وحريم السلطان للقادة والملوك والرؤساء والزعماء والشعراء والأدباء وغيرهم من أصحاب السلطة والجاه والشهرة ليس في عالمنا العربي فقط وإنما في الدنيا بأكملها منذ خلق الله عز وجل آدم وحواء ..!

وهذا الكتاب الموسوعة عن " حريم السلطان " الذي بين يديك هو وثيقة هامة من أعماق التاريخ استدعينا أحداثها بموضوعية وأمانة بعد البحث والتنقيب ، لنضعها هنا أمامك عزيزي القارئ وكان لحريم السلطان كل السلطة والنفوذ على هؤلاء المشاهير بل كان للنساء من هذه النماذج ما يظهر المناخ السياسي بصفة خاصة في تلك الفترات من التاريخ بالفساد الكامل والمطلق ، وكانت أيضا سياسة الغواني هي التي تحققت في نهاية الأمر كل مطامع الاستعمار القديم والحديث في العالم بأسره وليس في عالمنا العربي فقط ولقد أدرك الزعيم الألماني " أدولف هتلر " هذه الحقيقة جيدا " بل إنه هو نفسه وقع في عشق " إيفا براون " التي لازمته وكان لها تأثير عليه حتى انتحرت معه قبيل ساعات من انهيار الرايخ الثالث وهزيمة ألمانيا ..!

وأمامنا نموذج مثير وخطير في تاريخ الإمبراطورية العثمانية والدور البارز في مسلسل " حريم السلطان " ومواقف السلطنة " هويام .. أوركسلانا " تاريخا ودراما تليفزيونية تعرف عليها عالمنا العربي أخيرا على شاشات التلفاز وكيف كان الصراع في الحرملك وحياة الجواري والسيطرة على عواطف وقلب وعقل السلطان سليمان القانوني .. كذلك فإنه يقتل الوزير الأعظم إبراهيم باشا وابنه ولي عهده (مصطفى) في إطار عشقه وغرامه لهيامه بالسلطنة روكسلانا .. التي هي هويام في الدراما التليفزيونية المثيرة وأيضا فورا كل زعيم أو ملك أو رئيس فاسد .. هانم مثل ما رأيناه في الزمن المعاصر من سوزان مبارك ولىلى الطرابلسي ..!

